



مؤلفات مارون عبّود

المجموعة الكاملة

الأقاصيص

المجلد السابع

دار مارون عبّود

مؤلفات مارون عيسى المجموعة الكاملة

الاقاصيص

المجلد السابع

يحتوي هذا المجلد على :

أحاديث القرية
وجوه وحكايات
اقزام جبارة

دار مارون عيسى



1972 - 1997

مؤلفات ماروت عبود

المجموعة الكاملة

الأول : في الدراسة

أدب العرب - الرؤوس

الثاني : رواد النهضة الحديثة - الشعر العامي - جدد وقدماء

الثالث : النقد الاجتماعي

سبل ومناهج - حبر على ورق - آخر حبر

الرابع : النقد الأدبي

على الملأ - مجدنون ومجتنون - في المختبر

الخامس : دمعس وأرجوان - نقداً عابراً - على الطائر

السادس : في النخلة

فارس آغا - الأمير الأحمر

السابع : في الأقصوصة

أحاديث القرية - وجوه وحكايات - أقزام جبابرة

الثامن : في النقد السياسي

من الجراب - قبل انفجار البركان - أشباح ورموز -

مناوشات

الطابع : التراجم

أحمد فارس الشدياق (صقر لبنان)
أبو العلاء الممرى (زوينة الدهور)
بديع الزمان الهمداني
أمين الريحاني

الطابع : رسائل وأحاديث صحفية

تحت الطبع

الحادي عشر :

تقديم

لمست من قراء الأدب العربي ، ولا سيما التلاميذ والطلاب ، إقبالاً مرموقاً على مطالعة مؤلفات مارون عبود، ما برح في ازدياد مطّرد . وصارحتي بعضهم بأن القارئ المدقق يجد متعة خاصة في الأدب اللبناني القروي المطبوع بالعفوية واللون المحلي ، إلا أنه يمجّز عن فهم بعض كلمات عامية أو منحوتة من الفصحى بالأسلوب العامي الظريف ، فأليت على نفسي أن أزيل هذه الصعوبة بشرح هذه الكلمات في الهوامش ، مع العلم أن بعضها عامي صرف ، والبعض الآخر فصيح منسيّ لم يدرج على أقلام أدباء هذا العصر، وفيها كلها من الرونق ما يضفي على أدب مارون عبود جمالاً خاصاً تميز به من جميع أدباء هذا العصر .

نظير عبود

القِسْمُ الْأَوَّلُ

أَحَادِيثُ الْفَرِيَّةِ

أَقاصيصُ وذكرايت

بَابَانُونِيل

أول ما يواجهاك في ذلك البيت العتيق فراش ممدود حـد صندوق
دهري أطول منه . صندوق ألبسته الأيدي التي تعاورته^١ ثوباً دسماً
فتنكر تحته خشبه . في خواصر ذلك البيت اللبناي القائم سقفه على
ثلاث قناطر ، دقت أوتاد هنا وهناك ، كانت هي « البورتشابو » في
ذلك الزمان .

أما أروع ما في صدر ذلك البيت ، فرفّ خشبي وضِعت عليه
قوارير فخّارية مختلفة الأشكال ، وشماعدين وثريات للشموع البيضاء
والصفراء ، وسيرج وقناديل تضاء أمام صور وأيقونات وصلبان ومسابيح
تكاد تشغل مساحة لا تقل عن أربعة أذرع طولاً في أربعة عرضاً ، فيخال
الداخل الى ذلك البيت أنه أمام مذبح لا ينقصه إلا « بيت الجسد »^٢ .

وكان مندرساً في ذلك الفراش هيكل بشري ما فيه إلا العظم والروح
والجلد . أخذت الأيام من عرض أكتافه فدق واستطال . وأما لحيه ذلك
العملاق ، فظلت محافظة على أبهتها ولم تخسر منها إلا مقداراً زهيداً لا
١ - تناقلته الأيدي ولاسته تكراراً .

٢ - مكان صغير في الكنيسة يحفظ فيه الخبز المكرس ، أي القربان المقدس .

ينقص من مهابة الشدياق ولا يحط من قدرها .

عمر الشدياق اسطفان كثيراً ، فعزا العوام طول حياته الى عفّته ، فمنهم من يؤكد أنه ما اشتهى امرأة قط ، ومنهم من ترّفه عن ذلك تنزيهاً . ولولا زجر الخوري للفلاة لقالوا : أنه حبل به ايضاً بلا دنس .

وكانت امرأة طاعنة في السن من نساء القرية تنظر الى زوجها الشيخ وتصرّ شفتيها وتسكت كلما سمعت ما يقول الناس عن الشدياق ، ولا تزيد على القول : أعرفه عندما كنا وليدات نرعى المواشي .

وفي ليلة عيد الميلاد سنة الف وثمانئة و .. كان الشدياق اسطفان قد فات التسعين ، فتعامل في فراشه بعد ظهر ذلك النهار . وتنبّهت ابنة أخيه مرثا الى هممته ، فهي تنتظر الساعة ، والانتظار صعب ، فمغمغ قائلاً : مرثا ، هاتي اسقينا .

وأخذ الابريق بيديه الثنتين ، ومع ذلك لم يحكم توجيه أنبوبة الى الهدف فشرب هو واللحاف ... ولما ابطأ لهائه تنهّد وقال : سامع حس ناس . من عندنا يا مرثا ؟

— عندنا متّى يا جدي .

— متاه ، كيف الطقس ؟

— الشمس مريضة يا عمي ، ولكن النهار دافي جداً .

— وهذا الذي جاء من اميركا ، أيش خبر عن الغائبين ؟

— الليلة يسهر عندك مع الضيعة .

١ زجره : نهاء صائعاً به .

- اهلا وسهلا ، سمعت يا مرثا ؟

- نعم سأمعة .. النقل حاضر .

وأخذ الشدياق ينسحب من تحت لحافه رويداً رويداً ، وبعد جهد
قعد في فراشه فبدا ، حين تكوّم ، كأنه كرسي عمود في قلعة متهدمة .
وأراد النهوض فعجز ، ولكنه تماسك وأبتدأ يصلي وهو يحاول شدّ
صرمايته التي لم يرق لها ان ينتعلها . وظل يعالجها ويتلو صلاته بجرارة ،
حتى استظهر عليها ، فمشى إذ ذاك يحرق رجله كأنها ليستا منه .
ولولا تقوس ظهره لخلته مارداً أفلت من قماقم^١ سيدنا سليمان : لحية
بيضاء كأنها صوف فروة عتيقة ، أصبحت خصلها جدائل لما بينها وبين
المشط من عداوة . فهي بنت عم لحية الشنفرى^٢ لحاً ، وإذا ارتفع نظرك
عنها قليلا وقع على حاجبين كأنها رفرف فوق انف مروس معقوف
كمنقار نسر .

كان ملبوس الشدايقة غنباراً أسود مقلماً ، ولكن الهرم النبي اعترى
غنبار الشدياق اسطفان أخذ الكثير من لونه وحلّت محل أقلامه أنهار من
الحواء نمت عن بطانة بيضاء . ومشى الشدياق غير محكم الزنار ، فتجمع
برداه ، عن يمين وعن شمال ، كستار مسرح مفتوح نصف فتحة ، أمّا
الممثلون فقد تواروا واضمحلوا . وما بلغ الباب القبلي حتى انهار على
فروة مدّت له . ثم أخذ يستوي على مهل حتى تمثل بشراً سوياً ، واستند
١ قوارير ، يقال ان النبي سليمان كان يسجن فيها العمالقة .

٢ افتخر الشاعر الجاهلي الشنفرى بتلبد شعره لقة غسلة ، فجعل المؤلف
لحية « شدياقه » شبيهة بهذا الشعر .

الى حائط البيت رازحاً تحت اثقال التسعين التي تغطت بصلبها وناءت
بكللكها على منكبيه .

ونظر الى الطبيعة بعينين جفت ماويتها فرآها صفراء مغبرة
فقال : عجيب ! كيف اصفرت الدنيا ، ما كانت هكذا منذ ايام . وحك
صلعته كمن يشغل باله أمر خطير ، وأطرق لإطرافه طويلة . ورفع
رأسه فإذا بدمعة تخرج في ثلم من وجنته لتنهال عند مدخل لحيته .
وطفق الشدياق يجهش ثم تعالى بكأوه فلفت أنظار العابرين والعابرات .
وشاع في القرية أن الشدياق اسطفان يبكي ، وهو من لم يرقط باحكياً
فتضاربت في ذلك اقوالهم .

رأى الشمس جانحة لتتوارى خلف الجبل فانتحب . أدرك انه الى
ما تصير اليه صائر ، فراح يناجي نفسه : هي تغيب وتشرق ، اما انت
يا اسطفان فالى ظلمة القبر . لا شروق ولا غروب . إنه يضيق صدره
وهو في فراشه اللين فكيف به متى وسدوه التراب ؟ إنه يبرد وهو نائم
حد الموقدة فكيف به متى نام في قلب الارض حيث يبقى في ظل الموت
الى الابد ؟

ورأى نصف قرص الشمس قد أوشك أن يتوارى خلف الجبل
فارسل زفرة حرى . وأخذ يتجملح ليعود الى مرقدته قبل ان يختفي
كانون الله ويقرصه البرد .

وما ذكر الله والعنراء حتى عاد اليه ايمانه بالخلود والحياة الأبدية ،
فتشدد ونسي البكاء .

ذكر أن المسيحي الصالح لا يموت بل ينتقل من وادي البكاء والدموع

إلى دار النعيم حيث يتمتع برؤية الله وجهاً لوجه .
ثم عاودته نوبة الشك فانخرط في البكاء وقال : هل بعد الشقا بقا ...
ترى نعيش ليوم عيدك يا مار مارون ؟ .. آه يا حبيب القلب ! نلتقي
يا ترى في الحذر^١ السماوي ؟ من يعلم .. وبيننا هو غارق في تلك الظلمة، سمع
صوت امرأة تناديه : اسطفان ، ضيعت إيمانك بالحياة الأبدية !
فتلفت فلم تقع عينه على أحد ، فقال في قلبه : مؤكد ، هنّي العضرا
مريم ، من يقول لي هذا غيرها؟ ثم التفت وخاطبها كأنه يراها : لا تؤاخذيني
يا ستي السيدة . الآخرة مخيفة ، والموت يفرّغ . عندي معي ، ابنك
يسوع بكى في البستان^٢ . أنا متكل عليك يا حبيبتى . تعبنا وشقينا
حتى نرى وجهك الحلو . لا تخيّبينا .
وخاف الشدياق أن يعتب عليه الله فاستوى ما استطاع ماداً بصره
إلى فوق وقال يناجيه بأعلى صوته :
- يا صاحب الخيمة العالية ، يا من تعيش في النعيم ، ويمجدك
الكارويم والसारوفيم^٣ ، ماذا عندك للشدياق اسطفان الذي قضى حياته
متبتلاً ؟ هل تحاسبه على كل هفوة ؟ ألا تتساهل معه ؟ ألا تدخله أخدارك
السماوية بعد أن عاش تسعين سنة تحت مظلتك الكبرى لا يهمه إلا
طاعتك ؟

-
- ١ - غرفة المروس ، وهنا مكان الراحة والسعادة الأبدية .
 - ٢ - بستان الزيتون في القدس ، حيث صلي السيد المسيح . وعرق دماً
عشية صلبه .
 - ٣ - فتتان من الملائكة .

إرحمني يا الله كعظيم رحمتك . ما أربع ساعة الميعاد يا الله ! قلبي يدق ، أنا خائف جداً . شددني يا الله . الشيطان يحربني دائماً . أينما رحلت أراه حاضراً . تف له . ما أبشع وجهه ، وذنبه وقرونه . وتذكر الشدياق انه أمس فراح يرتل ، وهو ماش ، الميمر^١ السرياني : برمشو صليبوخ روشيمنو على هادوماي^٢ .. الخ .

وكان متى ومرثا قد أضرموا النار في الموقد فحمي البيت ، وارتمى الشيخ ليتربع قرب النار .

شيخ منو^٣ دل ، ينوس كرقاص الساعة . نسي الشك والفرع حين تدفأ . ولذعته النار قليلاً فتجهت وجهه وانقبض ، كأنه رأى في الموقد نار جهنم . تذكر عواقبه الأربع^٤ فارتاع وانكش . وعلا اللهب فخال انه يرى من خلاله شبائيك الجنة مفتوحة مضاعة . فتهلل وتذكر عليقة موسى^٥ التي اشتعلت ولم تحترق .. فانحرف فكره عن نيران الجحيم . اذن في النار ذكريات طيبة للمؤمنين . فما باله ، وهو الرجل الصالح الذي راض نفسه على الفضائل المسيحية ، يفكر هذه الأفكار السوداء ؟

-
- ١ - نشيد كنسي ماروني .
 - ٢ - صليبك مساء يسم جسمي ...
 - ٣ - معصوب بمنديل .
 - ٤ - الموت والدينونة والنعم والجحيم .
 - ٥ - العليقة التي ظهر فيها الرب لموسى بصورة شعة على جبل حوريب سفر الخروج ٣ : ١ - ٦ .

لا شك في أن إبليس يجرب به ليقطع أمله ويتزعزع إيمانه في أخريات حياته ، فصلب على وجهه مرات وخرج من جو تلك الأفكار التي خاف منها ، وصاح : مرتا بخري الصورة .

فنهضت مرتا بمجمرتها ، تبخر الصورة فملأت رائحة البخور الجوري البيت ، فتنشقه الشدياق وهو يهتف : إخايه ! صار كصوفي أسكرته المشاهدة ، حتى خيل إليه انه يرى في دخان المبخرة الصاعد سلماً مثل سلم يعقوب^٢ يرتقي إلى سموات ذي العرش ، فاخذ برتل بصوت رخيم لا ارتجاف فيه ولا اهتزاز ، كأنه ابن أربعة عشر :

أنت الشفيع الأكرم عند ابنك يا مريم

وما انتهى من انشاد هذه المديحة حتى صرخ : يا بنت ! بخرت

صورة مار مارون ؟

وبخرت البنت ورتل هو : لك شرف مفرد كبدر الضيا .. وأوما إلى متى فشاركه في ترتيلته التي لم يصرم حبلاً إلا الفواق^٤ . وما أرفض^٥ موكب صلاته الحافل ، حتى عاد إلى قعدة الأربعاء^٣ وهو يقول : ترى يكون لنا حظ ونسمع تهليل الساروفيم ، ونرى الراكب على الكاروبيم !

١ - وعاء يوضع فيه الجمر لحرق البخور .

٢ - مشاهدة الله والانجذاب إليه في الاختبار الصوفي .

٣ - السلم الذي رآه يعقوب في منامه منتصباً بين الأرض والسماء وهو في طريقه إلى حاران . سفر التكوين (٢٨ : ١٠ - ٢٢) .

٤ - خروج النفس من الجسد .

٥ - جلس القرفصاء .

ما أحلى هاتيك الساعة . قريباً نلتقي يا مار مارون .
وقدّمت له مرّتا العشاء ، وفيه ما تحرّمه الكنيسة في صوم الميلاد -
وهو ابن تسعين يحل له أكل كل طعام - فكف عنه يده ونفسه تشتهيّه .
لم ياكل إلا بضع حبّات من الزيتون ورأس ثوم شواه . ولماذا الأكل ،
أليحرم الأجر ؟ غداً ناكل إن شاء الله اللحوم والألبان . فديوك الميلاد
تغلي على النار ، وتغني في القدور ؛ كأنها جوقة ترتل : المجد لله في العلا .
وقال لمرّتا وهي ترفع الصينية : غداً ناكل مع الضيعة من طعام العيد .
فمنذ صار الشدياق ذلك الشيخ الجليل الذي تقبل الناس يده ويلتمسون
دعائه وبركته ، أخذ يدعو أهل الضيعة الى مادبة الميلاد التي يعدّها لهم
كل عام .

وعاد الشدياق الى فراشه واحتبى بلحافه ، ووفدت أهالي الضيعة
عليه . المسنون يمسون بالخير نصف ساجدين . تنحدر ايديهم من قمم
رؤوسهم لتستقر على ساحات صدورهم الرحبة . والصغار ينكبون على
يديه يقبلونهما ، سيّان عندهم اليمنى أو اليسرى . وجلس الناس سطوراً
سطوراً حوله وبين يديه ، وطغت على البيت رائحة منبعثة من مصابيح
الزيت المطفأة ، فأخذ بخناق الشيخ سعال ديكبي ، ولو لم يسرع أحدهم
إلى فتح الأبواب لكان فطس وذهب مأسوفاً على شبابه ...

وماد البيت سكوت رهيب ، لم يكن يسمع صوت ثابس . فكان
الناس في صحراء ، لا أنيس فيها ولا جليس . الجميع يتطلعون الى
الشدياق بعيون مفتحة ، والشدياق يحرك شفّتيه الراقصتين ، يتمتم ولا

١ - جلس جاعلاً قدميه تحته .

يبين . وأخيراً إنشقَّ فمه وخرجت منه هذه الكلمات : هذه ليلة مباركة يا إخوتي ، فيها ولد سيدنا يسوع المسيح بمزود البقر ليعلمنا التواضع . علينا أن نولد مثله كل سنة ، لأنه ، لإسمه السجود ، قال : الذي لا يرجع إلى بطن أمه ويولد ثانية لا يستحقني . والولادة الثانية معناتها ان ينظف الإنسان نفسه وجسده حتى يعود طاهراً تقياً كالولود جديداً .

فهزَّ الرجال رؤوسهم إعجاباً ، وتنهَّدت العجائز متأسفات . على مواهب الشدياق كيف ضاعت ولم يصِرْ كاهناً .

أما خوري الضيعة فكان يؤمن بأعجاب على كل ما قاله الشدياق ، ويتحسّر في قلبه على قيروط من مثل فصاحته النادرة .. ثم يقول للذين حوله : هذا رجل قديس ، المثل الصالح أبلغ واعظ ، وشدياقنا طاهر تقي مثل الآباء الأبرار .

وقبل أن يتوغّل الشدياق في موعظته دخل المغترب الخواجه توما . فهمس بعضهم : جا ، جا .

وظل سمع الشدياق صادقاً فسأل : منو جا ؟ فخبّروه . والتفت الشدياق فرآه ، فهتف بلا شعور : بسم الآب والابن والروح القدس . هذا هو . لا ينقصه إلا الذنب .

وتقدّم منه الخواجه توما بزيّه الفرنجي الذي لم تر الضيعة مثله من قبل ، لأنه أول من هاجر وعاد ، فسكاد الشدياق يتراجع لو استطاع ، ولكن الجدار خلفه .. وسلم توما سلام الأميركان فكاد يخلع يد الشدياق الهزيلة . لم يرق للشدياق ذلك السلام الخارج عن حظيرة الاحترام التي

١ - من جاء .

اقامتھا القرية حول شدياقھا ، ولكن كل شيء مرّ بسلام . وقعد المستر
توما قعدة بلادنا ، جلس على طرف أحده في صدر الحلقة فتضايق وكاد
بنطلونه ينشق ، فقام ابن عم له وبنى له مقعداً من المساند والمخدّات ،
والشدياق ينظر وقد غاظه خروج المساند من صفّها . ولا سيّما ان
الخواجه توما جلس ولم يحتفِ كالآخرين . ما خلع نعليه حين داس
البلاس الذي يصلي عليه الشدياق ويقبّله مرات حين يسجد . وزادت في
الطين بلة ، حركات توما الغريبة الدار . لم تعجب الشدياق حركات توما
وسكناته ، وكان يحن حين يسمع منه بعض ألفاظ اميركية مثل : يس ،
وتنكيو ، وفاري كود ، وغود نايت ، وغيرها . ولكنه احتمل ذلك
وهو يتمم : مع آلامك يا يسوع . ما صبر الشدياق هذا الصبر إلا لسمع
من المستر توم اخباراً جديدة بلغته عنه . فقال الشدياق : توماه ،
اية ساعة جئت .

— امس الظهر يا عمي .

فاجاب الشدياق : لا تؤاخذني ، ما قمت بالواجب . عذري واضح
ومقبول .

— يس ، يس ، القصد مشاهدتك . الحمد لله شاهدناك بخير .

— كيف تركت جماعتنا ؟

— الجميع بخير ، يسلمون عليك .

فنكزه واحد ووشوشه : قل ويقبلون أياديك الطاهرة . ففتح
توما فاه ليقولها ، ولكن سبق كان للشدياق الذي قال : وكيف أحوالهم

١ — بساط من شعر .

الروحية والمادية ؟

— بالف خير ، صاروا شبعانين كلهم .
وسكت الشدياق وهزّ برأسه ، وظل يحرك شفّتيه ، ولكنّه لم يقل شيئاً .

وأشار أحدهم على توما ان يخبر الشدياق عن الموارنة ويطريهم
ففعل ، فقال الشدياق : ما داموا متمسكين بمارونيتهم لا خوف عليهم .
— يس ، عندنا كل شيء ، كنائس ، مدارس ، خوارنة ، إذا رأيتهم
حسبت انك في لبنان .
— عال .. عال .

وانقشعت الغمامة عن وجه الشدياق واخذ يتغنّى متهللاً بنشيد مار
مارون الذي يعرفه كل قروي ، فسانده الجمهور في تلك الرحلة الشاقة إلا
توما فكان مثل الأطرش في الزفة .

وما انتهى الشدياق من نشيده حتى فتح توما فمه ليحكى ، فأوما اليه
الشدياق بجمع كفّه أن يمّله لياخذ النفس . واخيراً قال توما : سمعتك
عند وصولي تحكي عن الميسلاد ، آه يا عمي لو عينك تنظر هذه الليلة في
الناريك .. هذي عندنا في الناريك وفي اوروباليلة عظيمة جداً . احسن
الهدايا تقدم للأولاد ، سي ، الأغنياء يعطون الأولاد الفقراء كل شيء ،
الماكولات ، الملبوس ، اللعب . آه لو عينك تنظر يا عمي ، كل بيت يعمل
شجرة تكلفه المبلغ المرقوم ، وفي هذه الشجرة أشكال وألوان . ثم هزّ
توم رأسه وعامت على فمه لفظة فارسي كود الكرسموس في اباركا .
فقال الشدياق : أيش دين هذه الشجرة ؟

— هذه شجرة الكرسموس ، يعني الميلاد . يعلّقون فيها الملائكة
والشموع ، والشريط من كل لون ، علب شوكولا وبسكوت وكاتو .
فقال الشدياق متعجباً : أسامي غريبة ! ولأيش كل هذا ؟ .
— اكراماً للميلاد .

— تبارك اسم سيدنا يسوع المسيح ، واصل خبره لهنالك ؟ اذن في
البلاد التي كنت فيها ناس تعرفه مثل الموارنة ؟
— يس ، يس .. معلوم ، كلهم نصارى يا عمي .
— هذا حد علمي ، عال عال .

— يا ليتك تعرف كيف يتصوّرون الميلاد .
— هات خبرنا ، ولكن قوس جنكك مرتخ . شدّ البراغي واحك .
فضحك المستر توم وقال : تعودت اللفظ الاميركاني . ثم صرّ بوزه
قليلاً وقال : يتصوّرون الميلاد شيخاً كبيراً لحيته لزناره وشواربه شبر
واكثر . يحمل على ظهره كيساً فيه الهدايا للاولاد العاقلين . فينام جميع
اولاد الاميركان تلك الليلة منتظرين هدايا سانت كلوز « بابا نويل » الذي
ينزل الى البيت من المدخنة ... وفي الصباح يكون تحت مخدّة كل ولد
منهم سكريينة جديدة ، فيها ملابس ولعب ، وأشياء وأشياء .

فهزّ الشدياق رأسه وصاح : يه ، يه ، يه ، صار الميلاد يساع
سكريينات ! المسيح الذي قال : من لا يدخل من الباب فهو لص وسارق ،
ينزل من المدخنة ... ما شاء الله عن بلادكم يا ابني . كل شيء فيها ينمسخ .
نعم ، كل شيء ... انت ، مثلاً ، رحت تومسا ورجعت توم وتومي .
وقال باستهزاء : تعرف يا مستر توم ، حكاية الميلاد عندنا غير حكايته في

بلادكم . اسمع يا ابني حتى اخبرك :

— كان في ضيعتنا خوري اسمه الخوري نصر الله . كان متزوجاً وماتت خوريته بلا اولاد . والخورية مثل الصنوبرة ، اذا انقلعت لا تفرخ ، كما تعرف . وهذا الخوري كان من اغنياء الضيعة الكبار ، وليس له اخوة حتى ياخذوا التركة . وهو في الوقت نفسه رجل تقى وعمال خير ، يريد أن يوزع مقتناه على المحتاجين . كان يعظ يوم احد النسبة — اظن ان اميركا نستك احد النسبة — هو الاحد الذي قبل الميلاد — كان يعظ يوم هذا الاحد ويوصي الناس أن يكونوا أتقياء ، ويسيروا بخوف الله لتحلّ عليهم بركة الميلاد . ثم ينتظر عتمة ليلة عيد الميلاد ليحمل كيساً من الدراهم الى عائلة فقيرة ، ولهذا كان يقول لهم ، من يعتقد انه يستحق بركة الميلاد فليردّ بابه رداً . وهكذا كان كل سنة يقصد بيتاً ليترك فيه الكيس لتلك العائلة . وبقي يعمل ذلك سنين . واخيراً عرف الناس أن الخوري هو الذي يحمل اليهم ذلك الكيس ، فصاروا يسلكون سلوكاً حسناً ، ويصلون الى الله لتحلّ عليهم بركته مع هدية الميلاد .

هذه حكاية الميلاد عندنا لا حكاية ميلاد أميركانك الذين صيروا الطفل الإلهي لعبة اولاد . قالوا : ان اميركا فيها جنون كثير فهاصدقت لولا هذي الخبرية .

واندحر المستر توم في هذه المعركة فاراد فتح جبهة ثانية ، فراح يحكي عن جورج واشنطون وتحريره اميركا .

فصاح الشدياق ، وكان صدره قد امتلأ غيظاً : منو هذا جرج شنتن حتى تذكره وتنسى مار مارون ؟ مار مارون حررك من عبودية

الطاغوت^١ . خرفت يا توم ، رجعت إلينا تلفان ، ما فيك شعرة من الموارنة .

وكان الناس يعجبون بحديث المستر توم ولكنه لما احتك بالشدياق سقط من عيونهم . وقال واحد : شخص مثل الشدياق حرام يموت .
ولما تقهر المستر ثانية في معركة الاشخاص ، راح يتحدث عن الاختراعات الحديثة فقال : اليوم اخترعوا آلة تحكي وحدها . مثلاً : حديثنا الليلة ، تلقطه هذه الآلة وتراجعه لنا ساعة نريد .
فلم يزد الشدياق على قوله : الدنيا فيها كذب كثير .

فاستاء توم وحلف للشدياق انه رآها وسمعها ، وكان نوى ان يحضر معه واحدة منها ولكنه جاء على عجل . ثم خبره عن الأوتوموبيل والبالون فاستولت على الشدياق الدهشة وأصابه شيء كالذهول . وفتش عن منفذ فوجده فقال : ربما انها صحيحة وإلا فكيف صعد مار الياس إلى السماء في مركبته النارية ؟

وطاب للسامرين أن يتحدثوا عن الآلة المسماة بالفونوغراف ، والشدياق يسمع ولا يجادل ، وعيون الناس شاخصة إليه . وظلوا مستغربين سكوته العميق حتى رأوه يحل حبوته^٢ ويتمدد ويصيح :
ضعف الضو يا مرثا ؟

ورأى الناس المصباح يزهر كما كان ، ولكن مرثا رفعت الفتيلة ففاض النور ، وبعد هنيهة صاح الشدياق : مرثا الضو ضعيف يا جدي ،

١ - المعتدي الظالم أي الشيطان .

٢ - ما يشتمل به من ثوب أو عمامة ، حل حبوته أي قام وقعد .

مخّطي^١ السراج ، صبّي الزيت .

وجاء دور النقل وأخذ الجمهور يتلّهي بأكل التين المطبّع والزبيب واللوز والجوز . كانوا يلغون ويلغطون ، والشدياق مشغول عنهم في انحلال جسده ، فهو يموت عضواً فعضواً . وكان المستر توم يفيض في التحدث عن عجائب أمريكا والناس يصغون اليه مرتحية أفواههم .
وفي تلك الفترة قال الشدياق بصوت كأنه خارج من قعر بئر :
أين الخوري ؟

فاقترب منه الكاهن ، فقال له : أتت الساعة ، صلوا جميعاً لأجلي ،
صلوا يا أخوتي ، اغفروا لي من أجل المسيح . حلني يا محترم^٢ .
فوقف الخوري على سلاحه منتظراً اللحظة الملائمة واستحال البيت كنيسة . ركم الجميع يصلون ويرتلون طلبية المنازعين ليعاونوا الشدياق على رحيله من هذه الدنيا . وبصوت يكاد لا يسمع رتل الشدياق وعيناه مغمضتان ، النشيد المريمي :

ان قلبي في هوى مريم لم يزل مشغوقاً مغرم
يرجو فرجاً من ثقل الآثام
وانقسم الجمهور جوقتين مرتلين ، وسكت الشدياق ولكنه ظل
يحشّمهم بهزة الرأس :

جرّني علي لقطع الرجا ولم يبق لي قط ملجا
الا مريم حصن الخلاص والنجا

١ - انتزعي الجزء المحترق من فتيلته .

٢ - لقب لرجال الاكليروس الماروني اصطلاح عليه العوام .

زيت الشفا بلسم النقا
يا سعد من في
تمام سعادتنا في الثبوت
هاللويســــــــــــــا

خبر العباد خمر التقى
باب مريم التقى
بعبادتك حتى غوت
ونحظى بالملكوت

ولم ينته النشيد حتى كان الشدياق قد انتهى ، فاستحالت السهرة
ماتماً . وفيما هم يخلعون ثياب الشدياق ليلبسوه الثوب اللائق بمقابلة
القديس بطرس ، عثروا على ورقة فيها وصيته ، فقرأها الكاهن على
الجمهور :

۱۔ یہب مرتا ، بنت ابن اخیہ ، بیتہ وما حوله من ارض وما فیہ من متاع ، بشرط ان تاخذ ابن عمہا متی .

٢ - يلتبس من غبطة البطريرك ان يحقق بعد موته ما حرّمه اياه من حياته فتبنى كنيسة على اسم مار مارون وقد جعل لها وقفاً ضيّعة أخرى بكاملها .

٣ -- يقف ما بقي عنده من عقار على بناء مدرسة لاحداث الضيعة ،
ومن ريعها يدفع راتب المعلم ليدرسهم السريانية والعربية .

وأصبح الناس والشمس مكسوفة والضيعة في عتمة ، فارتفع الشدياق عندهم الى مرتبة الطوباويين^٤ . وفيما هم يأكلون مادة الميلاد التي أعدها لهم الشدياق قال واحد ، والكلام يزاحم الطعام : بعدما رحلت ، تطلعت صوب بيت الشدياق فرأيت الملائكة طالعين نازلين

١ - عبارة طقسية تدل على الفرح العارم .

٢ - القديسون المنعمون بالسعادة الابدية.

من البيت .

وقال جاره : وأنا رأيت كوكباً طلع من البيت وحلّق ثم اختفى
خلف الجبل .

وقالت امرأة : طول الليل ونحن نسمع اغاني وتراويل وصنوج
ونواقيس تدقّ في بيت الشدياق .

وقال الخوري : الشدياق قديس لا شكّ فيه ، فالشمس كُسيّفتْ
مرتين مثل هذا الكسوف : مرة يوم موت سيدنا يسوع المسيح ، ومرة
اليوم ، هنيئاً لنا صار عندنا قديس ، وهو وحده يغلّ لنا ويدر علينا
أكثر من ألف وقف .

١ - صفائح مستديرة من النحاس تضرب احداها بالآخرى للطرب .

الأرملة مارينا

- ١ -

الأرملة « مارينا » من « عين كفاح »^١ . بيتها عليّة مؤلفة من أربع غرف ويهو مسقوف بالقرميد ، والى جانبيه الشمالي والقبلي برّ وقبو . تواجه بوابته كنيسة مار روحانا^٢ المشيّدة على انقصاص برج قديم ، وفي ظلّها تتفيا المقبرة النائم فيها من رقدوا بالرب على رجاء القيامة .

أما عين كفاح فقرية متواضعة ، قائمة على رابية بين الجبال ، تطلّ على البحر من الجهة الشمالية ، حيث يمتد نهر شتوي طويّل متعرج ، تتناوح حوله شماريخ الجبال فتكاد تتصافح ، وتتفكك سلسلة ذلك المنظر الرائع عند جسر المدفون^٣ . وفي الجبال المنتصبة حول عين كفاح مغاور عديدة مفتحة^٤ الأشداق كحناجر المظلومين .. أشهرها مغارة

١ - قرية في بلاد جبيل ، (مسقط رأس المؤلف) .

٢ - طبقة علوية في مسكن .

٣ - شفيح قرية عين كفاح .

٤ - جسر بين جبيل والبقرون .

سيدة القطين^١ التي كانت ديراً للحبساء الأبرار في ذلك الزمان ، ولا تزال آثاره قائمة في قلب ذلك الصخر ، تلقي على الذين يقصرون دروساً وعبراً .

وأمام القرية ، شرقاً ، ينبسط سهل صغير مقعر يسمونه «الوطاء»^٢ ، كله أشجار زيتون يتخللها تين وسفرجل واجاص ، وأدواح سنديات وعفص وبطم تتعرّش عليها الكرمة ، فتغني الملاكين عن القلال^٣ . ويلتفّ الوطا ، قبلة ، حول القرية فيتصل غرباً بوادٍ يمتدّ حتى يتصل بالنهر الشتوي الذي كأنما سموه المدفون لاختفائه بين الجبال حتى تكاد لا تراه .

فعين كفّاع ، كما رأيت ، جزيرة بريّة لا يدخلها قادم إلا من الجهة الشرقية ، فكانها حصن طبيعي . وبيت جرجس يوسف عبود ، زوج مارينا ، ثاني بيت تراه إذا دخلت القرية من بابها الشرقي الشمالي . اشتراه جرجس ورّمه فصار من بيوت القرية المعدودة . موقعه جميل ، على كتف الوطا . وكان جرجس ميسوراً فأنفق عليه أموالاً كثيرة ، فجدد شباب التوت - رحم الله عهده - واعدّ قسماً لزراعة الدخان المثلثة الرحمات .

وما استراح جرجس من أعماله حتى تتالت عليه المصائب والبلايا ،

١ - مغارة حوّ لها المؤمنون معبداً في فجوة من الجبل تدعى القطين . ودرج اللبنانيون على تسمية كل مغارة قطيناً .

٢ - مكان منخفض من الأرض .

٣ - أعمدة ترفع بها الكروم .

فلم ينعم طويلاً بهذا البيت ، فكانما أعدّه ليموت فيه . توفاه الله فجأة صباح عيد الميلاد منذ سنين ، بعد وفاة ابنه يوسف الشاب بثلاثة أشهر ، فترك زوجاً أرملته لها بنون وبنات قاصرون وقاصرات .

وكثيراً ما علّل الناس ، في القرية وجوارها ، مصائب جرجس ونكباته ، فعُدوها من عجائب العنراء — عليها السلام — فبيت جرجس وما يتبعه من عقار كان وقفاً لها فاشتراه من بكركي^١ بمئات الليرات الصفراء الرثانة

السيدة^٢ « ضيقة » يقول أهل القرية ، فكم أماتت من ابقار وغنم ومعزى وحمير رعت العشب من أرضها ، وسركيس الكريدي مات محروقاً لأنه كان يزعم وكيل وقفها — الخوري يوسف مسرح — ويطالبه باسترداد عقار أبيه وجده الذي اغتصبه الوكيل المذكور وضمه لأملك السيدة .

أجل ، لقد نكبت سيدة البياض^٣ قرية عين كفاح الهادئة بمصائب جمة ، منذ وطئت أرضها اقدام هذا الخوري . لقد اقلقها في حياته ، وازعجها في مماته . فنكبة مارينا الأرملة التي ترى ، مآثر هذا الكاهن التي لا تحصى ، وسجلات محاكم كسروان والبترون وبعبداء على عهد المتصرفية حافلة بالدعاوى التي أقامها المحترم على أهالي القرية ، ولم ينج منها الا نفر .

عفاه رستم باشا بمرسوم خاص من الرسوم ، فاخذ يقيم الدعاوى بلا

١ — مقر البطريرك الماروني شتاء ، على مقربة من جونية .

٢ — كنيسة في بلاد جبيل .

روية ، فتساق الناس إلى دوائر الحكومة . وليس أبغض إلى القروي
المهادىء المطمئن من رؤية جندي يبلغه دعوة إلى محكمة . أمّا الخوري
يوسف مسرح فما يهمه ؟ فرسه عنده ، عليقتها من كيس الوقف ومرعاها
زرع القرية ، ومن يردّها عن زرعه يزور غزير^١ ، وينام في بيت
خالته . وهكذا قضى الخوري حياته في كسروان والبترون وبعبداء
وبكركي وبيروت وحريصاً^٢ ، لأن دعاويه كانت تتناول حتى رئيسه
الروحي ، بطرك الموارنة ، فلا تراه إلا على فرسه رائحاً جائياً على
سيف البحر . وأخيراً ركب البحر ابن سبعين ليبلغ شكواه الخبر
الاعظم بابا رومية .

- ٢ -

ما انسلخ جلد الليل وانشق الفجر حتى كان الحمار وعليه خرج^٣ من
الجنفيس بباب مارينا ، وكان أولادها اليتامى يروحون ويحيئون واحداً
إثر واحد . هذا يحمل الرداء ، وتلك الحذاء ، وذلك كيساً ، وتلك صرة ،
والمكاري يحشوها الخرج مراعيّاً التوازن بين عينتيه ، وكلما وضع قطعة
هز رأسه أسفاً .

١ - بلدة لبنانية في كسروان . وكانت آنذاك مركزاً للقضاء .

٢ - بلدة لبنانية في كسروان .

٣ - وعاء يوضع على ظهر الدابة .

وبعد هنيهة أطلت مارينا من البوابة بوجهها الكالـح^١ المـجـمـد وقامتـها الطويلة النحيلة ، عليها فسطان اسود بسيط طويل فضفاض مشدود على خصرها النحيل ، فوقفت على عتبة الباب كأنها تتذكر إذا كانت ناسية شيئاً من عدة السفر ، فما وقع بصرها على المقبرة حتى صرخت بـلء فيها .

— على من تركتني يا جرجس ؟ قم وانظر مارينا على طرقات البحر ، من يعول اليتامى يا جرجس ؟ من يفضّ المشاكل يا جرجس ؟ يا ويلى ! أنا امرأة أرملة ، مسكينة ، كلمتي غير مسموعة . من يخلصني يا ناس ، من يخلصني ؟ يا يوسف ، قم وانظر أمك كيف صارت ، الله يبلى الذين بلوني ، يا ضيعان التعب ! عشرين سنة في اميركا قضيناها حتى نرتاح في آخرتنا . اين الراحة ؟ اشترينا الهم والتعب . راح المال والرجال ، راح المال والرجال يا حسرتاه يا ذلي !

فجاء أهل القرية جردّ العصا^٢ على هذا الصراخ الشاذ - وفي القرى يستيقظون باكراً ، والتمّوا على صراخ مارينا ، الذي لم يسمعوا مثله إلا يوم اصاب ابنها يوسف الشاب بنوبة أخذته ، ويوم مات زوجها جرجس فجأة بعد ولده يوسف بثلاثة اشهر .

رأوا مارينا مصروعة ، فتجمعوا عليها يسمفونها . ودواء من يغمى عليه في القرى رقعة تحرق ، فأفاقت مارينا وهي تردد :
— يا عنرا ، يا عنرا ، يا عنرا ، الله ينتقم منك يا ...

١ - الكالـح : عابس ، مكشّر .

٢ - الجميع بلا استثناء .



فاخذ الناس يهدّثون ثورتها ويصبرونها على بلواها ، وهي تشور
كالقدر الهائج قاذفة اللعنات بالمئات والالوف من قلب مقروح . ولما شفت
نفسها همدت ، فقال لها المكاري :

- قومي يا مارينا ، تعالي يا ست ، الله يرضى عليك ، النهار شبر ،
لا نصّل الى جبيل قبل غدا الرهبان^١ . عجّلي ، قومي ، راحت الغدوة .
أيش ينفع الصراخ هنا ؟ صرّخي عند سيدنا البطرك . الله معك .
يا الله قومي .

فما فاه المكاري بكلمة سيدنا حتى ازرقّ وجه مارينا وفاس على
لسانها ما امتلأ به قلبها ، وأعادت الكرة فامتلا الجو سباباً وشتائم ...
وكان بين الناس شيخ جليل يتعكز على عصاه ، في قلبه إيمان كثير ،
ووجهه طافح بالطاعة المارونية ، فغاظه ما سمع ، فقال لمارينا :
- اسكتي يا بنت ، لا تسبّي الرؤساء .

فاقبلت عليه مارينا وانطرحت أمامه على الأرض صارخة :
حقي يا عمي ، حقي ، حقي ضاع يا عمي جناديوس .
فتغرغرت عينا ذلك الشيخ ، وبعد أخذ ورد ، أقنعوها فركبت
الحمار دامعة ، فالتفت الشيخ بالحاضرين وقال : ما هذه الأيام التي وصلنا
اليها ؟!

وتوقع الجمهور ان يقول جناديوس أكثر من هذا فلم يزد ، وسار في
طريق بيته .

ما تقدمت مارينا بضع خطوات حتى قاقت الدجاجة ، فصاحت :
١ - موعد غداء الرهبان وهو الظهر تماماً .

هش .. ولوت عنقها صوب بيتها توصي أولادها بالانتباه للدجاجات
والبسة والخروف ، ثم أدارت وجهها صوب الشمال توصي ابنتها رشيدة
لتنام مع اخوتها ، إذا لم ترجع مارينا من سفرتها في تلك الليلة ،
وسارت تبكي .

وبعد خطوات أخرى أوقفت الحمار ولم تلتفت لأنه صعب المراس
ثم صاحت :

- يا رنسية ، يبعو الدخان إذا جاء الحواط ، ولا تخلوه ينقيه . وما
بلغت الوطا حتى صاحت :

- اوخ . نسيت الأوراق بالبيت ، حنا بحياتك ارجع عني أو
انتظرنني ، فعاد حنا يتذمر من رفقة النسوان ، وجلب الصكوك وكل
أوراق المرحوم جرجس ، ولحق بمارينا في منتصف الوطا .

وكانت مارينا قد انضمت الى بعض مكارين ذاهبين الى جبيل ، بندر
تلك الناحية ، فأخذت تقص عليهم أخبارها وتحديثهم عن مصائبها
وبلاياها ، مفتخرة على أيوب ، وهي لا تدري من تلوم ، وأخيراً أطلقت
قنبلتها فأصابت شظاياها الجميع .. من مارون الى خليفته الجالس على
كرسي أنطاكية^١

وفيما هي مشغولة بالحديث أرخت من رسن الحمار ، فسك^٢ بها فصاح
المكارون بصوت واحد : مار شليطا ، مار شليطا^٣ !

١ - بطريركية انطاكية وسائر المشرق .

٢ - تعثر .

٣ - قدس .

فما هوت مارينا الى الأرض ، واستوى الحمار وتابع سيره ، ومضت
مارينا في حديثها كأن لم يحدث شيء مما كان ، والتفتت بالمكاريين فاذا هم
يضحكون وأيديهم على أفواههم ، فكظمت غيظها ، ولم تقل كلمة بل
تنهدت طويلا .

- ٣ -

ركبت السيارة من جبيل بعدما بدلت ورافقها أخوها زخيا في هذه
الرحلة ، فما تحركت السيارة حتى رسمت مارينا على وجهها إشارة
الصليب وتوكلت على الرب يسوع .

وبعد مسير مئتي متر أطل تمثال سيدة مرتين^١ فصلبت مارينا يدها
على وجهها وصلت الأبانا والسلام ، ثم قالت :

- سفرة موفقة يا ستي السيدة ، لك مني كعب زيتون في وطنا
عين كفاح نذر حلال زلال .

والتفتت الى زخيا وقالت :

- ما قولتك يا زخيا ، هل تتحنن قلوبهم هذه المرأة أم يصيبنا مثل
كل مرة ؟

وانقطعت عن حديثها فجأة لأنها واجهت هيكلا آخر هو كنيسة
مار زخيا ، فمار زخيا^٢ شفيع الغرقى ، ومارينا غارقة في بحر هائج ،

١ - تمثال في كنيسة لبنانية .

٢ - قديس .

فبسملت وصلّيت كالعادة ، الأباثا والسلام ، ثم قالت لأخيها :
- قرفت الصلاة يا زخيا ، ما رأيك بسفرتنا هذه المرة ؟
فَهَزَّ زَخْيَا رَأْسَهُ وَقَالَ لَهَا :

- انا نبي ؟! التدبير عند الله يا اختي .

وأخذا في الحديث ورفيقهما الراهب يَسْتَرْقِ حَدِيثَهُمَا وَلَا يَفْوَهُ
بكلمة بل كان يَهْزُ رَأْسَهُ حِيناً بَعْدَ حِينٍ ، وَيَسْرَحُ بَصْرَهُ فِي الْبَحْرِ
الْمَعْرُورِ ، تَارَةً يَفْتُلُ شَارِبِيهِ وَطَوْرًا يَمْشِطُ لَحْيَتَهُ بِأَصَابِعِهِ ، وَلَشَدَّ
مَا كَانَ دَهْشُ الرَّاهِبِ عِنْدَمَا اسْتَوْقَفَتْ مَارِينَا السَّائِقُ بِحَرَكَةِ غَرِيبَةٍ ،
فصاح الراهب :

- أَيْشُ بَكَ يَا بَنَتِي !

فَقَالَتْ مَارِينَا : مَارَ ضُومَطُ يَا مُحْتَرَمُ ، أَنَا نَاذِرَةٌ أَنْ أَصْلِيَ رَاكِعَةً
أَمَامَ صُورَتِهِ ، رَبِّي أَلْهَمَنِي أَنْ مَارَ ضُومَطُ يَسَاعِدَنِي ، وَلِمَارَ ضُومَطُ فَضْلُ
عَلَى زَوْجِي شِفَاهُ مِنْ « الْعَصِي » .

وَانْبَطَحَتْ مَارِينَا أَمَامَ صُورَةِ مَارَ ضُومَطُ عَلَى السَّكَّةِ تَصْلِيً
بَعَيْنَ دَامِعَةٍ وَقَلْبَ جَرِيحٍ ، ثُمَّ نَاجَتْ مَارَ ضُومَطُ بِصَوْتٍ مَسْمُوعٍ :
- بِحَيَاتِكَ يَا مَارَ ضُومَطُ ، كَمَلْهَا مَعْنَا ، وَلَكَ مَنْسِي مَا تَرِيدُ ، وَانْحَنَتْ
فَقَبِلَتْ عَتَبَةَ صُومَعَتِهِ الصَّغِيرَةِ ، وَأَلْقَتْ فِلْسَهَا فِي صَنْدُوقِ النَّذُورِ وَعَادَتْ
إِلَى السَّيَارَةِ ، فَقَالَ السَّائِقُ :

- خَلَصْنَا يَا سَت ؟ فَأَجَابَتْهُ :

١ - المَرْتَفَعُ الْأَمْوَاجُ .

٢ - قَدِيسٌ .

- إن كان الله قبل ، سق .

فتحول الراهب من السيارة بعد أن قال لمارينا :

- رزقك الله حسب نيتك يا بنتي ، ثم فتح صندوقة النذر واخذ ما بها وحاسب السائق ووضع ما بقي في جيبه ، وقال وفقكم الله .
وسار صعوداً الى مار ضومط القريب من الصومعة ، فهو رئيس ذلك الدير الذي يجترح قديسه المعجائب ، فهو اختصاصي بمرض العصبي ، اختصاص مار شليطا بالبهائم ، وقزحيا بالمجانين . واستأنف السائق السير ، أما زخيا فظل يتبع الراهب بنظره حتى دخل الدير ، فhez رأسه وتنهّد . وبعد بضع دقائق أطلّ تمثال سيّدة حريصا العظيم فقال زخيا لاخته .

- سيّدة حريصا يا اختي !

فقالت مارينا : يه ! وبسملت بعجلة وصلت صلاة غير خفيفة .

- ٤ -

وصلت مارينا وأخوها زخيا قصرأ عالياً يشرف على البحر تكتنفه أشجار الصنوبر ، وأجراس قبّته المثلثة تقررع كلّها ، فسأل زخيا عن السبب فأجيب : عيد جلوس سيّد القصر المغبوط ، فلم ترق لمارينا هذه الصدفة ، وعند تحوّلها من السيارة في ساحة القصر التقيا بكاهن كهل قصير القامة بدين ، نظّارتاه سوداوان ، فتقدّمت منه مارينا وحيّته قائلة :

- المجد لله يا معلمي .

فأجابها : دائماً لله يا ابنتي . وفيما هي تقبّل يده قال لها :

- كيف حالك ، وكيف حال أولادك ؟ فأجابت بانكسار :

- بخير ، بصلاتك ودعائك يا محترم .

أما زخيا فسلم على الخوري هازاً يده .. وكان بينهم ثلاثتهم
حديث ثم تفرقوا .

وتقدمت مارينا من البوابة تريد الدخول فمنعها البواب قائلاً :

- لا اذن لكم اليوم ، اليوم عندنا مندوبو الحكومات ورؤساؤها

وأعيان البلاد ووجوهها . قالوا لك أمس ما قالوه ، فماذا تريد مني
اليوم ؟

فأجابت مارينا :

- أريد إمّا مالي ، وإمّا عقاري . أطلب حقّي .

- لا اذن اليوم .

- مالي هنا ، حقّي عندكم .

- قلت لك لا اذن ، روجي إلى المحكمة .

فأدهش زخيا ما رأى ، فوقف مسبوعاً ، ثم اقتحم الباب حتى كاد
يشاجر البواب ، فخافت مارينا لما رأت الشر في عيني أخيها ، فتعلّقت
بردائه وأخذته وابتعدت مرعدة :

- مليح ، مليح .

أما البواب فهزّ رأسه وأقفل البوابة .

وظل زخيا يتمشى ذهاباً وإياباً . أما مارينا فوقفت إلى جدار

الكنيسة تسمع القداس من وراء الحائط كأنها يهودية إزاء جدار الهيكل
في أورشليم .

وبينا كان الشماسة يرتلون في الداخل :
— مستعدّ قلبي يا رب ..

كانت مارينا تتمم في الخارج :

— اغفر لنا ذنوبنا وخطايانا كما نحن تغفر لمن اخطأ اليانا . ولكن نجنا
من الشرير ..

- ٥ -

كان القداس « احتفالياً صارخاً »^١ ، شمامسة يسبحون وكهنة
يترنمون وأحبار يرتلون . ألفاظ خليط من السريانية والعربية ،
واهتزازات أصوات لا يقام لها وزن ، فلا يسمع من الخارج إلا دندنة ،
ولا يفهم من كل ما يقولون إلا الخاتمة — هلوليا كيريا ليسون^٢ .
وأجالت مارينا يدها فأخرجت من عبها سبحتها الطويلة
« الوردية »^٣ والتصقت بجدار الهيكل جهدها لتدنو من المذبح ويفي
قداسها .

١ — فيه ترانيل بأصوات مرتفعة وزينة طقسية .

٢ — عبادة كنسية للتسبيح : يا رب ارحم (يونانية) .

٣ — سبعة طويلة مؤلفة من خمسة عشر بيتاً .

ومضت ساعة على انتصابها فأعيأها التعب ، فقرفت ووجهها
للحائط . ومرت ساعة ثانية ولم تنته « الرتبة » والقداس ، فرتق النوم
في عينيها ، فبدت لما بها من يأس ، كالنمرة الهامدة . أما أخوها زخيا
فجلس على صفة تجاه البوابة ، يرقب النوافذ على من يرى من يعلمه إذا
كانت مقابلة غبطته ممكنة . وبعد انتظار طويل لمح كاهناً يعرف وجهه ،
فجراً أه عليه ما ذكره من حديثه مرة عن قضية اخته ، فهذا الكاهن
قال مرة : ان مارينا تطلب حقاً صراحاً لا صدقة ، فتقابل بعنف
وتطرد ، وقضيتها قضية وقف وأيتام وأرملة ، كلها منوطة بذلك
المقام لا سواه .

فساله زخيا عن « المواجهة » ، فهز كتفيه ، ثم فكر قليلاً واجاب :
لا أظن . ثم تحول عنه ، فانتقل زخيا مغيظاً ، ودنا من اخته مارينا
فسمعها تغمغم كمن في حلم ، فتردد في ايقاظها إلا ان الضجر والسأم
حركا يده فهز أخته فصرخت :
— بحياتك يا سيدنا .

استيقظت مارينا مضنوك كمن أفاق من غيبوبة ، وأخذت تفرك
عينيها متنهدة ، فما صدقت انها ترى أمامها أخاها زخيا ، وما هدا
روعا حتى قصت عليه حلمها الرهيب ، واليكه ملخصاً :

رأت البطريق الحويك ، ودار بينها وبينه حديث « قضيتها » ،
فخبرته أن المحكمة أزالته يدها عن العقار وهي لا تدري إلى من تلتجىء .

١ — مجموعة صلوات وقراءات وانشيد دينية مرتبة لإقامة احتفال طقسي معين .

٢ — اختلط .

وبعد حديث غير قصير توارى البطريرك الياس عن نظرها في الضباب. ورأت مارينا انها في الكنيسة بين المصلين وراء غبطة البطريرك ، وبعد هنيهة رأت شخصاً عملاقاً ضخماً الجثة ، عبوساً ، عريض الجبهة مجمدها ، انفه مروس معقوف كمنقار الطير ، مرتخي الشاربين ، معتدل اللحية ، قليل الشعر تحت العثنون^١ ، يلبس رداءً مقوراً عند العنق ، لا ياقة له ، قصير الاكمام يبدو منه الذراعان ، وهو مزنر بقدر ، وفوق الرداء جبة فضفاضة ، والدم يفجر من وسطه كأنه نبع غزير يتدفق .

خرج هذا الشيخ الجبار من « السكرستيا »^٢ كأنه جاف ، وتنهد وتأنف ، فاطفات زفرتسه الشمع ثم انقلبت الشماعدين ، وارتجفت الأيقونات ، وتحرك الصليب ، فذعر الجميع أيما ذعر . انشلت حركة الطقسيات^٣ وابتعد الناس عن الخورس^٤ ، وتألّبوا على بعضهم في صحن الكنيسة كقطيع غنم جافل ، وهرب الذين استطاعوا ، يدفع بعضهم بعضاً ، وعلا الصراخ ، وارتجف الشيوخ ، كأنما أصابتهم البرداء .

أما الشيخ الرابع فسدد يده الى المتقدمين في الأخوة ، وقال لهم كلمات قليلة جداً ، تذكرت مارينا انها سمعتها يوم الأحد في كنيسة

١ - اللحية او ما ينبت منها تحت الشفة السفلى وفوق الذقن .

٢ - قطعة من جلد .

٣ - حجرة في الكنيسة تحفظ فيها الثياب البيعة والادوات الكنسية والكتب الطقسية (لاتينية) .

٤ - الاحتفالات الدينية .

٥ - مكان مرتفع في الكنيسة ، يوجد فيه المذبح الكبير .

الضيعة ، عندما تلا ابراهيم ملحهم « الريش قرين »^١ ، فخالته ان الكنيسة
تقضى لتتهدم ، فخافت جداً ، فإذا البطريرك الياس يلوح لها من
بعيد ويصرخ بها : لا تخافي .

فصاحت مارينا بكل قواها : بحياتك يا سيدنا .

وانقطع خيط حلمها ، كما تقدم ، عندما أيقظها اخوها زخيا .

فشبك زخياً يده بيد أخته وقال لها :

— لا نتيجة لنا هنا يا اختي ، لم يبق قد آمننا إلا رومية إذا أردت .

الحقائق لا تصنع فكيف الاحلام ..

فصاحت مارينا : رومية ! إذا كان مع ابناء العرب مثلي لم اسلك ،

فكيف مع الطليان ؟ يا الله ، يا الله .

ثم سارت مع اخيها تولول قاذفة الدعوات الخيرية ، ولما صارت بين

يدي بيوت غادير وحارة صخر^٢ اسكتها اخوها زخيا .

٦

رجعت إلى جيبيل مع أخيها فرأت كاهناً تعبهه يعسبر^٣ الرؤى ،

فتذكرت حلمها المزعج وقصته عليه ، فسمعه المحترم بكل اصغاء ، ولما

انتهت القى عليها اسئلة كثيرة يسألها غالباً معبرو الاحلام . وبعد تفكير

١ - كتاب طقسي يضم قراءات مختارة من الكتاب المقدس تتلى في

اسبوع الالام .

٢ - اسم بلدة من ارباض جونية .

هنية خالتها مارينا دهرأ ، غرز الحوري يوسف الزناتي اصابعه في لحيته
طويلاً ، فلاحت ثناياه من شفّتيه المقلصتين ، ثم انترعها وتنهد كمن
اثقل صدره وضيق نفسه ثم ثقيل :

— أما الشيخ الكبير يا بنتي فهو النبي اشعيا يهدّنا بالويل كما تهدّد
ملوك بني إسرائيل وأحبارهم . وأما الكلام الذي سمعته فاظنه هذا :

’ ويل للذين يشترعون شرائع الظلم ، والذين يكتبون كتابة الجور
ليحرفوا حكم المساكين ويسلبوا حق بائسي شعبي ، لتكون الارامل مغنماً
لهم وينهبوا اليتامى ‘

فصاحت مارينا وقد تذكرت تلك الكلمات :

— نعم نعم ، أنت نبي يا محترم ، والنتيجة ؟

فردّ الكاهن هازئاً آسفاً :

— النتيجة .. النتيجة .. النتيجة يا بنتي عيب علينا . صلي للعنراء
مريم واشركي نيتك مع نيّة الكنيسة . قدّامنا احتلال روماني ،
والطوفان قريب .. الله ينجيننا .

وانصرف الكاهن . وخابت مارينا في حلمها خيبتها في يقظتها ، ثم
تغلّغت في سوق جبيل .

كنزه العجس

— ما أكبرها مصيبة يا أم سليم .

منصور أول فلاح خير ابتقية الاشجار ، كأنه تعلمها في مدرسة .
يبني الحيط علو ثلاث قامات وطول يوم الجوع كأنه مخطوط بالليل .
إذا دخل القرش عبه لا يقدر أحد أن يخرج منه . خبس مؤبد . أمس
طلب منه أخوه خمسة قروش فقامت قيامته . كان جوابه : من يكسر
حق الفدان ؟ حق الفدان مثل مال الوقف ، لا تقرّوا صوبه .

فاجبتها أم سليم : هنيئاً لك يا أم منصور . ولد ممتاز ، يسوى ألف
تلميذ مدرسة ، مثل إبننا . إبننا لا يهمله إلا صقل شعره وفرقه يميناً
وشمالاً ، يقف قبالة المرأة ساعة ، ساعتين ، والله يعلم متى ينتهي . إذا
قلت له انتقل الحروف من الشمس نظر إلى نظرة تفرع . كأنه يريد أن
ياكلني بعيتيه .

وبعد أن دقت على ظهر جارتها أم منصور دقات عنيفة صاحت بها :
طبيي خاطرك يا اختي ، إبنك ممتاز . جدّه ما كان متعلماً وأملاكه نصف
الضيعة . لا تناسفي على العلم .

١ — ثور يستعمل عادة للفلاحة .

ولكنه من ناحية ثانية يا أم سليم ، يضحك عليه أصغر ولد . يصدق كل ما يقوله له . أعلمه كل يوم ولا يتعلم . صدقيني ، إذا قلت لك : فكري يرافقه أينما راح . أخاف عليه من أولاد الحرام . فقالت أم سليم : ما دام لا يفرط بقرش فخوفك في غير محله . فتنهدت أم منصور وقالت : وضحك الناس يا مستورة !! . راح الخنوص وجاء الخنوص .

وما فتحت أم سليم فمها لتجيب حتى كان أبو منصور منتصباً بالباب كاللارد يردد حديث زوجته ، مقلداً نبرة صوتها وحرركاتها قائلاً : وضحك الناس يا مستورة . راح الخنوص وجاء الخنوص . والخنوص مستغن عن الكبير والصغير . إشكري ربك ، عندك إبراهيم يسطو على طابور ، وعندك خليل يزرع الدبس عن الطحينة . وعندك جميل مثل البدر . أم منصور يا أم سليم ، تريد أولادها مثل بعضهم ، والناس لا تكون شغل فبركة . إذا كان منصور لا يصلح للديوان ، فهو أكبر معلم في سوق الفدان والبيت يلزمه كل شيء . فتنهدت الأم وقالت : منصور مصمم على الرواح وخده لمشتري الفدان .

فصاح أبو منصور : من غير شر . يروح ويرجع مثل السبع . - اقنعه حتى تروح معه . - إذا ترجاني وباسها - وأشار إلى يده - وجهاً وقفاً ، رحت معه ، وإلا فليذهب وحده أهى سفرة إلى أميركا؟ يعرف الناس والناس تعرفه . ١ - ولد الخنزير ، تقال بالعامية للتعجب .

- وهنا البليّة يا رجل . خف ربك .

- ومتى مت من يروح معه ١٢ إتركيه .. الإنسان لا يتعلم إلا من حكيه .

وبينا كانت الأم والجارة والأب يتحاورون كان منصور على المصطبة قدام الباب ساجداً في احلام الشعراء يتأمل البقر تحرث الحقول ويتفتت قلبه حسرات . ندم لأنه كسر فدانه ، ولم تقع عينه بعد على عجل يمشي البقرة الباقية عنده . جمّع قواه العقلية وأخذ يقلّب المشكّلة على جميع وجوها ، فما وجد أمامه إلا حلّين : إمّا أن يبيع البقرة ويشترى زوجاً ملائماً ، او أن يفتش أيضاً فلمعه يجد . فتأفّف وقال : تأخرنا ، فات الفوت . أملاك الضيعة كلها تضحك وكرومنا معبسة . لا يضحك الأرض غير السكة . خيرات البشر على أكتاف البقر . طغاني الشيطان وكسرت فداني . الحق كله على خالي . ثم حرق على أنيابه وأعاد العبارة شاداً على كل كلمة : كل .. الحق .. على خالي .

ودخل البيت فاذا بوالده يقول له : امس كان الحق على عمك واليوم على خالك ، وغداً على من ؟

لم يجب منصور على تهكم والده ، ولكنه قال لأمه : اليوم عملت مثلاً قلت لي .

فتمتت الأم : مصيبة . مصيبة جديدة . خير انت شاء الله . هات خبرنا .

فقال منصور : كنت مقيلاً تحت الزيتون الكبيرة في الوطأ وكلبنا

١ - اسم يستعمل للاماكن المنخفضة من الأرض .

بارود نائم حدّي . وجاء « كبر عقلك » اي الناطور .

— مرحباً منصور .

— مرحباً عمّي فنيانوس . أهلاً وسهلاً . تفضل . تفضل .

وما استراح ومسح عرقه حتى قال : يا بارك الله ، خروفاً سمين .

فقلت له : أي خروف ؟ فأشار إلى الكلب وقال : هذا .

قلت له : هذا خروف يا عمّي فنيانوس .

فقال : كبر عقلك يا منصور . يا حيف عليك ، لا تعرف الخروف ؟

فقلت له : هذا كلبنا بارود ، وأنا ربّيته جرواً .

فقال : كبر عقلك . ماذا يقول الناس إذا عرفوا أنك تخلط بين

الكلب والخروف ؟

فحيرت في امري وكدت اصدق ولكني تذكرت كلمتك : لا تصدق

قبلما تجرب . فقلت لفنيانوس :

وهذي الاذن اذن ايش ؟

فاجاب : والو ، اذن غم .

— وهذا الناب ؟

— ناب غم .

وهذا الصوف ؟

فهزّ رأسه وقال : غم . كبر عقلك .

ولما ضاقت حيلتي أمسكت بذنب الكلب فكشّر عن أنيابه ، فقلت

له : وهذا الذنب ذنب ايش ؟

فقال لي : ذنب غم يا منصور ، قلت لك كبر عقلك .

ولما عجزت عن إقناعه ، وكدت أنا أصدق أنه غم ، قلت في نفسي
ما بقي إلا حجر واحد ، أضربه يا ولد بالجوزة . وكان فنيانوس فطن
للعبة ، فوقف ينفذ ما علق من التراب بذيل شرواله استعداداً للذهاب .
وما خطا خطوتين حتى صحت بالكلب : امسكه بارود . واخذ كبر
عقلك ، يركض والكلب يركض ، وأنا أصرخ : كبر عقلك لا تهرب
هذا خروف .

يا ليتك كنت حاضرة . كانت ضحكة لمن يضحك .
فضحكت الأم بملء فيها . وقد أعجبها انتصار ابنها ، وتضاحك
الأب . وقد ارتاح الى تقهقر فنيانوس أمام ابنه منصور ، فقال لزوجته :
تهنيك السلامة . لا يهملك شيء . ما على قلب منصور شر إذا راح وحده
ليشتري العجل .

وعصاري ذلك النهار بارح منصور البيت متوكئاً على عصا زعرور
ذات عقد كان يسميها عصا الكلاب . وشرع منذ خرج من الضيعة
يسأل كل فلاح يمر به عن عجل علوه كذا وصفته كذا . وكل فلاح يرشده
الى ما رأى وشاهد .

المهمة صعبة فقلماً يبيع فلاح ثوره في بدء الربيع . لا يباع إلا
العجل الذي فيه عيب . وهذا لا يريد منصور ، فأخذ يردد في طريقه :
بعنا عجلنا لأنه ينفخ على الأولاد الصغار ، فمن يدرينا اننا لا نشترى عجلاً
ينطح الكبار ! حقيقة ان مسألة شراء العجول مسألة دقيقة .

ووقف هنيهة يتأمل سوء المصير ويحسب للمستقبل الف حساب . ثم
مشى وهو يقول : الدنيا قسمة ونصيب . امش يا صبي ، ما احلى ما

يقدر الله . وبعد ساعات بلغ مفترق الطرق فتحير ابن يذهب، الى
جاج^١ ام الى مشمش^٢ . وبعد استراحة قليلة على العين أكل نقرة مما
زودته به امه ، وحاول أن يشرب فلم يستطع لأن قامته القصيرة جداً
لا تكفي للانحناء فوق الجرن الكبير وبلوغ رأس النبع ، فالتفت يمنة
ويسرة، وإذ لم ير احداً شرب من الحوض ومشى ، فعلبت نحنحة وقهقهة
من احد البيوت ، فمشى ولم يلتفت .

ودخل قرية جاج قرب الغروب يسأل عن العجل المطلوب ، فراه
السمسار عدة عجول ، فاعجبه واحد منها ، ولكنه استغلاه ، فترك
جاج قاصداً ترتج^٣ .

أما فلاحو جاج فقعدها يتحدثون ، فقال احدهم : غداً يرجع
صاحبنا ومعه عجل مخايل بطرس . هذا مشتر وهذاك بياع . فلا أقل من
أن تتسلى ونضحك . خسرنا البيعة . فلا أقل من أن نربح السلوى .
غداً الأحد ، لا شغل ولا عمل ، فكلما مرّ على واحد منا يحدثه عن العجل
انه حصان ويبارك له فيه .

وقعدوا صباح الأحد ينتظرون عودة الخنوص ، وإذا به مقبل قرب
الظهر . يقود عجلاً أسود اللون ذا قرنين معقوفين ، في جبهته نكتة
بيضاء . كان منصور يقوده معتراً معجباً بما اشترى وكأنه يقود جواداً
أصيلاً لا عجل بقر . فحيّاه أول واحد بيرودة ، وقال له : كنت قلت
يا شاطر انك طالب حصان كنا أريناك عشرين حصاناً ، وكلها أحسن

١ و ٢ - بلدان في منطقة جبيل .

٣ - بلدة في منطقة جبيل .

من هذا . هذا حصان مخايل بطرس ، آه . فhez منصور برأسه ومشى ، وما خطا بضع خطوات حتى وقف آخر في طريقه وصاح به : الله يوفقك ، حصان مخايل بطرس أصيل . ولكن فهمنا منك انك تطلب عجلًا لا حصانًا . ما عليك لوم ، الانسان يغير فكره عشرين مرة بالساعة . فضحك منصور وتمشى . فاذا بامرأة تقول له : اركب يا شب ، تقود الحصان وتمشى . ثم نبرت كمن أفاق من غفلة وقالت : الحق معك الركوب قلة احترام للضيعة ، كللك لطف ، مع السلامة .

وبلغ ساحة القرية فلقى رجالًا كثيرين ، شيوخًا وكهولًا وشبابًا فاستوقفوه . وتساقطت عليه الأسئلة من كل فج : كل واحد يبدي رأياً ، هذا يقول : لو كان اشترى حصان مرهج كان أرخص وأحسن . وآخر : هذا نصيب .. السر في التوفيق . وأخذوا يطوفون حول العجل ، هذا يمدح محاسنه وهناك يذكر بعض عيوبه . وأخيراً قالوا كلمتهم المعروفة : مسار خيل ، أي وسط . وباركوا لمنصور فيه من كل قلبهم ، فمضى في سبيله .

وتربصوا لمنصور في ظاهر القرية ليروا ماذا يفعل متى غاب من الأبصار .

أما منصور فطفق يغربل أقوالهم فقال في نفسه : مستحيل ان يكذبوا كلهم . ووقف قليلاً يتأمل العجل فقال في نفسه : عجل جميل ، نعم ، إنه مثل الحصان ، أما انه حصان فهذا بعيد . ثم مديده الى احد قرنيه وقال : ما رأيت بعد حصاناً له قرون .

وإذا بشيخ من وراء الحيط يقول له : كم حصاناً رأيت في حياتك ؟



الحيل أشكال يا ابني ، إياك ان تنفش وتبيعه على أنه عجل . هذا
حصان ، مؤكد . الحيل تفلح مثل البقر . لا تندم .
ومشى منصور على خيرة الله ، وتذكر وصية الوالدة : لا تصدق ما
لم تجرب . فقال في نفسه : ماذا نخسر اذا جربنا .
وتذكر حادثته الطريفة مع «كبر عقلك» الناطور فتجراً وضحك .
ومشى وهو يتلفت خلفه ليرى إذا كان لا يراه أحد . ولما استوثق من
الوحدة ، قرب العجل من حائط على جانب الطريق ونط . ولكن ..
ما رؤي على ظهره حتى كان بين أرجله ، وهو يعرّكه بقرنيه .
وأقبل المتآمرون لمواساة ضحيّتهم . وللقري ما للدول صليب أحمر ،
فتفرقوا فرقاً ، هؤلاء يسعفون منصور المهشم ، وأولئك يركضون
وراء العجل الشارد ، إلا واحداً لم يات عملاً غير وقوفه عند رأس
الخنوص وقوله : الحق معه .. هذا عجل .. التجربة أكبر برهان .

وعظ بونا اسطفان

فغال^١ قرية لاطية في لحف جبل ، تنظر اليها من عين كفاح^٢ فلا ترى إلا قبة كنيسها الشاذلة - اليوم - كأنها اصبع جبارة تومىء بها الى الاعالي . أما بيوت القرية فمستكنة في ظلال الأشجار صيفا شتاء ، ولعلها القرية اللبنانية الوحيدة التي لا ترى بيوتها الشمس بالمرّة حين يقصر عمر النهار .

ولو درجت العادة ان تعطى قرية الوسام الزراعي لاستحققت قرية فغال أرفع النياشين . انها غزيرة المياه ، فكان عيونها أنداء تدرّ للقرية خيرات كثيرة ، وتنعم أشجارها المتلازمة فتعيش متعانقة متأخية لا تعرف الانقسام الطائفي... فاللوزة تعانق التينة والزيتونة حد المشمشة. والتوت ، رحم الله أيام التوت ، قائم بين هذه كلها والبحر ترقص امواجه قبالة الضيعة ، فتضحكها راضية ، وتتوعدّها وتهاجمها من بعد ، غاضبه .

إذا سرت في هذه الضيعة الغابة تلتبس عليك الطريق ، ولا ترى

١ - قرية في منطقة جبيل .

٢ - قرية من بلاد جبيل ، مسقط رأس المؤلف .

بيتاً من بيوتها المظلمة بالأشجار المختلفة حتى تظا عتبه : أهل قرية فغال
عاملون قانعون يتقون الله ، شعارهم : على قد بساطك مد رجلك ، لا
ينفقون فوق طاقتهم . فأكره ما يكرهون الدين ، ولذلك تراهم دائمين
لا مديونين ، يحبسون الأرض ويتكلمون على كرمها فيحرثونها ويسقونها من
الينابيع المتفجرة من صدر الجبل النائة قريتهم في حضنه ، ومن يتكل
على الأرض لا يبتعد عن خالقها .

انهم ككل أبناء القرى يتكلمون على السماء . فاذا لم تمطر رفعوا اليها
أبصارهم واستسقوها مصلين مبتهلين . ان بدعة المطر الاصطناعي لم
تعت بينهم ولو حدثتهم عنه لأجابوك : لا نريده غصباً عن الله . أما
السياسة فلها اخصاء يسمونهم زعماء . فهؤلاء يروحون ويحيثون
ويعيشون على هامش المدينة ليكونوا سفراء القرية . وهم يسمونهم
لبطالتهم مهندسي طرقا . وقد يبطر واحد من هؤلاء ويطنى فيستحيل
حاكماً بأمره إذا تعرف بأصحاب النفوذ . يتقرب من المسؤولين ليستبد
بالأهلين المساكين . والزعامة عند هؤلاء محل قومسيون نقال ، وغالباً ما
تكون في ذلك الزمان ، في بيت خوري الضيعة لأن تحت جبة كل
اكليريكي ، كبيراً كان ام صغيراً ، حاكماً مستبداً .

واذا تغلغلت في قرية فغال بدا لك في رأس الضيعة بيت ضخم
بالنسبة إلى البيوت الأخرى المتواضعة . فهو مؤلف من ثلاث غرف قائمة
لصق بيت طويل عريض ، ينام سقفه الخشي على قناطر معدة . في
هذا البيت الواسع يسهر جمهور القرية شاتين مصطلين بناره التي لا
تطفأ ، لأن في هذا البيت تمام قفة عظام ليلا نهاراً . عجوز تسمينية

عقلها وخواسها كاملة وإن كانت ملاحظها غير قابلة الوصف .
أمّا الغرف فواحدة يسمونها الصالون ، وإن كانت لا تتسع لعشرة
أشخاص ، والثانية لمنامة الخوري البتول وحده . وهذا الخوري مديد
القامة كبير الهامة لا يقل تكعيب هيكله عن ثلاثة أذرع معيارية . لا
يتزّنر على خصره بل تحت إبطيه ، لأن كرشه يحتاج إلى حبل جمل ...
وكان زنّاره عرض اصبعين حتى لا ينطوي فوق كرشه .

كانت تنام مع هلّون العجوز بنت بنتها ، الست لوسيا ، الأرملة
الشابة . كانت تداعب جدّتها ولا تبالي بزواج أمها . وكانت الجدة
تحب هذه البنت حباً جماً رغم شيطنتها ، وتستجيب لأكثر رغباتها .
فاقبلت البنية على جدّتها تطلب منها حكاية المساء كما عودتها كل ليلة ،
فقعدت البنت على حافة فراش ستها وأصغت تنتظر الحكاية العتيدة .
ولكن هلّون كانت مضطربة تفكر بعواقبها الأربع : الموت
والدينونة ، والجحيم والنعيم . وفيما هي منتظرة وصول الواعظ الشهير
الآب اسطفان البنتاعلي ، نادت بأعلى صوتها المرتجف : يا خوري بطرس،
واين صار بونا اسطفان ؟

وشخصت عينا هلّون إلى الباب لأنها كانت تستدل على مجيء الخوري
بطرس من العتمة التي كانت تسبقه وتنتشر رويداً رويداً ثم تسد الباب
لأن الخوري كان عملاقاً ضخماً بلا جبة فكيف به إذا تثقل في كانون ؟
وبعد هنيهة دخل الخوري ليقول : أبونا اسطفان صار في عين كفاف .
واليوم ختم الرياضة . والليلة يكون عندنا . إفحصي ضميرك جيداً .
فقالت هلّون : يهمني أن أسمع وعظته أولاً ، وبعد ذلك افحص

ضميري وأعترف واتناول .

فقال الخوري : أظن انك عارفة أن الليلة ليلة البربارة^١ .

— وكيف ! معلوم عارفة .

فطوّقت كاترين عنق ستها وقالت بغنج صبياني بريء : فاذن يا ستي احكي لي حكاية البربارة .

— تكرم عيونك ولكن بشرطين : أولاً ان تقولي سيرة القديسة بربارة ، وثانياً ان تتلشي لأن بربارة قديسة ، ولا يجوز ان تسمعي سيرتها وشعرك منبوش مثل الجنية . اسم الصليب وذكر الصليبان .
فاخذت البنت تتلثم وتتوقّر ، وتترصّن ، وأرهفت اذنيها للسمع ، وبدأت هلّون بقصة القديسة بربارة . وغادر الخوري المكان .

والتفتت البنت إلى ستها مستغربة خروج عمّها الخوري حين بدأت ستها بالحكاية القديسة ، فقالت المعجوز : عمك يا بنتي سمعها في السنكسار^٢ اربعين خمسين مرة . ما لك وما له ، اسمعي انت .

بربارة يا بنتي قديسة كبيرة ولها اعظم اكرام في الكنيسة . أبوها وثني اسمه ديوسقوروس . كان يحبّها جداً لطباعها الكريمة وجهاها . رباها في حصن منفرد حتى لا تقع عليها عيون الرجال .

قالت البنت : وكيف قدرت عاشت ، وحدها ، يا ستي ؟

فقالت الجدّة : عاشت وحدها لأنها ما كانت مثل بنات اليوم . وفي الحصن أخذت تتأمل في الدنيا وشكّت بألهة ابيها وآمنت بالمسيح

١ — عبد طقسي لقديسة تحمل هذا الاسم .

٢ — كتاب سيرة القديسين .

له المجد .

فقالت البنت : قلت يا ستي انه رباها وحيدة في حصن ، فمن دلها على المسيح ؟

- الهام رباني . تقبريني يا شاطره ! بس اسكتي ولا تقاطعيني .
ولما بلغت ، أراد ابوها أن يزوجه بأمر من امراء البلد فرفضت ،
وطلبت منه أن يبني لها حماماً فبناه وأمر أن تفتح فيه طاقتان ، فأشارت
هي ان تفتح فيه ثلاث .

وقالت البنت : ما الفرق بين الثنتين والثلاث طاقتات ؟

فاجابت هليون : على اسم الثالوث يا بنتي ، لا تكثري السؤالات .
القصة طويلة حتى نخلصها قبل وصول بونا اسطفان والهيليبي .

رسمت القديسة بربرة إشارة الصليب على عمود رخام بالحمام فأثرت
أصابعها به ، وظل رسم الصليب عليه . ثم اخذت تكسر أصنام والدها
وتبصق عليها . ودرى أبوها بعملها فهب ليفتك بها بسيفه ، فهربت من
وجهه وركض خلفها . وكانت في الطريق صخرة تسدّها فانشقت
الصخرة حتى مرقت بربرة ثم عادت الصخرة الى حالها كأنها لم تنشق .

فابتسمت الصبية كاترين ولحظت المعجوز ذلك فقالت لحفيدتها :
آمني يا ابنتي ، لا تشكي بعجائب الله . ثم تابعت سرد حكايتها : ودار
ابوها الدورة فوجد بعد التفتيش ان بنته بربرة مختبئة في مغارة فضربها
بقساوة وجرحها بشعر رأسها إلى بيته . ثم قادها الى الحاكم ، ولكن الحاكم
لاطفها لأنها أعجبتته . ووعداها وعوداً كثيرة إذا كفرت بالمسيح وسجدت
للأصنام . فلم ترض لا بكثير ولا بقليل . ولما عجز الحاكم عن ردها الى

دينه ، وهو دين أييها ، أصدر أمره بتعذيبها . فجلدوا جسدها الطاهر
فامتلاً جراحات .

واجهشت البنت للبكاء فقالت جدتها : اصبري يحنك الخبر .
والبسوا بربرة ثوباً من شعر ، والقوها في حبس الدم فظهر لها المسيح
وعزّاها . وشفى جراحها .

فاطمان قلب البنت كاترين حين شفيت بربرة . أمّا الجدة فقالت :
وفي ثاني يوم قدمت للحاكم فامر أن يمزقوا جلدها بامشاط حديدية ،
وأحرقوا خواصرها بشموع وقطعوا ثدييها .

فصرخت البنت ، فجاء عمها الخوري وقال هلّون : لا تفزعني
البنت بحكاية البربرة .

فقالت هلّون : يه ، أنت خوري ووكيل بطرك وتقول : لا تفزعني
البنت بحكاية بربرة ! أهى حكاية يا خوري بطرس ؟

فاستضحكت كاترين وقالت هلّون : ما وصل بونا اسطفان ؟

فقال الخوري : بونا اسطفان على الطريق . بحياتك لا تفزعني البنت .
فعقدت هلّون نوتها وازداد وجهها تجعداً وقالت : لو كانت البنت
في القداس ألا تسمع السنكسار ؟ انا ما زدت ولا نقصت . والتفتت
بكاترين وقالت : وصلنا عند قطعوا ثدييها وساقوها عريانة في أسواق
المدينة والجلادون يضربونها بالكرابيج ، فابتهلّت الى الله فسترها بثوب
من نور فلم يعد أحد يبصر عريها

وأخيراً حكم الحاكم مرسيانوس بقطع رأسها . فاستأذنه أبوها بذلك ،

١ - سجن المحكوم بالاعدام .

فأخذها الى الجبل القريب وهناك قطع رأسها بيده .
فصاحت البنت : أمّا والد وحش . ديب كاسر . ستي ، كيف حفظت
السنكسار مثل كرج الماء ! فصرت هَلُون اصابع يدها اشارة الانتظار
فأصغت البنت وقالت الجدة : وبينما كان الوالد القاسي راجعاً الى بيته
وثيابه مصبوغة بدم الشهيدة البتول ، أرعدت السماء بغتة وانقضت عليه
صاعقة ومات . وبعد ايام قليلة مات الحاكم فجأة .

فصاحت البنت : آهيك . وقالت هَلُون : ولذلك يصلي الناس
للقديسة بربرة كيلا يموتوا بغتة بلا اعتراف ومناولة . البربرة سلام الله
على اسمها عجائبها كثيرة . منها ان رجلاً كان متعبداً لها ، ولما احترق بيته
وأحاطت به النار صرخ يا قديسة بربرة ! فجاءت اليه حالاً وهو على آخر
رمق فسترته بشوبها وحمته من النار ، وظل حياً حتى اعترف وتناول
ودهن بزيت المسحة وفاضت روحه .

وما أنهت هَلُون حكاية بربرة حتى سمع حداء الغوغاء في القرية :

هيلجي بربرة هيلجي
والقمح بالكواره

فقال هَلُون : سمعت يا بنتي هذا الاحتفال ؟ هو تذكّار طواف
بربرة عريانة في شوارع المدينة . وأقرب الغناء ودخل المعيدون بيت
الخوري وخلفهم صبيان القرية وشبابها ، وهم يصرخون :

هيلجي هيلجيننا ايش ما كان عندك عطينا

وتقدم « المسود » يرقص عند فراش هَلُون ويهتف :

١ - مستودع صغير للحبوب .

٢ - تحريف شعبي لا (هيلجي) من احتفالات عيد البربرة المقنعة .



شيخا فوق شيخا صاحبة البيت مليحا
 فصاحت هلّون : اعطوهم ومحبّوهم .
 ودخل الخوري بطرس وهو يقول : عجّلوا روحو ، جاء المحترم
 بونا اسطفان . لك البشارة يا ست هلّون !
 فهتفت هلّون : الله يبشرك بالخير ، ويرزقك آخرة صالحة .
 ودخل المحترم بونا اسطفان الصالون بقامته المربوعة يتغربل
 ويتدحرج كأنه برميل سنموره . لون وجهه أسود ولا يعرف من ثوبه إلا
 اذا ابتسم . فلو كان علمانياً لكان « مسوداً » بلا صبغة . وعاد الخوري
 بطرس لاستقبال الواعظ في القاعة ، ودار بينهما حديث هلّون المعجوز
 وإنها تنتظر بجرارة ، تريد ان تسمع وعظ بونا اسطفان .
 فقال المحترم : وكيف أعظ امرأة بمفردها ، وماذا اقول لها ؟
 فقال الخوري بطرس : الكلام الذي يدور على لسانك .
 فقال الأب اسطفان : قولوا لها تستعد . أنا حاضر .
 فنادت هلّون بنتها لوسيا لترتب فرشتها وتساعدتها على الجلوس
 جلسة لائقة بكلام الله وبكهنوت الواعظ الجليل . وبعد هنيهة دخل
 المحترم البيت يتوكل على عصاه الابنوسية ، وأعطى هلّون يده فقبلتها ،
 ثم ابتدأت المعركة البتراء^١ ، وما قال حضرته :
 حصاني كان دلال المنايا فخاض غبارها وشرى وباعا
 حتى ضربت هلّون صدرها تلمس شفاعة القديس الذي تخيلته .
 وكاد الخوري بطرس يقرض شفته السفلى المتدلقة من شدة العض عليها

١ - من جانب واحد .

ستراً للضحك ، وتابع المحترم :
وسيفي كان في الهيجا طبيباً يداوي رأس من يشكو الصداعا
فاشتد القرع وتحمست الشيخة وقد أخذتها بلاغة الوعظ ، فقال لها
خوري الرعية : توقي صدرك ، قتلت حالك يا بنت الحلال . ولما قال
بونا اسطفان :

ولو ارسلت رمحي مع جبان لكان يهيبتي يلقي السباعا
امتلات هلون ايماناً ، وظننت انها اذا قالت للجبل انتقل ينتقل .
واقعنس المحترم وازداد كرشه نتوءاً حين رفع عقيرته وأنشد مسك
الختام :

إذا التنين هرول من أمامي يظن البحر باعاً أو ذراعاً
وكان يشد على هذه الكلمات : حصاني ، وسيفي ، ورمحي ، والتنين .
فرسم بذلك الصورة الواضحة التي أراد طبعها في مخيلة هلون . واقترب
من المعجوز وصلى على رأسها متمنياً لها خلاص نفسها .

وجاء حفيدها طانيوس شقيق كاترين يسأل جدته عن موضوع
الوعظة فاجابته : والو اخمنتني خرفت ... من من القديسين راعي
الحصان ، وحامل سيف ، وناقل رمح ، وقاتل التنين ، غير مارجرجس ؟
يقبرني حصانه ، وسيفه ورمحه . نسيت يا ابني ان صورته على الليرة
الانكليزية ، خذ تفرج عليه وحطها بعبك .

وهم طانيوس بإخبارها ان ما جرجسها هو عنتر عبس ، فنكزه

١ - تأخر وقراجع .

٢ - حسبتني .

خوري الرعية الذي حضر تمثيل الرواية المؤلة ، فأمسك عن الكلام. وقال
الخوري وهو يللم أذبال جبته استعداداً للخروج : ايمانك أحياك
ياست هلون .

فأجابته متهلة : الحمد لله ، قبل الرب طلبتي ، فما مت قبلما سمعت
كلام الله من بوز^١ بونا اسطفان .

فقال الخوري : حظك كبير . ثم خرج وهو يتمم : الكنيسة القريبة
لا تشفي

طبيب امرأة

أبصرت أسما أم شاكر قادمة فهتفت بها من بعيد : صحيح أن إبنك تزوج من المدينة ؟ أين كان عقلك لما شاورك ؟
فابتسمت أم شاكر ابتسامة مريضة ، وقالت : ولكنها لطيفة جداً يا ست أسما .

فصفقت الأميرة كفاً على كف وصاحت : مغشوشة أنت . مغشوشة . امهلي حتى تحط رجلها في الركاب . الله لا يفرّك منها . وقعت يا شيخخة . ومدت الست أسما يدها تصافح أم شاكر ، وانطوت عليها توشوشها . امتلأت نفس الشيخة شكاً فسارت في سبيلها واجمة تفكر . ثم انقشعت غمامة سوء الظن فقالت بصوت مسموع ، لا عرس بسلا قرص . متى عرفت الست أسما كل هذا ؟

وكانها في تلك اللحظة قد اهتدت إلى الحقيقة فصاحت : شهادتها مجروحة . كانت عينها على شاكر وخاب أملها . وما اطمأن قلبها قليلاً حتى عاودتها حمى الشك فقالت : ومع ذلك من يدري اربما كانت تعرف شيئاً عن أمها ، عن خالتها ، عن عمتها ، أمّا البنت فمسكينة . عمرها سبعة عشر . وما تاهت أم شاكر في مجاهل الظنون هنيهة حتى هبت

الذاكرة لتجدتها ثانية فقالت لنفسها : لا يجيء على أبيه وأمه غير الغراب .
وما سزي عنها حتى بدت لها امرأة أخرى تضاحكها من بعيد وهي
تهتف : ساعة مباركة يا شيخه . ثم هزت برأسها ، فاصفر وجهه أم
شاكر . تهيات لاستقبال صدمة جديدة ، ولكن هذه قالت : اشكري
ربك على هذه النعمة . أنت عشت حتى زوجت المحروس ، أمّا أنا ، يا
حسرتي ، فمن يدري ؟

فاطمان قلب أم شاكر وقالت : الله كريم يا أم يوسف . قالت هذا
وراحت تجيل عينيها في غضون وجهها فلم يبد لها شيء غير التهئية
البريئة ، فحمدت الله ومضت بسلام .

الساء تتوعد وتهدد ، غيوم تحشد على حدود اليابسة إعلاناً لحرب
عوان ، فكل ما على الأرض يرتجف ويرتعد ، والغم هرولت الى المراح
بدون إذن الراعي .

دخلت أم شاكر بيتها وأسرجت^١ ، فالظلام سريع الخطى ، والسنديانة
تتمسك قدام بيت الشيخ حين ترزعزعا العاصفة . ومصاريع الأبواب
تصطك كأنما البيت مصاب بالبرداء ، والسراج يحرك ألسنته كأنه يهزأ
بالزوبعة .

وكان الشيخ قابلاً في الزاوية فقال لزوجته : دبي للنار بالخطب .
فشبت النار وقعدا يصطليانها^٢ . ومسا افتتعا الحديث حتى انقضت

١ - اضاءت السراج .

٢ - يتدفآن بها .

صاعقة هزت البيت ، فهتفا بلسان واحد : قدّوس . قدّوس . قدّوس .
الغيم يكبّ ما في جيوبه ، وخيول البرق تتراكض يطاردها بعضها
بعضاً فتخترق صميم قلب البيت وتشع فيه شعاً . الصواعق كخيول الطراد
وأبو شاكر وزوجته يصدّانها عنها بالقدوس والبسملة .

ونقلت السماء رحي حريها إلى الجنوب فقال الشيخ : ترى يخدمنا
الحظ ونرمّم هذا البيت ؟ فكان الجواب صوت صاعقة قاما لها وقعدا .
ثم تلتها واحدة أخرى غير مزجرة ، فاطمان ، وأشار بيسراه قائلاً :
بعيدة عنا .

فاجابت الأم : ومن يدريك انها بعيدة عن ابننا ؟
فاجاب ابو شاكر ساخراً : دائماً ابنك .. صار ابنك حكيماً ،
وتقولين ابني ابني . كان ما في الدنيا أحد غير ابنك .. قولي : تعبنا
ولقينا . قولي غداً نفك الرهن ونوفي الدين . العروس غنية .
فتنهت الأم وقالت : هربنا من الدب وقعنا في الجب .
فصوّب ابو شاكر نحو ذقنها شبة انف ابن حرب ، وأشار بهزة
رأس وغمزة عين : خير إنشا الله .

فأطرقت الشیخة وراح الشيخ ينظر اليها ويبرم شاربيه ويفتلها
بيديه الثنتين . ولما استقرت عقارب الساعة على العشرة وعشرة ،
وأبطأت عليه الجواب نكعها نكعة كادت تقلعها وصاح : قولي لي أي
دب وأي جب ؟ ابنك وحيد يا مستورة .. آهي مصيبة اذا تزوج ..

١ - قدوس - نعت لله تعالى ، وهو أيضاً بدء نشيد كنسي .

٢ - اعرابي اشتهر بطول انفه .

ما تزوجت انت ؟ ما تزوجت انا ؟ ولكنها قصة الحماة والكنة ...

فاجهشت ام شاكر وقالت ، وهي تجر الكلمات جراً : عندك للسر موضع ؟ فاستضحك ابو شاكر حتى ابدى نواجذه ' وصاح : هذا آخر زمان .. الحُرمة تسأل زوجها إذا كان عنده للسر مطرح .. نعم عندي ، وحق العُضرا مريم ، عندي قبر لا بشر . فحدقت إليه كأنها تسأله بعينيها الكتمان فصاح ثانية عندي جهنم الحمرا ، قولي يا بنت الحلال .

فتنهدت أم شاكر وقالت : خبرتني الست أسما أن عروس ابنتنا ترقص على الحبلين . قضت عمرها مع هذا وهذا .

فصاح الرجل : الله المجير من لسان النسوان . أهى بنت خمسين حتى تقول الست أسما عنها ' قضت عمرها ' ؟ وقبل وبعد انت كم سهر عندك من شب ؟ كان بيتكم يفرغ ويمتلئ كل ليلة عشر مرات .. واخيراً كنت من نصيبي ، وكنت من خير النساء .

ثم استضحك وامسك طوقه بيده ونفضه قائلاً : هذا اذا لم امكن مخدوعاً .

فابتسمت الام نصف ابتسامة واستطرد هو قائلاً : كان يجب ان تفهمي يا ذكية ، ان جناب الست أسما كانت منتظرة ابنك . فحدقت الى وجهه مستغربة كلامه ، فحملق وكزز قائلاً : نا .. عم . اذا كانت هي بنت مير فابنك دكتور وابوه شيخ الضيعة .

وفياها يتناطحان زحفت المياه في صحن البيت فهباً يطاردانها .

كان الشيخ ابو شاكر يسوق الماء صوب صحن الباب ويقول :

١ - اضراس اربعة .

هذي آخر سنة . وعد الصبي بهد البيت وبناء بيت يليق بالشيخ والدكتور .

فقلت الأم : انا لا اطلب إلا ان يكون حظي ببنت أو ادم .
فصرخ الأب : عدت الى نعمتك الأولى ... اشطفي . اشطفي .
مسحي وقولي : الله يرزق الست اسما ابن حلال مثل ابنك .

وراح الشتاء وجاء الصيف . أقبل العروسان على الضيعة فكانت في دار الشيخ ابي شاكرا أيام وليلات جرى فيها النبيذ وسال العرق . كانت تهب من كل فنجان زوبعة دعوات للدكتور وعروسه . وكان الدكتور وأبوه يردون الكيل كيلين . أمّا العروس فكانت غريبة عما يدور حولها . كانت تجهل الكثير من عبارات القرية وأجوبتها ، فتنبري حماها للجواب رادة عنها هجمات من يقصدون لها امتحانا لزلاقة لسانها . كانت عين الحماة على كنتها ترونها ، وكانت الكنة مسرورة سرورا يخالطه شيء من الازدراء . ادرك الدكتور ذلك فامتعض ، أما أبوه المستأسد في الستين فما كان يدرك شيئا أو لا يبالي قط بما يدور حوله . ينفخ من أنف كالبحر ، وينظر بعيني نسر عتيق ، وينطق بصوت أعرض وأحد من صوت البغاء : شباب ، كأس العريس . اشربوا . ابن كذا وكذا كل من لا يشرب . يا نسوان ، كأس العروس .. كأس سعادتك يا ست اسما شرفتنا ..

فابتسمت الاميرة وشربت كأس الشيخ والعروسين فأجابها الشيخ : وطول عمر سعادتك .

كانت العروس تعجب بفتوة عمها الجبار، تهابه وأن ازدرت هندامه العتيق ، تتعاشى مصافحته لأن أصابعها الدقيقة تضيق في يده الرودانية^١ .

ثم انتضى الصيف وانطوى بساط ليالي أفراحه البلدية ، وعاد الطبيب وعروسه إلى المدينة ولم تبحث مشكلة الديون قط .. فشاكر كان يفر بزلاقة كلما استدرجه والده الى ذلك ، فضرب الشيخ ابو شاكر لدائنيه موعداً جديداً ، ولكل أجل كتاب .

ومرّ الحريف وبات الزيت في خواويه^٢ ، وهبط الشيخ الى المدينة ليشتى عند ابنه الدكتور ، وكما كانت دهشته ودهشة امرأته عظيمة حين قيل لها : هذا بيت الدكتور شاكر .

اعتز الشيخ وكاد يخرج من ثيابه وقال : هذا بيت ... ولكن كلمة طائشة هاجت النمر . سمع ابو شاكر بنت الجيران تقول لأمها : جليلان ، رجل وامرأته . فحوّل ابو شاكر نحوها وجهه الفرزدقي^٣ ، وأراها عينيه الكبيرتين المحمرتين ، وصلعته البراقة فوق حاجبين غليظين ، وشاربين كقرني الكبش ، فاقشعرت وتوارت في بيتها ترتعد ، وهمّ ان يطاردها في عقر دارها ، فامسكت أم شاكر بذيل شرواله وانكسر الشر .

وانشق الباب ودخلا بالكد .. ولكنها رأيا دنيا غير دنياهما . كراسي خيزران لماعة ومقاعد مخملية أرجوانية أين منها مقاعد الخيش المحشوة

١ - الكبيرة (تعبير قروي) .

٢ - اوعية فخارية يجمع فيها الزيت .

٣ - نسبة الى الفرزدق الشاعر المعروف بضخامة وجهه .

هشيماً وقشاً والمجلاة بالشيت الرخيص . أوانر ، أشكال وألوان ، يجهل
الشيخ والشيخة عنها كل شيء حتى اسماءها ، فكان ارتباك زال بعد
حين . كان الاستقبال حاراً ساعة القدوم السعيد ثم أخذ يفتر رويداً رويداً
حتى صار بارداً مثلوجاً بعد اسبوع . مست عزة ابي شاعر ، لأنه لا
يحب الوجوه الجامدة .. قضى العمر شيخ شباب ولا يريد ان يموت إلا
شيخ شباب .

— شاعر .

— نعم بابا .

— لا بابا ولا بطرك ..

فضحك الدكتور وأجاب : ولا خوري ولا مطران .

فعبس أبو شاعر وقال : ابتدأت تهزل معي ؟ إوع آه . العيين لا
ترتفع فوق الحاجب .

— أمرك لا تواخذني .

فصمت هنيهة ثم قال : بنت الطيان^١ لو كان عندها مال قارون لا
ترتفع على بيت بو شاعر . كأنه ما عندها علم ولا خبر عن جدك وجد
جدك ؟ بنت من هي حتى تتأبى علينا .. بنت طيان ولو كانت المال
فوقها وتحتها . اسمع يا ابني ما قالت القدماء : زوان بلدك ولا القمح
الصليبي^٢ .. أكنت بلا عيين لما تقيتها ؟ وجه أحر مثل قفا السعدان .

١ — عامل في الطين .

٢ — نوع من القمح الممتاز .

تضحك منّا بنت الكلب كلما لفظنا القاف وقلنا هادا وما قلنا هيدى
مثلها^١ وحق الذي قال لها كوني فكانت ، نهار غد أطرح أملاكي بالزاد .
الله لا يردّها عن يد بقرة سودا مثلها .

ورنّت في أذن أبي شاكر قهقهة فانتفض كالعقاب ، ولو لم يقف ابنه
بالباب لدخل غرفة العروس وانتهى كل شيء ..

وتعلّق الطبيب بأبيه يتملقه ويسترضيه : مصّ القصب عقدة
عقدة يا شيخ . فكشّر ابو شاكر وصاح : هذي قصب ؟ هذي عظم
على مزبلة

قال هذا وانتفض كالملدوغ ، وبعد أن أطرق قليلا ، أخذ امرأته
بيدها وهو يومي برأسه : قومي . وخرجا دون أن يودّعا . ولما ابتعدا
قليلا قال لزوجته : العوض بالله ، خسرناه يا أم شاكر ، ابنك ما في
يده شيء . صار جحش المره^٢ . يخرب بيتها ، كلّها شبر وعندها هذا
الفعل . دحروجة^٣ تقود رجلا طول المارد . ولكن البيت والمال لها ، ويا
ذل رجل يأكل من تحت يد إمرأته .

بنت الحرام كانت تغطس عندنا في الدجاج والسمك واللحم ، أمّا
في بيتها فتطعم الناس بقانون . لا تنتظري الكرم من ناس يفتحون بابهم
ربع فتحة . وابنك التنبل أي إكرام قدمه لوالده ؟ لا أحوج الله والدّا
إلى ولده . لو أنفقت على نبش النبع نصف ما صرفت عليه كنت
اغتنيت . لو كنّا غرسنا أرضنا زيتونا ولوزاً وتفاحاً لكان عندنا الآن

١ - اي المرأة هي الأمرة والناحية .

٢ - دحروجة : مدورة لكثرة سميتها .



محصول يغنيننا ويغنيه عن التلوث بالمرضى . ولكن أين المرضى ؟ قعدنا
عندهم جمعتين ما نظرنا وجه مريض ، ولا استدعاه احد . ابنك طبيب
مراته .. أما كان أحسن له ولنا لو بقي في الضيعة ؟

ثم وقف وأخذ ذراع امرأته وهزها هزة تعنتها وقال : يفرجها
ربك يا أم شاكر . كنت آكل اللقمة من قلب السبع ولا أزال
بقوة الله .

فتنهت وقالت بعين مكسورة وقلب منسحق : ولكن البيت
مرهون .

فضرب أبو شاكر صدره وصاح : ولكن أنا مفكوك ، تسلم أميركا .
فشهقت وكادت تسقط ، فتلقاها بيده وقال : أنا وأنت يا
مجنونة !

فصاحت وهي تشفق : لا أنا ولا أنت . نموت هنا ، ولا نضيع في
الغربة كما ضاع اخوك في البرازيل .

وبلغ الشيخ والشيخة الضيعة فامتلا البيت بالمسلمين . وبعد أيام
عاد الدائتون الى الحاحهم فقال لهم أبو شاكر باباء : أبو شاكر لا يوطي
نفسه للنسوان . لا قامرت ولا صاحبت ، ولا سكرت . ركبني الدين
لسبيين : نبش النبع وتعليم ابني . لا النبع طلع ولا الصبي نفع ، خذوا
الحشبة التي فوق رأسي واريجوني ..

فهزت كلمته أحدهم فقال : نمهلك سنة وستين ، وبدون فائض يا

١ - فائض : فائدة .

شيخ ، ولا تخرب بيتاً للسيف والضيف .
فتنفش أبو شاكر ، ومدّ يده إلى شاريه ، فعادت عقارب الساعة
إلى العشرة وعشرة بعدما كانت تشير إلى الثامنة والثلاث ، وجاءت القهوة
فشربوها وانصرفوا .

وظلت الأيام والشهور تمر بلا جدوى ، وأخيراً قضي الأمر وطرحت
عقارات الشيخ فبات صريع الهم في الليل وأسير الذل في النهار ، يؤله
أن يسمع من كانوا يخدمون ضيوفه يقولون : بيت الشيخ مطروح
بالمزاد ، ماذا ينفع العلم الذي يخرب البيوت ؟

وكان يحزن جنونه كلما وقعت عينه على تلك الوريقات الملصوقة على
أبواب الكنيسة والدكاكين ، محددة موعد المزايعة في عقار الشيخ . وقعد
عصاري آخر يوم من أيلول يفكر كيف يخرج من مضيقه ، فلم يلح له
بصيص أمل فتنهّد وقال بلا وعي : فرجك قريب يا رب .

وما كاد ينتهي من دعائه حتى ماد به البيت . سمع طقطقة على السطح
أشبه بوقع حوافر معزي تركض فاستبق وزوجته الباب ، وما أطلا
حتى سمعا قرقة انهيار الجدران هنا وهناك . رأيا الغبار يتصاعد
والأرض تميد ، فسقطت زوجته على الأرض مذعورة - فصاح بها : لا
تخافي ، الدنيا تنهز ولا تقع .

وسارت الهزّة الأرضية في سبيلها وراح الشيخ يتفقّد جدران بيته ،
فرأى العيب في واحد منها فقعد يناجي ربه وهو بين الباكي والضحك :
أهذا فرجك يا رب ؟ طلبنا منك الفرج فزعزعت أركان البيت ..
وما انتهى من معاتبة ربه ومحاورة حتى أقبل عليه الناظور

صائحاً : البشارة لك يا شيخ . عوض الله عليك وطلّع النبع . والله العظيم نخن بوز الجرة .

فالتفت الشيخ إلى زوجته وقال : صدقت . قلت لك كنت آكلها من قلب السبع ، واليوم أكلتها من قلب الأرض . فاستدارت عينا أم شاكر ، وانشق فمها ، ولكن الكلام بقي محاصراً هناك .

البهت أنم تفكر في مصيرها

وعاد الثور والحمار ليتزريا بعدما أنهكها التعب . كأننا تحت النير
يحرثان الأرض طول النهار ، فما دخلا المزرع حتى ربطهما صاحبهما ،
وراحا يلحسان ما علق في أرض المعلق من بقايا التبن والهشيم ، ولما لم
يظفرا بشيء انبطحا وجها لوجه وشرعا يعالجان مشكلتهما الإجتماعية
المعقدة على مستوى عال .. فقال الثور : نحرث ونحرث ، والعشاء تبين
وحشيش يابس ، وعند طلوع الضوء يأتينا الطعام المعهود . أتقول أن على
وجه الأرض من هم أشقى منا ؟

فاجهش الحمار بالبكاء ثم نهق قائلا : نعم ، نحن أشقى من عبيدنا
وأنا أشقى الأشقياء . أنت يازميل لك عمل واحد تفلح الأرض وتستريح ..
أما أنا فأين كنت اليوم ؟ أما كنت مشدوداً معك لأن رفيقتك
نفساء ؟ ويوم لا تكون للفلاحة يد يفكر صاحبنا بإيجاد عمل لي ، وإذا
لم يجده خلقه . فلما أن يسوقني لحمل الحطب ، ولما أن يذهب بي إلى
الطاحون ، وإن كان لا عمل عنده حطّ الجلال على ظهري وبسط فوقه
طراحة وركب ليزور أحد أصحابه في القرى المجاورة . والانكى من
١ - وضعت وليدا منذ قليل .

كل هذا الشقا والتعب . مثلهم الذي يردد ويرددونه على مسمعي : حمله
واركب . آخرته للكلاب .

فخار العجل يقول : ألا يكفيك يا ذكي أنك تموت مودة ربك !
لا تذبح مثلي متى شئت أو قصرت فتموت قبل الأوان .

وفي تلك الهنيئة الحافلة بالتأملات العقلية دخل صاحبها يحمل سل
التبن ، قطعاً الحديث لئلا يتسرب إليه شيء من أسرارهما الاجتماعية .
ولما امتلا الملعف تبناً قاما . وهما يقولان معاً : وهل يعطى حمار وثور
غير مثل هذا المشاء ؟

فقال الثور : نحن ولت أيامنا ، وانتقضى زمان عزنا . رحم الله
نصيف اليازجي القائل :

متى ترى الكلب في أيام دولته فاجعل لرجليك أطواقاً من الزرد
هذا زمان الكلاب والقطط يا أخي . ليس الكلاب التي تطارد
الوحوش الضارية ، ولا القطط التي تصطاد الفيران والجردان ، بل تلك
التي تجلس في الاحضان ، وتتبادل وأصحابها القبلات وتُدَلُّ وتُكَلُّ وتُكَلِّ
خير الطعام من ألباننا ولحومنا ، ومن السمك والسردين واللحوم
المعلبة .. أمّا نحن الذين نخدم خدمة نصوحا ونستخرج الخيرات من
قلب الأرض فنرضى بالأكل من حيث كان .. ليس من ييالي بنا ، فلولا
كتفي وظهرك من أين كانت تأكل الناس ؟ أما كانوا يحلون محلنا
ليقوموا بأعمالنا واشغالنا الشاقة ؟

فقاطعه الحمار قائلاً : ولماذا لم تقل كتفي أيضاً ، أما كنا اليوم

١ - حلقات مشبكة من الحديد .

تفّاح الأرض معاً ؟

~ بلى يا صاحبي ، فلولانا ما أعطت الأرض غلة . تأمل ، تزرع ما تزرع ، تحت المطر ، محتملين البرد ، ولا نذوق حبة من الحبوب التي نسقيها عرق جلودنا . وإذا نبت الزرع وحاولنا رعيه أو أن نقضم قضمة منه ، علا الصياح من كل فج عميق ، وانقضوا علينا بعصيتهم ، كان لا حق لنا بشيء من انتاجنا . الحق مع الذي قال : ابن آدم كافر أسود راس .

فقال الحمار : وطّ صوتك لئلا يسمع صاحبنا . قرب حق أوشوشك . أما سمعت بعد بالآلات التي تفّاح وتزرع وتقلب الأرض ظهراً لبطن ؟ قصرت حياتنا على وجه الأرض . سوف يستغنى عنا .
فقال الثور : كيف ؟ ومن أين يأتون باللحوم والالبان إذا انقرضنا ؟ أيا كل بعضهم لحم بعض ؟

فضحك الحمار وقال : ما أقل عقلك يا بهيم ، صحيح أنك فدان نسيت ان عندهم الغنم والمعزى وحيوانات أخرى ؟
فتضاحك الثور وقال : كل عشرين رأس غنم لا تحلب قدر بقرة واحدة . ولكن أنت ماذا يحمل بك يا مسكين ؟ فجلدك لا يسكف ولحمك لا يؤكل ..

فاستضحك الحمار وقال هازئاً : ناس كثيرون يأكلون لحمي .. فإذا ضاق بوجهي هذا المحيط وقل الرزق أهاجر ، مع الذين يهاجرون ...
أما قال الشاعر : وأرض الله واسعة الفضاء ؟

فهزّ الثور قرنيه استخفافاً وقال : هذا آخر زمان ، الحمار فيه يقول

الشعر . إلى أين تهاجر يا جحش ، ومن يستقبلك على البور أو في
المطار ؟ .. نحن همّل^١ ليس من يسأل عنا . الكلاب خير منا ، الكلاب
محظوظة في هذا الزمان . فبعدما كانوا يتنجسون منها ، حتى قالوا :
فلان قعد مني مقعد الكلب ، صار للكلاب صدر الديوان .

فحرك الحمار أذنيه وقال : سبحان الله ! الدنيا أدوار، وهذا الانسان
يلعب بمقدراتنا .

وسمع الثور حس^٢ صاحبه فأسر^٣ الكلام وقال الحمار : هس ، هس ...
ذهبت أيام البراذع والجلال والجلال^٤ ، كما مضت الأيام التي لم تكن
تذبح فيها بقرة .

— أنا ما رأيت يوماً ابيض في حياتي ، فكل أيامي إما أن أكون
محملاً وأما مراكوباً ، واليوم صرت أفلس^٥ . اكتمل النقل بالزعرور^٦ كما
يقولون .

وشق^٧ الفلاح باب القبو فكفأ^٨ عن الكلام وشرعاً يقضيان . فرد
الباب عليها وذهب . وبعد ساعة زمان جاء وفكها وأطلق سراحها
ليرعيا في مرج قريب ، فصادفا جملاً وبغلاً وقعدوا جميعاً يتشاكون فقال
البغل : أنتما يا حمار ويا ثور ، رضىتما بالتبن الخاف فصار طعامكما الدائم ،
ألا تعرفان الانسان طمئياً بخيلاً شحيحاً ؟ الحق على من خلقو كما
وعودو كما هذه العيشة الذليلة . الذنب ذنب المربي ، أما أنا فلا بد لي

١ - مهملون .

٢ - اجراس صغيرة تعلق بأعناق الدواب .

٣ - فاكهة صغيرة .

من الشعير ، كما لا بد لأخي الجمل من الفول والكرسنة . اضربنسا عن الطعام فوقف العمل ، واضطر صاحبنا أن يرضينا ليشغل ويقبض ... فشقق الجمل وقال : هاتيك أيام راحت وآحزني عليها . أيام كنا نأكل فيها الكرسنة والفول المنقوعين ، أما اليوم فلا فول ولا مكيول ولا من يحزنون . كنت فيما مضى اشكو الاحمال الثقيلة ، أمّا في هذه الأيام فالحمل نادر والأكل اندر . هذا الزمان كما قلنا ، زمان الكلاب والقطط ، تأكل خير أكل وتنام على صوف ، ولا تعمل شيئاً .

فنظر الحمار الى الثور نظرة ذات معنى فقال البغل : صرّح يا ابن أبي ، قل بماذا تفكر ، فنحن في المصيبة سواء .

ولما استوثق الحمار من أخيه البغل قال له : اسأل خالك الحصان ، أمّا مرّ وراآني مكدوناً قبالة هذا العجل لأن رفيقته نساء ؟

فقال البغل : وماذا عملت يا حمار ؟ هم يتزوجون ويخلفون وأنت تشتغل عنهم ! قل لي ماذا عملت ؟

— ماذا عملت ؟ أكلت كم عصا ومشيت غصباً عن رقبتني .

فتقدم البغل ينظر الى الجرح الذي أحدثه النير في رقبة الحمار ، ثم هزّ رأسه وقال : لم يسموك حماراً عن عبث ، فلو عملت مثلي لتجوت .

فصاح الحمار : وماذا عملت ! علّمني حتى أعمل مثلك .

فقال البغل : تعنفصت^١ ولببطت وكدشت ... ولما لم أتقد له خاف

وتركني ، وجاء بك يا جحش لتحل محلتي .

فقال : الحكم إذن على الطائع .

١ — تكبرت ، تعجرفت .

فقال البغل : هذي يا ابن أمي شريعة الناس ، ما بلغك بعد قول
شاعرهم : ومن لا يَظلم الناس يُظلم ؟ إذا أردت أن تعرف أخلاق أمة
ففتش عن أمثالها ، فمثل البشر يقول : الفاجر أكل ماله ومال التاجر .
بعد الانسان ألف عشرة قبل أن يركب بغلا ، بينما تراه يركب الحمار
ارتجالاً . يقولون في مثلهم : الحيط الواطي كل الناس تركبه ، أنت
حيطك واطي ، فعبثاً تشكو شكوى الجريح إلى البئزان والرخم^١ .
وهنا تدخل الثور ليعرض قضيته فقال له البغل : سد بوزك .. ولا
كلمة . أنت أقل فهماً من الحمار . ولذلك قال الشاعر :
عليّ نحت القوافي من معادنها وما عليّ إذا لم تفهم البقر^٢
كان يقدر الشاعر أن يقول : الحمر بدلاً من البقر ولا ينكسر الشعر
ولا القافية .. فكيف تترك ابن آدم يجمعك ويكدنك مع الحمار ؟ ألا
يحط هذا من مقامك مع أنه معك سلاح ليس لأحد منا ؟
فاجاب الثور : أنا معي سلاح ؟ أين هو سلاحي ؟
فقال الجمل : معلوم .. ألا تراه ؟ أنت أعمى يا ترى ؟
فقال البغل للجمل : أسكت يا هبيل ، كل الحيوانات تحكي ما عداك .
أنت طمعت البشر فينا ، رقبتهك باع ويقودك ولد أقل من ذراع .
وبربر الجمل ودلق^٣ جرابه الاحمر ، فقال البغل : هس^٤ ولا كلمة . فلو

١ - نوع من الطير .

٢ - أخرجه من فمه .

٣ - أسكت بالعامية .

عرفت قوتك لما أناخوك^١ ، وخطوا على ظهرك الجبال من الاحمال ، ثم نهضت بها ومشيت .

فقال الثور للبغل : يا سيدنا ، قطعت حديثك معي ورحت تحدث غيري . قلت لي معك سلاح ولم تدلني عليه .

فخط الحمار وقال : أعرفتم من منا هو الحمار ؟ هذا هو الحمار . ألا تعرف يا ثور أنك صاحب سلاح لا يتزع منك ؟ فوالله ثم والله ثم والله لو كان لي أحد قرنيك لما تركت انساناً يقودني .

فأجابه البغل : ولكن لك حافر فلماذا تتركه يسوقك ؟

ولما حان وقت المغيب جاء صاحبها ليسوقها الى الزريبة كالعتاد ، فلبطه الحمار لبطة موفقة أطلعت روحه ، فمات لساعته . وكرر^٢ الحيوانات إلى مزرعتهما لا يلويان^٣ على شيء .

ثم كان البحث عن القاتل فاتهم من اتهم . وبينما كانت التحقيقات جارية كان الحمار والثور يتحاوران ، فقال الحمار للثور : هل وصلك خبر الكلب العجيب الذي ينبش المجرم ويقبض عليه ؟

قال الثور : صحيح ؟ ويعرفه تماماً ؟

قال الحمار : هكذا يقولون ، حقاً انه ذكاء عجيب .

فقال الثور : ما هذا ذكاء . هذي قوة شم .

فأجاب الحمار : أنت لا تعترف لأحد بشيء . شم أنت مثله لنرى

ما يكون . نسيت أنه ابن جنسنا ويقبض على الناس متى اعتدوا ؟ هذا

١ - أجبروك على الجثو .

٢ - لا يجيدان عن طريقهما .

فخر لنا يا حبيبي ، فخر وأي فخر ان يخوف المجرمين من البشر كلب .
ويقر الأمن فيما بينهم .

فمغمغ الثور : تف لهذا الزمان ما أرداه ! صار المقام الرفيع فيه
للكلب . كان يمشي خلفنا ذليلاً ، وكانوا يتنجسون منه اذا لمسهم لمساً ،
فصار ينام على السرير ، ياخذون حليبنا ليطعموه إياه في صحن صيني ،
ونحن ما زلنا ناكل في المعالف ، وننام على زبلنا وزبل غيرنا ، ونشرب
من الجرن العفن الأزرق .

فقال الحمار : لا تحسد الكلاب ، يكفي أن فرعاً منا يأخذ بشارنا
من البشر ، الناس الجبناء الذين يغدرون ، ويقتلون في الخفاء . فلو
كانت لهم سلامة النية والشجاعة ما احتاجوا إلى كلاب تدل على المجرمين
منهم . حسبنا فخراً ان حيواناً واحداً من جنسنا يكشف مظالم الانسان
المستبد المعتقد أن الله سلطه علينا فيذبحنا ساعة يشاء . ثم يذبح أخاه
الإنسان ليأخذ ماله وهو غير محتاج إليه . هل سمعت أن حيواناً اهتم
للغد ، فطالب بأكثر من القوت ؟ ومع ذلك يسعون للاستغناء عنا
بآلات صماء ، فما عساه يحل بتا في الغد ؟ حقيقة إن المستقبل مظلم .

فقال الثور : والله ما اعرف لماذا لا نفكر بأن يكون لنا ضمان
جماعي يؤمننا مخاوف الشيخوخة عند المعجز عن السعي ، أما قال المثل :
من سعى على رجله رعى ؟ وهل يحمل الرجل غير البطن المלא ؟

فقال الحمار : انا متكل على الذي خلقتني . ومع ذلك أقول ، وأعني
ما أقول ، إذا كان ليس عند الناس في لبنان مثل هذا الضمان ، فكيف
يكون لنا نحن البهائم ؟

وبيئنا هما يتناجيان انشق باب القبو فدخل كلب غريب لم يعرفا له صورة وجه من قبل ، فظنناه الكلب الذي تحدثت الصحف عن عبقريته والاستقبال الذي جرى له في المطار ، فنفع الثور وعج . ونهق الحمار وحاول أن يقطع الرسن . تمثل له شبح جريمته وتذكر حديث الكلب الذي ينبش المجرمين ، فخال أنه هو ، وأنه جاء ليقبض عليه .. أمّا الثور ، وهو البريء من كل اثم ، فتشدد وقال : مرحباً بالضيف ، شرفتنا بهذه الزيارة أيها النسيب العزيز ، الضيف له الكرامة ، ولكن بيتنا خالٍ حتى من عظمة . وكل ما نرجوه منك غض النظر عن جريمتنا ، ولا تفضحنا بين الناس فيشمتوا بنا . كن نصيراً لبني عمك ، فنحن كلنا من ذوي الأذئاب وهم بشر ظالمون . إذا قتلنا واحداً منهم خطأ فكم قتلوا من الملايين من أعمداً . كن حيواناً ولا تتبع بني عمك بطعام مريء يعدونه لك ، كنا مظلومين ففار دماً وقتلنا صاحبنا عن غير سابق تصور وتصميم .

أمّا الكلب فوقف مبهوراً صامتاً لا يفهم شيئاً مما حكاه الثور . وتشجع الحمار وقاطع الثور قائلاً : يقولون إنك ذكي جداً يا ابن العم ، والذكي مثلك لا يجهل المادة الكلية القائلة : جناية المعجماء جبار ، وخصوصاً أن الجاني حمار .. ثم زوى ما بين عينيه ونصب أذنيه وقال : إذا كان « الاجتهاد » يرى الإنسان العاقل من جناية القتل عمداً ، أفلا يرى هذا النص الواضح كعين الشمس جحشاً مثلي ؟ كن فهيماً . هذا نص وليس حيلة تلبس رداء القانون ..

١ - جناية الحيوان فظيمة .

فابتهج الثور واستضحك في عبه وقال : ومتى تعلم الحقوق
هذا الحمار ؟

ولم يفهم الحمار ما قاله الثور وأتم حديثه : ثم لو سلمتني ماذا يصير ؟
انهم يخلون سبيلي بلا كفالة . في هذا البلد جناة كثيرون ، فاذا أردت أن
تبيض وجهك مع أصحابك فاقبض على واحد منهم بدلا مني . لا تخف أن
تتعب ضميرك ، ففي اليوم الواحد ترتكب عدة جنايات .

وبينا كان الثور يحاول إقناع الكلب ، والكلب لا يفهم شيئا مما
يقال ، كان الحمار يتهيأ لمغامرة . يريد أن يموت قبل ان يستسلم للكلب ،
فلو كان أسداً أو غمراً لهان عليه الأمر . اذ كان المثل يقول : ياكلها
السبع ولا ياكلها الضبع فكيف بالكلب ؟

ولم تنجل الغمرة إلا عندما لف الكلب ذنبه وخرج . وظل الحمار
حيناً قلقاً مشغول الفكر يبكته ضميره حتى عرف أن الكلب سوقي لا
بوليسي ، وقد مرّ من هناك عرضاً ...

قَصَصِي وَاجْهَارِي

مدارس الأمازيغ ومدارس النجوم

أليس من حق الطالب أن نعرض عليه شريط ذكريات مدرسية قديمة وحديثة ؟ أليس هو منصباً على دروسه حالماً بشهادته ، عروس آماله ، التي يرى السعادة كلها في تراويقها وحروفها ! يقول الناس عموماً وذوو التلاميذ خصوصاً: أين مدارس هذا العصر من مدارس ذلك الزمان ؟ وأين تلاميذنا من أولئك التلاميذ ؟ إنهم طبعاً يضعون الحق على المدارس ، ويبرّتون أنفسهم حين يقولون هذا . ولهذا أنا أروي ما مرّ على رأسي من شؤون المدارس وشجونها ، فيقابل القارئ بين مربي ذلك الزمان ، ومربي اليوم .

دق قلبي دقات عنيفة عندما قال أبي لامي : دبرنا له مدرسة . والتفت إلي وهو يحرك كلماته : غداً تصير الشدياق^١ مارون ، فلم أبرد ما كان ينتظره من الارتياح فأعرض عني .

ودخلت المدرسة مع من دخلوا فكانت الفاتحة ان أكلت قضيبين سخنين على سفح ظهري ... فارخيت لرجلي العنان فاستقبلني والذي

١ - زيتنها من الرسوم .

٢ - أدنى من الكاهن درجة واحدة (يونانية !)

المعلق بأحد قضبانه .

كان ، غفر الله له ، يعمل بنصيحة ابن سيراخ القائل : إذا أحببت
وليك فهبيء له القضبان حزماً حزماً . ثم قادني بأذني كالعتزة الشاردة ،
وهناك على أعين التلاميذ قال الكلمة الماثورة للمعلم : اللحم لك ، والجلد
والعظم لي . ثم التفت بي وقال : فهمت يا بني ؟ ومنذ ذلك الحين صرت
أطوع من الخاتم في الخنصر ، وانعم من الخمل .

ويوم أحد الوردية^١ الكبيرة خرجنا من الزياح^٢ فاذا بزمارين معهم
دب يغنون له ويرقص على وقع الدف والقصب ، فعجبت من طواعية
الدب واستوائه كالشعر . يعرض العصا بين كتفيه كالناطور ، ويمشي
مشية الصبايا والعجائز ، ينام ويقوم كما يكلفه صاحبه ، حتى أنه يدخل
بالغليون .

قلت لو الذي : الدب كيف تعلم كل هذا ؟ فضحك وقال لي المثل
المعروف : العصا تعلم الدب الرقص .

فهمت تغريضة بي وقلت في نفسي : إذا كانت كقضبانك تعلم
أكثر من دب .

هذه واحدة من ذكريات مدرستي الأولى ، مدرسة تحت السنديانة ،
حيث كنا نصطف خطأ طويلاً^٣ حيط الكنيسة ، الأعلى فالأعلى
علماً . وفي تلك المدارس كانت تسوسنا العصا ، استأذة الدب . أما
عقاب الجرائم الكبرى فكان « الفلق » . . . ليتك تذوق طعمه . الفلق :

١ - أول أحد من شهر تشرين الأول وهو مخصص لعبادة العذراء .

٢ - طقس ديني .

خشبة تكمش الساقين كالعض، لتعرض القدمين الى قضيب المعلم فينصب
بلا شفقة . إنني لم أذق هذا العلاج، والفضل لحزمة قضبان الوالد التي إذا
مات منها سيد قام سيد .

وواحدة ثانية من ذكريات اول مدرسة داخلية: اذكر ولا انسى ابداً
انني بكيت اول ليلة بكاءً مرأً حتى بللت دموعي مخدتي وتعكرت من
الغيظ عيناى ، كما قال داود بعد فعلته تلك .. كنت كالغريب في تلك
المدرسة فاستوحشت جداً ، وعلت النفس بالسو فاذا بي في الغد التفت
صوب بيتنا فابكي . سخر منى رفاقي وسموني البكاء . ولكني فقتهم
درسا حين نسيت ملاعب صبوتي فراح ذلك الاسم .

ومرت الايام فجاء أحد المرفع فتذكرت الحروف الذي ذبحناه
عام أول ، وارتمينا بشحمه ولحمه كعداري امرى القيس . تذكرت
الكبة النيّة والهريسة والكروش المحشوة وجميع أصناف المأكّل اللبنانية،
فبكيت في فراشي حتى درى احد رفاقي فقال لي : تبكي يا مارون ؟
فاجبته لا . باصر بنومي . فضحك وضحكت .

وسمع حديثنا الراعي ، أي الناظر العام ، فلم يزد على قوله : شر
الصباح ولا خير المسا . ناموا .

ما غمضت لي عين تلك الليلة . أحاول النوم ولا قرار على زأر من

١ - بعد استيلائه على زوجة اوريا .

٢ - ايام معلومة تتقدم الصوم عند المسيحيين وهو الزمن الذي فيه ترفع
بعض المأكولات . اي ينقطع عنها المسيحيون ولا يعودون إليها الا بعد
عيد الفصح .

الأسد . إن شبح القصاص رهيب ، أخاف على جلدي ، فكل شيء إلا
المصا . ولكنها مضت على خير . هاودنا المدير بمناسبة « اوكازيون »
المرفع .

ويوم عيد البشارة^١ ، ٢٥ آذار ، ساقنا « الراعي » إلى تزهة في وطا
عين كفاح فسرحننا في تلك البطحاء المقفرة نتنافس في جمع الأزهار لدفن
الصليب ، فكنت كلما قطفت زهرة التفت صوب العقبة ، ولكنني لا
أرى أمي مهرولة فأعود إلى انتقاء زهراتي ، ثم أتلفت فلا أراها .

ودق جرس الضيعة معلناً الظهر فانسلخ قلبي . وقفنا جميعاً لصلاة
التبشير ثم قعدنا تتغدى على مرجة عين الوطا . إنها عين بلا ماء ، كما
يقول المثل : اسمك عروس فلا تحزني . ولما يثست من مجيء الوالدة
همست في أذان اصحابي من التلامذة : اطلبوا من الراعي أن يفرجكم على
كنيسة ضيعتنا . فصاح بهم : يا قليلي الادب ، قولوا زيارة مار روحانا^٢
عليه السلام ، وأخذ يسرد لهم عجائبه عن ظهر قلب ، كأنه يتلو
السنكسار .

فصاحوا : لا تواخذنا يا معلمي . غلطنا . زيارة مار روحانا عليه
ألف سلام ... فصاح إذ ذاك : اصطفوا . وإياكم أن تتلفتوا في الضيعة
يميناً وشمالاً . لا تردوا على من يسلم عليكم قبل الصلاة ، واعطاء
« الديوكراسياس »^٣ .

١ - عيد بشارة العذراء مريم من الملاك جبرائيل .

٢ - قديس شفيح قرية المؤلف .

٣ - صلاة الشكر بعد تناول الطعام .

ودخلنا الضيعة أصناماً أو كالأصنام، وصلينا في كنيسة مار روحانا صلاة طويلة . ولما خرجنا عرضنا في الساحة ، وصلينا أيضاً السلام الملائكي واعطانا « الديوكراسياس » .

ورحنا نلعب بالطابة في تلك الساحة وجيران الكنيسة يتفرجون علينا من بعيد ، لا يسمح الراعي لأحد أن يخالطنا .

وبينا أنا اغمز ابن عم لي ليذهب ويخبر أُمِّي فإذا بها مقبلة ، تحمل على صينية ، الفول الأخضر، واللاوز الفريك^١ ، والتبولة مع ورق العنب. وبعد ألف رجاء سمح الراعي لرفاقي بأكل ذلك .

وطلبت والدتي من حضرته أن ياذنني ربع ساعة لأرى اخوتي الصغار فامتنع ، وقال للوالدة : القانون مقدس يا أم مارون .

فاجابت الوالدة : القانون على رأسنا يا محترم ، ولكن هذا ولد ، وإخوته صغار ، والبيت على رمية خجر ، فما عليه لو رأى اخوته ربع ساعة ؟

فاجابها : هذا لا ينفعه ، اتركه ، قسي قلبك يا أم مارون .

فاجابت : اهو قلب الأم حديد حتى تقسيه ؟

فقال ، وهو يشد على كل كلمة : العلم لا يسع معه شيئاً . رؤية إخوته ربع ساعة تشغل باله جمعة . الله يجبرك يا أم مارون ، اتركي ابنك يتعلم، الصبي شاطر . لا تشغلي باله . قال هذا ودق الجرس وعج : « انا فان » .

لم يعز والدتي إلا بهذه الكلمة ، قالها وهو مشمر^٢ : تموز قريب ، ما

١ - السهل الكسر .

٢ - رفع غيابه قليلاً عن الأرض استعداداً للمشي السريع .

بقي إلا ثلاثة أشهر ونصف . وأدارت امي ظهرها وأظنّها بكت . أمّا أنا فالتفت صوبها ، فزجرتني الراعي كما يزجر المعاز عنزة خرجت من الصف ، فلعلت لحيته في قلبي .

قلت : تموز . تموز . نعم ، يا قارئي العزيز ، كنّا ندخل المدارس في أول تشرين الأول ، ثم لا نخرج منها إلا في منتصف تموز . لا فرص ولا أعياد . لا مرفح ولا من يحزنون . قلت هذا لأذكر أنظمة مدارس ذلك الزمان .

أمّا اليوم ، فتمّوز محذوف من تاريخ السنة المدرسية ، وتشرين الأول أكلوا ثلثه ، والفرص أكثر من الهم على القلب . في كل أسبوع يصبّح التلميذ أهله ويمسيهم ، ناهيك بمخالطته الناس في المدن ، فمن قهوة الى سينما ، ومن مرقص الى سباق خيل ، إلى جهنم الحمرا ...

إذا وبّخ الأستاذ تلميذاً وقعت السماء على الأرض . وإذا فرك المعلم اذن صبي أقعد والده شاريه وكشّر عن ناييه وشمّر عن ساعديه، وجاء المدرسة للمصارعة .

ولا تنسّ الاضرابات والتظاهرات ، فهي تذهب بقسم كبير من أوقات الطالب ، خصوصاً اذا كان الموسم مقبلاً ... وهناك بلية هي شر تلك البلايا . إنها بلية الأذن ، وقد سهّلها التلفون ، ففي كل يوم يزعجنا الطلاب وذووم . وإليك نموذجاً :

دق جرس التلفون . - نعم هنا المدرسة ، من تريد الست ؟

- من فضلك مدير المدرسة .

- نعم ، أنا المدير ، وحضرتك ؟

- أنا أم فؤاد يا أستاذ .
 - أي فؤاد منهم ؟ عندي أكثر من فؤاد يا ست .
 - فؤاد ... فؤاد عيطو . أرجوك أن تسمح له يوم السبت .
 - لا إذن في التلفون .
 - كيف ؟
 - نعم ، هذا ممنوع .
 - والسبب ؟
 - السبب ... بسيط ... أنا لا أعرف صوتك . وأحياناً تكون
 الأم غير أم ...
 - شو عمبتقول ؟ (بارول دونور) ، أنا أمه .
 - أمس كان عندكم يا ست ، والاذن بالشهر مرة .
 ولما عرفت ان حيلتها لم تجز علي راحت تقهقه وتغني بلا حياء :
 زوروني بالسني مرة .
 هذه واحدة ، وواحدة اخرى أتت من واحد لم تعجبني سياه . أقبل
 علي يستاذن لطالب زاعماً أنه جاء من عند أبيه الذي ينتظره بيروت .
 فبغته بالسؤال : حضرتك اخوه ؟
 فأجاب : ابن عمه .
 قلت : مؤكد ؟
 فانتفخ وتعالى وقال : نحن لا نكذب يا أستاذ .
 قلت : بما أنك لا تحمل رسالة من والده ، تفضل وأرني بطاقة
 هويتك .

فاصفر ، واحمر ، واخضر ، وذهب متعشراً ، فكلت له التويخ
بلد ، ولكنه ولي صابراً عليه صبراً جيلاً .
إن أحوالاً كهذه تقلقل معاهد العلم وتقف حجر عثرة في سبيل
إعداد جيل صالح ، ولهذا لا أرى مستقبلاً باسمًا لثقافتنا .
إذا لم يحتل العلم ، وحده ، ساحة شعور الطالب ، فهيئات أن
يفلح .

كيف تعلمنا

أظن أن للأبجدية التي أبصرت النور على شاطئنا عملاً عظيماً في العقلية اللبنانية . لقد فصلنا الدهر المستهزئ ببنيه عن ذلك الزمن الحافل بالأبجداد ، ولكتنا مشينا في ظهور جدودنا نحلم في كل عصر بالقراءة والكتابة . فمنذ قرن وأكثر كان شعار اللبناني المثقف دواة يشكها في زناره ، سيان في ذلك من يلبس غبازاً يحرق اذباله ، وهي الصورة الغالبة على هؤلاء كالشيخ نصيف اليازجي ، أو من يلبس شروالاً كالمعلم بطرس البستاني .

كان الكاتب اللبناني يتباهى بتلك الأداة النحاسية ، ذات الباقول^١ المنقش ، والقصبه التي تنام فيها أقلام « الغزار » مطمئنة . فإذا دخلت قصر الأمير اللبناني رأيت فيه رجلين : رجل السيف يزين صدره خنجر ذهبي الغمد^٢ ، ورجل القلم وحليته^٣ الدواة التي جود صنعها آل نفاع في بيت شباب فأصبحت تحفة طريفة ، بل وساماً لبنانياً بكل ما

١ - دواة من خزف (يونانية)

٢ - قراب ، بيت السيف أو الخنجر .

٣ - زينته .

تتحمل لفظة الوسام من شرف ومجد .

وكانت الكتابة ، منذ قرن تقريباً ، مفخرة يتباهى بها من يحسنها
فيمشي الشدياق كابن الرومي مشية يغربل فيها . وقد سمعت في عرس
منذ نصف قرن وأكثر واحدة غنت لي « زلغوطة » . تلك أول مرة
سمعت فيها اسمي في الهواء ، ويذكر في محفل .

من عادات اللبنانيين في أعراسهم أن يغنّوا ، رجالاً ونساء ، في
تمجيد بعضهم أولاً ، وقد لا يحرم من له بعض الشأن من « ترويدة » رجل
أو « زلغوطة » امرأة ، وهذا ما ظفرت به أنا في ذلك العرس . غنّت لي
السيدة ياقوت فقالت :

آووها - انا ما بغني عالها وبغني لها لجمع كلّو سوا
وبخص من بينهن شدياق مارون ملفان وييلقلو شك الدوا
كانت تلك الاغنية كنفخة في فقاعة صابون ، فهرعت الى دواة
مهجورة كانت عند جدي فجلوها وشككتها في زنجاري ، ولم أدع زقاقاً
من الضيعة الا عرضت فيه دواقي على الأنظار ، فكنت شدياقاً صغيراً
يشك دواة لا يقل وزنها عن نصف أقة .

اللبناني لا يتمنى ثروة وافرة ، فحسبه القوت . نشأ وهو يردد :
هنيئاً لنفس ما عليها ولا لها . إنه خشن كصغوره ، إذا حصل على
البرغلات والزيتات والتينات عاش عيشة راضية . أمّا ما يشغل باله فهو
تعليم ابنه ولو القراءة البسيطة ، وتعليق الحرف وكتابة الهندي ، أي

١ - هتاف في الاعراس .

٢ - هتاف يطلقه الجمهور تكريماً لعريس او زعيم .

الارقام الحسابية .

وإذا قلت لواحد منهم كيف الحال ، فلا يشتكي الفقر ولا يتذمر من خشونة العيش . اللهم الاكبر هو خوفه من أن يفوته تعليم أولاده . وإذا عرفنا تاريخ الوقف اللبناني في كل قرية عرفنا أن غايّة الواقف ، منذ مئات السنين ، كانت تعليم الاولاد . ففي ظل الكنيسة تنشأ المدرسة . وإذا تهاون وكيل الوقف قامت قيامة القرية ، وكذلك قلّ عن ديورة الرهبان . فعلى الدير أن يخص راهباً بتعليم الصغار القراءة والكتابة مجاناً .

أمّا كيف كانوا يعلمون ويتعلمون فإليك الخبر : يكتب المعلم الألف باءً على ورقة يشكها الولد بخشبة مفروضة لها متكا ، وياخذ مدلاً وهو عود رفيع يدل به على كل حرف تعلمه . ومتى عرف الألف باء طرداً وعكساً وانتقاء ، كتب له القسيس الأبجد ، ثم ينقله الى « القدوس » . وغاية الغايات كان مزامير داود . يقرأونه ولا يفهمونه .

هذه المرحلة هي المرحلة الأولى التي يقف عندها الاكثرون وهي تضاهي الشهادة الابتدائية اليوم ، وإذا كان الولد ابن بيت ميسور أدخله أبوه مدرسة أعلى . وهذه المدارس الصغيرة كانت منتشرة في لبنان ، يُقدمُ على فتحها الكهنة المتبتّلون فيعلمون بها أبناء القرى المجاورة . ومن يقدر أبوه على تعليمه فهناك مدارس عالية للتعمّق في درس النحو واللغة .

وكانوا في ذلك الزمان يعتمدون على الذاكرة يحشون عقل الطالب

١ - اسم كتاب .

محفوظات لا أول لها ولا آخر . شعر ونثر ومن كل عصر ، والويل لمن يلحن أو يخرم حرفاً أو يخطيء في حركة عين المضارع فتقلع عينه وتصلم أذنه . المتقدم من الطلاب يعلم النحو في ابن مالك . شعر منظوم يحفظه التلميذ كالماء الجاري . أما شرح المعلم فهكذا . يقول أولاً بيت ابن مالك بكامله :

(كلامنا لفظ مفيد كأستقم واسم وفعل ثم حرف والكلم)
ثم يشرح قائلاً : يعني كلامنا لفظ مفيد مثل استقم . وينتقل إلى الشطر الثاني فيقول : معنى هذا الشطر الكلم اسم وفعل وحرف . فهمت يا أولادي ؟ فنجيب بصوت واحد : نعم معلمي .
- طيب ، عافاكم ، عافاكم .

وينتقل إلى درس آخر فيقول مثلاً :

والاسم منه معرب ومبني لشبه من الحروف مدني
ويسير في شرحه الدرب الدرب فيقول : يعني الاسم منه معرب
ومبني لشبه من الحروف مدني . فهمت ؟ فقلنا نعم ، إلا واحداً اجترأ
وقال : لا . ما فهمت يا معلمي .

فرد المعلم ذيل كوفيته الايمن على كتفه اليسرى وقال : شربل
جحش ، مها شرحنا له لا يفهم . فضحكنا وبكى شربل . ومضى المعلم
يشرح بتلك البراعة ، يقول لنا أشياء وأشياء وقل منّا من فهم عنه
شيئاً .

ومضت السنة على ذلك المنوال ، يلقي علينا ألفاظاً يضل في وادها

١ - على طريقة رثية .

الشنفرى ، ويتيه امرؤ القيس .

وفي ذات يوم جاء والد يحمل الزاد لابنه ، فقمـد يستريح قرب
شباك غرفة درسنا ، فسمع معلمنا الخوري يترنم بهذا البيت مستشهداً به
على مضارع كان وحذف نونه :

صاح شمر^١ ولاتك ذاكر الموت فنسيانه ضلال مبین^٢

فصاح ذلك الولد من الخارج وهو يصفق على فخذه : يه يه يه .
استح يا خوري يوسف ! لا تعلم أولادنا قلة الهيبة .

ويجيء رأس السنة فيفرض علينا أن نكتب إلى آبائنا مكتوب
معايدة ، فنحك رؤوسنا فلا يخرج منها شيء ، فنهرع إلى الكتب المختصة
بالمراسلات كالشهاب الثاقب^٣ وغيره ، حتى اذا وقعنا على المكتوب المطلوب
نقلناه بكل أمانة وبعثنا به إلى أهلنا . وأليك واحدة من هذه الرسائل
الطريفة التي نقلها رفيق لي عن تلك الكتب ، ووجهها إلى والده :

والذي العزيز ،

بعد لثم يديكم وطلب رضاكم الأبوي على الدوام . أحاول أن أكتب
إليك فيفت^٤ في عضدي لأن باعي قصير ، ولكن شوقي إلى محياكم يجري
قلمي في هذا المضمار ... إلى أن يقول ، طبعاً نقلاً عن الكتاب : « نحن
متوجهون نهار الخميس القادم إلى طرابلس الفيحاء . ثم نقل خاتمة المكتوب
بشحمها ولحمها ، وبعث برسالته الى والده فوصلته مساء الأربعاء .

١ - ظاهر ، واضح .

٢ - نافذ .

٣ - يضعفني .

فما قرأه الوالد حتى اضطرب . شغلت باله عبارة فت في عضدي ،
وباعي قصير . فخشى أن يكون قد أصاب ولده مكروه وفت عضده ،
وقصر بابه ، وازداد اضطراباً حين علم أن ولده متوجه إلى طرابلس .
وقعد الرجل يفكر ، ولكنه لم يتوصل إلى حل الغاز مكتوب ابنه ،
وأخيراً قال للمكاري : عش البغلة ، وبات على السفر . فما انشق فجر الغد
حتى كان في البحصاص .

وقضى ذلك النهار يفتش عن المحروس في شوارع طرابلس وأزقتها ،
ولما أعيا قصد المدرسة فوجد ابنه فيها سالماً ، لا باعه قصر ولا عضده
مفتوت ، فحمد الله وسأل ابنه : متى رجعت من طرابلس ؟ فهز الفتى
كتفيه وقال : أية طرابلس ؟

— طرابلس . أنت كتبت لي انكم متوجهون إلى طرابلس ، فشغلت
بالي ولاقيتك .

فقال الطالب النجيب : هكذا مكتوب في الكتاب .
وكانت دقيقة صمت جزم الوالد فيها أن تعبته غير ضائع ، وان
المحروس سيكون من النوابغ إذا عاش ...

وحكى لي مرة البطرك الياس قال : دخلنا مدرسة غزير وكتبنا
لوالدنا نذكره بالنجاسة التي حد بيتنا ، فأرسلوا لي سلة فاكلت وأطعمت .
وفي العام الثاني تعمقت في اللغة ، وأخذت عن معلمي أن الجيم
والصاد لا يجتمعان في كلمة ، فدقت ورميت والذي بمكتوب الكلمة
الصغيرة فيه رطل . ولما بلغت ذكر النجاص استعنت بفصاحة معلمي ،

١ — من ارباض طرابلس .

فأرشدني إلى الكلمة الفصيحة . فكتبت : يا والدنا لا تأكلوا الكمثرى
وحدكم ، ولا يغرب عن نيرتكم تذكر ولدكم الذي يحب ذلك الجنى .
فحُرِّمَتْ تلك السنة أكل النجاص لأن والدي لم يفهم ما قصدت .
هكذا كانوا يعلمون في ذلك الزمان ، ومع عقم هذا التعليم فقد
أنبتت البلاد رجالا كان لهم شأن مذكور في تاريخنا . استفادوا وأفادوا
لأنهم أرادوا . والارادة أم الابداع .

أولى مغاريكي الأديبة

كان جدّي لوالديّ ، رحمها الله ، من علماء زمانه . وكان يخشى أن يرفع العلم من بيته حين يخفض أو يرفع هو من هذه الدنيا . ولما رأى في قساً من ذكاء توهم أنه سيصير ناراً آكلة ، فجعل وكده^١ في بعد خيبته في بنيه . وأخذ يناقشني في أمور فوق عقلي فكنت أجاريه في شوطه فيتفامل ويتشام مع رياح الأجوبة والاسئلة التي تهب عليه من ناحيتي . فالكلام بيننا أخذ ورد ، وكما يكون الحوار بين رجل خنق التسعين وابن أربعة عشر .

كدت أصير ظلاً لشيخ الزهيري^٢ الذي لم يسام الحياة ، فهو يجري معها في المضمار وإن قطع الجري انفاسه .. وأسطع صورة له وأوضحها في ذهني هي لحيته المندلقة على صدره . وكنت إذا أبدت إعجابي بها ، وقايست بينها وبين لحي زملائه الآخرين همهم أبي وقال لي : هذا ربعها يا صبي ! يا ليتك نظرتها في عزها . حظك قليل ، يا سلام ، يا سلام

١ - لمعة ، بصيص من نور .

٢ - جهده .

٣ - زهير بن أبي سلمى الشاعر العربي المعمر .

عليها.

وقال جدي لوالدي في احدى ليلي الصيف : افكر بمدرسة كبيرة . هذه المدرسات صارت صغيرة على الصبي ، ربما طلم منه شيء ، من يعلم ؟

ثم عقدت جلسات عديدة شاركت فيها الوالدة ، وأخيراً : أقروا بالاجماع أن يدخلوني أكبر مدرسة في المقاطعة . وكان العهد بالعلم في ذلك الزمان غير العهد به اليوم . ندخل المدرسة في أول تشرين الاول ، ثم لا نرى وجه الضيعة قبل منتصف تموز . لا أعياد ، ولا مرافق ، ولا فرص ، ولا ولا . كنا نودع أهلنا جادين غير هازلين ، فهي غيبة لا هواة فيها .

وإذا عدت صيفاً فلا كون في كنف شيخي ، أي من مدرسة ثابتة عنيفة الى مدرسة متنقلة اعنف . كان ، رحمه الله ، يذاكرني في كل فن ومطلب . في الإعراب والتصريف ، ورواية الشعر والنثر .

وعدت من المدرسة في سنة ١٩٠٠ فرأيت شيخي مهدوداً ، ولكن نفسه ما زالت كما كانت . ظل يذاكر في كل ما يعلم ، ويبيدي آراء أعجب بها ، وأستغرب صدورها من مثله .

ونُعيت إلينا في منتصف آب امرأة صاهرنا أحد أبنائها ، فقال لي جدي : شكر لي ريس مدرستك جرأتك ووقفك على المنبر ، وأنا أحب أن أسمعك قبل غياب شمسي . هيسء مرثاة تقولها غداً في المحفل ، وأحب أن أسمعها لأعطيك رأيي فيها .

١ - لا تساهل .

وكانت علامة انصرافي من حضرته فتحه كتاب صلواته الخمس
- الشحيمة - فدخلت البيت ، وأنا افكر إلى أي كتاب التجيء . إلى
بجاني الادب ، إلى مجالي الغرر ، أم إلى الدرر لأديب اسحق ؟ تلك كانت
كتب مطالعتنا في ذلك الزمان ، فتأبطتها مع كف ورق وقلم رصاص
وقصدت موضع خلوتي وانفرادي . صخرة عالية في القرقفة^١ ، تحتها واد
عميق استعليت بها مقاماً للدينونة ، حواليتها منطقة تكسوها خضرة
السنديان والامس وأشجار برية مختلفة . هناك جلست على مقعدي الذي
تعودت أن اقرأ ، وأنا عليه ، الكتب التي احبها . قرأت عدة تأبين لأديب
اسحق وفيه .

كنت سمعت أن تغاريد الطيور تهيج القريححة^٢ فتمنيت لو يجيء
الحسون ويغرّد بالقرب مني ، ولكنني ما سمعت إلا زقزقة عصافير غير
ملهمة ، ثم أخذت الحجال تتكلم في الأحراج المناوحة^٣ فما نفعتني ولا
هاجت قريحتي ، فصرت أقول : آه على الحسون ! أين الحسون الآن ؟
الحسون وحده يوقظ هذه القريححة النائمة . واخيبتني عندك يا جدي . ها
قد مضت ساعة وساعتان ولم أكتب شيئاً . فلاكتب . وكتبت :
كذا فليجل الخطب ... وقبل أن أتم البيت ، قلت : لا : غداً عيد
السيدة^٤ ، وهذا عيد عظيم في البلاد كلها ، وخصوصاً في ضيعة المرحومة ،
فكنيستهم على اسم السيدة . اذن الأفضل ان أبدأ هكذا :

١ - اسم المكان .

٢ - المقابلة .

٣ - المنراء مريم .

لبس الرجال جديدهم في عيدهم ولبست حزن الامهات جديدا
الآن جرى القلم . فلنكتب على خيرة الله ، فكتبت :
إنني في موقف حرج بين الموت والحياة، تخنقني الزفرات، وتفرقني
أمواج البليسات ، قلبي مصاب بسهام الاحزان ، وصرت هدفاً لنوب
الزمان .

— غاق ، غاق ، غاق . هذا غراب ينطق . لعن الله الغربان ! وزاد في
الطين بلة أنه فرد غراب^١ ... وهكذا قطع الغراب مجرى الوحي
والإلهام ، فطويت ورقتي ودفنتها في عبي . وعدت الى البيت ، فوجدت
جدي قاعداً ينتظر ، فحكيت له ما جرى فضحك ضحكة مرة وقال :
قريحة تهيجها دقات حجل ويهددها نقيق غراب ما هي قريحة ..
فقلت له : شر الصباح ولا خير المساء . غداً تسمع ما يعجبك .
فقال . اتكلنا على الله .
فقلت : وربما الليلة .

فقال : إذا فاض النهر ، وما طار غراب ..
وكانت الوالدة تسمع هذا الحديث ، وكأنها مرتبكة في حل رموزه ،
فاشارت بمدها كصاحبة ابن أبي ربيعة ، وقالت : ايش ؟ فقلت :
ماش ، بحياتك يا أمي إجلي^٢ زجاجة القنديل . وقصي فتيلته . بالك
مشغول بحديثي مع جدي . غداً تسمعين ما يرضيك . فانكبت على

١ — نواب ، مصائب .

٢ — يتشامم اللبنانيون برؤية غراب واحد .

٣ — نطفي .

إصلاح هندام المصباح وهي تردد ضاحكة : ما صبح إلا فتح .

وقعدنا على المصطبة قدام الباب ، وأصغى جدي لسمع تأييني لأم
أنطون ، فما أسمعتة قولي : إتنى في موقف حرج بين الموت والحياة ،
تفرقني أمواج البليات ، حتى ضحك وقال : لا ، لا ، كثرتها يا ابني .
طيب قل ، فأنتمت : يحق لي ذرف الدموع ، وندب هاتيك الربوع ، ولعن
الدهر الخؤون ، لأجل ما يقره مقلب المنون .

والتفت بجدي فرأيته يهز برأسه ، فقلت : ما بك ، ان كانت لا
تعجبك امزقها .

قال كمل ، عافاك ، ولكنك زدت العيار . بعدئذ اعطيك
رأبي .

فقلت :

والدهر تقاد على كفّه جواهر يختار منها الجياد

فقال : يختار منها ؟ قلت : الجياد .

قال : مليح .

ومضيت في قراءتي : هي الدنيا غرور ، وما بها من سرور ، ولكن
تعزّوا بالمقول ، واذكروا كلام الرسول ، حين يقول (ان الذين يموتون
بالرب لا ينبغي ان تحزنوا عليهم كسائر الناس الذين لا رجاء لهم) .

فاهتز جدي وبان الرضا في وجهه وقال : عال .. عال .

وكانت الوالدة كامنة وراء الزاوية تنصت ، ولما رأت براعتي

وضعت إصبعها في أذنها ، وأسرعت إلى جارتنا تبشّر بفصاحة ابنها ،
فطار الخبر في الضيعة أن مارون عامل خطبة متينة لأم انطون .
قال جدي : كمل . فقلت ، إن المرحومة كانت شجرة مثمرة بحقول
الصلاح ، تصطاد السانح والبراح .

قال جدي : ما قالوا البراح ، قالوا البارح .
فقلت : والسجعة . فقال : أهي فرض ؟ طيب ، أعملها هكذا :
حط محل « بحقول الصلاح » بالحقل الصالح فتستقيم لك السجعة .
فأعجبني منه ذلك ، ودونت ما قال . ومضيت حتى قلت : كانت
المرحومة درة نفيسة وعلطيميساً كنيسة .

فاستغرب ما قلت وصاح : آخ ، آخ ، آخ ، ما معنى علطيميس ؟
لفظة ثقيلة ما شاء الله ! .. أكثر من رطل .

قلت : قال معلمنا إن معناها : البعيفة الحسنة القوام .
فقال : ومن يفهمها من الناس ؟ إذا سمعوا كلمة علطيميس حسبوا
أنك تسبها . اضرب عليها . ثم ما معنى كنيسة ؟

قلت : المرأة الحسناء المستورة . قال : بعيد الشبه ألف مرة ، المرأة
كنيسة ؟ ثم ما دخل الحسن في التأبين ؟ هل انت تتغزل ؟ وهذي احذفها .
فحذفتها وأنا اقول : بقي لفظة صار من الواجب حذفها . قال
وما هي ؟ قلت : كانت المرحومة عجنجرة .

قال : وماذا قال معلمك عن عجنجرة ؟

١ - السانح الطير يمر من اليمين الى اليسار ، والبارح الطير يمر من اليسار الى
اليمين .

قلت : قال المكتلة ، الخفيفة الروح .
قال : يا ابني أم انطون مكتلة ؟ يا جدي ، أعمى انت ؟ أم انطون
جلد على عظم .

قلت : إذن اشطب على هذا ، وجررت القلم فوقها . ورحت اقرأ
حتى بلغت قولي :

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال
قال : وهذا كذب ، لا تفضل امرأة على الرجال مهما كانت .
فقلت : ومريم العذراء ؟

فارتبك جدي وكز على اسنانه ، وقال : اقرأ قدأمك ، كمل .
احذف البيت . هذا كثير على واحدة مثل أم انطون .

فقلت : ولا شك أنها ذهبت من دار الأتراح ، لتحل في الضراح .
فصرخ : ايش هو الضراح ؟ ما كفالك انك قتلتنا بالسجع حتى
تهلكنا بهذه الألفاظ الوحشية ؟

فقلت : الضراح هو البيت المعمور في السماء الرابعة .
فصرخ : وهذا ايضاً من فضل معلمك ؟ ليتني أعرفه لأحش لحيته
ولو وقعت في « الحرم » من ذات الفعل ، لا يا جدي ، أكتب أكتب :
ولا شك أنها ذهبت من دار الفناء لتلقى ربها في دار البقاء .
فكتبت ما أملاه وقرأت : إن فقيدتنا الجليلة أم صالحة قديسة ،
وستحل ، ولا شك ، بالمكان المعد لها من قديم الأجيال .

فرقصت لحية جدي الدبكة ، ودفعني بيديه الشنتين فاستلقيت على

١ - الاحزان .

٢ قرار يصدره مرجع ديني يمنع فيه الاشتراك في الصلوات والمراسم الدينية .

ظهري ، وصرخ : قم عسني يا ولد ، أنت بابا حتى تثبت قديسين ؟
القداسة ! قضينا تسعين سنة بالصلاة والصوم وخوف الله ، وقلبنا يدق
خوفاً من تلك الساعة ، وأنت تثبت أم أنطون قديسة بشطحة قلم !! هذا
رثاء ؟! هذا طلق حنك ، سجع ومزع ، كلام فارغ مثل راس الذين علموك .
فلعلت قوامي المسفوح ، ونهضت متأثراً من تلك الخيبة المرة ، ومن
هاتيك الساعة طلقت الغريب والسجع ، وهجرت الغلو ، وإعتصمت
بالواقع ..

سنتان في مدرسة الحكمة

١٩٠٥ - ١٩٠٦

رأى عيني شاردة ، وهو يربا بالكهنوت ان يهان في الدهر العتيد ،
فغضب غضبة بينها وبين حسان بن ثابت أقرب النسب . سب ، رحمه الله ،
دين لحيتي سلفاً ، فعلق على صدري وساماً مرصعاً يوم كانت تحلم العائلة
بالطيب النازل على لحية هارون ، وبعودة المجد الى بيت لاوي... فالكاهن
لا يقل شرفاً عن الملائكة ، أولئك يسبحون الحمل المقبول ، وهذا يولم
عليه بكرة ، ويسبحه عشياً .

أغضبناه ، دفأ الله ضريحه ، ولم نكن عند ظنه فسب تلك العوسجة
قبل أن تنبت . أنذرنا ، عظم الله أجره ، بالخطر الاشمط ، فادر كنا في
تلك اللحظة من العمر اننا سننصب هدفاً سياراً على صدورنا ترميه السنة
الغاضبين ، أولهم والدنا الفاضل ، كلما أحوجت الضرورة .

إذا كنت ممن سمعوا بنجر التينة التي يبست لساعتها لأن المسيح لعنها ،
فلا تتعجب . هكذا اصاب لحيتي قبل ان يجبل بها في البطن . والمسيح ،
لاسمه السجود ، وأبي ، سامحه الله ، استعجلا الشيء قبل أوانه . طلب مني
أبي تعنف الكاهن البتول وأنا شرخ كقوم الجنة لم أذق بعد طعم الدنيا

وحلاوتها . والسيد ، له المجد ، عن له التين في غير ابانه فعوقب بحرمانه
وماتت التينة شهيدة مظلومة كما قضى كهنوتي ماسوفاً على شبابه الروحي :
ما تقول أني فعلت إذ هبت على غابتي هذه العاصفة الهوجاء ؟ لا شيء .
مر في خاطري أن أرجعها ادراجها فلاححت لعيني الوصية الرابعة كما
ظهرت إشارة الصليب لذلك الملك فانتصر بها ... وخفت أن يقصر
عمري إذا قلت له أف فأحجمت . وكان سكوت عميق شوشه ضحك
إخوتي الصغار فهرولت إلى فراشي أبل مخدتي بدموعي حتى تعكرت
من الغيظ عينايا كما قال داود . ولو فعلت مثله لقلت هذا جزائي ، ولكني
لم أزن ولم اقتل . أغضبت والذي نظرة فابتسامة ذقت غبها شتيعة
مبتكرة فعملت بالمثل القائل : نصف الدرب ولا كلها .

يا لك ليلة لم أنم فيها ، ومن أين يحيثني النوم بعد تلك الاهانة العبقريّة
التي تضحكني كلما تذكرتها . ولكنني لا أجحد يدها البيضاء عندي
وحسي إنها فتحت لي باب الحبس المؤبد ...

وكيف يغفي فتى في عنفوانه وقد أوتر أبوه قوسه ورماه في صميم
أمله ؟ وفيما أنا التمس فرجاً لهذه الازمة إذا بيد تمتد الى جيبني فعرفت
أنها يد أمي ، فتأففت وقلت لها : مالك ومالي ، اتر كيني في مصيبي .
فما نبست ، رحبها الله ، وسكتنا بضع دقائق كنت احس فيها أنها
تبكي ، فقلت لها : واين راح ؟

فاجابت كمن تخنقه العبرة : عند بيت عمك .

١ - شد وتر القوس .

فارتفع صوتي وقلت بحزم : بشره ، الرجعة لمار يوحنا مارون^١
مستحيلة .

فاجابت كمن يضحك ويبكي : يا تقبرها بشارة . والخورنة يا ابني ؟
قلت : تفكر فيها .

فقلت كمن يشجعني ، ويفتح لي باب الصيرة التي رفع سياجها
الشائك حولي : افحص ضميرك ، ورز حملتك ، إن قدرت كان به .
فهمت ، لا تعلق ولا تعلقنا .

— ما فهمت .

— إفهم على مهلك .

— يعني ؟

— يعني : أما خوري مليح وإما لا . البيت متعود على خوارنة
أوادم . إن سب أبوك لحيتك يسب الغريب لحيتك وإكليلك^٢ . مارون
يا مارون ، اصح يا ابني . علماني خائف الله احسن من مطران بلا شئمة.
قلت : وقضية المدرسة ؟ هو لا يرضى إلا مار يوحنا مارون .

— ومار يوحنا مارون مليحة يا ابني ، اين تعلم ابن عمك وخالك؟
قلت : ولكني ختمت دروسها .

فسكنت هنيئة ثم قالت : لعله يقنع ، أبوك يحمي ويهب^٣ ، ولكن
قلبه طيب . أية مدرسة تريد ؟

١ — اسم مدرسة .

٢ — اكليل يوضع على رأس الكاهن عند سيامته .

— ما كنت سامعة أمس ؟ نسيت الحكيم عن مدرسة الدبس^١ ؟
— لا ، ما نسيت ، ولكن أبوك يخاف من بيروت . قال : إذا علمناه
بيروت خسرنا الخورنة للأبد .

— ولكن ، أنا أربح .

فضحكت وقالت : من يكره الربح ؟ هات خبرني عن ربحك .

قلت : علم وخبرة . خوري متفتح أحسن من خوري اعمى .

فقهقتها وقالت : متفتح أم مفلطح^٢ ؟

فتباهت كمن لم يسمع وقلت بهوس : تلميذ مدرسة الدبس غير تلميذ
مار يوحنا مارون ، وتلميذ بيروت غير تلميذ كفرحي^٣ .

— يا ما احلى كفرحي ، لا دبس ولا غسل ، كل المدارس تعلم . المليح
مليح أينما كان . جدك تعلم تحت السنديانة وكان أحسن خوري . صل
ونم على خيرة الله . شر الصباح ولا خير المساء .

ثم قامت ترسم إشارة الصليب في الهواء فوق رأسي . وصلت كما
شئت ، فنمت نوماً لذيذاً ورأيت أحلاماً أقاحية^٤ صكنت أتلقت فيها عن
يمين وعن شمال لأرى إذا كان أبي ينظرني ويسب دين لحيتي مرة ثانية .

وكان في الضيعة رجل داهية من اقاربنا . فقير الحال ولكنه ابن جلال
نبيه كلمته مسموعة . جاء يسهر عندنا مع الساهرين . وذكروا المدارس

١ — مدرسة الحكمة التي تعرف ايضاً باسم مؤسسها المطران الدبس .

٢ وقع بالعامية .

٣ — بلدة فيها مدرسة شهيرة — لبنان .

٤ — فيها اقاح (ازهار ورياحين) .

فامتدح مدرسة الدبس جداً ، ثم وجه الكلام إلى والدي قائلاً : إذا كنا نريد أن نقوم منا خوري مثل البشر ابعت مارون إلى مدرسة الدبس . وأمن ابن عمي على كلام خاله هذا وقال : عمي حنّاً رجل مكفي ومارون مليح . من يعلم ! ربما صار مطراناً ..

وما زال أبي حتى انتحى وتبسم ، والتفت بي وبوالدي كأنه تذكر تلك الآية التي هبطت عليه أول أمس وقال : طيب ، مدرسة الدبس ، مدرسة الدبس . ابشري يا أم مارون . جهّزي حوائج ابنك .

فتهلل وجه الأم لهذا الفوز العاجل ، وبعد أسبوع كنت في مدرسة الحكمة بين تلاميذ من كل البلاد حتى قبرص ... كدت أنكر نفسي بعدما خلعت غنبازي الجوخ الأسود وشروالي الكتّان وصدرية الخمل المزرة وزناري المقلّم ، ولبست ثوباً إفرنجياً أنيقاً . راح الشدياق وجاء الافندي . وكان الطوق المكوي يشد الزيار على رقبتى الغليظة فأخال الياقة كأنها الخناق وأبدول عيني كأنني كائن في الهر المشنوق . بعد ذلك الشروال الرحراح وحرّيته الواسعة النطاق لبست الثوب المزمك فشمعت كأن كلامي في حبس ، وصرت أسيراً مكبلاً كحرباء الأخطل . ولكنني فرحت بخلاصي ونجاتي من الفخ الذي نصبوه لي .

وشاع في المدرسة أنني انظم الكلام الموزون المقفى الذي كانوا لا يزالون يسمّونه شعراً ، فتجمعوا علي كأنهم حول دب يرقص ، وكان منهم رشيد وأحمد تقي الدين ، ومرشد خاطر ، وحبيب جرجس -

١ - قبة القميص .

٢ - الضيق .

الدكتور حبيب اسطفان - وسعيد عقل الشهيد، وأمين رزق ابن صفى، وغيرهم ممن نسيت اسماءهم . استنشدوني فأنشدتهم بعض فرائدي الدرية في العنداء مريم وابنها يسوع ، والقلبين الأقدسين ، ويوبيل الحبل بلا دنس ، ثم تشطير : لو كان للافلاك نطق أو فم لترغمت بمدحك يا مريم ، وتخميس : عجيب إنك العنداء حبلى برب قد تعالى في العجائب . هذه كنا نرتلها كل أحد في صلاة ' الاخوية ' ، ثم باقة أزهار للملكة أيار ، فضحك رشيد تقي الدين ضحكته الصارخة كنكتته وحزيبته ، وقال لعصابتة الطاهرة : الشب مليح ، ولكن ينقصه علم .. دريوه يا شباب . فتعلمت منهم ما ينقصني .. فطرت معهم في افقهم وعرفوا بعدئذ اني أستاذ كبير .. ولكنني كتمت علمي تواضعاً .. وصرتا عصبة تهتز الأرض تحت أرجلنا والويل لمن يعلق بلسانتنا . كانوا يلهجون كثيراً ب : (خدعوها بقولهم حسناء) ، فوجدتني في نعيم وشكرت ربي على حرية اضطهدت لأجلها ، وتذكرت القصاص الذي أتزله بي رئيس مدرستي السابقة - المنسيور^٢ ارسانيوس - لأجل قصيدة غزلية شطرتها ونشرتها في جريدة الروضة تحت عنوان : قتيل الغرام . وفي ذلك الزمان كان سيد الموقف الأستاذ شبلي الملاط ، فيروت كلها تنوء به ، وموشحه ' الجمال والكبرياء ' ملء الأفواه ، وعلى كل لسان :

طفلة فوق سرير من خشب في زوايا بيت صياد قديم

١ - جمعية دينية للصلاة .

٢ - درجة كهنوتية (رومانية) .

بَحْلُ الدَّهْرِ عَلَيْهَا بِالْحَسْبِ وَالْغَنَى وَالْجَاهُ وَالْبَيْتُ الْكَرِيمُ
هذه القصيدة القصصية كانت آية زمانها، بل الزاوية الأولى في تطور
الشعر الحديث، وكان صاحبها الملائكة مثل الشعراء الأعلى، ولاجلها
لقبوه «الشاعر العصري» لخروجه على القديم واقتنائهم بجديده الرائع.
وكان شبلي يمر في أروقة الحكمة كأنه أحد أعمدتها في شموخه، وليس بين
الأستاذ الجليل والسامع أكثر من شبر.

كانت السنة الأولى ثقيلة عليّ، وما قولك بمن ينتقل من مدرسة
تكتنفها غابة في بركة إلى معهد يشرف على بيروت وما فيها؟ يئد أنني
ألفت محيطي بعد عناء ولا بسته بعد ضيق شديد بالزّي الفرنجي. لم تعد
تدهشني قصور بيت سمرق وبسترس وتويني، ولا مقبرة الأشرفية
وتماثيلها النافخة في الأبواق مشيرة إلى فوق. ولا البنايات الضخمة ولا
النسر اللازق بجبين بيت ثابت، ولا البواخر ولا البوارج والأساطيل. لم أعد
أستغرب شيئاً حتى الصدور العارية ولا الجمال المعروض على الناس في
الطرق، ولا القطط والكلاب المضطجعة في أحضان السيدات المترفات،
في عجلاتهن ذات النوافذ البلورية.

صرت جبلاً لا يهزني ريح بعدما كنت أخفّ من الريشة. فأمسيت
أمرّ بهذه الغرائب مرّ النسر في الجو، لا أسأل عن شيء لأنني عرفت كل
شيء فاسترحت وأرحت أعز أصحابي المرحوم الدكتور مسعد كرم من
سؤالاتي الكثيرة.

بعدما كنت أحسب الدرزي غولاً يا كل الأولاد أصبح أكثر أصحابي
دروزاً. فهذا الشيخ سليم حماده من غريفه، القصير القامة، يمشي بيني

وبين مارون نطين الدرعوني ، فتخالنا صورة العائلة المقدسة تمشي على
أرض مدرسة الحكمة ، وسليم يصرخ في ذلك الملعب : ما حال درزي
بين مارونيين ؟

بعدما كنت أفزع من الدرزي مثل مار ساسين^١ ، صرت
والأمير رفيق أرسلان على مركع واحد في بيعة الله تجمعنا وليمة
القداس كل صباح ، عدا ما هنالك من هوردفر زياحات وصلوات وزيارة
قربان بعد الفداء . كان سعادة المير كالزئبق الرجراج لا يستقر ولا
يستكين ، وكثيراً ما كان نصيبي النقط السوداء والقصاص وينجو هو ،
لأنني وعر والأمير أليق مني وأكيس ، يعرف كيف يداري جناحه . وقد
كان يسبق النصارى إلى جائزة التعليم المسيحي .

وبالاختصار لم يحتضر العام المدرسي حتى صارت الدجاجة الغربية
ديكاً ينقر وينافر ، ويهجو وتهجو ذقنه السوداء الكثة الكالحة كما يذكر
كل الرفاق ، أخص منهم الصديقين الأديبين القاضي مراد أبي نادر والتاجر
الياس غانم .

فما أعظم أجرك يا والدي ، وأجزل احسانك . أنت الذي أرحمني
منها .

كنت أهجو بلا رحمة ولا شفقة الخوارنة والعوام ، التلاميذ
والاساتذة . أكتب هنا وهناك ، في الروضة والنصير والمنار والحقيقة
والمشرق ، ولم أعف المقتطف من هجوم . الخلاصة : كنت معمل نشر
وشعر . كنت لو قال لي واحد : كيف حال الجناب ، أجبته نظماً : بخير

١ - قديس .

فحن يا شيخ الشباب . كنت غراً أحق أحسب كل ما يكتب ادباً
 فأخرجت كتباً لعنة الله عليها ، وقصائد أتمنى لأكثرها ما نزل على
 صدم وعمورة .. وليس الحق عليّ فهذا جو مدرسة الحكمة ، موئل^١
 لغة الضاد ، ومحيط الأدب والشعر ، فكانها البصرة والكوفة^٢ معاً .
 وكانت المدرسة تعلم اللغة الانجليزية والتركية مع العربية والفرنسية
 والسريانية ، وكانت تدرس الحقوق لمن يحب من العلمانيين ، واللاهوت^٣
 للإكليريكيين^٤ . فتعلمت شهراً واحداً لغة انكليزية فحفظت الوقتين
 الأولين من الفعل المساعد وما زلت أذكر : «أي هاف نت هبّي» . وقد
 تكون غير صحيحة . ما ندمت على شيء مثل تركي اللغة الانكليزية ،
 وسبب ذلك معلم هذه اللغة الخوري يوسف الخوري الذي احفظ له ذكرى
 مرة . كان هذا الخوري خفيفاً وقد أضحك التلاميذ مني يوم وصف
 لي ذروراً^٥ يذهب الشعر من وجنتي الفاتنتين فاستغني عن المقاريض^٦
 والملاقط . كان دواؤه هذا من النبي يستعمل في الحمامات ، فآثر بيشرتي
 الناعمة .. فسخطت على ذلك الاستاذ الكريم .

١ - مدينتان جاء في التوراة أن الله احرقها بسبب فسادهما .

٢ - ملجأ ، ملاذ .

٣ - مدينتان في العراق .

٤ - علم موضوعه الله .

٥ - رجال الدين .

٦ - دواء سحيق يذر ذراً .

٧ - مقص .

أما أستاذنا في اللغة الافرنسية المير يوسف شهاب فاكليريكي أيضاً ، ولكنه شدياق لا خوري ، بصير جداً بأصول هذه اللغة . كنا نداعبه بساجه وكان يحتملنا . دخل يوماً الصف فرأى مكتوباً على اللوح بالقلم العريض : حمار . فتوجه إليه بالبديهة وجعل شدة فوق الميم وقعد . فبلعنا بريقنا وتغامزنا ، وهكذا كان يرد كيدنا في نحرنا ^(١) . ما كنا نسرّه . يرحمه الله ، إلا ساعة يعرض ذكر الأعمار لأنه بقي في الخامسة والأربعين ربع قرن وأخيراً قفزة واحدة الى الثمانين . وآخر مرة التقيت به في أحد مطاعم بيروت قال لي : صرت في التسعين والمعلم عبد الله - البستاني - باق في الستين لا يتحلحل ..

فرض علينا هذا الأستاذ نظم الشعر الإفرنسي ففاتت أبيات أحداً العشرين مقطعا ، وأخطأ رفيقنا هذا تهجئة العنوان فجعله Ver اي دودة بدلاً من Vers شعر . فما وقعت عين الأستاذ على العنوان حتي غطى شاربيه بيسراه كعادته حين تحضره النكتة ، فأعرتاه إنتباهنا ، فقال : يا الياس ، يا حبيبي ، هذه دودة ؟ هذه أم أربعة وأربعين . فعجّ الصف عجيجاً وضحك حتى أنبج . وجاء المدير - الخوري بطرس مبارك - على ضوئنا فشاركنا بابتسامته المأدبة الساحرة الحائرة - أعجز عن وصفها - وانصرف .

وكان الخوري فرنسيس الشامي يعلمنا التعليم المسيحي ، وكان لنا رفيق إكليريكي كلع ^(٢) يقعد حدي ، وكنت أتندر عليه . شرح لنا

١ - مكان الذبوع من العنق .

٢ - في رامة وسخ .

الخوري لماذا اختتن^١ المسيح فقلت له : أنطون ، صحيح ان المسيح قد
اختتن ؟

فاجاب : ما سمعت الخوري ؟

قلت : وايش عملوا بالقلقة^٢ .

فقال : رموها . ونظر ليرى كيف كان وقع جوابه ، فرأى أني غير
مطمئن فقال : حقيقة يا مارون ، المسألة فيها نظر .

فقلت : اسأل المعلم .

فانتصب أنطون كالمارد ودق^٣ على الطاولة ، فاستعاذ الخوري بالله
واضطرب على كرسيه لأن أسئلة أنطون الغريبة كانت تضعضه .
وطرح أنطون سؤاله فعلا الضحك والضجيج وأخذ الخوري يضرب
المنبر ويصيح : كلب ، تيس ، يقصف عمرك . اقعد مطرحك يا بغل .
وأراد الشماس ان يدافع عن قضيته فلم يمهل المعلم الألتغ^٤ بل صرخ
به : هت ، هت ، هت ، ثد بوزك . وبعد التحقيق الإداري كانت لي الحصّة
الكبيرة من القصاص ، وشتمني المدير بيني وبينه وقال لي : حق على المسيح
يا مارون ، وقدام تلاميذ من كل الملل والشعوب ا هذا المنتظر من تلميذ
ماريونا مارون ؟ هتيكه^٤ ، عيب . زين اسمك ، لثلا يصح فينا
وفيك : يا ذلكم يا موارنة إن كان هذا مارونكم .

١ - تطهر .

٢ - الجزء المنتزع من التطهير .

٣ - يلفظ السين كالثاء والراء كالغين والياء كاللام .

٤ - عيب كبير .

وخرجت من عنده خزيان^١ ، خجلان أدعو على خصلة البدن التي لا يغيرها إلا الكفن .

أما أستاذنا الشيخ سعيد الشرتوني فلم يكن صاحب نكتة ، وإن حاولها جاءت باردة . كانت السذاجة تكسو وجه ذلك العملاق ، والوقار يسود مجلسه . أحببته كثيراً وأحبني حتى صرنا صديقين لا كلفة بيننا . سمعته يوماً يبتين في هجو لحية معلم لي ختمتها بهذا الشطر : فخري بلحيته فخري بلحيته ، فقال : تفخر بلحيته مرتين^٢ هذا كثير . ارني كيف كتبتها . ثم تبسم وقال : التورية مليحة ولكن ايصح فيك : وكم علمته نظم القوافي ... لا تغط قلمك في هذه الدواة . وقد فعلت كما قال . كان أستاذنا عالماً كاتباً ، اجتهاده يفوق ذكاه . يريد أن يقول الشعر فيخرجه كالنثر أو أرذل .

كان الشعر فاكهة كل حضرة ، وكانت المدرسة تعول على الملائط فيما يلزم بها من مناسبات فجائية . فيهدر ذلك الفعل كالبحر الزاخر ويبيض الوجه . وكان زعيم المجددين ، كما قلنا ، وأثره واضح في توجيه الأدب لا يحجده إلا كافر . وإن انتقدناه ، فنقدنا لا يضره شيئاً فالكمال للأدب الأزلي شيخ المشايخ ...

وكانت المدرسة على عهدنا حزبين : حزب الرئيس الخوربسكبوس^٣ بولس الدبس ، وحزب المدير الخوري بطرس مبارك . الشاليون حزب

١ - خائب .

٢ - درجة كهوتية .

الرئيس ، والجنوبيون حزب المدير ، والحد الفاصل جسر المعاملتين^١ .
وانتهت المعركة في آخر السنة الأولى بقصائد هجاء طبعت ، أمّا أنا فما
كنت لبولس ولا لافلو^٢ بل لله الذي أنبت ..

وعدت إلى البيت أطا الثرى كاسد المتني ، أمتن على الارض ان مشيت
عليها . أنا تلميذ مدرسة الدبس . يا أرض اشتدي ما أحد قدي ...
وجس^٣ الوالد نبضي ليعلم أين تكمن الفكرة الكهنوتية واين
غورت ، فرأى مني رجلاً رصيناً متكتماً ، بعيد القمر ، كافي أحدها
الانكليز . واخيراً قلت له : قبل ست سنين لا أستطيع الصعود إلى هذه
الدرجة المقدسة ، وفي ست سنين يموت ألف ويعيش ألف . فلنصبر .
فقتل وجهه عني وقال : على مهل . لا تستعجل . إياك لئلا تقع
وتفك رقبتك . السلم عال .

ولا أدري كيف غلطت وتمثلت بهذا البيت :

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي انت فيها
فصفق كفاً على كف واستضحك وقال : اكتمل النقل بالزعرور .
ثم طفق يصيح : يا أم مارون ، اسمعي إبنك البيروتي صار مثل الخوري
نعمة الله حنون . كنا بمصيبة صرنا بثنتين . هاتي من يترجم بيننا وبين
الأقندي البري ..

وفي ذات ليلة خبرته إني ذاهب إلى بيروت لأحرر جريدة ، وأعلم
في اليسوعية والفرير ، فوضع طوقه في كفه وقال : أنا لا يعنيني ، شاور

١ - بلدة من لبنان - من ارباض جونية .

٢ - تلميذ القديس بولس .

الست كاترينا ، صار الحكم للنسوان .. هذي طبخة أمك .
قال هذا بغضب وسب ، وتركني وهو يردد : كلي واشبعي يا أم
مارون . عمر بيتك .

وبعد أسبوع كنت محرر جريدة الروضة مع ذلك الرجل التقى
التقى المرحوم خليل طنوس باخوس . وبعد عام مات الدبس فقمنا بما
يقضي به الوفاء نحو الفقيد العظيم . وخلفه المطران بطرس شبلي فهبت
الطائفة بزعامه يوسف الهاني تطلب أن يكون لها مجلس ملّي كغيرها من
الطوائف الشرقية . وكان يومئذ قد انتدبني الصديق عبود بك أبي راشد
لتحرير جريدة النصير لسان حال المطالبين بالمجلس ، فأخرجت من كلية
القديس يوسف ، والفرير ، وهكذا انقطع الحبل بيني وبين مدرستي .

وظللت أحن إلى آمالي التي ماتت في زواياها وذكراي المدفونة بين
جدرانها . بعدت الشقة بيني وبينها ، وأنكرتني لتطرفي . أما أنا فبقيت
أذكر أيامها بالخير مع أنني ركعت في قاعة الدرس قبل انتهاء دراستي
بأسبوعين وكان شاري فتراً وأكثر ..

أصبح من فضول الكلام أن نذكر احسان مدرسة الحكمة إلى لغة
العرب والأدب الحديث ، وأبناءؤها ملء الدنيا يعلمونها الناس . أهدت
بالمدرسة أحوال وظروف فهمدت كما تخدم النار وظلت تصارع في سبيل
البقاء . ودارت الأيام دورتها وتداولتها الأيدي فكانت تعلو وتهبط حتى
جاء هذا الرئيس النحيل الذي لو رآه المتني لقال :

وهر ناسه ناس كبار وإن كانت لهم جثث نحيله

حرثَ هذا الأب كرم سيده ولا تزال يده على المحراث يخرج الجفنة
حبلً بالعناقيد . أعاد الى المدرسة عزها الأول ولا يزال يعيش بها بأقدام
الجبايرة . فما اجل خطواتك بالحذاء يا بنت الأمير . كلك جميلة يا خليلتي
ولا عيب فيك ..

لا خوف على كرم سليمان ما زال الناطور الأكبر يقنص الثعالب
الصغار التي تتلف الكروم .. كانت الرئاسة أمثلة فصيرها هذا الخوري
بطولة .. كان يوحنا مارون الأول بطريركاً يناضل في سبيل عقيدة
دينية ، وهذا يوحنا مارون الكاهن يكافح في سبيل العلم والتربية
والوطنية . ولولا المربي ما عرفت ربي .
عشت يا أبت ، حقق الله حلمك الأغر .

صَبَاحِيَّة

استقلَّ عيد الميلاد بكلِّ ما يتعلل به القلب الإنساني من رموز سامية وأمل بعالم أصلح وحسبك هذه الكلمة : المجد لله في العلاء وعلى الأرض السلام والرجاء الصالح لبني البشر . لم يدع لعيد رأس السنة شيئاً من المعاني الإلهية ، فكان عيد السماء وظل عيد رأس السنة عيد الأرض ، ولذلك خلا هذا العيد من المعاني التي تربط الأرض بالسماء .

لقد أمسى من تقويم الدهر ، كهنية يتنفس فيها المسافر الصعداء ثم يستأنف الخطب في بيداء الأمل . يلتفت المرء ، في هذه الوقفة ، إلى الوراء فيمتلئ قلبه مرارة إن كان خاب ، ويزود سنته بالكلمة المشهورة : تذكر ولا تعاد . وإن كانت سنة خير وبركة تلهف على واحدة مثلها تقبر الفقر . الخائب في هذا اليوم يرجو ظفراً عتيداً ، والمفلح يتمنى مزيداً ، ولولا هذا الرجاء لخلا هذا العيد من كل معنى .

إني أرى الناس فيه سواسية ، فالشيوخ المطلون على هاوية الأبدية ، وأصحاب الرؤى والأحلام من الفتيان والفتيات ، يلتقون جميعاً عند عتبة رأس السنة . كلهم يتقبلون التهنئات بحرارة وابتسام . لا شك في أن ابتسامة الشيخ رخوة ولكنها ابتسامة في كل حال .

وعلى ماذا يُهنا الشيخ؟ ألا أنه ماض لسبيله غداً أو بعد غد؟ ولكن لا.
الشيخ يرجو عمر لبد، وعلى الأقل عمر لبيد الذي سئم الحياة وطولها
وسؤال الناس كيف لبيد؟ فليأمل. ليس عند الله أمر عسير.
هذا سر الحياة وهذا لغزها المعقد المقعد وكلها طول الحبل طاب
للجواد المرعى.

أصبح هذا اليوم محطة لإذاعة التمنيات، فلا تسل عما يتبادله فيه
الناس من هدايا طريفة، وما تهدر فيه من ثروات على الموائد الحضراء^١.
أما الفقير فحسته ألم وحنق وسب الدهر. كشف البخت في كل مكان.
في كل بيت يستخبرون الورق، فيضيئون ما عندهم في سبيل استكشاف
ما تضره لهم الأيام، ومتى كانت الأيام تكشف ضميرها للناس، إن كان
لها ضمير.

هذا حديث رأس السنة العام، أما الخاص فهو ذكريات عن شيخي.
كان لجدي في ليلة هذا العيد رأي غير رأي الناس. كان يجلس متربصاً عن
يمين الموقد، كعادته كل ليلة وعصاه حده، فيذكرني قول زهير:
والقوا عصي الحاضر المتخيم^٢. أجل لقد ألقى جدي عصاه، وقعد في
قاعة الانتظار... يقضي السهرة وشفته ترقصان الهوينا، قد تفلت من
بينهما الفاظ ولكنها لا تفهم.. يولي ظهره السامرين كأنه لا يعرف أحداً
منهم، وكلهم أولاده وأحفاده وأنسابؤه.

القيامة قائمة حوالية، لعب ورق يتفاعل به الغالب ويتشاءم المغلوب.

١ - موائد المقامرة.

٢ - عبق بالطيب.

كلاهما يخال أن هذا اللعب جدّ ، وعليه يتوقف نحس عامه وسعده ،
فكانما سر الغيب يكمن في نقاط الورق وتزاويقه . يحتال كل منهم على
الفوز ، ويتوسل له ، بالحيلة والغش ، زاعماً أنه إذا غلب استولى على أمد
الخط ، وواكبه التوفيق والإقبال في سنته الجديدة .

وتدار على الناس أكلة ليلة العيد التقليدية : القمح المسلوق ، المخلوط
بالجوز واللوز ، وما يتبعه من ثقل فلا يأكل جدّي إلا نقرة ، فأخاله من
تلك الطيور القواطع التي طالما شبّه لي بها الناس في طريقهم إلى
دنيا الأبدية .

وينام جدّي ، وأنا ، وأنام أنا ، والجمهور لا يزال في صخبه ، لا أعرف
ماذا كان يحلم ابن تسع وثمانين بمناسبة هذه الذكرى . أما أنا فمهما نسيت
فلا أنسى أنني كنت أحلم بالصباحيات : بالسكريينة الجديدة ، بالقنباز
المقلم ، بالزّنار الحريري ، بالطربوش الأحمر العريزي ، بمجاني الأدب الذي
وعدني به ابن عمّي الخوري ، بالساعة التي قال لحالي الخوري أنه يرسلها
من القدس .

إن هذه الصباحيات تافهة بالنسبة لصباحية جدّي . كانت «صباحيتي»
أولاً ، ريالاً مجيدياً ثم أخذت تكبر معي حتى جعلها أخيراً ليرة ذهبية .
كنت ووالدي مع هذا الدينار على طرفي نقيض ، تمجّبتني أنا طلعت
ورنته ، وتعجبه هو قيمته . أما ضمن حق قنطار طحين ؟ فيظل الدينار
في حوزتي حتى الظهر ثم يزج في سجنه الموقت . أما لداتي فكانوا

١ - الطويلة الاسفار .

٢ - رفقائي في مثل سني .

يتسابقون على « تصبيح » ذويهم ، والضربة في « الصباحية » لمن سبق .
ولكن من أين لهم جد كجدي تسخى نفسه عن أصفر رثان ؟ كانوا
يخوضون الضيقة خوفاً من كعبها إلى رأسها وما يجمعون إلا متالك
وبشالك . أما الليرة الذهبية ، وعليها صورة خيال - مار جرجس -
فكان لا يظفر برؤيتها أحد غير مارون .

أذكر أننا تجمّعنا مرة وقصدنا قرابة لنا اشتهر بالشح^١ ، لنصبّحه
بالخير . وعند انشقاق الفجر شققنا بابه واستولينا على المبادرة هاتفين
بصوت واحد : صبحك بالخير .

فهااته كثرة عددنا وأوجهه صباحنا ، ولكنه تجلد وقال : الله
يصبحكم بالف خير .

وسكت وسكتنا ، فقال أحدنا : هات صباحيتنا . فاجاب : ألا
يرضيك أن يكون الواحد بالف . قال هذا وأيقظ زوجته ، وهي عجوز
مثله ، فقابلتنا بوجه كالنعل . ولما قال أعطيهم صباحيتهم استبشرنا
وظننا أننا فتحنا القلعة . وما خاب الأمل إلا حين قامت إلى قدر هرمة
جاءت معها في جهاز عرسها وقعدت تصب القمح البائت بكرم حاتمي ،
فقلنا لها : هذي أكلة السهرة ، والصباحية تكون من الكيس .

فتنطح العم للجواب وقال : ماسمعت قول الانجيل : لا تعبدوا ربين
الله والمال .

وقالت هي : أولاد وقاح بلا مربى .

ومرة حاول أخ لي أن يوقظني ليصبحني في رأس السنة ولكنني

١ - البخل .

سبقته فخاب ، فراح وهو يبرر : الله لا يسعد صباحك .
وفي آخر عمر جدّي وكنت صرت أفهم الخمس الطمس ، والكوع
من البوع ، تجرأت عليه وقلت له : أنت تعبس وحدك ، يا جدّي في
هذه الليلة .

وكانه قد أعجبه مني أني فطنت لبعض سرّه فانبسط وجهه وقال
لي ، هذي ليلة محبة ذات عندنا نحن البشر . نودّع السنة الرائحة بالطمع
ونستقبل الغادية بفم مثل فم الحوت ، قلماً تجد رجلاً يحاسب نفسه
حساباً صارماً . أما جدك يا مارون فموقفه في هذه الليلة من نفسه موقف
الديان الرهيب . يستعرض كل أعماله في بحر السنة .

أتذكر حسناتي وسيئاتي ، أكلّف نفسي التكفير عن إساءاتي في
عامي الجديد بما أزيده من حسنات . فلو كان كل رجل بل كل صاحب
سلطان يحاسب نفسه حساباً عسيراً في رأس كل سنة لما بقي في الأرض
مظلوم ، ولما السلام الأرض وعاشت البشر بسلام . ولكن المادة سدّت
الأبواب على المحبة فنامت خارج البيوت .

صدقني يا ولدي إذا قلت لك ، ما وقعت عيني في هذا اليوم إلا على
ناس يتمنون زيادة المال ، ولا فرق عندهم بين حرام وحلال . فما داموا
لا يفكرون إلا بالمادة ، ولا يعنيه غير زيادتها في العام الجديد ، فمن
أين تدخل الرحمة إلى القلوب ؟ .

أبواب القلوب مغلقة ، الإحسان يقرع ولا يفتح له . فرأس السنة
عندنا عيد ابتهاج وطمع ومنافسة . إبتهاج بما كثرنا . وطمع يجذب
المادة صوبنا ، لينتفخ كيسنا ويكبر صندوقنا ، ومنافسة على ادخار

ما تيسر لنا من حطام الدنيا .

فإذا ظل الناس لا يحاسبون أنفسهم كل عام إن لم أقل كل ليلة ،
ماتت ضمائرهم ، وموت الضمير موت السلام ، ولا سلام ما دام المسال
معبوداً .

ثم حلق بوجهي وقال : أتفحص ضميرك كل ليلة كما علمتك ؟
فترددت في الجواب ، فقال : أيش بك ؟ رد .
فقلت : نعم .

فقال : « نعمك » ضعيفة . افحص ضميرك ونم . وما صبح إلا فتح .
وفي الغد فتح مصره^١ ، وتزل « الخيال » إلى الساحة ... وكانت
مارون بطل الصباحيين - لا السباهيين^٢ - في الجيرة .

١ - صرقه .

٢ - نوع من الحياة المغاربة .

استسقاء

لو رجعت اليوم يا سيد ، لاشتبهنا أكل التبن .

كان الخوري يوحنا عبود ، جدي ومعلمي . وهو أول شخص لزمته في فجر الحياة ، فما أحسنت قراءة السريانية حتى حملني على الصلاة معه ، فكنا نقيمها أينما اتفق ، في البيت ، قدام الباب ، على البيدر ، في الحقل ، في الكنيسة ، كلانا يحمل « شحيمة » ، فكنا « خورساً » متنقلاً نقيم الصلاة حيث تدر كنا ، وكانت صبوتي صلوات متتابعة فكانني كنت كاهناً « بالقلوب » ..

كررت تلك الصلوات مئات المرات ، وما هي إلا ترانيم وأناشيد صوفية رائعة ، حتى حفظتها عن ظهر لساني ولا يزال جلها عالقاً بذهني على بعد عهدي بها ، وأشهد أنني ما برحت أهتز لسماعها كما كان يرتاح الخليفة المنصور إلى الهداء أكثر من الرصد والبايات^١ .

وفي ٨ شباط سنة ١٨٩٩ فرغنا من صلاة « النهار » وجلسنا على المصطبة الشرقية فقص علي جدي نبأ مار مارون وتلاميذه الثلاثة

١ - كتاب صلاة الكاهن الماروني الأسبوعية .

والخمسین شهيداً ، وكانت تنهّداته متتابعة حتى أجهش بالبكاء فخففت عليه ، ثم ذكر رهبان دير « القطّين » وهو كهف عظيم قبالة قريتنا عين كفّاع لا تزال آثاره ماثلة وإن أقوت وطال عليها سالف الأمد^١ .
وبعدما حشا ذاكرتي بقصص أولئك النساك الحبساء نهض قائلاً :
الحقني يا صبي .

ومشى ، ومشيت وراءه وانقطع الكلام وشرع يصلي في طريقه إلى الهيكل تارة يهمس ، وحيناً يهرأ^٢ ، وإن حيّاه أحد رد التحية بإيماء كالومضة ، زاوياً ما بين عينيه كخلقته ، وما بلغ الكنيسة حتى رأى أخاه بالرب الخوري يوحنا الحداد في ساحتها فسلمها « بالمجد لله » تحية القدماء . وجلسنا على مقعد حجري ودار حديث قصير فاستكبراً أمر القبط^٣ ، نذير المحل والقحط والجراد ، وعزا الكاهنان انحباس المطر إلى خطايا البشر الكثيرة ، ورأيا أن هذا « الغضب » لا يرفعه عن الأرض إلا الصلاة والزياحات فمزما على إقامة زياح حافل لصورة مار مارون استسقاء للمطر .

ثم قرأ جدي فصلاً من « مرشد الكاهن » ، وقرأت لهما فصلاً من كتاب « الإقتداء بالمسيح » ثم استأنفنا الحديث فذكرنا ثالثهما الخوري موسى - جدي لامي - الذي مات منذ أشهر ، فقص جدي على الخوري حنا حلماً أذكر منه أنه رأى أخاه الخوري موسى يقيم قداساً « كبيراً »

١ - الزمان .

٢ - يرفع صوته .

٣ - اشتداد الحر وانحباس المطر .

في برية واسعة وحوله جمع غفير من أحياء وأموات يعرفهم جدي. وبعد التأويل والتعبير ربح الميت قداساً وجنازاً أقاماه له في الغد .. وانفض مجلسها ودخلا الهيكل فقرعا الجرس وزينا البيعة وأسرجا قناديلها ثم تحولاً إلى « القراية » فنبشا الصلوات الخاصة بمار مارون في الشحيم والسنكسار والريش قريان وأعلما عليها جميعاً .

وقرع الجرس ثانية ، وما أمسينا حتى دق به ثلاثة فأقبل كل جمهور الضيعة وقامت الصلاة وامتلات الكنيسة رنيناً وهزيراً ، ثم تليت على الملا سيرة أبيهم القديس مارون وما قاسى من الشياطين التي كانت تجرب به فانفجرت الصدور تنهداً ، ولما نال اكليل السعادة الأبدية فارقتهم النوبة وابتهجوا .

وكان الكاهنان يرصدان القارئ حتى إذا بدرت من أحدهم غلطة أخذوه بها واصلحوا خطاه بنبرة عنيفة ، وكان جدي أكثر تحدياً للشامسة ، وكثيراً ما كانوا يكرهون معاونته ويهربون منها . ولكنه لم يلبس لهم ومات لا يعرف الهوادة ، كأننا كان يعتقد أن الغلطة تفسد الصلاة فما كان يجابي أحداً حتى الكهنة .

ولما انحلت الصلاة قال للشعب قبل منحهم البركة : « عداً تقيم قداساً وزياً كبيرين ، فعلى الجميع أن يعترفوا ويتناولوا ليربحوا الغفران الكامل الممنوح من سيدنا البابا لعيد مار مارون بشرط زيارة الكنيسة الخورنية والصلاة لاجل ارتفاع شان الكنيسة البطرسية .

٤ - طاولة يوضع عليها كتب الصلاة في الكنيسة .

ومع الصبح سمعت جدي يقول لأبي : ما افاق مارون ؟

فقال ابي : انا اروح معك ، خل الصبي ينام .

فنفر جدي وقال : صح فيكم قول الإنجيل يا حنا ، أنتم ما دخلتم ومنعتم الذين يدخلون . يا ضيعان تعبي ، هيهات أن يكون خوري بعدي في هذا البيت .

فرفعت رأسي إذ ذاك وصبحته ونهضت وقبلت يده ، فباركني وضحك لي ضحكة مليئة ما رأيتها منه من قبل ، وانتقل يصلي حتى لبست ثياب الأحد والعيد ، وسار وتبعته وظل يردد حتى دخل الكنيسة ، قطعة سريرية هذه ترجمتها : إن كان العبد بلا خطيئة من اين تعرف رحمة السيد ، إرحمني يا الله كعظيم رحمتك . وسجد وزميله الخوري يوحنا سجدة الصبح ، فقاما وركعا مئة مرة وأكثر . ولما أقبل الناس تحولا الى كرسي الاعتراف وظلا يعرفان حتى الضحى ، ثم أقاما الذبيحة الالهية . وبعد الانجيل ألقى جدي هذه الخطبة :

يا إخوتي المباركين ،

اجتمعنا اليوم لتعيد عيد أينا العظيم . فمار مارون هو التاجر الذي حكى عنه الإنجيل أنه وجد درة ثمينة فمضى وباع ماله واشتراها . نعم يا أولادي ، إن مار مارون هو العبد الصالح الذي ربح بالخمس وزنات خمسا آخر ، وفلح كرم الرب من الصبح حتى المساء ، كما سمعتم أمس ، وتسمعون الآن ، من مديحه . فالذي انقطع عن الدنيا كلها وقعد في مغارة يصوم ويصلي ليلا ونهارا ، ويدافع عن الايمان بتقوى وحرارة يستاهل أكثر من هذا المدح . صح فيه قول مار أفرام ملفان البيعة : ويكون لهم

بعد موتهم أعظم إكرام . وأي إكرام أعظم من العبادة ؟
ما كان أبونا مار مارون يعيش كما نعيش نحن ، وما كانت يفكر بما
نفتكر به نحن ، كان يطلب ملكوت الله وبرّه . ومار مارون ما كان
يلبس كما يلبس إكليروس اليوم الغنايز المزرة ، ولم يكن يحمل عصا
مذهبة ومفضضة . كان لباسه الشعر ليقهر النفس المتكبرة ، وعصاه من
الزعرور ليردّ بها عنه الكلاب . . . وصلبيه كان في عبه ليخزي به إبليس
اللعين ، لا للزينة والبهرجة . . . وهذا التاج الذي على رأسه ، والعصا التي
بيده ، نحن الذين يغرّنا المجد العالمي . حملناه إياها . ولو كان أبونا غير
هكذا ما طلب يوحنا فم الذهب صلاته ودعاه . فمار مارون قس ، والقديس
يوحنا فم الذهب مطران عظيم ومن ملائكة البيعة .

إن مار مارون غلب الشيطان ، كما خبّرنا السنكسار ، ونحن
أولاده يغلبنا الشيطان كل ساعة . مار مارون شفى مرضى كثيرين ونحن
المرضى في قلوبنا وليس من يشفينا . نحن كما قال مار أفرام كنار الروح :
دبّت الآكلة في الجسم وسرت .

يا حسرتي علينا يا أولادي ، إذا حجب الرب عنا رحمته فلاتنا ماعدنا
نفتكر به . تركناه فتركنا . ما عدنا نفتكر إلا بالدنيا ، كبيرنا إلى
صغيرنا ، أبونا مار مارون أسس ونحن ما وضعنا حجراً على الحيط .
خراب عمومي في الدنيا والدين ، الروح الطيبة راحت مع القدمات ،
وخطايانا الكثيرة ورثت كل هذه الضربات والبلايا والضيق . متى كان
ينقطع المطر في كانون وشباط ؟ ومتى كان يخاف الناس من الجوع
والعطش في جبل لبنان ؟

كيف نخاف نحن المسيحيين من الجوع ، وانجيلنا يقول: أبوك السماوي يقيتكم ، ولا تهتموا بما للغد . كيف نخاف الغضب الرباني وعندنا التوبة والاعتراف ، والمناولة والصلاة . فاذا كنا نحن البشر يرق قلبنا على من يصرخ حول بيوتنا ، وعلى بقرة تعج في القبو ، فماذا تراه يفعل ربنا الذي قال : من منكم إذا طلب منه ابنه سمكة يعطيه حية ؟ أما هو الذي جرأنا على الطلب منه بإلحاح ؟ أما هو قال لنا : أطلبوا تجدوا ، إقرعوا يفتح لكم ؟ قووا قلبكم وقرعوا بابه ولا تخافوا .

صلوا يا أولادي ولا تملأوا ، لا تتكلموا علينا وحدثنا ، فنحن فقراء بالروح . عندما كانت الكاسات والصلبان من خشب كانت القلوب من ذهب ، واليوم بالعكس ، كاسات وصلبان من ذهب وقلوب من خشب . . . ويا ليت . . . خشب منخور . أويل لنا من تلك الساعة التي يقيم فيها ربنا الخراف من عن يمينه والجداء من عن شماله .

كلكم تعرفون مثل التينة ، فربنا يسوع المسيح لا يقصد بالتينة إلا نحن الرعاة . فلو رجع المخلص اليوم يا أولادي ماذا كان يعمل ؟ الله يعلم . وضاق به الكلام وخانه اللسان وتفرغرت عيناه بالدموع ، فالتفت صوب المذبح ليمسحها ، فوقعت عينه على الصليب فقال بصوت أعجز عن وصفه ، هذه الكلمة العظيمة على سذاجتها : لو عدت اليوم يا سيد لاشتهدنا أكل التين . .

وكان سكوت عميق ، وأجهشت العجايز وقرعت الصدور وعاد جدى إلى الكلام فقال : فلنصل يا أولادي ، فلنتشبه بأبينا مار مارون ، فبصلواته عمل المعائب الكثيرة . ما هي الصلاة ؟ الصلاة حكي الإنسان

مع ربه ، فإذا كان حكي الناس مع بعضهم يولد المحبة والإلفة ، وإذا كان انقطاع الجيران عن الكلام يقوي العداوة حتى نعجز عن حلها ، فإيش قولكم بمن لا يحاكي ربه ؟ إذا كان أهل البيت لا يكلمون بعضهم فماذا يكون البيت ؟ طبعاً كلّم تقولون : جهنم الحمرا .

صلوا إذن فكل ما تطلبونه تنالونه كما يعلمنا الانجيل الطاهر ، أطلبوا من ربنا أن يتحنن علينا ويرحمنا ، أن يروي قلوبنا العطشانة إلى النعمة الالهية ، ويسقي زروعنا ويبارك علينا ويحمينا من الجراد .

صلّوا عن نيّة بطركنا الجديد مار الياس بطرس الحويك حتى يساعده الله على تجديد البيعة وصيانة عزّها الروحي ، ويسير على درب بطاركتنا القديسين . وصلّوا له حتى يقوم بوظيفته ، فحملته ثقيلة . ولكنه يقوم بها بمعونة الله لا يخيب المتكلين عليه كما قال داود . البطريرك الياس ، كلّم تعرفونه ، رجل مجرد عن الدنيا وفيه روح آباءنا الاقدمين ، وقد حكينا عنه منذ شهر من على هذا المذبح المقدس .

أما أنا وأخي الخوري حنا فعبدان حقيران خاطئان ، تقع وتقوم تحت نير الرب سبعين مرة لا سبع مرّات ، كما قال النبي داود . فصلوا لأجلنا كما نصلي لأجلكم ، ولنتضرّع جميعنا إلى أيّنا مار مارون ليسمع صلواتنا ويساعدنا ويسهر على كنيسته ، ولا يهملها لأجل خطايانا الكثيرة . رزقنا الله شفاعته ، آمين .

ولما انتهى القداس سار الجمهور بصورة أبيهم مار مارون يحملها الخوري حنا الحداد ، وجدّي يبخرها ، والشمامسة يرتلون ويترغنون ، والشباب يقرعون الجرس قرعاً عنيفاً ، فالفرصة سانحة ، وقرع الجرس أحب

شيء إلى قلوبهم ، ولا سيما ان قرعته في غير وقته كان فلتة في تلك الايام .
لا أزال اذكر جدي كيف كان يبخر دائما بحماسة ، وهو ابن ثمان
وثمانين ، ويرتل بصوته الجمهوري الجميل ، الذي لم أرث منه شيئا . يبخر
وهو يعود القهقري ، وانا خائف ان تعثر بحجر رجله فيقع . كان جدي
ينظر احيانا إلى السماء ، وما دريت لماذا حتى كان المساء وتلبدت الغيوم
وسقط المطر .. وقال لكننته أمي : هاتي عشيّني ، الرب قبل صيامي
وصلاتي . كثير خيره .

مار عبدا والمطران

كان شهر آب عام ١٩٠٠ يلفظ آخر نفس لما دعاني فلبيت. وتماشينا، هو شيخ يحمل على منكبيه أثقال قرن، وأنا غلام ظهره خفيف. وما جاز بيت أخيه الخوري موسى، «جدي لامي»، حتى رأيتكم دمة ويسترها ويقول:

هم السابقون ونحن اللاحقون، رافقني عام أول لزيارة مار عبدا ليلة عيده، فإين هو اليوم!

وكأنه ذكر قول رسول الامم: «ان الذين يموتون بالرب لا ينبغي أن تحزنوا عليهم كالناس الذين لا رجاء لهم»، فصلب ومشى يصلي. ولما توسطنا القرية تترأ يده من يدي، وما دريت لماذا حتى مال نظره الى ردم فيه بهيمة ترعى، فغضب ونادى صاحبها، فاقبل هذا يصفق على فخذه، وساقها بعد اعتذار طويل فاغتفر له جدي زلة لم يتعمدها. ثم أخذ بيدي قائلا: أتعرف اسم قديس هذا الهيكل؟ فقلت: لا. قال: اسمه برصوما، وهذه الخربة أقدم كنائس البلاد، كانت للروم والموارنة والفاصل بينهما حائط.

١ - سعب بشدة ونزق.

قلت : مثل بيتنا وبيت عمي . فابتسم للتشبيه وقال : تماماً .
قلت : واليوم لماذا لا تكون الكنائس هكذا ؟ قال : ما كان الأخوة
يتفرقون في الزمان الماضي ما زال البيت واسعاً ، واليوم يتفرقون عند
« البلوغ » . راحت الإلفة وكثر البغض .

وسألت أيضاً كعادتي ، فقال لا تكثري من السؤالات . أنا تعبأت
والشمس على الغياب .

ومشينا فأسرع نازلاً تسوقه الشيخوخة بعصاها ، فكان يجاهد نفسه
فيبدو نشيطاً رغم التسعين . ولما بلغنا « الوطا » انسابت حية فصرخت :
حية حية !! فوقف مضطرباً يهزّ عصاه ، ولما رآها هاربة تبسم ابتسامة
غير مشرقة وقال لي : خفت يا صبي ؟ نسيت قول إنجيل اليوم : « ها
هوذا أنا أعطيك سلطاناً أن تدوسوا الحيات والعقارب وكل قوة العدو ،
فلا يضر بكم شيء » ؟

وطوينا السهل فواجهنا رجل في يده ورقة سوداء الحواشي ، فوقف
جدّي وقال : الله يعطينا خيره . فدنا منه الرجل وقبل يده ، ودفع اليه
الرسالة ، فقرأها وقال : الله يرحمها ، كانت امرأة فاضلة ، ماتت ليلة عيد
شفيعها ودفنها يوم عيده . وأعاد الورقة إلى الرسول فاخذها بعد تقبيل
يد الخوري ثانية وراح في طريقه . وأخذنا في العقبة فاتقطع الحديث .
وبلغنا دير مار عبدا فما رأينا هناك غير خمسة أنفار ؟ جزارين أمامهما
الضحايا ، ومكارين يحملون الشراب والنقل للعيد .

ودخلنا الكنيسة المهجورة فصلّيت وصلّيت وراءه راكعين على الحصى
والتراب أكثر من نصف ساعة . قد يكون الوقت أقل وأنا توهمت

كذلك ، لأن زيارة الكنائس والصلوات كانت أتخمتني . وخرجنا فجلسنا في الدهليز على صفة ، فتنحنح وقال : ستسمع مني الآن قصتين : قصة الدير وقديسه ، وقصة مطران تخفى فيه . فتحركت يميناً وشمالاً وأحكمت قدمتي فقال :

ما ترك الزمان من هذا الدير الكبير إلا هذا القبو والدهليز^١ الذي يلاصقه . كان ذلك القبو مقام مار سمعان العامودي عليه السلام ، وهذا المكان كان ديراً للراهبات ، وبقايا المعاصر والآبار تدل على أنه كان مسكوناً لا مزاراً على تلة . كنا نعمل فيه رياضتنا الروحية قبلما فتح لنا الرهبان أبواب الديورة . أما قديس هذا الدير – مار عبدا – ففارسي الأصل من تلامذة يهوذا .

فخفقت برأسي ، فاستدرك قائلاً : يهوذا الرسول لا يوحنا اللعين . سام الخبر يهوذا مار عبدا أسقفاً على مدينة خشكار في بابل . فضحكت لها فقال : مالك ! أعجبتك كلمة خشكار ؟ قلت : وضحتني .

فتابع حديثه : وكان مار عبدا كثير الصلاة يشتهي اكليل الشهادة^٢ جداً . فقلت : مطران يشتهي اكليل الشهادة يا جدي ! أما كان عنده تلج مثل مطاريننا اليوم ؟ فتغاضى عن كلمتي هذه وقال : فسار إلى مدينة « نوا » في تخوم الهند . فهزرت رأسي ونفخت ، فتعبس وزارني سائلاً : ما بك ؟ قلت كيف يذهب مطران ماشياً ؟ ما رأيت مطراناً يمشي ، فالمطران ل . جاءنا على حصان أحمر والمط .. فزجرني قائلاً : هس يا

١ – مريض ومظلم .

٢ – الاستشهاد .

صبي ، سماع . أما عجائب مار عبدا فكثيرة جداً ، مرّ بمدينة كان سكانها كفاراً فطردوا القديس بالضرب والاهانة .

فقلت : وكيف يضربون المطران وأنا رأيت المطران بعيني يضرب بالعصا ؟ فتمتم : يا ويلاه يا حالاه !! ولما رأى كثرة الاعتراضات أسرع يعدّد عجائب القديس ، فقال شفى جلاً كان « يسكنه » شيطان .. فقلت : ولماذا يسكن الشيطان جملًا؟ أما علمتني أن أقول وقت التجربة: يخزيك يا عدو البشر ؟ إذن الشيطان عدوّ الجمال أيضاً .

فتلعلل وقال : وقتل تينياً وشفى مرضى كثيرين . قلت : واليوم ألا يشفي ؟ قال : بلى . يشفي من البردية « حمى النفس » من يستشفعون به وينذرون له . وحاول أن يواصل كلامه فقاطعته : وإذا كانوا فقراء ولم ينذروا له شيئاً ألا يشفيهم ؟ قال : بلى ، إذا صلوا بحرارة . قلت : وهل النذر يغني عن الصلاة ؟ فأجاب : لا .

وكانه ضاق بي فحتم علي ألا أقاطعه ، وقال : فأمن أربعة آلاف فعمّدهم وسام لهم كهنة وشماسة . فقلت وبرادطة وخوارنة أسقفين أما رسم ؟ فأمرني بالصمت وقال : لا تقاطعني . ومضى يقول : وخرج من القرية فطلع عليه ثعبان في الطريق ، فرسمه بالصليب فمات . فقلت : أنت خلصت منه بلا رسم صليب ، فازهى وما أبدى وقال : وعاد القديس إلى مدينة « نوا » فرآهم مالوا إلى الكفر وهدموا الكنائس وطردوا المسيحيين . وتنهّد ، فتمثّلت : طوبى لكم إذا عيروكم واضطهدوكم .. فقال عافاك - وجرها جداً - ولكن اسكت لا تقاطعني

١ - رتبة كهنوتية ادارية .

ولما علم اسقف البلد بعود مار عبدا جاءه يخبره بقتل الكهنة وهد الكنائس ،
فمزاه القديس .. ودخلوا المدينة فهاجمهم أهلها فصلّى مار عبدا فحدثت
زلزلة زعزعت المدينة ، وتراعت ظلمة ونار في السماء فخضعوا جميعاً
قائلين : ارحمنا يا قديس الله ، فاسكت الرجفات بصلاته وشفى رجلاً
مخلعاً .

قلت مبتسماً : مثل سيدنا يسوع المسيح . فقال بنفرة : نعم . ما
قلت لك لا تقاطعني ؟ فامررت يدي على فمي ، وتابع حديثه : ورجع
الاسقف إلى خشكار . فعاودني الضحك ، فاغفرها لي ولكنه صبر علي
لحظات وقال : فوجدتم رجعوا إلى عبادة الاوثان ، فوعظهم فاضطهدوه
وسجنوه . وفي السجن عمل عجائب كثيرة ، وجاءه ملاك الرب في
السجن وقعد يشده ويعزيه .

قلت : الملاك الذي بشر مريم ؟ قال : عند ربنا ملائكة كثير ..
وفي الغد جلده حتى انتثر لحمه وبانت عظامه فدهنوه عسلاً ووضعوه في
الشمس لتلذذه الزناير ، وأخيراً قطع الملك رأسه وقتل معه كهنة
وشمامسة وبتولات . صلاته تحفظنا . فقلت كالمعتاد : آمين .

وتحرّك للنهوض قائلاً : يا مار عبدا . فحزنت وتمنيت لو يتمهل
قليلاً لأشهد العيد ، وخرجنا .. فردّد الناس فيما بينهم لما رأوه : خوري
حنا عين كفاف . ودنوا منه فباركهم واحداً واحداً ، وكان يقبض على
يد من لا يعرفه ويسأله : ابن من أنت ، ولو كان ابن ستين .. وانصرف
وهو يقول لهم : توقوا السكر يا أولادي .

فوقفته لأطيل بقاءه ريثما أملا عيني من مشاهدة العيد فقلت له :

وقصة المطران ؟ فاجاب : إمش . تسمعها في الطريق . ومشى وهو
يربر : كانت الأعياد للصلاة والعبادة ، فصارت لشرب العرق والنبيد ،
وأكل اللحم يوم الجمعة .. وما بلغنا الوطا حتى دخلنا في العتمة . وأضرم
الشباب النار في الهشيم - زينة الأعياد في القرى - فمشينا على ضوء نارهم
حتى البيت .

وحدثني في الطريق عن فرار المطران يوسف اسطفان من وجه المير
بشير بعد عامية لحقد ، واختفائه مدة في هذا الدير ، لأنه اتهم بكتابة صك
الاتحاد بين الدروز والنصارى على أن لا يدفعوا للأمير إلا المال المعين .
وأقام المطران في الدير منتظراً صفح المير بشير، ولما بلغه أن التوسط
له لم يجد ، عزم على الرحيل إلى اضاليا مسقط رأس المردة ، فلحق
به الشيخ يعقوب سمعان البيطار ، فادركه عند نهر البارد، وابلغه صفو
خاطر الأمير ، وأرجعه . ومثل بين يدي أبي سعدى فسقاه القهوة
القاضية ..

ولما أنهى جدي قصة المطران - كما لخصتها - أخذني من كتفي
وهزني بعنف قائلاً : كيف يا مارون ، أما رأيت مطراناً يمشي ؟
قلت : ولكن يا جدي هذا مطران .. فقاطعني بنبرة قائلاً : ما
هذا مطران ، هذا يا جدي ، شهيد مثل مار عبدا .
قلت : ولماذا خاصم المطران المير حتى أصابه هكذا ، فالمطارين اليوم
بألف خير ...

فقال بعدما حلق بي : هذه إرادة الله وستنا مريم العسرا ، ومتى

١ - بلدة في لبنان .

اتفقنا نحن والحكام يا ويل الشعب في لبنان . فمرقصنا - مرقص الكفاعي -
الله يرحمه نهى مير جبيل كثيراً عن ظلم الشعب فما سمع له . ولما حبسه باشا
صيدا في البير ... قلت : في البير ! قال : نعم في البير . طلب الأب
مرقص فذهب الى صيدا فقال له : صل لأجلي يا محترم ، بلغ صراخ الشعب
مسامع الرب الصباووت^١ كما قلت لي مرّات . ومتى رجعت خذ من
زيتون الحكومة في وطأ عين كفّاع ، ما يعجبك ، ملكاً لدورك - دير
معاد^٢ - وهكذا صار . وغداً في ذهابنا الى « النعوة »^٣ أدلك على الصليبان
التي رسمها الأب مرقص في بدن الزيتون الذي تملكه .
قلت : وماذا أصاب المير ؟ فأجاب خلّصته صلاة القس مرقص ...
ووقف فجأة وقال : مارون أتعرف تعمل « مرثية »^٤ ؟ المرأة التي جاءنا
خبرها من اقاربنا ، هذه امرأة فاضلة . وحدّق إليّ كمن يترقب الجواب .
ولما أبطأت عليه قال لي : أحب أن اسمعك قبل ان اموت .
فقلت : العمر الطويل يا جدي ، فأجابني بفرح كالبكاء : ولك
يا عيوني .

١ - من عين كفّاع .

٢ - الفائق العظيمة .

٣ - بلدة .

٤ - النمي .

٥ - الرثاء .

حَقَّاقٌ صَامٌ وَلَكِنْ بَلَا صِيَامٍ

خسرت القرى كثيراً من ورعها وتقواها ، فأمست أيام الصيام فيها كغيرها من الأيام ، قلما تجد واحداً من بنيتها صائماً أو ممتنعاً عن « الزفر » أي عن أكل اللحوم والألبان والبيض .

ففي هاتيك الأيام ، أيام السلف الصالح ، كنا نرى اللبن والبيض باعيننا ولا نذوقهما ، ولو بكينا حتى تبيض عيوننا .

— عيب يا ابني ، الصوم كله سبعُ جمع !

كنت في السابعة أو الثامنة من عمري ، وكان والدي يقول لي : أنت شب طويل عريض ، وكيف لا تصوم ؟ أترضى أن تكون مثل الأولاد الصغار ؟ عيب عليك ، ما سمعت قول المثل : الصلاة عادة والصوم جلادة ؟

وأنظر أنا إلى عرضي وطولي فأجدني بين بين ، فلا أنا شب ولا أنا طفل ، فأخضع للأمر الواقع . وأخيراً تعودت فصرت صائم الدهر لا تطلب نفسي « الترويقة » أبداً . وإذا فككت ريقى ذهب نشاطي ، و « رواقى » فأنعس ويمتنع علي العمل في ذلك النهار .

كنا تنتظر جرس الظهر ، حتى إذا ما دق ، سكنت الضيعة وحسرت^١
الجميع عن رؤوسهم . الصمت في كل مكان . الراعي يسكت مزماره ،
والفلاح يوقف فدانته ، فلا تسمع في الحقول صوت نابس^٢ . ومدرسة
الضيعة تصلي صلاة التبشير بصوت جهوري ، وتفك^٣ أولادها وجميعهم
صائون ، إلا من هم دون السابعة من العمر . كنت أطرب لسماع أجراس
الظهر تقرر في الصوم ، أما اليوم فلا أسمع إلا جرس دير معاد . فالتاس
كلهم مفطرون ، ولماذا تقرر الأجراس ، ولماذا ؟

صوموا تصحوا .. هكذا قيل ، ومع ذلك ترك الصوم ، وكذلك
صار حظ الصلاة ضئيلاً جداً ، فأولئك المشايخ الذين كانوا يقيمون الصلاة
خلت الكنائس منهم ، فلا قارئ ولا مرتل ، حتى ولا كاهن . فأكثر
قرى بلاد جبيل لا خوري فيها ، مع انها أبرشية البطريرك ..

الكل متراخون متهاونون . ارتفعت الكلفة بينهم وبين ربهم ،
فصاروا لا يهابونه ولا يصلون له مبتهلين . والكهنة الموارنة « تليتوا » ،
أي صار صيام الشباب منهم لا تينياً .. وجبة خفيفة صباحاً ، وغداء يلا
الكرش ظهراً ، وعشاء بين البينين مساء . وهذا صيام له أجره عند ربك
الغفور الرحيم .

جاء الضيعة كاهن يعرفني يوم خميس الأسرار^٤ ، وشرفني بزيارة

١ - كشف .

٢ - مرتفع .

٣ - يقع في اسبوع الآلام ، دعي هكذا لكثرة الأسرار التي يحتفل بها فيه :

تبريك الزيت المقدسة ، العشاء السري وغسل الأرجل .

فدعوته إلى الترويقة، مجاملة ، حين ودع لينتقل إلى قرية تبعد عنا نصف ساعة ركوباً ، فلبى الدعوة .

وكان والذي جالساً معنا فعبس وتولى حين قام الكاهن إلى المائدة . وقال والذي . يا الله . وغادر البيت .

ولما ذهب الحوري عباد الوالد وقد وقفت شعرات جفونه كريش القنفذ . وقال : راح المحترم ؟ إلى أين مسافر حضرتته ؟ إلى بجه^١ ! جدك وأنا كنا نمشي خمس ساعات على رجلينا ولا نفطر في يوم عادي من أيام الصوم ، فكيف يوم خميس الأسرار في جمعة الآلام؟ يا حسرتي على الرز ضاعت ملاعقه . هذا البيت ما أفطر فيه أحد في الجمعة الحزينة يمارون ، تكرم ما شئت واعزم على الناس ولكن بعد العيد . لا ترعج عظام جدك . واذكر أن رجلاً ماتت عنده غنمة في الصوم فقعد^٢ « يقورمها^٣ » ، على مرأى من اولاده ، ولم يذقها هو ولا أحد من أهل بيته . وكان ابن البقرة السعيد الحظ هو الذي يولد في الصوم فيبقى له لبن امه . وإذا حلبت فيما بعد فلكي يصنع حليبها جبناً أو لبنة لفرحة العيد .

وكثيراً ما كان جدي في جمعة الآلام يفطر على ورق البصل ولا يذوق طعاماً أدامه الزيت . ويتعشى رأس ثوم بعد أن يشويه، ويتحلى بالتين المطبوخ بالدبس ، بعد أن يعود من صلاة الحاش^٣ « الآلام » ويكون قد شبع من سب^٤ اليهود الذي لم يبطل ولا يزال ، ولكن المصلين بتلك

١ - بلدة في لبنان .

٢ - يجعلها « قورما » أي لحماً مقلباً ومحفوظاً لأيام الشتاء .

٣ - صلوات اسبوع الآلام (سريانية) .

الحرارة قد فقدوا .

كان رحمه الله يقول : قال الله لعبده : كن حاراً أو بارداً ، ولا تكن
فاتراً ، ولذلك كان هو حاراً وخصوصاً حين كان يضربنا بعكازه إذا
قصرنا في واجباتنا الدينية .

وكانت والدتي أشد حرارة من جدتي - وهو عمها في جهتين - لأنها
بنت خوري وكنة خوري وكلاهما زميتان^١ محافظتان على الصلوات الخمس
يقيمانها في أوقاتها وموااعيدها .

وينشا ناشيء الفتيان منا على ما كان عوده أبوه
تعودت المرحومة أن تضع الشمعة وعلبة النار حد فرشة أبيها
الخوري وعند رأسه ، حتى إذا ما نهض ليصلي صلاة الليل ، والكل
نائمون ، أضاء هو الشمعة وقام بصلاته على موسيقى شخير أولاده . ولما
انتقلت بنته إلى بيتنا ، بيت أخيه ، ظلت تعامل عمها الخوري معاملة
والدها ، ثم ظلت على تلك العادة ، فكانت إذا ما أمسى عندنا خوري
تضع له الشمعة وعلبة النار حد رأسه .

وجاءنا أحد هؤلاء الكهنة الذين لا يصلون فاخترت له الوالدة شمعة
جديدة ، وكم كانت خيبتها مرة حين لاح لها النهار ورأت أن بكرة
الشمعة لم تفض ، فنادت والدي وهي تولول ، فهرول ظاناً أن في الفراش
حية لدغتها ، وما دنا منها حتى صاحت متعجبة : تفرج يا حنا، الشمعة
بقيت كما هي !! يه يه يه .

- بلا يه وبلا بلوط .. اليوم صار البيع بالجملة . أيام أييك وعمك

١ - مازمتان لا يتساهلان في أمور الدين .

راحت يا كاترينا . كان الناس يودعون المرفع ويستقبلون الصوم بهذه .
العبارة : كما رفعتم بخير تصوموا وتعيدوا بخير . واليوم إذا اردنا ان
نكون صادقين فماذا نقول ؟

وكان الناس يعيد بعضهم بعضاً بقولهم : المسيح حقاً قام ، وكان
الجواب : حقاً قام . واليوم يصح أن يقال : المسيح حقاً قام ، ولكن
بدون صيام .

عين كفّاع

القرية هي عين كفّاع، وحديثها حديث كل قرية في الأرض والمريخ،
فالناس ناس في كل مكان وزمان ولا يعقد الحياة إلا المدنية .

عين كفّاع لفظة سريانية مركبة ، تعريبها : العين الخفية . ووافق
الاسم المسمى ، فنخفيت على الحكومة فكانت كأبي نواس حين قال :
تجبت عن دهري بظل جناحه فصرت أرى دهري وليس يراني
ولو كانت تحت الجناح لا انتظرت النقف^١ ولكنها بعيدة عن الحضانة،
فلا فرخاً اتجت ولا بيضة سلحت^٢ .

كانت على عهد لبنان معبر القوافل القادمة من جبيل وجونية
وبيروت وصيدا ودمشق مثقلة بالبضائع إلى بنادر^٣ الشمال : دوما وبشري
وأهدن وغيرها من دساكر^٤ لبنان . فكانت الطريق ثرثرة أبداً ، لا
تخلو من الرجل والحافر . أجراس بغال وجمال تدق ، وجلاجل حمير

١ - انكسار البيضة وخروج الفرخ منها .

٢ - خروج البيضة من الطائر .

٣ - أسواق .

٤ - قرى صغيرة ، مفردتها دسكرة .

تهمهم ، ومكارون يغنون مع الفجر العتابة والميجانا والمواليا والمعنى
والقرآدي ، وأحياناً أناشيد كنسية مثل : إن قلبي في هوى مريم ،
وصلاتك معنا ، واطلبي عنا ، فتظن أن بيعة سيارة فيها أجواق مرتلين
لولا سب الدين إذا تعس المحار أو كبا البغل . أما اليوم فالطريق خرشاء
طرشاء كمسامع الحكومة عن ندائنا .

نعم خفيت عين كفاع على الحكومة اللبنانية فمهد الاحدب - مها
يكن من شيء فللاحدب الشكر - طرق الدواليب إلى القرى المحيطة بها
من الجهات الأربع ، فزمرت السيارات حولنا في كل فج وعلى الندى ،
ورقصنا نحن رقصة الطير ... وهكذا ظلت هذه القرية ، وحدها ، بلا
طريق . لو مهدت الأميال الخمسة الباقية لاخترلت طريق الارز ، وامن
المسافرون حر الصيف وبرد الشتاء .

عاتبنا الدباس عندما مهد طريق مار يوسف جربتنا ، ولم يبال ببعده
الشقة ، ودير مار يوسف هذا في وحدة الرهبان فيه بضع راهبات
متعبدات فاضلات . وعاتبنا الحكومة فقالوا لنا « غدا » ، ولولاكم ما
مهدناها . لقد صدقوا ، استعاروا اسمنا كي يحققوا قول المثل اللبناني :
النذر للدير ... الخ .

وصبرنا حتى ضاق صدرنا فكتبنا إلى الدباس ، يوم كان دكتاتوراً ،
نذكره بوعده فتناساه ولم يجب . وقيل لنا أنه يطرب للشعر ، ورأينا
شاعراً يمدحه فيستحق شكر لبنان ، فكتبنا إليه شعراً عاتبين لا مادحين ،
ومما قلناه له : أنا على دين بشار لا نمدح ربحانة قبل شم . أما تلك

١ - القمم ، مفردتها ذروة .

القصيدة فهذا مطلعها ، والكتاب يعرف من عنوانه :
قل للرئيس عداك حظ انكد أقرى معذبة وذير يسعد ؟
فما نفعنا الشعر ، ولا اجد النثر ، ولم يعد الدباس ذلك الحظ
الآنكد .

قال العرب : الحديث شجون . ألا ترى كيف ينجر الحديث ،
فلنعد إلى عين كفاع . أما موقعها الطبيعي فدونك وصفه الوجيز :
« جزيرة برية ، على رابية مخروطية مفرطحة قليلا ، تعلو متنين
وخمسين متراً عن الاودية التي تطوقها . خطط الحدود قريتنا الصغيرة
في عين حكومتنا ، فإذا نظرت اليها من جبل معاد تخالها حلزوناً ، يحدها
شمالاً نهر شتوي يسميه الجغرافيون نهر المدفون ، وغرباً واد شتوي
أيضاً يصب في النهر ، وقبلة وشرقاً سهل مقعر قليلا ، مساحته بضعة
أميال مربعة » تمت حدود بطريركية فارناي Ferney^١ ، إن صح ما
قاله فينا الأب ل. خليل « بشير » تموز ١٩٣٥ .

في هذا السهل غرسوا وغرسنا الزيتون ، والحكومة من الملاكين أيضاً
في هذا السهل الخصب ، وكم زجت - على عهد السلاطين - في السجون
من أبرياء اتهموا بعقر زيتونها ، وما كان الجاني غير العاصفة ... أما في
صدور الجبال المتكئة حول عين كفاع كثير امرى القيس في عراني
وريله ، فأغراس عنب وتين وكل ما عرف الفلاح اللبناني من أشجار
مثمرة ، فصار يحق لنا أن نرتل : والتين والزيتون وطور سينين وهذا
١ - مقر الكاتب الفرنسي الشهير فولتير من عام ١٧٥٨ إلى عام ١٧٧٨ ، وقد
لقبت بـ « بطريركية فولتير » ، كما لقب الكاتب بـ « بطريرك فرني » .

البلد الأمين . حقاً انها بلد أمين ممن يدخلون القرى فيفسدونها .
إذا تأملت ترى المحيطان منظمة كسطور ابن مقلة فتحسبك في مدرج
روماني ، والعرائش كالعرائس تجلل قلاها كأنها عذارى دوار في ملاء
مذيل .

والقمم ، وما اجل تلك القمم تختبىء خلف بعضها كعذارى لبنان
في محفل ، عنيت القرويات لا المتسابقات إلى عروش الجمال .
الوادي الشالي رهيب جداً ، وضيق جداً كصدور اللاهوتين
المتحرجين^١ ... تتناوح فوقه الجبال حتى تتصافح ، يمتد من ميفوق^٢ إلى
سيف البحر حيث بني على قدميه جسر المدفون . مسافته عشرون ميلاً
أو تزيد ، وتعاريجه أوضح ما تكون في عين كفاع ، فكانك أمام
فستان الملكة فكتوريا المثني والمطوي بشكل ملوكي . ولو كان هذا
الوادي الذي تطل منه القرية على البحر عريضاً تجري فيه المياه لقلت لك:
الدرنيل أو البوسفور . ولكنه يضيق فيصير قيد باع فقط . وفي هذا
كان يربض الناس لتحية بعضهم في الليالي السوداء ، وكل ليالي
« الزرادات »^٣ سوداء ، وانسى لضوء القمر ان يبدد ظلمة لا تكاد
تنيرها أمه .

في القرية وحولها هوى عديدة ، فقرب بيتنا هوة سدها جدودنا

١ - المتشددون في الامر .

٢ - بلدة في لبنان .

٣ - اسم مكان .

فصرنا نقصد هوة 'المسابير'، حيث ندهور الحجارة ونصغي إلى صوتها
 وصداها، فتتساقط من درجة إلى درجة فنعد السبعين والثمانين ولا تزال
 نسمع التدهدي'، حتى اعتقدنا صغارا ان هناك باب جهنم... وكانوا
 يخوفونا بخروج الجن والشياطين والعفاريت والرصد من قم تلك الهوة
 الرهيبة ليصدونا عنها، وللرصد حديث مثير لا نضن به عليك.
 حول القرية كهوف تعد بالعشرات، 'مهرقة' فوه' ككواسر لامية
 العرب، فكانها قم الدهر يحدثنا بما مر أمامها من مشاهد وعبر ولا نفهم
 ولا نعي شيئا.

أما غابات القرية، وجل أشجارها سديان، فمربعات ومثلثات
 وموشورات^٢ على جوانب كرومها، وفي الجهة الغربية غابة تكسو الجبل
 من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وفي الجهة الشمالية بقعة كبيرة كلها
 من الآس.

القرية نصرانية مارونية وقديسها مار روحانا يعيدون له في ٢٩
 ايلول كأنه عيد القطاف والعصير، أو مناحة أمنا على فتي فصولها. ان
 عجائب القديس روحانا كثيرة، أكثر من عجائب يسوع، وحياته
 غرائب سأحدثك عنها يوم عيده، أما الآن فإليك انموذجا منها:
 نجى القديس صبيين من أسد 'رديء' كاد يفترسها، وإن سألت

١ - اسم مكان.

٢ - صوت الحجر المتدحرج.

٣ - ممزقة وموسعة.

٤ - شكل هندسي.

كيف ذلك ، قيل لك : « عجائب الله في قديسيه » .
أما صورة القديس فتنبئك أنه أجرى نهراً حال دون الأسد
وفريسته ، فأقعى يعوي كالكلب بالقلوب . وعندما شككت صيياً سألت
جدي الحوري : ماذا صار بالنهر بعد نجاة الولدين ، وأي أصعب أقتل أسد
أم إجرء نهر؟ فانتهرني قائلاً : سد بوزك . آمن يا صبي ولا تسأل . وسكتنا .
ومن عجائب قديس ضيعتنا أيضاً أنه « استنبع » عين ماء لقريسة
ظماى استغاثت به ، ولم يذكر السنكسار أنه استعان بالعصا كموسى ...
ليته يرق للقرية المتعبدة له . فهي ظماى تفتش منذ أجيال عن العين
الخفية ، « عين الوطى » ولا تجدها ، فالأسطورة القروية تقول أنها
مغطاة بسبعة لحف ..

سألت القديس روحانا ليلة عيده عام أول ، بعد ما أعييتني الحيلة
وبقيت الضيعة بلا درب ، أن يعمل عجيبة واحدة ، فأجابني : ان الله لا
يأذن بعمل العجائب اليوم .

فقلت : ما أقل حظنا ! فأجاب : نعم . ألم تقف الحكومة عن تمهيد
الطرق حين جاءت نوبتكم ؟

قلت : ولكن الحكومة تعمل متى شاءت ، وتنفق عشرات ألوف
الليرات على توسيع طريق وتعييدها ، وتعتذر بالمراسيم إذا أبت .
قال : ونحن أيضاً نحتاج بقلة إيمانكم ..

قلت : لو لم تبق شماساً لظل الرب يستجيب لك ويرخص بالعجائب
متى طلبت .

قال : وحكومتكم كذلك لا تسمع إلا للمتقدمين في الأخوة ...

قلت : هذا تعبير عتيق ، فالذين تعنيهم يحملون اليوم القاباً فخمة..
وإذا لم تقبل أيديهم راكعين^١ حاسرين ، يحدون .
قال ...

قلت ...

أما بيت هذا القديس ، « كنيسة الخورنية » فبنيانه فخم متين مشيد
على بقايا برج قديم لا تزال آثاره ماثلة ، فزاويته القبليّة الغربيّة راسخة على
حجارة ضخمة كأنها من قلعة بعلبك ، وإن كانت دون الكبرى ضخامة ،
فكان حجارة الهيكلين من مقلع واحد . أما درج الكنيسة فداخلي وهي
أشبه بمحصار منها بهيكل ، وفي خاصرة حنية الكنيسة حجرة مخفية أعدها
القدماء مدفنًا لكنوزهم ، إذا اجتاح الغاشمون قريتهم واخذوها عنوة .
وسنديانة الكنيسة الضخمة الهرمة التي أكلت الأيام جذعها ، كقلوب
الفريسيين^٢ ، فتحدثك بعمر الهيكل . فعين كفاح ، كما ترى ، حصار
طبيعي لا يدخلها الجبابة ومبلغوا أوامر الحكومة إلا من بابها الشرقي ،
ولولا هؤلاء ما عرفت القرية أن في الدنيا حكومة . فعين كفاح ، قبل
الطائرات ، كانت قرية محسدة^٣ في ليالي الأهوال لا يلجها أحد بلا تعب
وعناء ، ومن يضل الطريق لا يستطيع الخروج منها إلا إذا عاد من
حيث أتى .

حدثني جدي عن الأميرين الشهابيين يوسف وبشير ورجال حكومتها
كيف كانوا يأتونها لصيد الحجلان والقطا (الحمام البري) بحاشيتهم

١ - فئة من اليهود هاجموا السيد المسيح لمراوغتها .

٢ - محسودة جداً .

وبئزانهم ، ودلني على مقعد الامير في الوادي الرهيب - القطنين - .
في هذا الوادي الجبار المقطب الجبين كان لرهبان ذلك الزمان المتقشفين
دير عظيم جداً لا تزال آثاره ماثلة^١ . ولخراب الدير اسطورة تذكرها
في حينها .

وعلى الجبال عدة هياكل يتهددها الدمار : مار عبدا ، ومار سمعان ،
ومار سر كيس . في دير مار عبدا تخفى المطران يوسف اسطفان حين
أهدر الأمير بشير دمه بعد « عاميتي انطلياس ولحسد » ، وفي الذروة
الغربية تجثم كنيسة معاد القديمة^٢ كأنها احدى قلاع دردنيلنا البري .
وعلى جبالنا وفي اوديتنا كان يلهو مواطننا الاله ادونيس ، وكانت
نمورتنا اشد احتراماً للمعبود ، فلم تفرسه كخنزير الغينة^٣ البري .

هذه هي عين كفاح المسكينة . ومن محاسنها اليوم بعدها عن
الضوضاء ، فكان الحكومة الجليلة أرادت ان تبقى في بلادها المحروسة
نموذجاً للقديم فما وجدت اصلح من عين كفاح في بلاد جبيل ، مهد
الديانة والحضارة الاولى ، فسدت آذانها عن نداء اهلها . تعتمد القرية
على الحرير وقدمات ، وعلى الزيتون وهو محتضر ، وعلى الكرمة والتين
وقد هرما ، وعلى التبغ ، ويسد شركة الحصر آخذه بخناقه ، وعلى
السفرجل والاجاص وغيرها فلا تبيع ثمرة لتعذر النقل ، فتسقط الثمار

١ - تسريح الابصار للامنس جزء ١ صفحة ٩٠ .

٢ - اخذ منها رينان كتابه يونانية للإله ستراب تاريخها قبل المسيح ، وارسلها
إلى باريس .

٣ - الخنزير الذي افترس ادونيس .

تحت أماتها وتغني المزارعين عن الاسمدة .

سماء عين كفاح صافية كقلوب القرويين ، فلا ضباب ولا رطوبة .
أفق كمين الديك لا يتعقد فيه سحاب إذا أصفنا . ثمار استبدت باللذابة ،
وخمرة دونها خمرة شمبانيا يوردو ، ذاقها اجانب كثيرون فاعرضوا عن
خمرتهم واحتسوها متمطقين .

عين كفاح مجرى هواء . وللريح فيها هينة^١ أزلية ، ولولا أن عين
كفاح على قمة لقلت لك أنها ومحيطها كصحن مشروم^٢ . يمر الصيف ولا
يلزم واحد فراشه . الجميع في عرازيلهم وعلى مصاطبهم . عرب
متحضرين ينامون على ابتسامة القمر ، ويستيقظون على غمز النجوم . لا
يعرفون البق والبرغش . الجداجد^٣ ترمزم في اوديتهم كابن المقفع ليلة
اسلامه ، والحجلان تقوي^٤ مترحة على المعري ، والثعالب تعوي مسبحة
خالق الدجاج والعنب والقثاء ، فتجيبها الكلاب ، فتسد بوزها^٥ .

في عين كفاح تنتهي حدود الزمن ، ومقاييس الناس ، وعرف البشر
وتقاليدهم . فناموسيتي^٦ فيها مذرقة^٧ مديجة بالماس غماز ، ومناطها الجاذبية
كما يزعم احفاد نيوتن ، وكرسى^٨ رفر ف أو افريز أو صفة . المحصول

١ - صوت منغم .

٢ - مكسور الطرف .

٣ - جمع جدجد ، دويبة على صورة جرادة صغيرة .

٤ - تصيح .

٥ - قم بالعامية .

٦ - غطاء للسرير بقي النائم من البعوض .

٧ - قبة .

مشارك ، لا بيع ولا شراء إلا إذا ضخمت الكمية . على الغريب ابن السبيل ان ينادي الناطور ثلاثاً فاذا لم يجبه حل له دخول الكروم والأكل من ثمارها . الأكل مباح أما الأخذ فسرقة وتعد ، تلك هي الاشتراكية المعتدلة .

كثيراً ما كان يزورنا مجهولون ويصرفون في وادينا اياماً واسابيع وشهوراً فنقرهم^١ مما ملكت إيماننا ، حتى يستسلموا الى الشريعة التي تطاردهم ، أو يعفى عنهم .

إن يد الشرطة والجند قصيرة عن مطاردة الأشقياء في واديتنا الرهيب . سنقص عليك ، أيها القارئ ، احاديثنا ، وهي أنواع وألوان شتى . فإن شأقتك فحسبنا ، والا فنحن في حديثنا ماضون ، ففي النفس اشياء لا بد من البوح بها وتسجيلها عملاً بمثلنا القائل : « بحنا واسترحنا » .

عِزِّ الصَّليبِ مِنْ عَيْنِ كِفَافٍ

جبل جاج^١ أقرع ، قاعد بوجهنا ككبير أناس امرئ القيس . بجاده^٢
رمادي مجمد ، وفي وجهه نكت كأنها البثور التي تأتي الوجوه على الهرم .
تلك فضلة أرز تشهد لنا عند الدهر على « اصدقائنا » الذين يأخذون منا
جزية المحبة ، بل بقيّة كاس شربناها منذ كانت الآلوهة فينا والمعبود
منا وإلينا ، ابن التي كانت لأوريا فكان أطمع من أييه . خلق الرؤوس
ونعم ، وصار الخالق عريساً والهيكल مضجعاً لحبيبتة الجميلة بالحذاء ..
ان « يهوه » كان في كل عهد حجل صيد ، وبيته ستارة ...
سامحك الله يا حيرام ...

يظهر جبل جاج من عين كفاف كحنيّة مذبح سقط عقدها فعوضها
الله من قبته الزرقاء . تتدحرج إليه الذرى كالكاهن الى مذبح ربه ، فما أجله
والغروب يلفّه بعباءته كما اشتهى الزاجل اللبناني أن تفعل به حبيبتة .
تلوح في الامد الابعد « قرنة حفرون »^٣ فتخالها منبر واعظ بليغ لا

١ - بلدة في لبنان .

٢ - ثوب منقطع .

٣ - اسم مكان .

يفلق الناس كلامه المعتاد ، ولا تمل العين حديثه الصامت ، وإذا لاحت
عليها نار الرعاة حسبته منارة بجر الظلمات .

يؤثر بي جداً منظر الغروب ولا سيما بعدما مال النهار . وها أنا أرسمه
لك من خلف تاركاً لغيري وصفه من قدّام . فإذا احتضرت الشمس خلت
جبل جاج جمراً مكسورة حدته ، حتى إذا فارقت الشمس المريضة رمد
رويداً رويداً ، وازرق من خلفه الأفق الأغبر ، ثم تشتد الزرقة وتسود
إذا طالت غيبة القمر . فـلاو شهد فولتير غروبنا العجيب لنساء ذاك
الشروق الذي انخلع عقله حين شاهده .

ولجبل جاج منظر نهاري أريد أن تعرفه . ان اتزرت سماءنا حلقت
الشمس فوق الغيم وضربته فيلوح كسبيكة فضة خارجة من تحت يد
الصانع ، فالشمس عندنا تفضّض ولا تذهب .

وإذا استقبلت عند الدغيشة ملعب أدونيس ومرتع الزهرة – جبل
الفتوح^١ – تراءت لك سنديانة « اغبة » الوحيدة ، الواقفة في الرقيع بين
عاليه وعين كفاع ، كأنها شبح أحد الأجداد الذين عمروا هذا الجبل . وإذا
أشملت نظرك رأيت البحر كشقة كرمسوت^٢ تليق بعشاق البرفير
والأرجوان .

كثيراً ما يصعد الدخان عند أقدام السيد المتكّيء فنحسب الناس
يبنخرون ضيفهم الدائم . ويستنير الأفق قبل وصول راعي النجوم فتخال

١ – منطقة في لبنان .

٢ – نوع من القماش الأزرق .

ناراً توقد خلف جبل « القرن »^١ وتوشك ان تحرق شعور بنيات الجبل
ثم تتسع قنطرة النور وتبدو صلعة ملك الليل كرقيب يتسرق من وراء
جدار حتى إذا قارب قرصه الثلثين خلته قاووق^٢ جدّي الخوري لو كان
طوبه البابا وصورة داود القرن .

وإذا علا القمر ذراعاً تأخذ الظلال في الهرب من وجهه واحداً خلف
واحد ، كعذارى لبنان القرويات من وجوه الزاثرين . ظلال تمثل للشاعر
دنيا لا يحلم بها إلا من كان كشاعر بنت الرقمتين^٣ يرى بعينيهما وترى
بعينيه ... وإذا علا القمر قامتين اشتدّ البهق^٤ وتوارت الأشباح في
الكهوف واختفت في الاودية هاربة من وجه الفاتح ، وتجلّت كنيسة
بجته^٥ تحت برقع النور كأنها قلعة فقرا^٦ .

أما وادينا الرهيب فيظل متمرداً ولو استوى الملك على العرش ،
فهو خارجي كابن الزبير لا يبايع ولو صلبوه . ضيقت جباله علينا
ولكنّها أرتنا الشمس على ضربة حجر منّا ، فظننا يوم كنا نعلم أن ملكوت
الله لنا وحدنا ، اتنا ندر كها بيدنا إذا استوينا على قمة « الشباع »^٧ .

١ - مكان من لبنان .

٢ - غطاء الرأس للكاهن .

٣ - اسم موضع .

٤ - البياض ، ويعني هنا نور القمر .

٥ - بلدة في لبنان .

٦ - مكان اقري في لبنان .

٧ - مكان في لبنان .

وإذا ترطب الهواء الغربي ظهر جبل « معاد » قرب الفجر الكاذب
ككاهن مربع عريض الكفل يلبس درعاً من القطن المندوف مشرشر
الأطراف .

هذا مشهد أراه كلما اكتمل القمر . أمّا المشهد الذي أراه في الصام
مرة فهو ليلة عيد الصليب .

أقف ليلة العيد قرب الغروب فيطير عقلي من رنين الأجراس
المتجاوبة حولي في أودية ومغاور و هوى وآبار عين كفاح واسمع ما لو
سمعه بولس حين رجع غائماً من السماء ، لما قال : لم تسمع به أذن ولم تره
عين . فهذا يتحقق عندنا ليلة ١٤ ايلول .

التفت صوب الشرق فرأيت نور الشمس يزنر الجبل كأنه يشدّ
حقويه كبطرس وإن لم يذهب به حيث يشاء كما أنذرهم معلمه . . وصعدت
نظري إلى قرنة حفرون^١ الناتئة كعرف الديك فخلت يسوع والشيطان
واقفين عليها يتعاتبان . يذكره إبليس بفرصة ضيعها ويعرض عليه
الدنيا مرة أخرى ، فمعجبت وأعجب معي أنت لشيطان يعرضها على
ربه ! وإن قلت لكاهن هذا ، لدار بك حول « الطبيعة الانسانية » حتى
تدوخ . . وإذا قلت شيئاً آخر لقال لك : « بحسبها هو اله » . وهكذا تكون
دائماً بين نارين مع « المحامين » عن الله ، وهم كالمهر لا يقع إلا واقفاً، فارمه
كيف شئت .

وكانني رأيت الجهدال انتهى بقول عدو البشر للمخلص: هذه شواربي

١ - الحقو : الخصر ، والحقوان : جانبا الخصر .

٢ - مكان في لبنان .

احشها إن ظهرت لهم ولم تأكلها ... ولكن السيد تغلب أيضاً على
جبل جاج^١ ولم يدخل في التجارب ... وإن لم يتجرأ على الظهور فهو
يعرف ما عنده ويحب السترة ...

أخذتني هذه الافكار حتى بدأت أنوار العيد فصعدت إلى « قببة
الوادي » ودقّت أجراس الجوار فحسبت داود قام وهو يرقص ويرتل
للتواب الرحيم ، وعينه على اوريا آخر ... لا تستبعد حديثي فمن
عين كفاح أسمع ثلاثين جرساً وأكثر تدق كلها في تلك الساعة ، فتصور
كيف تكون . ثم علت التهاليل على القمم فخلت كهان الكنائس المتهدمة
نفضوا غبار القبر وتجمعوا على النرى يصرخون مع الصارخين : محبة
بالمسيح كير ياليسون .

وبين تهليل الفتيان وهتاف الصبيان وتسبيح الكهول والشيوخ
تندلق السنة النيران من رؤوس الجبال وأحشائها كأنها السنة أفاعي
الشك ... ثم يتعالى الدخان كسلم يعقوب المشهور فتقول : هذه ساعة
القيامة والدنيا تحترق ، كما زعموا ، وتحسد المستعدين ... وهكذا
تستحيل بقعتنا معبداً منيراً فتغبر الفقاقيع الغائمة على كأس الفضاء
الذي يشكل عندنا كأس شمانيا . وإذا جاز القاطع والمانع^٢ في التشبيه كما يحلو
في المنطق قلت : محيطنا كقشرة بيضة - كبر ما شئت - نصفها من الغبراء
والنصف الآخر من السماء .

١ تخيل أنت ما تشاء ، أما أنا فاصف ما أرى وإذا لم تصدقني فشرقتنا

١ - بلدة في لبنان .

٢ - ما يمنع التشبيه في قواعد علم البيان .

بزيارة .

لاحت لي طغيمات^١ الوقيد على رأس جبل " بوشال " كصفوف عسكر
في الجبهة لا تضمحل فرقة حتى تتقدم أخرى ، والدخان ينعقد فوقها
كليل بشار ، ولكنها حرب بلا رماح ولا سيوف . فالكواكب لا تنهاوى .
تخلق الانوار على الجبال كأنها جراحات السيد تفتحت على التلال
لتفرق الكتبة والفريسيين بطوفان أحمر .. أو كان للجبال عيوناً عمرة
تنفتح على الأمة الجريح ثم تنطبق خوفاً من جلال المشهد . وتسمع
خشخشة المشيم المحترق كأنها فحيح الثعابين وكل هذه الأصوات تتحد
لتصير صوتاً واحداً يهتف مع المعبد : محبة بالمسيح كيريا ليسون .
إنهم يكرّمون المسيح باللهيب ويسوع كان لهيباً حقاً كما قال الشاعر
السرياني في ييلاطس ومحكمته : قامت القشة على الكرسي حتى تدين
اللهيب .

إن نار تلك الخشبة ستظل متقدة ما دامت الإنسانية في حاجة إلى
نار ونور ، فمن للمقهورين غير الناصري الشهيد ؟ فهو إمام المجاهدين ،
ومن يقتد به لا يياس . فسلام عليك يوم ولدت ويوم تموت ويوم تبعث
حياً . أهلاً بك يا سيد ، ولكنك طوّلت الغيبة . عجل عجل .

لو ترى محبة بالمسيح كيريا ليسون تطير عن رؤوس الجبال كالعقبان
وتتصاعد من الاودية كالإيام ، لهتفت معهم : هاللويا^٢ كيريا ليسون . فما
أعظم هذا الضعيف وما أسعده ، ولئن طرد من القصور فهو سيد

١ - جماعة امرهم واحد .

٢ - هالويا : عبارة طقسية تدل على الفرح العام .

الأكواخ ولا يذهب من مخيلة الشعراء .
عظيم هو هذا المصلوب . يدفئ أنفاسنا ميلاده وتفرح معنا الأرض
بقيامته ، ونودع الصيف بمهرجان صليبه .
إن جبال بلادي أبهج منظرأ وأعطر روائح من جبال الارز كما قلت
يا رينان . فلو تراها ليلة هذه المحرقة البريئة لقلت أكثر ، ولو رأيت محبة
الناس ليسوع ليلتها لتيممك خبته .
يخزي الله من يكفرك ، ولكن الذي كان في اورشليم كالدجاجة الغربية
صار عندنا أغرب .
حالت يا يسوع محل ابن عمنا العاشق ، والها الوهان الطماح ، فأهلا
وسهلا ومرحبا .
علمتنا : اعطنا خبزنا كفاف يومنا ، فهات خبزاً .
إننا ننسى ليلة عيد صليبك أوجاعنا ، ونصدق من خبروا أنك
حملتها عنا ولكن صباحنا أسود . إن خيراتنا بين أيدي هؤلاء المهملين
ليلة عيدك ، والمتوجين في صباحه ، والمعجن عدو الرغيف .
أعطينا ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، فاصبحنا على الأرض البيضاء ،
فهل عندك تعليم جديد تبلونا به لنؤجر ؟
البشرية كلها علينا ، والدينار الذي رأيت في القدس نام مثلك في
الحبس . قلت لا تعبدوا الربين فتركناه وتبعناك ، فانظر ماذا تعمل لنا ،
هات ما عندك يا يسوع فالاتكال عليك .
هل من هرقل يخلصك من أكاسرة اليوم لنعيد لك عيداً جديداً ؟
١ - امبراطور بيزنطي .

هل من هيلانة تنجيك من الرطوبة التي البستك قميصاً من الزنجار^١ ؟ انا
والله خائف عليك من الاستسقاء^٢ ...

سلام أيها القروي ، والمجد لك يا ابن الضيعة .
« نوروا » يا مساكين ، نور الله عقول رعاتكم .. إن بساط الصيف
واسع ، أما الشتاء فطويى لمن يقطعه . إنه يعيش عمراً جديداً . تعللوا
بقول معلمكم . من يصبر الى المنتهى يخلص .
عظموا الخشبة بعد ثلاثة عشر قرناً ، واسألوا الله ان لا تسوس ..



وقرب نصف الليل انتهى الفيلم ، فقعدت منهوكة كمن قطع عشرين
وادياً . وهبط ربعي عن التلال وجرى حديث عن الرب يسوع سائقه
اليك فلا تلج بحياة ربك . وإذا عذرتني كما عذر جارتك بنت المجدل
فربحت سعادة الدارين ، نعمت وإياك هناك بحيرة ذات النورين .. ليت
لي ولك ربع حظها .

١ - الصدا .

٢ - مرض يسبب احتقان البطن بالماء .

مجلس القرية يوم الحكومة

لا نعتي بمجلس القرية المختار والعضوين المعيينين من الحكومة .
فمجلسنا هذا لا ينتخب ولا يعين ، ولا يتقيد بعدد وليس له نصاب قانوني
قبطه سندية الكنيسة ودورته دائمة ، قبل القداس أو الزياح . نعقده
حيث نجتمع : في السهرات ، في عيادة المرضى ، أو السلام على الغائب .
فالسلم عندنا محل على من يغيب عن الضيعة ولو يومين .

من حضر باع واشترى . فالأمر شورى بيننا ، ولا خلاف على الرئاسة ،
فما أحد خير من أحد إلا بالصحة والعافية والرأي السديد . فإذا دارت
الغريبة والنخل حسبتك في طاحون أنطلياس .. لا محابة ولا شفقة .
المجلس دينونة رهيبه ، ومن يشهده خال أنه في وادي يوشافاط^٢ ، والويل
لمن ساءت سمعته وقلّت هيئته ، فالمجلس يشجبه ولو كان رأسه ينطع
السحاب .

أما الاجتماع الذي أحدثك عنه فكان مساء الاثنين ١٦ ايلول . فأكثر
القرية ينتظرون صاحب البريد عصر الاثنين أو الجمعة وهو لا يخرم ولا

١ - بلبه في لبنان .

٢ - واد في فلسطين . يقال انه المكان المقرر ليوم الدينونة .

يخلف الميعاد . استبطاه الناس ذاك النهار فتفرقوا ليتعشّوا ، وعشاء القروي مع غياب الشمس فكانه صائم رمضان أبداً .

نهق حمار صاحب البريد في سفح القرية عند الدغشة فردّوا : جاء ، جاء . وازدردوا لقمتهم ملهوفين وعادوا إلى الاجتماع على سطح البئر ، وان شئت تعبيراً جديداً قلنا لك « الفيراندا » لا السطح والمسطبة .

كانوا فيما مضى يسألون بطرس - البوسطجي - عن المكاتب المضمونة الحاملة بشائر الفلاح ، لاهل الكادحين عبر البحار ، ولكنهم صاروا غير مرغوب فيهم حتى في السنغال .. أمّا اليوم فكل بضاعة البريد وطنية : بلاغات محاكم ، واندارات . رسوم مسقفات ومسكرات ، وغرامات يجود بها بعض الجنود الخيّرين على من يفتح باب بشره ، أو لا يعمل السدادة باطوناً أو حديداً .. فباتوا في هذه الايام الرحراحة يتهافتون على الجرائد . كل يتناول واحدة من الصحف والمجلات التي ترد على الجميع يعنون باخبار الحرب ، فالمسوع يخاف من جرة الحبل ، فحرب الأمس أهلك نصف سكان القرية وسكّرت حارة برمتها . استغفر القلم والذاكرة بل فتحت أبوابها وسقوفها ، أمّا اليوم فعادت الضيعة كما كانت من قبل تقدأ وعدداً .

كانوا يتوقعون أن تعلق الحرب بأوربا فابتدروا سلاحهم من خروب ما كانوا يبالون به ، فصح قول المثل المحلي : جاء من يعرفك يا خروب ، وثمار لم يكونوا يحرصون عليها لو لم يتذكروا كيف كبرت قيمة التين وابيض وجه الخروب ، فصار دبسه سيد المائدة زمناً ككافور^١ في مصر .

١ - زنجي ثولي الحكم في مصر .

بشّرتهم الصحف بالسلام العالمي فدعوا للافال ولجنة الخمسة، وحيّوا
الاساطيل الانكليزية الساهرة على السلام بأعين لا تنام ، وانصرفوا الى
الاخبار المحلية فلفتت نظرهم الموازنة فتداولوا حديثها. أمّا ساعي البريد
بطرس فما وعى شيئاً من هذا . انبطح يشخر ، وكيف يسهر من يطوف
زهاء ثلاثين قرية في الاسبوع مرتين وفي خروجه مئات الرسائل المضمونة
التي تفتقد بها الحكومة رعيّتها .. وتحصل الغرامات؟

وخفّ عدد الناس فصعدنا إلى « قبة الوادي » لأن الليلة كانت حارة ،
فقعدنا حلقة على الحصر كأتنا في حلقة النظام^١ ، أو أحد المحدثين. بضعة
عشر شخصاً كلٌّ وجريدته ، وبيننا أنا أفتش في صحف فرنسا عن نبأ
الكاتب الشهير هنري بربوس ، إذا بواحد يشق الحديث قائلاً: هه، صدقوا
الميزانية .

فاشرأبت الاعناق وقال واحد : أية جريدة معك ؟

— صوت الاحرار .

وقال آخر : كم مليوناً ؟

فأجاب : أربعة ملايين و .. و .. وكسور .

وسأل اكثرهم : والطريق ؟

وكان سكوت وتغامز . أمّا أنا فنمت عن هذا الحديث وتشاغلت
بصحيفتي . إن قصتي مع قومي ، وكلهم خير مني ، كقصة الأرملة
وطبختها لبنيتها . وهل وعود حكومتنا غير هذا ؟

أمّا تلك فجاءها عمر وكيس الطحين على ظهره ، أمّا نحن فقد رنا لا

١ — حلقة المدرسة النظامية في بغداد .

ترال منصوبة على الموقد والطعام لم ينضج .. غير أننا ما نمسا ولن تنام
فالجوع فضّاح .

فنهزني شيخ مجلسنا ونهزني قائلا : أيش بك ، احسك ، اكتب
للدّباس^١ .

فضحك فتى منّا خفيف ، فخفت أن يغضب الشيخ لأنه شوّاط ،
فتواضعت له وقلت : يا خال ، الدباس مات ، وموعد وصول جثته من
فرنسا يوم عيد مار روجانا (٢٩ ايلول) .

فهمد كالتخجول وقال : أنا ما عرفت ، الله يرحمه ، عمله مليح مع
جيرتنا ، من الرئيس اليوم ؟

قلت : حبيب باشا السعد .

فقال : عال عال . اذن اكتب للبasha .

فاجبت : عرضنا له عام أول .

فابتدري قائلا : انت ومن ؟

فضحكت ، لان ضمير الجمع معدوم عندنا ، فقلت : أنا وأنتم .

فقال : وأيش صار ؟

قلت :

فهز رأسه وقال : هيهي ، وأطرق طويلا .

واستم الحديث شاب فقال : الطرق تعني مدير النافعة ، لماذا لا

تحكي معه ؟

فقلت : حكيت . ويشهد لي صديقي كرم ملح كرم .

١ - رئيس جمهورية لبنان .

فقطاطعني قائلاً : صاحب الف ليلة وليلة ؟

فقلت : نعم هو بعينه .

فاعترض آخر وقال : عليك بمدير الداخلية .

فقلت : وكلّمته في بيت صديقي نسيب عازار ، في غرزوز . ورأى أحدهم أن المحافظ يقدم ويؤخر فأجبت : كذلك فعلت في غرزوز ، ثم ذكرته في عاليه .

وقال أحدهم : والقائم مقام ؟

فقلت : آخر حديث كان بيننا يوم عيد مار يوحنا (٢٤ حزيران) .
سألني اذا كان عندنا مشاع فقلت له : الضيعة كلها مشاع .. وعدني بزيارة وأظنه فزع من الطريق فتأخر .

فقال احدنا : يا هو ، نسيتم النوّاب ؟

فأجابوه : النوّاب يسألون عنا ويعرفوننا قبل الانتخاب . النوّاب مساكين ما بيدهم شيء .

أمّا شيخنا فاحتد وانتحى - هو خائف أن يموت ولا يصلّي عليه المطران - وأخذ يشيخ علي : يظهر يا خالي أنك تعرف تخربش على الورق ، وتقطع على الآلة (الآلة الكاتبة) ليل نهار . خبرهم عن طريقنا انها أهم درب في جبل لبنان ، « قادمة » تربط الدنيا ببعضها . ما سمعت حكي الجرائد عن سيدنا البطرك ؟ لا تتعجبوا ، البطرك ملزوم يمشي ! المجمع اللبناني يأمره بزيارة أبرشيته ، هكذا قل لهم حتى يعرفوا حالهم ..

فعلت ضحكة أحس بها الشيخ مع أن الفتى أكل ثلاثة أرباعها فعقد

حاجبيه ودار ثم قال لي مشيراً إلى الشباب : أولاد الحكيم معهم ضائع . يا مارون ، ما قلت للحكام اننا دفعنا ربع المجيدي ونصف المجيدي والليرة والربع ... منذ سنة الستين الى اليوم ، والحكومة ما صرفت بارة واحدة على دربنا . لو ردوا لنا مالنا بلا فائض عملنا أحسن درب في لبنان كله بلا جميل مخلوق خلقه الله .

فقلت له : قلت لهم كل هذا ، وقلت لهم ايضاً ان الحكومة اعتبرت دربنا فعدتها من "المنافع العامة" بقرار سجل في النافعة تحت رقم ٢١١٦ بتاريخ ٢٢ ايار ١٩٣٢ وقلت لهم أن شق الباقي منها - ٦ كيلو مترات - يربط الشمال بالجنوب وتنفتح أقرب درب إلى الارز وقلت .. كأنه رثي لي فقال : طيب ، طيب ، يظهر أنك قلت كثيراً . لماذا ما سمعوا لك ؟

فاجبته : لا أعرف افهز رأسه واحتبى . فقال واحد : كل هذا تعب باطل ، ما لها إلا الفرنجي .

وبهتنا محيرين فضحك شاب من عادته قراءة الجريدة من العنوان إلى الإعلان وقال : خبر كويس .

فأصغينا إليه ، فقرأ علينا خبراً أذاعته جريدة الراصد ، وهو أن مدير الداخلية طلب من القائممقامين تقديم تقرير عام عن حالة كل قرية ودسكرة ومبلغ حاجتها إلى الإصلاح من ينابيع شحيحة وملوثات وأمراض . فهتفوا جميعاً : نشكر الله ، لا ينابيع ولا أمراض .

فقال : اسمعوا . وأتم : والطرق التي لازم فتحها وإصلاحها ؟

١ - قرية صغيرة .

فصاحوا جميعاً فرحين : جاءت وجاء بها الله .
 وخفتت أصواتنا فقال واحد مشؤوم : اقرأ تفرح جرب تحزن .
 وقال آخر لعين جداً : اذا وعدتكم الحكومة بضريبة صدقوا ، أما
 اذا قالت لكم أعمل الطريق فيا طولها غربة .
 فهز الخال رأسه وقال : إذا بقينا على ما نحن كيف يزورنا سيدنا
 البطرك ؟ أظن الحكومة مهتمة بالطرق لهذا السبب .
 فتبسم الكثيرون فعدا الشيخ طوره^١ وكاد يخرج من جلده وصاح
 بنا : عيب علينا أن يجينا البطرك ماشياً . ثم هدا لحظة فصمتنا نكظم
 الضحك فقال لنا : بدا لي فكر .
 فقالوا جميعاً : هاته يا بو يوسف ، فأجابهم : غداً متى جاء سيدنا
 احموه من اول ' خراجنا ' ^٢ الى آخره لئلا تصيبه مصيبة عندنا تصيرنا
 مثلاً بين الناس . استرنا يا رب .
 وتحرك للذهاب فنهضوا جميعاً كأنهم معلقون بخيط واحد .
 أما ما أقره ' برلماننا ' قبل الانصراف فهو أن تقطع الصفحة السادسة
 من عدد صوت الأحرار (٢٠ تموز و ٢٤ آب) ونرفعها إلى حضرة مدير
 الداخلية مع العريضة التي نصّوها هم واليكها بعد الترجمة :
 تطلبون افادة القائمقام عن قريرتنا ، فلكي تعجلوا في شق طريقنا
 - وزاد الشيخ : قبل حضور غبطته - وتحسبوا حسابنا في الميزانية
 ١ - حده ، ومعنى العبارة هنا : فرغ صبره .
 ٢ - اراضي القرية ، دعيت كذلك باسم ضريبة الخراج التي كانت تفرص
 عليها في ايام العثمانيين .

الجديدة أرسلنا ما كتبته أحدنا مارون عبود عن قرينتنا وطرقها، فإذا لذك
لكم « النحو » قراتم ما كتب ، وإن أعجبتكم البساطة قراتم عريضتنا
هذه - ثم مردوا موقع الطريق وعلاقتها القديمة والجديدة بالجمهور. وغب
الفحص والتحقيق إذا لم تصدقونا تصح لكم حالنا وحاجتنا إلى الطريق،
واتنا بقينا وحدنا بلا درب ، فإن كنا محسوبين من رعيتم تشقوها
لنا ، وإن تتعذروا عن شقها كلها أوصلوها إلى أول خراجنا ونحن
تتكفل لكم بإيصالها إلى ضيعتنا، وتسليمها لجيراننا أهالي صغار وجربتنا
وتولا والبقية وضر أبي ياغي وشويت^١، وهكذا نربط البلادين - جبيل
والبترون - والمحافظتين - الشمال وجبل لبنان - ويصير عندنا طريق
تمكننا من بيع العنب والتين والزيتون والاجاص والسفرجل ، وإيصال
دخاتنا إلى مستودع الشركة بالوقت فلا تغرب منا وتخرب بيوتنا، وحينئذ
تقدر على الدفع للجباة ولا نرددهم فارغين. كثيرون منا، يا أفندي، يموتون
ولا يلحقهم طبيب ولا دواء، فأطباء البلاد ترحوا ، والفرمشيات سكرها
أصحابها ، فأملنا أن تلبوا طلبنا الزهيد الذي لا يكلفكم إلا خمسمائة
سماية ورقة ، أنتم من خير المولى تنفقون بكرم وجود ألوف ليرات على
تقويم حيط ، وتصرفون ألوف الليرات تعويضاً لواحد من المأمورين ما
خسر شيئاً في حياته بل ربح كثيراً وضرب .. فاحسبوا - لا سمح الله
بذلك - أنه كان منا موظف وصرفتم له تعويضاً ، فاصرفوا لنا مثل هذا
المبلغ وسموه مثلما يريدون : قرضاً ، تعويضاً ، حسنة لوجه الله ، نحن

قابلون بذلك وإن كان لا يساوي قيراطاً من أربعة وعشرين مما دفعناه
وندفعه إلى الصندوق منذ سنة الستين إلى اليوم، إن الذي يأكل ولا يطعم
تذمه الناس، ونحن نعرف الحكومة كالأب، والأب لا يفرق بين أولاده
حتى المعاتيه منهم، وفي الختام نشكر مساعيكم المشكورة ودمتم بخير
سالمين .

حاشية : إلى مدير الداخلية السيد صبحي بك أبو النصر .
هذه صورة محضر مجلس القرية نقلتها بحروفها وسانقل ايضاً شيئاً
كثيراً بكل صراحة، ولولا تعميمكم ما وجهوا خطابهم إليكم، فعسى
أن تحيط به المراجع علماً، فقد أغلينا الورق وما من مجيب .
وأزيد حضر تكم علماً أن متمشراً كبيراً شاء زيارتي في لبنان فأجبتة :
إذا جئنا في عيد الفصح تجدني في عين كفاع، فإذا كنت رياضياً كجماعتك
الانكليز، فاستعد للسير على قدميك في طريق قلقة المجاز تتعثر فيها
المعزى . فتعجب الاستاذ كيف يكون هذا في جمهوريتنا السعيدة بطرقها
الرئيسية المزفتة العريضة كشوارع لندرة، حتى تنازل وقال : يظهر
أنكم توجهون بضاعتكم .

إن هذه الصراحة التي أخطبكم بها قد خسرني الكثيرين من
أصحابي، عوّضني الله من هؤلاء جميعاً بصدافتكم التي أخطبها وأتمنى أن
تكون كشر الصوم في الطول ..

١ - جمع معتوه، وهو الاحق .

٢ - المر .

رسالة إلى الرئيس

إليك يا سيدي الرئيس ، أوجه ، بعد السلام ، أول كلمة تصدر عن عاليه . لا تتعجب أن أسلم عليك بالرئاسة ، وقد سقطت من يدك ، فنحن الجبليين نقول مع تلميذ لامنّه : من صار كاهناً مرة كان كاهناً إلى الأبد . فالخال بو يوسف ظل يحسبك رئيساً حتى ١٦ أيلول .

أكتب اليك لأبلغك عرفان جميل قرية مهمة تحترم الأموات ، أحسنوا إليها أم اناؤوا . أنت لم تحسن إلينا بيد أنك ما أسأت قط ، فلا أدري كيف أصحح فيك قول المتنبي :

انا لفي زمن ترك القبيح به من أكثر الناس احسان واجمال
فشقكم الطرقات محتجين بإيصالها إلينا ، ثم وقفها على أبواب الأديار
أفسد معنى البيت ، فلا أدري كيف جوزت هذا وأنت وعيت في صدرك
قوانين الدول كما قال الدكتور فياض في تأبينك .

سيدي ،

ما مشينا في ركابك ، ولم نمر أمام نعشك . إلا أننا ، علم الله ، أسفنا

جداً على شبابك المتقد، وثقافتك الواسعة العميقة . عذرتنا واضح ياسيدي، حاولنا تأليف ' وفد ' لنظهر بين الناس، وان كان الظهور يقطع الظهور فحالت دون رغبتنا وعورة الدرب .. لا تظنني مبالغاً ، فبالكد كنا ننقل الذين يمضون لسبيلهم من مستشفيات بيروت ، تقع وتقوم مرآت تحت النعش . يؤيد ما أزعج بيروتيون كرام شيعوا معنا جثمان نسيبتهم ، ادال كيرلس عبود ، منذ سنة ونصف ، ففاضت ألسنتهم بالادعية الخيرية للحكومة الساهرة على راحتنا ..

ستأسفون يوم يبلغكم تاخرنا ، عفواً ، بل فقدان بضع حلقات من سلسلة الموكب ، وستندمون حين تعلمون ما فعلت القرية الصغيرة التي لم تخطر على بالكم واستهنت بها .

اجتمعنا - مجلس القرية - بعد ١٦ ايلول مرة واحدة واتفقت كلمتنا على تعطيل العيد الكبير (عيد مار روجانا ٢٩ ايلول) حداداً عليكم واحتراماً لوصولكم ميناء العاصمة ، فلم ندق الجرس إلا بضع ضربات حزن إيذاناً بحلول الصلاة مساء والقداس صباحاً ، ولم نحرق القندول والبلان والكاز على سطح الكنيسة ، ولم نشعل القناديل ، فكانت الضيعة خرساء سوداء لا دق جرس ولا تنوير ، ولا مجال ' قول ' ولا رقص ولا زمر ولا ' دبك ' حتى القداس كان صغيراً ..

اسأل القرية فانا ' واقعي ' في أحاديثها . كل هذا فعلناه بلا دعوة ، ومن يدعونا ونحن ما زلنا منسيين كما كنا في عهدك ؟ فعسى أن يفيد

١ - بسيطاً وغير احتفالي .

هذا الدرس فلا نهمل ولا ننسى غداً .

الكلام بيني وبينكم . الظاهر أن الحكومة ما دعت إلى ماتمكم الا
من « قيدت » اسمائهم في دفتر « القروض » التي ابتدعتموها ، ، فحققتهم
أحلام كل قرية ودسكرة كما قال صديقي صاحب البيرق ، ولكن أظنه
يذكر جيداً أن أحلامنا نحن ظلت أضغاثاً .. ما اقرضتمونا لأنه لم
يتوسط بيننا وبينكم غير « حقنا » . خطيئتي عظيمة يا مولاي ، ليتني
تركت قومي يتوسلون إليك ببطاقات من يمنحون البركة الرسولية
والدعاء الأبوي .

لا أدري إذا كان بلغك أن كثيرين لم يلبسوا الدعوة . هون عليك .
لا تتعب يا استاذ . هذا حالنا . نحن مع الواقف ، والموالي ماله صاحب .
لقد علمناهم درساً عميقاً من دروس المروءة والوفاء فلعلنا لم تنفخ في
رماد ..

كانني أراك تحك رأسك وتقول : عين كفاح .. عين كفاح . تذكر
جيداً . تفطن ملياً ، تذكر كتابي الأخير المسجل في بريد جبيل المذيل
بكلمة شخصي . ففيه « مصور » الطريق ، وفيه وعد صريح بتخليد
اسمك في صدر جبل « القطين » الجبار ، كالفاتحين المرقومة أسمائهم
عندنا على صخور وادي حرباً .

وبعد ، فالماضي مضي . عسى أن يكون الحق حبيب الله في « العالم »
الذي صرت اليه وليس في عالم الآخرة قرية مهمة مظلومة كعين كفاح

١ - ما كان مختلطاً لا حقيقة له ، مفردها ضفت .

٢ - منقوش في صخورها بالقلم اليوناني : من هنا الطريق .. الخ .

تنقل اليها ونعلق بها الى الابد فلا يعد « المجلس السماوي » طريقها من
المنافع العامة لتصل إلى قصر مار بطرس وبولس، وتقف على باب كرسي
مار يو حنا فم الذهب ... ونبقى نحن بلا درب ، حتى في الملكوت إلى
دهر الداهرين .

أنا خائف كثيراً من هذا ، بحياتك تطمئني والسلام عليك .

ودع الرئيس حبيب باشا

اليوم سلم شيخ لبنان مقاليد الحكم إلى فتاه ، ونعم الأب والابن .
أبى القلم إلا أن يودع فارساً جالد عشرات السنين ، وشيخاً مفرداً
حمل على منكبيه أثقال جبل وأهوال دهر .
ففي كل طية من جبينه تستريح أمنية متعبة ، وتحت كل شعرة من
مفرقه يرقد أمل منهوك .
ما كان قط إلا قائداً ، شاباً وكهلاً وشيخاً ، فكانما ولد للعظام :
ما عجن لبنات وخبزه رجل مثله ، ولا رأى أحد منا ما رأى ابن
هذا البيت .
فمن عهد الإقطاعات ، إلى زمن المتصرفية ، إلى يوم الانتداب ،
والحكومة قائمة قاعدة في بيت سعد الحوري .
لست أؤرخ الآن ، فأدرس تاريخ سعد ، فهو تاريخ لبنان الحديث .
فيا ابن البيت الذي « ذاب » في حب لبنان ، إننا نحبيك .
إننا نودع رئاستك شاكرين حامدين ، فما أبقيت من جهدك شيئاً .
لئن غاب شخصك عن الديوان ، فرأيك ماثل في كل مكان .
يا أبا اللبنانيين .

يا ابن بنت الجبل .
أيها الوجه اللبناني المجيد .
يذكرنا محيّاك سيّاء لبنان المحضة .
السيّاء التي يبتلعها الأفق رويداً رويداً .
سيدكرك لبنان بالتعظيم ، ويعلم أنك كنت حاكماً له وأباً .
تهش للقمر وترحب بالمتقف ، وتداور العنيد الوقح .
خدمت بلادك حتى أعيت ، فأنت بالراحة الجليّة جدير .
فاجلس على عتبة بيتك، وانظر إلى البستان الذي حرثت حتى المساء .
لقد سقيته عرق جبينك ، ودفنت مع كل حبة ذرة من حياتك .
لقد ألقيت منجلك التي فضضها الحصاد ، فبارك الآتين بعدك .
هنيئاً لمن تحمل عليه بركة اليد النظيفة .
الرؤوس تنحني باحترام أمام اليد العليا ...
أما اليد السفلى فتزدرى .
سنذكر ولايتك مرددين قول أبي الجهم في معاوية :
نمّل على جوانبه كأننا إذا ملنا نمّل على أبينا
نقلبه لنخبر حالتيه فنخبر منها كرمًا ولينا
عمرك الله ما لبقت بك الحياة .
فبقاؤك أمل أشهى من العنقود .
ورجاء أخصب من الحبّة .

بمناسبة الدستور والاستقلال

كسائي كسائي انه الدرب بيننا فلا تدع الشجر المخوف بلا درب
هذا ما قاله ابن الرمي في الدرب ، والدرب حديث ابن عين كفاع .
فهو يتوجع ، وإن لم يبك كصاحب امرىء القيس لما رأى الدرب
دونه ... قالوا للجوعان : ثلاثة واربعة ؟ فقال : سبعة أرغفة . وأهالي
عين كفاع المحرومون من حق المرور إذا وعظهم الخوري قائلاً لهم بلسان
المخلص : انا هو الطريق ، والحق ، والحياة ، جددوا في قلوبهم حائقين
على من هضموا حقهم في الطريق التي هي الحياة .
طريق عين كفاع مشكلة دولية قد لا تفضيها جامعة الامم ، فكلمنا
داويت جرحاً سال جرح .. جعلت في ظل جمهورية الاخوان وأبناء
الاعمام غاية مبررة لوسائل سادتنا الاحبار المحترمين ، فتمسحوا بنا
كتيس الخطيئة ، ولما تراءت ظلامتنا بعد حين لفخامة الرئيس السابق ،
حبيب باشا السعد ، أدرك ان الطريق هي العلاج الشافي لجراح القرى
والمزارع السبع فامر بشقها . ولكن مبضع حضرة مدير النافعة تحول
عنها ، أما لأنه كان يداوي الجرح الأقوى ، وأما لأن قلبه رقيق لا

١ - ثمة اعتقاد ان السعرة يركبون تيساً سمى تيس الخطيئة .

يحتمل فظاظة الشق ... كان موعدها شهر آذار فَنسِيها ، كما قال، وهكذا
انقضَّ علينا آذار الهدَّار أبو الصواعق والامطار ، فترك الدار تنمي من
بناها وعدنا نبي من جديد فتصدَّى لنا «العجز» وصحَّ بنا قول المثل:
لسوء حظ الحزينه سكرُوا المدينة . أما اليوم فالقرية سكرى بالآمال
تحلم بالحياة والمساواة ، وإن شاء الله يشرب الكمون^١ .



الليلة مساء الجمعة ، واليوم عيد رهبان مار مارون، وهؤلاء قديسون
طاروا إلى السماء رفاً واحداً ، ٣٥٠ شهيداً ، فحدث وصولهم لبكة في
الملكوت كما يحصل في الفنادق الكبرى عند وصول أفواج السياح ... أما
مانحهم إكليل الشهادة ، أي قاتلهم، فهو أخوهم بالرب الأسقف ساويرس
من أتباع أوطاخي وديوسقوروس . قتلهم لتمسكهم بإيمان المجمع^٢
الخلقيدوني ، وكم قتلت رؤساء المذاهب من أبرياء وأبادت من شعوب
وأمم .

لهؤلاء الشهداء أخوة عندنا الضمير يعود إلى عين كفاح - فالأسطورة
تروي أن دير القطين العظيم - راجع آثار لبنان للامنس - كان مأوى
رهبان أتقياء قتلوا كآخوتهم رهبان مار مارون ، ولم يعصمهم سور الدير
الحصين القائم صامتاً كثيباً في وادينا الرهيب كجبار مقهور . لهذا تغالي
عين كفاح في احترام هذا العيد المثنى ، ويذكر أهلها بحسرة الرهبان
١ - إشارة إلى المثل الدارج : اسقيك بالوعد يا كمون - والكمون نبات
بزره من الافاويه .

٢ مجمع عقد سنة ٤٥١ حرم القائلين بالطبيعة الواحدة بالمسيح .

الشهداء كلما أطلوا من أبوابهم الشمالية ، ووقعت عيونهم على هذا الدير
الحرب الذي لا يشبهه في لبنان غير دير قزحيا ، مخرج الشيطان من
المسوسين^١ بعد أن يشبعه الراهب قتلا بمداسه.. أما ديرنا فاروع وأقدم
منه ، وفي الخراب روعة وعبرة لا تقرأها في سطور البنى العاصرة . أما
ماذا ينفع ديرنا المؤمنين ، فصاحبته «سيدة البراز»^٢ ، تغزر حليب
الأمهات فيهر^٣ من ثديين هراً ، أو يجري مثل النهر كما روت لي إحدى
العجائز ..

إذن علمت ، لا شك ، ان سماع القداس في هذا النهار لازم ، والبطالة
عن جميع الاشغال العالمية واجبة ، ومن يخالف ياثم ، والأفصح ، كما
يعبر اللاهوتيون ، بخطيء خطيئة مميتة تنزل إلى جهنم ، ولا يحل منها
إلا يمين الخوري الطاهرة ، فننجو من الهلاك الأبدي ... فالعيد، علم الله،
فضيل كما قال محمد محسن ، عضو مجلس إدارة متصرفية لبنان في عيد مار
ساسين الواقع يوم السبت ، فاقترح تعطيله وقبل اقتراحه بالإجماع، فشم
المجلس الهواء ثلاثة أيام ذكر فيها بالخير ابراهيم صادر، صاحب المفكرة،
التي هدت محمد محسن إلى قديس اسمه ساسين نزرع به الاولاد كيلا
يتشيطنوا ...

وكانت للعيد أروع بهجة هذه السنة لأن المهندس وديع بعقليني أنهى
ليلته تخطيط الطريق، فكان القداس وصلواته وتضرعاته وابتهالاته من
نصيب فخامة الرئيس . أما فخامة الباشا الحبيب فأخذ نصيبه في حينه ،

١ - المسكون بالشيطان .

٢ - اسم مكان .

ولا يزال الدعاء له ملء الافواه .

وليوم الجمعة عندنا ميزة أخرى لا تفارقه، فهو موعد وصول صاحب البريد. فلو مات ، مثلاً ، عزيز علينا يوم السبت مساء لا يجيئنا نعيه قبل مساء الجمعة أي بعد اسبوع ، فيصح بنا قول المثل : يا معزياً بعد حين يا مجدد الأحران . يقول المثل اللبناني : إذا كذبت بعد شهودك ، أما أنا فشاهدي في يدي وهو ختم البريد وخبري فرح - يقطع الموت من الدنيا -

دعني لجنة دار الأيتام الإسلامية لحضور الاحتفال بالاستاذين أحمد أمين وعبد الرحمن عزام المصريين، وسماع محاضرة أحدهما أحمد أمين، وأنا ممن يحترمون اجتهاد أحمد الادبي ، فارسلت كتابها الي يوم السبت ٢٥ تموز فوصلني الجمعة مساء ، بعد الحفلة بيومين .

قد أدركت بعدما قدمت لك ان سهرتنا ستكون حافلة . نعم يا سيدي ، وانها من ليالي الدهر . بحث فيها « مجلس القرية » شؤوناً هامة . وقبل تسجيل وقائع جلسته الخطيرة لا بد لي من أن أعرفك تواريتنا ، وحدودنا ، ومواقيتنا . الحدود والتخوم في عين كفاح كهوف ومغاور . فلو سئل أبو يوسف أين حصدت اليوم ؟ أجاب : عند مغارة القطين . ولو سألت المعاز أين مرحت المعزى الليلة؟ قال لك : عند مغارة البابين . ولو سألت من أين اكتم عنياً وتيناً ؟ أجابوك : من عند مغارة الفتاح . ولو قلت للصبايا الحاملات العنب المتلألئ، كثرورهن ، من أين هذا ؟ قلن لك : من عند مغارة طنوس فرنسيس . ولو سألت الناطور : أين رأيت

أثر ديك فلان ، ودجاجة فليتان ؟ قال : عند مغارة القس مرقص أو
مغارة القرقفة . ولو قلت لناظر يخلق ماذا ترى ؟ قال لك : رجلا فوق
مغارة شير بنور لعله فلان . ولو خبرك الشيخ عن بطولته في أيام عزه ،
قال لك : كنت معهم عندما كبسنا اللصوص في المغارة السودا ، يوم عيد
مار الياس ، وسلمناهم لطالب بك . مدير جبيل قبل ولده الشيخ وديع ،
حاكم بيلوس .

أما مواقيتنا فصلوات ، فهم يقولون جاءنا الجابي صلاة الظهر ، وجاء
عداد المعزى عند صلاة الرهبان ، ووصل المهندس بعقليني عند دققة
الصلاة ، وكبس مفتش المونوبول الضيعة والناس في الزيتاح ، ورجع
المرسال قبل القداس .

أما التواريخ فاعباد ، يقولون : ولد حنا يوم عيد مار بطرس
وتزوجت صابات يوم عيد ماريحنا - يوحنا - ووقع البطرك الياس عن
البغلة قبالة عين كفاح يوم عيد جميع القديسين - وعيد جميع القديسين في
الكنيسة كالجندي المجهول في الدولة - ووصل جرجس من أميركا ليلة عيد
مار روحانا - قديس الضيعة - ومات صباح الميلاد ، وكانت زلزلة سنة
١٩١٨ ، ثاني عيد مار روحانا ، وانتهت الحرب يوم عيد مار شليطا ،
وماتت بقرة فلان ليلة الغطاس ، وهكذا .

والقرويون يعتقدون باختصاص القديسين ، فكل قديس مختص
بمرض ، يشفي منه أو يبلى فيه . فهو يعمل الأمرين ، كما يقول الشاعر :
إذا انت لم تنفع فضر الخ... وبعض القديسين يخلق أيضاً ، ولذلك يندرون
لهم عند وقوع أقل عارض لهم . فسبحان مقسم الرزق على عبيد الصالحين

في الحياة والمات . فالقرويون يتوقعون الري يوم عيد مار شليطا (٢٠ تشرين الأول) شفيح البقر والحير ، وينتظرون نزول السماء يوم عيد مار جرجس البطل الصنديد الذي كان شفيح بني تغلب قبل الانكليز وموعده ٢٣ نيسان ، وريّة نيسان تسوي السكة والفدان ، والحضر أو جريس أبو الحربة يخضع البحر في هذا اليوم مفتشاً عن اولاد التين الذي قتله وخلص بنت الملك من شره ...



أقبل الليل وأقبلوا ، وسلموا وسلم عليهم بطرس ، موزع البريد ، اللطيف الأمين ، وجلسوا كل على هواه، وتناول من يقرأون منهم الجرائد بلا إذن ولا دستور . وتحدث الآخرون عن أعمالهم اليومية ، عن بيادهم، عن مصيبة أحدهم بموت بقرته على البيدر وانكسار فدّانه، وعن مؤاساة الضيعة له والمؤاساة أحسن مزايا القرى ، وخير ما فيها سلامتها من المن . وكان حديث العنب فاثتوا على كرمي « الكساير وشحواتا » لأن عنبها يحلو قبل الكروم كلها، وكانت المفاضلة بينهما كما يفاضل بعضهم بين الشاعرين شبلي الملاط وبشارة الخوري . وتحدثوا عن السفرجل والاجاص والزيتون والتين وعللوا النفس باليسر في العام القادم لأن غلتهم تنفق ، فدعوا للأستاذ إده بطول العمر من صميم القلب ثم جاؤوا على ذكر الدستور والاستقلال ، فقال واحد : نحن على ما نحن ، بدستور وبلا دستور .

١ - اسم مكان .

وقال ثان : خلّوا الدستور لطلاب الوظائف الكبيرة نحن على هذه
الحصيرة .

فهرّ ثالث رأسه وقال : هذا كلام ، الدستور مليح ، كيفما دارت
الحال .

فأجاب رابع : عرفناهم فوق وعرفناهم تحت . العلة من الرجال،
هم نوّموا الدستور في القبور ، وصيّروا الاستقلال للاستغلال . الدستور
منفعة لناس معلومين ، أيش نفعا الاستقلال وأيش عمل لنا الدستور ؟
ابن الضيعة مسكين ما له حظ من الحكومة إلاّ إذا كان له فيها ظهر قوي .
فقال واحد : إذن نحن حظنا أكبر من جبل جاج ، إده إبن بلادنا .
وقال واحد بكل هدوء : هيء ، إده لكل الناس .

فأجابه ذاك ؟ بلهجة القاطعة حجّته : عال يا سيدي ، رضينا، نحن
نطلب أن يساوينا بأقل الناس .

فأمن جاره على كلامه بقوله : وكشّر الله خيره ، فأعادها ذاك، وقال
قارئ الجريدة : كتب إده للبترك ... - فتغامز الشيوخ لأنه لم يقل
سيدنا - والمطارين والمفتي ومشايخ العقل وأصحاب الجرائد وأعضاء
المجلس ورؤساء الجمعيات يسألهم رأيهم في الدستور والاستقلال .

فقال بويوسف : غنمت لحاكم . وجرّد كم ، حتى بلغت قانون
المونوبول طولا ، وضحك كالساخر ثم عبس وقال بحدة ونزق : أيش هم
الرؤسا والحكّام ، البترك والمطارين يطلبون العشور وياكلون غلة
المفلوح والبور ، والحكومة تطلب الضرائب . يا بحر الله خذ عبد الله ،
كل هذا ما يرد علينا شيئا .

فقال شاب متعلم: الحق مع الحال ، صار إده رئيس جمهورية وأخذت الجرايد تطلب وتتمنى ، قولوا لي أية جريدة طلبت لنا شيئاً ؟ هل طلبت جريدة شق طريق ؟ هذا لا يهمهم لأن الطرقات حولهم وحواليهم ، كل هذا باطل ، ما يعرف المرض إلا الواقع فيه .

فقال قارئ الجريدة كالمتغرب : اسمعوا يا بشر ، البطرك طلب ان يكون للافوكاتو - المحامي - ثلاثة اصوات ، وللطبيب مثله ، ولد .. فاتمها واحد : وللخوري ؟ فضحكنا ، وأوماً ذاك برأسه أن لا . فقال كثيرون : خسر سيدنا البطرك وما درى بتقليله من قيمتنا .. فقال واحد : نعم غلط سيدنا البطرك . فسمعها ابو يوسف فازور ورفع يده قائلاً : يا صبي سد بوزك .. فضحك ذاك .. وشاؤوا أن يتنادروا على الياس فخبروه ان ليس له في الانتخاب القادم إلا ربع صوت لأنه امي . فحمي الياس علينا وعلى أولياء الأوقاف الذين ياكلون أموالها ويتركون الضيع بلا مدارس كما جرى في أيامه . وهو سوه فتووس كعاداته فشر الحارب على رجال الدنيا والدين ، وسال إذا كان القاصد الجديد وصل ، فعلمنا ان المسألة ستتطور .

أمّا أبو يوسف فسكت عن حديثنا كأن لم يسمعه . ثم قال : في الزمان الماضي كان أعضاء المجلس من الضياع . الله ، الله يا دنيا كيف تقلبت الأحوال ، كيف راحت أيام فارس أفندي ، وأسعد بك ، والزغزغي . أعضاء اليوم مساكين ما ينفعونا شيئاً . كلهم أولاد مدن ، وابن المدينة ما عنده شيء من أخبار الضياع .

١ - السفير البابوي .

فقال واحد : ما كلفت الحكومة نفسها وسالت أحداً من الضياع ،
ضاع حقنا يا ترى من سؤال بسيط ؟

فجاوبه أبو قزحيا : على حد سوا ، سألت أو لم تسأل الرأي الاخير
لمن ؟ للفرنجي .

وكانت كلمته فصل الخطاب ، فعادوا يستعرضون الماضي السعيد ،
فقال كهل : العم أبو يوسف كان يقبض من موسم الشرائق وحده خمسين
عسملية ، أي عثمانيّة . من عند المغارة وحدها كان يستغل بأكثر من
عشر ليرات ، أتتذكر يا خال قبضة عيد ماريجنا ؟ (٢٤ حزيران) عدوها
لك قدامي على الحصيرة ، كانت فوق الستين ليرة وأكثر . فابتسم أبو
يوسف لذكرها الحلوة . وأشار المتكلم إلى الجمهور بلباقة : تفضلوا ،
اسألوه كم قبض السنة ؟

فتنهّد أبو يوسف وأجاب : سبع ليرات . فقال أحدنا متجاهلا :
ذهب أم ورق ؟ فصاح أبو يوسف : ذهب يا مجنون ؟ وأين الذهب ؟ ورق ،
ورق ، دفعتها مال طريق عني وعن الأولاد ، وباليتمها كانت كافية .

فتنهّد أكثرهم عند ذكر الطريق وقال الكهل : وكان أبو يوسف
يقبض نحو أربعين ليرة ثمن دخان ، كم قبضت يا خال عام أول ؟

فأجاب : ثلاثين ورقة قبض الجابي عني منها ١٧ ليرة وأعطاني وصلا
بالميرة . فهمس أحدهم في اذن أبي يوسف : يسلم البيدر يا خال ، فضحك
أبو يوسف وقال : آيه ، الحمد لله ، السنة طيب ، البيدر مليح ولو محل ،
الجابي لا يجيء صوبه .

فقال واحد : ولكنه يحجز اللحاف والطنجرة . وقال آخر : أيوه ،

الجابي وقع لا يذكر الخبز والملح . تعشى ونام عند سر كيس ، وترك له الإنذار تحت الحدة .

فقال أبو يوسف : كَلِّه هين متى وجد الخبز ، إطلبوا دستور يحمي التنور ، .

فأعجبته كَلِّته هذه فضحكوا جميعاً ، وأبو يوسف كالرحوم والله الخوري موسى يحب السجع . وهكذا عادوا إلى السياسة من حيث لا يدرون ، فقال قارئ الجريدة : يطلب البعض جعل النواب خمسة وأربعين ، فقال واحد : إذن زادوا واحداً على أم أربع وأربعين . وقال آخر : ما الفائدة لو صاروا مئة وخمسة وأربعين ؟ نحن على ما نحن لا نخطر على بال أحد منهم . كل نائب يفتكر بصحابه ، ونحن قش رز ، أحسن رأي أن تعتمد الضيع على جريدة تطالب بحقوقها .

فقال ناظم : عجيب ، كيف تغيرت الأحكام كلها بعد الحرب .

فقال آخر : عندي شرح المجلة ، ولكنهم قالوا لي أنه صار ملغى . فضحك واحد مشهور بالتنكيت فعلمنا أنها جاءت ، فسكتنا تنتظرها فتنحنح وقال : أخذت أم سمعان لابنها كتاب لاهوت عتيق من عنبد خوري الضيعة ، فلما رآه معلمه قال لها : رديه معك يا ستي ، هذا بطل ، فقالت له أم سمعان : يا ترى المسيح العتيق مات ..

فقال لبيب : كما في السما كذلك على الأرض . فكمّل واحد ضعيف العقل وهو يظننا نصلي : اعطنا خبزنا كفاف يومنا ، فجاءت في موضعها وصح فيه قول المثل اللبناني .

وقال مترصن : وزاد الطين بلة قانون المونوبول^١ ، من يخرم منه حرفاً خرب بيته ، فالسيف مسحوب فوق رؤوسنا ويقولون لنا الاستقلال ، الاستقلال . وأين الاستقلال لمن لا يزرع حقله بعقله ؟ وأين الاستقلال للذي لا يسحب كيسه على عيني وعينك يا تاجر ؟ وأين استقلال ابن الضيعة والمزرعة ما دام تحت رحمة المفتش والوردان وبيته معرض للنش كل ساعة ، وغلته في خطر الحرق إذا أرادت الشركة . مصيبة الضياع كبيرة جداً جداً وخصوصاً ضيعتنا عين كفاع .

فقال أبو ميشال : هذا الصحيح ، ثم هز رأسه وصاح : والله والله ، وحق جسد الرب ، وحياة الله ..

فسد أبو يوسف أذنيه كيلا يسمع الحلف بالله بالباطل . أما أبو ميشال فما بالي بل انتحى ووقف وقال : وحقك يا مار روحانا ، فشخه - أي خطوة - ثنتين ثلاثة ، لو ما كان ديب ناضر مثل السبع وركض إلى عمشيت في الليل وعملوا له تسع حقن كان مات وبليت عظامه . يا هو ، لو كانت عقصت الحية عمي مارون من كان حمله إلى عمشيت ؟ كان مات معنا على الدرب ، اشكروا الله يا ناس .

فاخذ يشكر الله وأبو يوسف يدق بيده على ظهره استحساناً لما قال كأنني كنت أنا الملدوغ ، مع أنني كنت في عاليه ليلة عضت الأفعى أخانا ديب ناضر . واسترسل أبو ميشال في حديث مؤلم عن الذين ماتوا ولم يسعفهم طبيب ، فتنهد الناس جميعاً ودعوا للرئيس بالخير لأنه أمر بشق الطريق وهندسها البعقلين .

١ - الحصر ، الاحتكار .

ثم آل الحديث إلى فتى حامل شهادة فقال بلهجة خطابية انما بدون سيداتي سادتي : لا بطرك ولا حاخام . ولا مفتي ولا مطران ، ما حلك جلدك مثل ظفرك ، يجب أن نهتم بأمورنا ، كلنا نعرف أن القرى حياة الحكومة لا المدن فلماذا تهملها الحكومة؟ قولوا لي . هذا ناتج عن خمولنا نحن أهل القرى ، الحكومة لا تعرفنا إلا يوم الانتخاب ، وحين تحتاج إلى امضاءاتنا للشكر والتأييد ، فلو كنا رجالا ما انتخبنا ولا أيّدنا إلا من يؤيد مطالبنا العادلة ، يا ذوات .

فهز أبو يوسف رأسه وتبسم لكلمة « ذوات » ، ولكنه التفت صوبه ، فقال الفتى : تذكرنا الحكومة في أيام المواسم فترسل الجباسة لسؤال خاطرنا ، فتهلل أبو يوسف لها وقال : صحيح .

وقال الفتى : تأخذ منا لتعطي غيرنا . فضحك أبو يوسف وقال آية الانجيل : من له يعطى ويزاد . فقال الفتى المتحمس : تذكرنا الحكومة كما يتذكر المعلم - أي الملاك - شريكه يوم العيد إذا تأخرت العيدية - أي الهدية - أمّا في أيام البيدر فيحاسبه على الحبة .

وتوقف قليلا فحفنا أن يرتج عليه ولكنه استأنف كلامه قائلا : البطوا الذين ركبوا على ظهورنا حتى وصلوا إلى الكراسي ، ولما صاروا في السرج ما عادواذكرونا ولا عرفونا . فلتعلقنا الحكومة حتى نسمن ، الحمار يعلق له صاحبه اقة شعير ليركبه طول النهار ..

فصاح أبو طنوس : عشت يا بطل ، وتحمس الجمهور فقال واحد : ربما كان بين الذين سألهم الرئيس من يعرف أحوالنا ، فقال الشاب : لا تعيشوا على : ربما ولعل ، إرفعوا أصواتكم والرئيس يسمع، أنا أعرف

الاستاذ اده .

فناست الرؤوس تعجباً ، وتناظروا هامسين : هو ، هو ، يعرف اده ! أمّا الفتى فلم يبال وأتم حديثه قائلاً : فهّموه أنكم تدفعون ولا تقبضون ، ياخذون منكم ليعطوا غيركم . خبروه أن الموظف إذا كان بخير كانت البلاد بألف خير ، والعكس بالعكس . فهّموه أنكم تموتون ولا يعلم بكم أحد ، لا أطباء ولا صيدليات ولا طرقات ولا مدارس ، ولا ماء ولا كهرباء . خبروه أنكم منذ سبعين سنة ما صرف لكم غرش واحد من صندوق الحكومة لاصلاح طرقات القدم والحافر^١ ، خبروه كل شيء ، دقوا الباب تسمعوا الجواب ...

فقال كبير المجلس : لا تخافوا يا ناس ، الارض تنهز ولا تقع ، شدوا لحكم ، ثم التفت إلى الفتى وقال له : سماع يا ابني ، كن مطمئن البال ، ربنا قدير وهو يعرف كل شيء ، ثم لا تنس ان الدول تروح والفلاح باق ، راحت تركيا ونحن بقينا ، واليوم كلنا نترحم على المير يوسف لأنه كان يحب الفلاحين .

وفتح الفتى فمه ليردّ عليه فسمعنا صراخاً وعويلاً غريبين فركضنا حفاة ومنتعلين فاذا امرأة تصرخ فوق رأس ابنها الوحيد وهو مصروع أمامها يقاسي غمرات الموت . بلع عجوة مشمش فسدت زلعومه ، فركض أبوه إلى شبطين^٢ ، وعمه إلى جليل ، وخاله لا أعلم إلى أين . وأخيراً تركته أمه بين ايدينا وأسرعت إلى مار روحانا لتضع على مذبحه فسطان العرس

١ - الحافر للدابة بمنزلة القدم للانسان .

٢ - قرية في لبنان .

وسوارها الذهبي، وحملت عمته إريق الزيت لتضيء السيدة، وهي كنيسة
قديمة خربة لم يبق منها إلا آثار دارة ليس لها امرؤ قيس يبكي عليها.
أما نحن فالتفنا حول الصبي نتنظر الأطباء ولا ندري ماذا نصنع له .
الشقة بعيدة ، والطريق عكشة ، والقمر غاب . ومن يعلم إذا كان
يأتي الترياق من العراق قبل أن يكون العليل فارق ، ولكن الله ستر
وعمل مار روحانا عجيبة- ومنهم من يقول السيدة عليها اشرف السلام-
فبق الولد العجوة ...

عن المونوبول والفلا

بلغت بي السيارة كوع غلبون^١ ، فطرحت الصوت على الضيعة ،
والصوت تلفون القرى ، فجاءني المكاري بدابة آية في الدواب ، وما
ركبتها حتى أخذت في التحويل الصاعد والنازل فخلت جزيرة ترحل .
بانت أذناها على الضهر وظل ذنبها في النهر . ولم أعد أدري إلى أي القطبين
أنا أقرب .

أعلم علم اليقين أن من ذم زاملة^٢ المكاري فكأنه قدح في عرضه ، ومع
ذلك لم احتشم منه فقلت : يا سبحان الخالق ، من أين لك هذه العروس ،
ومن هداك اليها ؟

فضحك وقال : الفلا جلاب . قلت : حقاً إنها عجيبة . فامتعض
وقال : البرهان أنها شغلتك عنا فما قلت كيف حالكم . قلت : خف ربك
يا رجل ، وهلتي دابتك ، كيف حالكم جميعاً ، كيف الضيعة من كعبها
إلى رأسها ؟ فقال : بخير تسال خاطرك . قلت : والأحوال ؟ قال : لا
تسال ، الأحوال أحوال . سنة ضيقة .

١ - قرية في لبنان .

٢ - الدابة وغيرها بما توضع عليها الأحمال .

قلت : لا خوف عليكم ، الزيت غال جداً . فقال : وأين الزيت ،
بعناه في المعصرة ، بأربعين وخمسة وأربعين ، ورأس السعر كان خمسين .
قلت : الدخان يسدّ العوز^١ ، اضحكوا في عبكم .

فملا الوادي دعاء للشركة ، وإذا لم يجد من يستبد به ضرب الدابسة
بعضا لسعني رأسها فخلتها عصا موسى تستحيل ثعباناً عند ذكر فرعون ..
واثتيت من أجلها على طول الاثن الذي استبشعته واشتد إيماني بلا
تكرهوا شيئاً .

ودخلنا الضيعة مع الدغيشة^٢ ، فجاءت الوفود للسلام ، وطالت
سهرتنا كلياالي كانون . كنا فرحين بالطريق^٣ لو لم يأتنا من جبيل نبأ
غلاء الطحين ، فاسودّت الوجوه وقال المتكثين : لولا غلاء الحبة كنا
بالف خير ، يظهر أن ربنا لا يكملها .

كان عهدي بالضيعة فرحة مرحة ، إنجيلية لا تهتم للغد ، فإذا بوجوه
الناس كابية^٤ وابتساماتهم مغبرة ، وقلوبهم بلا رجاء . كلهم متشائمون
خائفون ، لا نكت ولا نوادر . ذهبت ليالينا الكشكشية^٤ ، ننتظر نكتة
فنسمع آهة . وبعد صمت غير قليل قال أحدهم : كيف نعيش السنة ؟ ما
بقي غير الدخان ، وإي ليته لنا ، تسلفنا عليه من هذا وذاك ، ومن يعلم متى
تستلمه الشركة منا ، وكيف تسعره ؟

١ - الحاجة .

٢ - عند بدء الليل .

٣ - منخفضة .

٤ - نسبة الى كشكش ، المثل الهزلي المصري .

فاجاب آخر : استلمت عام أول في تشرين وتسلم السنة في شباط ،
والسنة القادمة في نوار ، وبعد ثلاث أربع سنين تركه في ذوقنا إن لم
توقفها الحكومة عند حدها .

فقلت له : كيف الأسعار ؟ فاجاب : كيف يعيش الفلاح مع غلاء
الطحين وسقوط الليرة والدخان ؟

قلت : سمعت أنهم زادوا السعر ٢٥ بالمئة . فقال : عندهم ألف باب
يخلصهم من الزيادة ، وما عندنا باب واحد يخلصنا من شرهم . ما نظرت
بعينك حرق الدخان في الصيف ؟

فتأفف أحد المؤمنين بالقيامة العتيدة^١ وقال : هذا آخر زمان .
فاحتد آخر وقال : كيف العمل يا بشر . أيش ينفعنا الكلام في القرنة^٢ ؟
فاجاب أبو طنوس : العمل عند الله ، والأمل بسعي سيدنا البطرك .
فاحب أن يداعبه شاب قاعد لصقه فقال له : خبرونا أنت البطرك
لان ، وسكت .

فلكزه^٣ أبو طنوس وقال له : اخرس يا صبي ، قل سيدنا واحن
رأسك . من خبرك أنه سكت ، هذا كلام ناس كذابين غشاشين ، سيدنا
البطرك انطون صخر أصم . فقال الشاب : والصخر لا يصعب على
« النقاش »^٤ .

١ - المقبلة ، المنتظرة .

٢ - الزاوية ، المكان المنفرد .

٣ - ضربه يجمع كفه .

٤ - هو اسكندر النقاش مدير شركة المونوبول .

واعجبت الصبي فصاحته ، وذبل أبو طنوس ، فجبر أحدهم خاطره
بقوله : عمي أبو طنوس أخبر منّا كلنا ، الجمعية^١ قابلت سيدنا البطرك ،
وخبرت انه مثل الحديد .

فتعالى أبو طنوس إذ ذاك ولكش الشاب لكشة أزخم من الأولى
وقال له : سمعت بأذنك يا ذكي . ثم هز رأسه والتفت إلينا قائلاً كأنه
يوبّخنا جميعاً : العوذ بالله ، يحينا كل قبز^٢ لسانه يلحس قفاه ، ويتطاول
على الأوامر في بيوت الناس ولا نقول له كلمة . وتقلقل كمن يريد الخروج ،
فاسترضيناه . ولا تسألني كيف ، فللرضا عندنا تقاليد ، كثيراً ما تغسل
الدم .

ثم عدنا إلى حديثنا فسألتهم عن جمعية مزارعي الدخان فاثتوا عليها
جداً ، وخبروني أنها قابلت الرئيس ووعدوها خيراً ، فقال متشائم :
الحكومة ملتية بالاستقلال ، والترتيب الجديد . فردّ عليه أحدهم : أنت
لا يعجبك شيء ، النقلة من البيدر إلى البيت تكلفك جمعة ، ومع هذا
تلوم الحكومة إذا تاخرت ساعة .

فانتفض كهل عتل^٣ - نسيب أبي طنوس - وقال : يا الله ، الليلة
قصّتكم عجيبة يا جماعة ، هذا يقول البطرك لان ، وهذا الحكومة
ملتية بالاستقلال . صح فينا قول المثل : القلة تورث النكار . نعم
الاستقلال قبل الخبز ، غيرنا خسر المال والرجسالة ، ونحن أخذناه على

١ - جمعية مزارعي التبغ في بلادي جبيل والبترون .

٢ - القصير والبغيل .

٣ - سريع الغضب .

الهيئة . مَنْ من لبنان يقف وقفة ، اده^١ ؟ الله يعطيه ستين ألف عافية ،
ويطول عمره ما دامت الدنيا دنيا .

فأعجبت نخوة كهلنا الجمهور ، فاهتر بعد خول ، ونسي الغلاء
ورعبه ، وصفق بعض التلاميذ لكلامه كأنهم في المدرسة . فالتفت أبو
يوسف يميناً وشمالاً مستغرباً وقال للأولاد : عندنا عرس ؟ استحووا ، أمس
مات الشيخ ، كفته ما تلوث بعد .

وأنثنى يسأل جاره عن التصفيق فخبّره ، فسرّ . وحاول أن يتكلم
فسبقه أحدهم وقال : أصبروا يا ناس ، الله يساعد الرئيس ، عنده ألف
مسألة أهم من مسالتكم . وأيده جاره بقوله : أي نعم ، مص القصب
عقدة عقدة .

وتركوا الكلام لأبي يوسف فقال : سمعت من كثيرين أن رئيسنا
ممتاز ، يحب الفلاح ، لا بد من الفرج في أيامه ، اصبروا لا تكونوا لجوجين .
ثم نظر إلي وقال : خبره يا خال عن الحالة كما هي ، ولا تنس غلاء
الطحين . لو بعنا إقة الدخان بورقتين - ليرتين - وبقي سعر الطحين
على حاله ما ترقينا شيئاً . الفلاح تهمة الحبّة ، ومتى وجدها وجد كل
شيء ، وإذا بقي الغلاء اشتھينا العضة بالرغيف .

فقال له أحد المعلمين وهو يومئذ إلى : ما باله فينا يا خال ، باله بأحد فارس^٢ .
فحرك أبو يوسف يده في وجه جاره وسأله : منو^٣ أحمد فارس ؟

١ - أميل اده ، أحد رؤساء لبنان .

٢ - أحمد فارس الشدياق الكاتب اللبناني الشهير .

٣ - من هو .

فما فاز بجواب . وأخذ الأستاذ يخبر عن تصريحات الرئيس وما ينوي عمله من مشاريع عمرانية حتى كان الكلام عن الري وجر المياه ، فقال أبو طنوس : نحن لا نحتاج جر نهور ، نحتاج جرّة قلم تقصف عمر الغول ، يعني الاحتكار .

فقال آخر : حسب الرئيس كل بلادنا مثل جبيل والبترون ، فلو زارنا ووقعت عينيه علينا رقّ قلبه لنا وكش الشركة من لبنان كله . ودخل في تلك الساعة نسينا يوسف ، مراسل الشركة ، فتصافحنا وقعد . كأنه لم يعجبه « كش الشركة من لبنان كله » ، فأخذ يبين منافعها للزراع ، ويقابل بين أمس واليوم بإيمان وطيب . وأفاض في تمجيد أعمال الشركة ونفعها كأنه خوري غتيق يعدّد عجائب العذراء في الشهر المريمي . ثم وجه كلامه إلى أبي يوسف وقال له : يا خال ، بدمتك بدينك بحياة أولادك ، قل لي أي أحسن ، احتكار غالان^١ أم احتكار الحواط وملكان^٢ ؟

فاطرق أبو يوسف وانتظرنا الجواب فإذا به يقول : الفلاح في الحالتين مقهور ، ولكن الحرية حلوة ، وحرّق الرزق قبالة العين من يطيقه؟ فقال كهلنا : سمعتم يا ذوات ، عرفتم قيمة الاستقلال ؟ وخفت أن يتطور الحديث فقطعته مسائل عن الجمعية ، فقال واحد : الجمعية لسان حالنا كلنا ، تقضي وتمضي عنا ونحن نؤيدها بكل قدرتنا . قلت : من منكم موظف فيها ، فقال : طلبوا المختار فما رضى .

١ - مدير شركة حصر التبغ والتبناك في لبنان .

٢ - من مخكري التبغ في لبنان .

فالتفت بأحدهم ، فأجابني : لا تتمجب ، مأمور بخاف على الوظيفة .
ومثله ابن عمنا عضو الاختيارية . ولكن هذا لا يهنا ، المهم العمل .
قريباً تقدم الجمعية بياناً طويلاً عريضاً للحكومة ، والأمل بالله .
وانتقلنا إلى شؤون أخرى وبت أترقب الساعة التي تجمعني برئيس
الجمعية أو نائب رئيسها ، لعلني أصور الزراع للرئيس كما هم ، فهم يرون
فيه « المسيح الآتي ولا ينتظرون آخر » وحسبنا الآن أن نحدد لهم له
تحديداً قاطعاً مانعاً كما يقول المنطقة : ' الزراع أو القرويون أو
الفلاحون ، هم وحدهم الذين يخاطبون ربهم بإيمان وطيد : أعطنا خبزنا
كفاف يومنا . أحلال أن يؤخذ الرغيف من أيديهم ؟ .

رسالة شئت طريقاً ونبئت جسراً

كنت في دار المكشوف أمعن مع الشيخ فؤاد حبيش في الأحاض^١ ،
يوم تلقنت للمغفور له السيد عبد الحميد كرامي في سوق الغرب أسأله إذا
كانت زيارته ممكنة . فأجاب ، رحمة الله عليه ، أهلاً وسهلاً . إذا كانت
زيادة غير أشغال . أمّا إذا كانت من أجل الطريق - طريق عين كفاع
دير ما يوسف - فنصيحتي لك أن تبقي « العرايض »^٢ معك يومين
ثلاثة ، وبعدها نرى .

وفي اليوم الثالث استقال ، وساعتئذ أدركت معنى ذلك التأجيل .
وألّف الوزارة سامي بك ، فقلت في نفسي : ما الحيلة وأنا لا أعرفه
إلا معرفة وجه . لا دالة لي عليه فإلى من نلتجى ؟

وبعد تفكير غير طويل قلت في نفسي : التجي يا صبي إلى نفسك ،
ما حكّ جديك مثل ظفرك . أما دلّستك سياء سامي بك على طواياه ؟ ألا
يقرأ المكتوب من عنوانه ؟ أما عرفت أن روح هذا الرجل في كفّه ؟

١ - كلام التسلية المرحّة .

٢ - جمع عريضة .

٣ - لا أمون عليه .

وهو مستعد ، في كل ساعة ، أن يهبها لاثنين : الافضال والنضال .

وإذا لم يكن لديك شفيح غير قلمك وحق القرى في الحياة فهذا يكفيك . أما سمعت أن سامي بك هو أبو المشاريع العمرانية وأنه إذا بان له حق لا ينام حتى يقره ؟ أنسيت قول الشاعر : ان تطلبوا الحق نعط الحق صاحبه . هذا لسان حال كل رجل دولة تزيه كسامي بك .

ورحت إذا ذاك أفكر كيف أداور أمري ، فقالت لي النفس : الحقيقة ، وحدها ، يجب أن تقال لرجل كهذا لا يجب إلا الصراحة . في يدك ثلاثون عريضة من ثلاثين قرية أهلها يستصرخون الحكومة طالبين شق طريق فيها لهم ولغيرهم حياة ، فأقدم ولا تتردد . وأخيراً أقدمت مستعيناً بالخبر والورق الذي خذلني في مواقف عديدة حتى اتخذته ، مؤخراً ، عنواناً عاماً لما أكتب .

وقعدت أكتب رسالة لسامي بك مستلهاً وجهه المنير وابتسامته التي تضيء وجهه ووجوه من في حضرته ، وبدأت أيجل وأعظم .

وبعد هنيهة قرأت ما كتبت فإذا به مبتذل ، حبر على ورق فقلت : أبهذه الثروة يواجه الرجل الحر ؟ أهذا كلام يدر ؟ هذا كلام يسمعه أولياء الأمور كل يوم متأففين متضجرين ، وحبر على ورق لا يخرج من الظرف إلا لينام في سلة المهملات ، فإن كان لا بد منه ، فغيره .

واخذت تلك الورقة ومزقتها نتفاً نتفاً ، ورحت أكتب على خيرة الله .

عين كفاح ٣ - ٩ - ١٩٤٥ .

صاحب الدولة الافخم،

العصر ، عصر هرولة^١ واستعجال ، فاسمح لي أن اهنتك بسرعة
واخطبك بسرعة .

يعتقد غيري بخيرات المقابلات الجزيلة ، أمّا أنا فبالعكس . فإذا
أردت أن تصفي ، فالمكتوب خير من المسموع وأبقى . وإلا فاني أضن
بوقتك ووقتي . أضن بوقتك الثمين وتضييعه في الاصفاء إلى وكيل مسخر
عن منطقة منسية لا يعرفها إلا الجبابة ، ولا يرتادها إلا المرشحون ، قبل
ساعة الانتخاب بأيام... وهب أن المقابلة كانت ، فعم تتجلي تلك الغمرة ؟
نفتش كلانا عن عبارة يحمل بها الحديث ، ابخرك وتشكرني ، وانصرف
من عندك لكي اتبجح^٢ في كل محضر : قابلت دولة سامي بك ... ماشالله ،
رجل لطيف جداً ... كأنه ليس رئيس دولة .

عفواً . والوعود ، كيف ننساها ، وهي بيت القصيد ؟ تعذني
أنت وعداً واجعله أنا حكماً مبرماً ، فيتصاعد الدعاء من أفواه الأملين .
إن الثناء حاصل في كل حال ، فنحن قوم تعود أن نكون دائماً مع
« الواقف » ، أمّا من يقعد ، فيقعد وحده ... اننا نقوم مع القائمين ولا
نركع مع الراكمين ...

إن الثناء على السلف واجب ، فكل من استوزر - وانت منهم -
لم يترك شيئاً من جهده . وأنا من المؤمنين بقول المثل : الحرب بالنظارات

١ - الاسراع في السير .

٢ - ادعي بفرور .

هينة . لذلك أراني أوسع على أولياء الأمور واعذرهم ، لأن أعباء السياسة تنوء بها الجبال - وخصوصاً في عهد القنابل - فكيف بأكتاف الرجال .
فلهذا اتنا نطلب لك من الله المعونة لترضي ، (أولاً وآخرأ) أربعة وخمسين رجلاً ، فتبقى في كرسي الحكم زمناً تستطيع به القيام بعمل جليل .

الورق قليل جداً ، ولا فسحة للكلام والاكتثار منه - فلنوجز :
ليس لنا في هيكل الحكومة شفيع ، فنفوز بشيء عند « التوزيع » ،
ومال الدولة كمال الصدقات يؤتى على حبه ، ذوي القربى ، واليتامى ،
والمساكين ، وابن السبيل ... والقرويون عموماً ، ونحن خصوصاً ،
يا سيد ، أبناء سبيل بكل ما في الكلمة من معنى . إن القرية متروكة على
الله ، ومشاغل الله جل جلاله ، أكثر من مشاغل النواب الكرام ...
إن كل وكذ من يقتسمون أموال الطرقات ، في طرق بيوتهم وبيوت
أنصارهم ، وما بقي فلطرق مناطق الاصطياف . ونحن لو يعلمون ،
« مصيفون » في قرانا ، ولسنا نبلغها إلا بشق النفس ، وعلى ظهور الحمير .
والحمير مهدودة القوى في أيامنا هذه ...

وإذا ركبنا سيارة دفعنا « أم الخمسين » فدى لعيني الأربعة والخمسين ،
عن بضعة عشر كيلو متراً ، وهيئات ان نبلغ بيوتنا سالمين من العطب .
هذه حال طرقاتنا ، حيث توجد . أما ما نشرب فمن مياه الشتاء
المجموع في الآبار والصهاريج ، وأغلبه ملوث ، فتفشو بيننا (الدورية)
في ايلول وتشرين ، والكيينا عزيزة نادرة .

١ - المحي العائدة .

أما العلم فاخو الطرقات والمياه . مدارس ، إذا وجدت ، خير من
تعليمها الجهل المطبق .. كان أحد العلماء نوى أن يزورني لغرض ادبي ،
فلما درى بما دون يتي من أهوال ، تغلبت مخاوف الطريق على لذته
الادبية والعلمية ، فنسي ما حلم برؤيته من آثار .

قرأت تصريحاً لك قلت فيه : إن الله خلق الكون في ستة أيام . فما
قولك في أرض تكون كما تركها الله في اليوم السادس ، لولا بقية آثار
فيها؟ فقرى بلاد جبيل أصلح مكان لاختبار علماء الجيولوجيا لأن طبقات
الأرض فيها كما كانت بعد الطوفان ...

صرحت أنك ستعتني بالقرية، فحسناً تصنع . وسمعت أنك ستزورها
فأحسن وأحسن تصنع . فما راء كمن سمعا .

فحال دولتنا كسيدة تلبس « روباً » مزر كشاً ، فوق ثياب ممزقة
بالية . أو اتنا كبائعي البندورة خير بضاعتنا على وجه « السحارة » .
أما ما تحت ذلك فخيص في خيص .

الخلاصة إننا نستغيث بك ، نريد طرقات ، ومياهاً ، ومدارس
لنطقتنا المحرومة ، وهذا آخر حجر نضربه في « الجوزة » .

إننا نرجو من نوابنا الكرام أن يهلوا الحكومات ، رحمة بنا نحن
الذين انتخبناهم ، ريثما تسخن الكرسي تحتهم ، فلا نكاد نخابر حكومة
حتى تنقلب ، فنعيد الأمر كما بدأناه ...

وفي الختام تفضلوا ، يا صاحب الدولة، بقبول احترام المعجب بمواهبكم
والمقدر علمكم وعبقريتكم، وإننا نشكركم سلفاً وإن قال المثل: ما شكر

السوق إلا من دبح .

الداعي لدولتكم

مارون عبود

وحرصاً على بقاء هذه الرسالة سالمة من كل مبتذل ، اتبعتها بقصاصة
كتبت فيها :

أضم إلى رسالتي هذه ثلاثين عريضة موقعة من ثلاثين قرية ، وهؤلاء
جميعاً يلتمسون شق طريق عين كفّاع - دير مار يوسف . فهذه العقبة ،
إذا ذلت ، لا يضطرون إلى ألف والدوران وإضاعة وقتهم ، وإن كان
من . طيب لا من ذهب ..

ونظمت تلك الاوراق وأدرجتها في ظرف يسغها وأرسلتها مضمونة .
قل الكثيرون : ما أقل عقلك ، الغرض على قد المرسال . رح أنت .
وبعد أيام رحلت أنا ، وكان مدير النافعة محمد بك رعد ، فتاهل
وقال : سيدنا سامي بك قال لي : أسرع ، عجل ، ضع ٥٠ ألف ليرة
لطريق عين كفّاع - دير مار يوسف . نحن في عصر السرعة ، كما قال ،
فلا يكون هو أسرع منّا . إقرأ هذا المكتوب واعدّه اليّ ، مكتوب
ظريف نازك ، يستاهل أكثر من خمسين ألف تدفع لاغاثة بلاد .

وهكذا عدت مظفراً من السراي أردّد قول أبي فراس :

إذا ما أرسل الأمراء جيشاً إلى لأعداء أرسلنا كتاباً
وهذه المرة كان الخبر والورق أغلى من اللباس مئات المرات . صادف
أرضاً طيبة ، فأغل أيمًا غلة .

أمّا الطريق فشقت الخمسون ألف ليرة قسماً منها ، وبنت جسراً حال

دون النهر وأرواح العباد ، ولكنها لا تزال حيث تركها سامي بسك .
لست أذكره بها لأن الكريم لا يهز ، والفاروق عمر بن الخطاب لم يذكره
أحد بتلك الأرملة .

كم كنت أسمع الناس يقولون حين تقف بهم السيارة عند منتهى
الطريق ويشمرون للمشى : الله يرد أيامك يا سامي بك . وأنا أقول
معهم : الله يطول عمر هذا الصاروخ الذي يحق له كلما ولي الأحكام ،
أن يردد قول الحجاج بن يوسف : لا أهم إلا أمضيت ، ولا أخلق إلا
فرّيت ، ولا أعد إلا وفّيت .

جينا للضيعة جينا

إلى الدكتور سليم حيدر .

إذا كان أعجبهم فيما مضى ان يسموا ابن العميد والطغرائي ذا
الوزارتين فكم تراه تعجبني ، وأنت أديب وشاعر ، مثلها، أن تكون ذا
وزارات : تلفون وبرق وبريد وزراعة . وليس من الغريب أن تفلح
حيث تكون ، فالذي رأيك مثلي هلالاً لا ينكر بك بدراً كاملاً .

وبعد ، فلا أسمع إلا تقرير اعتادات بالملايين للتلفون الاوتوماتيكي .
فهل فاتك أن القرية التي يتغنى بها شعراء العامية والفصحى فيها بشر
ذوو أرواح ؟

إذا تحدثت يا معالي الوزير ، عن الحبز والطعام أمام جوعان أخذ
يبلغ ريقه وطفقت شفتاه تنطقان بغير الكلام ، فمشروع القانون المعجل
لإنشاء ٢٥ ألف خط تلفوني الى الملحقات هو الذي اقتضى ان توجه إليك
الخطاب .

ونحن ماذا ؟ أمن الملحقات أم من الذبول ؟ راجع الملفات في مديرية
الهاتف تعلم أنه قرر لنا انشاء خط منذ سنوات ، فاذا كان كل وزير
لا يعمل إلا المهم (في نظره) فنحن لن نسمع صوت « هاتف » إلا في

القبور ، يوم ينفخ في الصور ، لأنني لن أصير وزيراً لأعمل لضيقتي ومنطقتي .

لقد أرتني الأيام ، أن كل من يحل في الدست بحسب أنه ما جاء إلا ليركب « الدست » ويطبخ أطيب ما عنده لمن عنده ، أما نحن فبين حانا ومانا ضاعت لحانا .. وعشنا ونعيش منتوفين .

لنا سنوات واقفون عند الحوض ، والناس يردون ويصدرون ، ولا نفوز بنقطة ماء . كل وزير يقدم الأهم على المهم ، ومن يكون الدفتر معه لا يقيّد نفسه من الأشقياء .

إذا كان الاصطياف ، يا صاحب المعالي ، هو المهم في نظر الدولة ، وهي لا تبالي إلا بالرجل الغريبة ، فنحن نربّع ونصيف في قرانا ، ويشرفنا بزياراتهم أناس يهم الدولة أن يذكروها بالخير ويشنوا على تقدمها وعمرانها . فما لكم لا تذكرون إلا الاصطياف؟ ألا فاذكروا النفوس ولو مرة . أتهمل ثلاثة أرباع الدولة وأكثر لنري السياح أننا إلى الأمام سائرون؟ ان حياتنا أعز من قروش تمهدون سبل اكتسابها لأناس على حساب آخرين . فلو اعطيتمونا نقطة ماء ، وشرارة كهرباء ، وتلفونا لا يلي إلا بعد ساعات لصارت ضياعنا مصيفاً ومشقى ومربعاً .

حقاً لقد صرت أخاف الإقامة في بيتي ، وهذا أقصى الذعر وأسوأ حالة يبلغها الانسان . إن هذا القلب الذي كان يمشي بنظام أوتوماتيكي قد صار يحرن قليلاً ، واني لأخشى ان يتعس وليس له من يشد به .. فاقرب طبيب اليه يبعد عنه ثلاث ساعات . أعرفتم الآن لماذا نلج ونلج ؟ أنا رايح بعد اسبوع الى عين كفاع ، وإذا كان ما أخشى أن يكون ،

فماذا تنفعني أو تنفعكم : إننا لله وإننا إليه راجعون ؟
يعز علينا أن نشكو ، ولكن طفح الكيل ، والوعاء الذي لا يمتلئ
يكون مغيوباً . إذبحوا « للابن الشاطر » ألف عجل مسمن ، ولكن لا
تبخلوا علينا بشاة بشارية^١ نعلق في جيدها جلجلا ..

فمتى هذا الوعد ؟ ومن ينتظر سنوات غير الذي يحلم بالوزارة ؟
في حزيران ١٩٥١ قيل لي : في آخر تموز تتصل بالعالم تلفونياً ،
فشكرت وخرجت .

وما انقضى تموز حتى راجعت ، فأجبت في آخر آب . وذكرت في
أوائل أيلول فما نفعت الذكرى ، وصح بتلك المواعد قول النابغة : تمر
بها رياح الصيف دوني .

ولكن الغريق يتعلق بمجال الهوا . فراجعت أيضاً فليل لي : في آخر
شباط ينتهي كل شيء . ولكن شباط شبط ولبط ، وآذار شخر وهدر ،
ثم هب هواء نيسان السخن وما تفتح في أرضنا برعم من براعم التلفون .
وها قد مرت أربع سنوات ولا رجاء ولا حياة . ألسنا كلنا أبناء دولة
واحدة ؟ أما لنا ما للعاصمة والملحقات ؟ إننا راضون أن يكون لنا من
الجلل شعرات من ذنبه لا من أذنه كما يقولون .

أنشكو تزوح أهالي القرى إلى العاصمة ثم لا نعمل للقرية شيئاً ؟
أرى مثل الحكومة معنا كمثل أب يلبس زوجته وبنته الكبرى أحدث

١ - شخصية (مثل) في الانجيل اكرمه أبوه لأنه قاب بعد ركوب الخطأ
مثال التوبة الحقيقية .

٢ - اشارة الى الشاعر العباسي بشار بن برد الذي كان يحب اللحم السمين .

الثياب وأغلاها » وأنفس الحلى وأبدعها : للصباح حلّى وثياب ، وللعصر
حلّى وثياب ، وللمساء حلّى وثياب . أمّا أولاده وبناته الآخرون فليس
لهم فسطان شيت ولا طقم كاكي .. عوراتهم مكشوفة يمشون بالزلط
يا واو ..

أمن العدل أن لا يتصل ابن القرية بطبيب حتى يدركه قبل أن
يفطس؟ وهل من العدل أن نشقى ساعات مشياً على الأقدام لندعو الطبيب
ونجلب الدواء ؟

يقولون اتنا في عصر السرعة ثم لا نشعر بالسرعة إلا في الوعود .
فقبل ان نسأل نجاب : نعم نعم . ولكنها نعم بلا نعم .

٢٤ مليون ليرة وثلاثة أرباع المليون للتلفون الاوتوماتيكي، ونحن لا
نرى ولو خازوقاً في أراضينا ، يعلننا بالآمال .. أنعيش على أغاني
الاذاعات : جينا عالضيعا جينا . ضيعنا غامرنا النور . يا ضيعانما
بنسالك . غنوا للضيعة حتى تنام ، بنسجوها لتنسى أوجاعها وآلامها .

يقولون ان الايجاء بتكرار الكلام يشفي من المرض ، ولعل هذه
الأغاني تجعل الضيعة تصدق ان السعادة فيها وما في الحواضر إلا الشقاء .
فليت هؤلاء الذين ينادون : ترمس أحلى من اللوز ينامون في القرية ليلة
لنرى كم يرون بها من نعمة ..

القرية تسعد في مخيلة الشعراء ، ولا تقصد إلا في موسم الانتخبات ،
فإذ ذاك تصير يد الفلاح المبردية ناعمة كالحرير ، وعباءته أجمل من
الفراك ، وعصاه المعقدة قضيب ماريشال ، ومنجله وشاح الارز .

١ - نوع من الثياب الأوروبية .

مسكينة الضيعة، ومساكين فلا حوها. فها خلقوا إلا للتطيل والترميز
واستقبال الزعماء ، والزحف إلى المدن للمظاهرات ، حين يصفرون لهم.
يا معالي الوزير ، إذا كان القصد من تركنا والاهتمام بغيرنا هو أن
نري الغرباء ما أحرزه لبنان من تقدم ، فنحن مستعدون أن نريهم أن
لبنان سحارة بندورة خير ما فيها على وجهها .
ما أسمع إلا من يحسدون القرية على فرنها وتنورها ، وكوخها
وعرزالها ، ومعازها وكرازها ، وعنبها وتينها ، ناسين نفوس أهلها
المثالة وشقاءهم في سبيل العيش . فهل أقل من أن نسقيهم إذا عطشوا ،
وإذا مرضوا أن نمكنهم من الحصول على الطبيب في الوقت المناسب ؟
وكيف يقدرّون على ذلك وليس لهم بريد ولا برق ، ولا سيارات
غيب الطلب . إذا كان المكتوب يصل إلى أقصى عواصم الدنيا قبل أن
تصل رسالة إلى القرية فكيف نستغيث ؟ ومع ذلك تشكو المدينة من
تهافت الناس عليها . أليس كل فتى قروي ذاق حلاوة حياة المدينة أسابيع
يطلق قريته البتات ؟ فإذا شئت أن تظل القرى عامرة فرفهوا ، ولو قليلا ،
عن سكانها المساكين ، فلا يكون عليهم الغرم ، ولغيرهم الغنم .
انها لقسمة ضئلى ...

حكاية الماء

ما شققنا الطريق ووصلنا إلى بيوتنا بالسلامة حتى أعلنت الحرب
الاحتلالية، وما انتهينا من قرع الجرس ابتهاجاً حتى حملت إلينا أول سيارة
نبا إعلان تلك الحرب المشؤومة فوجم الناس ، ولكن « الطريق » نفعتهم
جداً فصاروا يبيعون محصولاتهم ، وسهل عليهم الأخذ والعطاء .
وبعد شق الطريق راودتنا فكرة جر مياه الشرب إلى القرى
العطشى ، وكان النبع المسمى « نبع قطرة » هو أملنا الوحيد . راجعنا
الحكومة بشأنه فوعدتنا خيراً ، وفي ساعة سوداء حمل إلى أحد الأصدقاء
جريدة لبنان الرسمية لأقرأ فيها مرسوماً يميز للرهبانية اللبنانية البلدية
جر مياه ذلك النبع إلى دير كفيفان في بلاد البترون .
عقدنا الاجتماعات وطيرنا برقيات الاحتجاج ، فلجأ الرهبان إلى
تهدئة الخواطر ، وعللوا أهالي القرى باقتسام المياه، ورأى الجميع: الصلح
سيد الأحكام . وعندما كان فريق من وجهاء قرى ساحل بلاد جبيل
يشدون العزائم إلى دير ميفوق ليقسموا والرهبان ثياب العوام ويقترعوا
على لباسهم ، وعندما كان رهبان ميفوق يشربون والمدعون على جسد
الدب ، كنت أنا في طريقي إلى بيروت ، فبتدين .

لم يكن بقي إلا بضعة أيام حتى يمسي المرسوم نافذاً ، فأقامت الدعوى في مجلس شوى الدولة وهرولت إلى بتدين ، فسبقتني إليها الصحف التي نشرت خبر الدعوى المقامة مني على رئيس الرهبانية العام والحكومة اللبنانية .

وعلى الغداء قال لي فخامة الشيخ بشارة الخوري : تقيم الدعوى علينا ونغديك عندنا !

فاجبته بما لي عليه من دالة : عندك عندي ، وما أقمت الدعوى بدون اخبار إلا لأن « الدق محاشر » ، وإذا لم أفعل ذلك أخاف أن « تروح علينا » ويعدّي السبت.. فأولاد الحلال كثار . قد فعلت لأقطع الطريق عليهم وأترك لفخامتك مجال إعادة النظر . فالرهبان يعملون بقول المثل اللبناني : من بعد حماري لا ينبت العشب ، وقصتهم مشهورة . فقال : وما هي ؟

قلت : في التقليد عندنا يروون حكاية هي أن راهباً انقطعت تكة سرواله ، فالتفت في ذلك الليل البهيم فوقعت عينه على خيط يربط الأرض بالسما فتناول السكين وقطعه ليربط به سرواله .. فابتسم الشيخ ، جزاه الله عنا خيراً ، وأرسل نكته الناعمة ، ومن طبعه أن يرسلها ولا يجعلك تحس أنها داوية : إشكر ربك . هذا ما نتمناه ..

وهكذا خنق الشيخ ذلك المرسوم في المهد ، وأعطى الشعب حقه ، ولكن جرة الرهبان لم تطلع من البير فاضية ، قبضوا ثمن المياه خمسين ألف ليرة ..

١ - رباط السراويل .

وخططت السبل بعد خمس سنوات، فأعدت الكرة إلى بتدين وقلت
لفخامة الشيخ : يقولون عندنا ان تخطيط السبل دعاية انتخائية .
فقال : لا . لقد أرصدنا مبلغ ثلاثمائة ألف ليرة . وستشربون إن
شاء الله .

قلت : وندعو لفخامتكم بطول العمر .
ثم كان ما كان وجاء الاستاذ ريمون إده نائباً عن بلاد جبيل ، وها هو
قد نفذ ووسّع دائرة البيكار فشرب ساحل بلاد جبيل كله أو كاد، ولم
يبق غير التلفون والكهرباء .

فإلى الشيخ الرئيس الذي سمع صوتنا وحفظ لنا هذا الحق الحيوي
أحر الدعاء ، وإلى الاستاذ ريمون اده الذي جاهد ولا يزال يجاهد في سبيل
المنطقة التي ينوب عنها أجزل الشكر ، وهنيئاً لمن شرب ، هكذا نقول:
نحن زائلون جميعاً أما المشروع فباق إلى ما شاء الله .

وفيا يلي فقرات من عرض القضية الذي رفعناه إلى مقام محكمة شوري
الدولة الموقرة ننشره هنا لذكرنا الناس ويترحموا على من أحسنوا إليهم،
بعد الوفاة طبعاً ، عملاً بسنة منح النياشين عندنا ..

عفواً ، نسينا أن نشكر الصحافة التي ناصرتنا وحملت إلى السلطات
الثلاث صوتنا ، وأخص منها بالذكر جريدة التلغراف والطيار ولسان
الحال والأحرار والأخبار ، وصوت الشعب التي نشرت عرض القضية
ملخصاً في عددها ١٢٥٢ بتاريخ ٢٥ آب سنة ١٩٤٦ وهذا هو كما ورد فيها:
قرى بلاد جبيل العطشى

الاستاذ مارون عبود يقيم الدعوى على الحكومة وعلى رئيس الرهبانية

البلدية بعد صدور مرسوم بالترخيص للرهبان بأخذ مياه ميفوق إلى دير كفيفان ١

في خراج قرية ميفوق من بلاد جبيل نبع اسمه « نبع قطرة » وفي هذه المنطقة ٢٦ قرية محرومة من المياه ، ولا سبيل لسقيها إلا من هذا النبع . وقد طالب أهاليها الحكومات السابقة كلها بحجر مياه النبع إليها دون جدوى . وظلت هذه القرى لا تجد ماء للشرب إلا المياه المجموعة من الأمطار . وبينما كان الأهليون يأملون أن تلي الحكومة طلبهم ، فتقوم بإجبتها في جر مياه نبع قطرة إلى قراهم ، فوجئوا بمرسوم يقضي بالترخيص لرهبان دير كفيفان « منطقة البترون » بحجر مياه النبع إلى ديرهم ، وحرمان أهالي بلاد جبيل من نبع ينبع ويجري في أرضهم ، أي حرمانهم من مياه الشرب إلى الأبد ، فأقام الأديب الكبير الأستاذ مارون عبود لذلك الدعوى على الحكومة وعلى رئيس الرهبانية البلدية الآبائي يوحنا العنداري ، لدى مجلس الشورى . والأستاذ عبود من سكان « عين كفاح » إحدى القرى صاحبة الحق في نبع قطرة . والدعوى التي أقامها الأستاذ مارون عبود ، عدا عن حججها الحقوقية البالغة ، طرفة أدبية ، نقتطف منها بعض الفقرات ، قال :

« هذه القضية تشبه الأمراض المزمنة ، لقد طالبنا الحكومات السابقة كلها بحجر هذه المياه إلى قرانا لأنها حقنا الشرعي ، أما هذه القرى فهي : بجة ، عين كفاح ، غبالين ، غلبون ، بيت الأشقر . الصليب ، معاد ، دير معاد ، غرزوز ، بنخماز ، شيخان ، الرومية ، جدّايل ، الريحانة ، المنصف ، البربارة ، الحلوة ، بعشتا ، عمشيت ، غرفين . العفص ،

حبالين ، شامات ، حصارات ، كور الهوا ، حصاريل .
 إن هذه القرى جميعها محرومة من مياه الشفة ، وهي تشرب من
 الآبار المجموعة مياهها من أمطار الشتاء ، ولا أمل لها إلا بنبع قطرة الذي
 يحاول آباؤنا الرهبان المحترمون اختلاسه بمره وم ١٠٠ .
 وبعد أن يعدد الاستاذ مارون عبود محاولات الرهبان لإتمام المشروع
 قبل صدور المرسوم ، واحتجاجات الأهلين ، يشرح الحق الشرعي لسكان
 بلاد جبيل ، دون الرهبان ، في هذا النبع فيقول :
 « ان هذا النبع ليس في خراج دير ميفوق ، كما ورد في المرسوم ، إذ
 ليس لدير ميفوق خراج ، وإنما هناك قرية اسمها ميفوق والدير فيها .
 أما هذا النبع ، نبع قطرة ، فيصب فوق قرانا التي تطالب بالشرب منه ،
 بينما آباؤنا الرهبان ، زادهم الله رشداً ، يكلفون المياه ضد طباعها ،
 يكلفونها أن تتحدى ناموسها الطبيعي ليرضوا عنادهم المشهور ، يريدون
 أن تمشي المياه مشية السرطان « السلطعون » وتسير طلوعاً ، ومن طبيعتها
 أن تشق طريقها نزولاً ، فالمياه لا تعرف إلا التحويل النازل أما التحويل
 الصاعد فليس في حسابها ... وإن حاول الرهبان تعليمها حساباً جديداً ،
 فبيهاث أن تتعلم وسنخرجها من مدرستهم تلك . « إنه لا يجوز » اخذ
 ماء من منطقة لا تستغني عن ذاك الماء لتسقى منطقة أخرى في استطاعتها
 أن تشرب من نبع آخر أغزر وأكمل منفعة وأعم فائدة وأقل تكاليف .
 إن المثل اللبناني يقول : الماء لا يمر على عطشان . فكيف تجهل هذا
 الرهبانية ، وهي لبنانية بلدية ؟ فهل وصلنا إلى زمان تحرف فيه الأمثال ،
 كما تحرف القوانين ، مدنية ودينية ؟

إذا ادعى الرهبان إنهم يريدون سقيا دير لهم ، وعملوا بالمثل اللبناني القائل : بقر الدير ورزق الدير ، أجبناهم: ونحن عندنا دير هو دير معاد. « كيف يسوغ الرهبان ان يأخذوا المياه من ميفوق في بلاد جبيل إلى دير كفيفان في بلاد البترون؟ إن دير كفيفان يستطيع الشرب، كما قلنا، من ينابيع عديدة ، أما دير معاد ، فإذا سمح الله ، ولن يسمح بذلك جل جلاله » وقدر الرهبان أن يغتصبوا حقاً برسوم ، عطش هذا الدير وعطشنا معه إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين ، بلا آمين » .

وفي الختام يطلب :

– إلغاء أحكام الرسوم .

٣ – تصفية حساب مياه ميفوق كلها ما عدا النبع الفوقاني .

٣ – جر مياه ميفوق الزائدة إلى جميع قرى بلاد جبيل العطشى لأنها حقها الشرعي .

ونحن نؤيد هذه المطالب المحقة الشرعية، من جميع النواحي الحقوقية والعرفية ومن الناحية الواقعية أيضاً ، إذ أن قرى بلاد جبيل المذكورة ليس لها أمل بغير نبع قطرة ، ولا يجوز أن تحرم منه ، هذا فضلا عن أنه ينبع من أراضيها .

ونحن نأمل من مجلس الشورى ان ينظر في القضية على هذا الضوء ، كما تلفت نظر المسؤولين إلى ضرورة إرواء عطش أبناء قرى بلاد جبيل الذين لم يتنازلوا عن حقهم في مياه قطره .

رُوداج

كنا أعضاء عاملين في مادبة آل خير الله بمحطة بجمدون، أعدوا تلك
المادبة على شرف عريسين حبيبين ، الدكتور اسكندر حتي وأخيه كمال.
في تلك المنية نظر إليّ عمها الطبيب الأعظم الدكتور يوسف حتي نظرة
خير ، وقال لي : رح صوبنا حتى نعمل لك روداج.. فرحت أسأل وما
الروداج ؟ وأخيراً فهمت فقلت لنفسي ، ان سيّارتي موديل سنة ١٨٨٦
أما كان الأخرى بالدكتور أن يقول تصليح ؟

كان ذلك في حزيران سنة ١٩٥٥ ، وكان مساء وكان صباح فنسيت
حالي وذهبت إلى عين كفّاع غير ذاكر ما قاله لي الطبيب الذي أتقّد
حياتي ، أول مرة ، عام ١٩٢٦ . تداركني حين أصبت بينت الحمرا
وقطع الطريق على عزرائيل الذي كان قابلاً في وصيدٍ باني ينتظر الفرصة
الملائمة ، فاتهره الدكتور يوسف حتي فلف ذنبه وراح مهرولا يفتش
عن غيري ...

وما تذكرت روداج الدكتور حتي إلاّ عندما قمت من صرعتي
المشؤومة صباح يوم ٢٣ تموز ، وكان يوم سبت ، كان الله الذي استراح من

١ - الضيق والمطبق .

جميع اعماله أراد أيضاً ان يستريح مني .. ولكن شيئاً من ذلك لم يكن ، فأسرعت إلى بيروت ، بل أسرع بي أولادي إلى الدكتور حتي فاستقبلني تلميذي الطاهر الدكتور حتي الثاني ، وأحلت إلى الاستيداع في مستشفى سان شارل . وبعد هنيهة دخل علي الدكتور حتي وقال : ما جئت إلا بعد ان عملت اكسيدان ؟ ثم راح يفتش عن الموتور . وما كان أشد تعجبي حين قال : إنه ما زال صالحاً . الموتور بضاعة قديمة وكذلك المراوح والمصافي ، إذن لا يزال في اليد حيلة . وأخذ الاطباء معاونو الدكتور يروحون ويحيثون ، يفحصون ويدققون . ومشت أسراب الراهبات والمرضات فتخيلتهن كما قال شوقي في وصف سقف كنيسة آجيا صوفيا في عهد البيزنطي :

فمن ملاك في الدجى رائح إلى ملاك في الدجى مغتد
هذه تحمل علاجاً يبلع ، وتلك في يدها ابرة تزج ، وهاتيك تجيء
بميزان الحرارة ، وغيرها تحصي أنفاسي ونبضي . قيامة قائمة .
وإذا سألتني رأيي فيهن أجبتك بالمثل العربي القديم : لا رأي لحاقن .
كنت مشغولاً في جسدي ، لا أرى الوجوه إلا صفراء ، وأخال الابتسامات
جهشة المتباكي .

دعاني الدكتور حتي بالأمس إلى الروداج ، فاذا بسيارتي أمست اليوم
بحاجة إلى نفص . قالوا ان هارون الرشيد احتبس ليلة ما ، فتمنى لو
يعطي نصف ملكه بتلك الليلة ويستريح من تلك الملعونة . أما انا فهاذا
أقول ؟ بل ماذا أعطي ؟ بل هل انتظر شيئاً مما ينتظر الرشيد من جوار ..

١ - المضطر الذي لا يملك امر نفسه .

سبعة عشر يوماً قضيتها بلا نوم ، لم تغمض لي عين ولا هدأ لأولادي قلب .. سيارتي في الكراج ، والله أعلم متى تخرج ، وكيف تخرج . كان امرؤ القيس ينتظر نجوم الليل ويراقبها . أما أنا فكنت أراقب من باب غرفتي الخلفي مصابيح السان جورج ولافتة بلم بيتش ، وهيهات أن تحبو تلك الأنوار . وكثيراً ما حدثتني نفسي عند اشتداد الازمة أن أتدهور من البلكون وأستريح من تلك الآلام التي لا تطاق .

كانت ابتسامة الدكتور اسكندروالدكتور كنعان تشجعني على الطمع بالنجاة ، وبقيت كذلك حتى جاء خبر العملية . كانوا فيما مضى يقولون : آخر الدواء الكي ، أما في هذا العصر فأخبره شق البطن .. ومن ينتظر العملية كمن يلقي بنفسه في أشداق حوت يونان ، ثم ينتظر أن يبصقه ، وهل من حوت أوسع شداقاً وأحد أنياباً من الموت ؟

وأخيراً جاء الجراح النطاسي الدكتور بولس يقول : إننا نسن السياخ ، فهزئت برأسي وقلت له :

إذا لم يكن غير الأسنة مركباً فليس على المضطر إلا ركوبها يا مرحباً بالعملية وبك يا دكتور . وبعد ما تحدثنا ملياً خرج من عندي ليقول لابني الكبير : أبوك معنوياته قوية جداً ، وهذا ما يساعدنا على نجاح العملية .

ثم دخل المبنى الدكتور أبو حيدر بعد حين . وفي مواعده جاء الدكتور حقي فسألته ، فقال : قررنا أن نفتح لك البوتنير !
فقلت : وأي وسام نعد لها ؟ . فقال : وسام العمر الطويل .

١ - العروة .

ولما كان صباح الاثنين لم أرض ان أحمل على المحفة^١ كالعتاد ، بل مشيت إلى غرفة الحياة ، حتى بلا عصا ، مشيت بخطوات ثابتة مشية جندي إلى ساحة القتال . وتذكرت " الإرادة " في تلك الدقيقة الفاصلة بين الحياة والموت فتشددت ، وقلت : لن أموت ، سوف أستريح من أوجاعي وآلامي وأحيا .

وقبل ان استلقي على الوضوء^٢ ، قلت للمبتج الدكتور أبو حيدر، وأنا أقلب عيني في زوايا الغرفة : وأين هو ؟ فخالي أهذي ، فافهمته إنني أسأل عن الموت أين يتخبأ ، وقلت للموت وقد تمثلته أمامي : إياك والغدر ، لا تكن كالسارق، كما قال المسيح ؛ فإن كنت بطلا فهذه الساحة لي ولك ، فهلتم .

وأخيراً غبت لأعود بعد ساعات أحمل في بطني نبريشاً ظلت منه في جهد جهيد مدة خمسة أشهر، كانت تعزيني على آلامها المزعجة أنها مكنتني من نكتة لا بأس بها . كانوا يتحدثون أمامي عن الاختصاص في هذه الأيام ، فقلت لهم : أنا تخصصت مؤخراً في المستشفى ، ولكن اختصاصي تحتاني ، فصار عندي لكل عمل آلة ..

وهناك نكات أخرى كانت ترفه عني وتنسيني قلق الليل، منها هاتان النكتتان :

فواحدة جاءت من صوبنا : دخل علي واحد ، ولما كان لا بد من الحكى في مثل هذه الأحوال قال : الحمد لله على السلامة

١ - يحمل يرفع بالأيدي .

٢ - خشبة يقطع عليها اللحم .

فقلت : لا تتسرع ، يا عمي الخطر قد آمننا .

فاجاب : الله يبعده . ما على قلبك شر ، ولكن الذي حيرني وحير
أهل الجيرة كلها ، هو انه كيف وصل اليك مرض البروستنت وبلادنا
نظيفة منه ؟

وكان الدكتور أشقر حاضراً فهاث من الضحك . فقلت له : إنها رمية
من غير رام .

وواحدة ثانية أنت من امرأة نَصَف^١ . دخلت فرأت النبريش في
الزجاجة المعهودة ، وأنا ممدد على كرسي ، فقالت مستغربة : به اخبرونا
ان مرضك ثقيل ، وهذا أنت تشرب أركيلة . على كل هي أحسن من
العطوس^٢ ، وخصوصاً إذا كانت مثل هندي : لا جمر ، ولا دخان .

ورأت ماء أركيلتي أصفر ، فتحلحلت لتكب الماء وتنظف الزجاجة
وهي تثثر : معرفة الراهبات قليلة بمعاملة الأركيلة ، ولا يشد بالبقرة
غير صاحبها .

فقلت لها : نسيت أني ذكر ! قولي المثل كما هو ولا تستحي : لا يشد
بالفدان إلا صاحبه .

ودخلت الممرضة وأخذت الزجاجة التي كادت تمتلئ ، ففهمت أم
حنا أنها أركيلة مستشفى ... هكذا سميتها ، وهكذا كنا نسميها ، عند
حاجتنا إليها في البيت ..

قالت العرب : على الرائد أن يصدق أهله ، وأنا قد استسفرن في القدر إلى

١ - في منتصف عمرها .

٢ - تبغ دقيق ينشق بالانف .

الأبدية ، ولكنني كنت سفيراً غير مرغوب فيه فارجعت عن الحدود .
وقفت على أبوابها ولما أدخلها . وعدت على أعقابي أشكر من يشكر على
المكروه ، وأبي وجدي اللذين أورثاني هذا الموتور ، أي القلب ، الذي
لم يحتاج إلى خراط ولا ولا ...

وما استرحت من آلام الاحتقان الطبيعي الحادة ، حتى بقيت ستة
أشهر كاملة أعاني ألم الاحتقان الفكري . مرت أحداث خطيرة لم أعلق
عليها ، ولكن الغد لنا ، فسوف نعلق إن شاء الله . إذا قلت لك انني
منذ بلوغي رشدي لم انقطع عن الكتابة يوماً واحداً فصدقني ، أما اذا
كنت مثل توما لا تصدق ما لم تضع إصبعك فتعال لأريك دفترأ من
دفاتري يرجع تاريخه إلى أكثر من نصف قرن ، فترى آثارى الأولى
وتضحك من مارون عبود الماضي ، إذ لا ترى فيه إلا شيئاً لا يكاد
يدرك من ملامح مارون عبود الحاضر . فانا ، يا أخي ، عملت نفسي على
ذوقي ، فان كان أعجبك شيء فيّ فالفضل فيه لي لأنني ماشيت الزمن
فلم أتخلف عن ركبته ساعة ، وإني أعاهد الشباب على هذا وأرجوا أن
يعملوا دائماً وأبداً وهم واصلون إلى ما ينبغي .

عفواً ، قد قطعنا حديث العمليات ، فهناك عملية أخرى تنتظران
أتحدث عنها . ها قد رجعنا إلى بيت خالتنا ، أليس المستشفى كالسجن ؟
كنت هذه المرة أشدّ خوفاً مني في المرة الأولى . ولكنني بقيت أشجع نفسي
وأقول لها : العملية ناجحة بدون ريب . وظللت أكرر ذلك حتى تمكن
هذا الاعتقاد في نفسي . وبعد فانا لم أخدعها ما زال يسعف الجراح
قلب كالمهدة ، ورتتان كجناحي العقاب ، وكليتان كنبيع افقا ، يحنو

على هذه كلها صدر كالكير عامر بالإستهزاء بالموت والإستخفاف به .
كان قبالي في غرفتي مصلوب - لا تظن أنه ظهر لي كما ظهر للبأب-
ولكني ذكرته لأروي لك ما حدثته به .

قلت له : هبني ، يا سيد ، شيئاً من شجاعتك لاستقبل الموت ، فالعملية
ليست لعبة في كل حال . أنت طلبت من أبيك أن يحيز عنك الكاس ،
ولكنك شربتها ولم تجزع ولم ترع . شربتها ليكسب الناس الحياة الأبدية
فغلبت الموت بالموت ، وأنا ساشريها لأغلب الموت بالحياة وأكتب بعد
وعزائي على عيشتي أرمل دهر ، هو ان ابنائي لم يكونوا كتلاميذك
الذين لم يسهروا معك ليلة واحدة . انهم لم يناموا قط .

وأخيراً كما مشيت أول مرة الى غرفة العملية بخطوات ثابتة ، مشيت
اليها ثاني مرة ، وقد سمعني تلميذي الاستاذ رشاد يبني اقول لأولادي :
أنا راجع بعد قليل ..

وقلت للجراح النطاسي الدكتور حسيب بولس : لا تربط لساني كما
تفعل بغيري . لا تخف ان ابلعه فهو الحيلة والفتيلة .

فاتني ان اذكر لك حادثة طريفة : قبل العملية الأولى جاءني كاهن
وهو صديق ونسيب ، يريد ان يهد لي الدرب الى الابدية ، فقلت له :
ثق يا ابن عمي انتي لا احتاج الى من يدلني على درب بيت ابي .. وانتي في
غنى عن وسيط يفتح لي الباب . وانا والرسل جميعاً اصحاب فلا بدمن
ان يفتح لي واحد منهم . فاهيك ان معي جواز سفر من الأب الاقدس ،
باص ديبلوماسي يساعدنني على الدخول ، تكفي معه كلمة واحدة لأظهر
من آثامي وادخل الجنة بشيائي ، كما يقولون . وقبل وبعد «بعد بكير»

يا محترم ، فانا لا اموت في هذه النقلة ، واذا عشت وعشنا وعزناك
لا نخيبك .

ومضت المعركة الثانية بسلام، وكان جنودها اطباء وعلماء نظاميون،
وجراح شاب واثق من علمه ومن نفسه ، وراهبات ساهرات، وممرضات
كانهن راهبات . فاذا قلت لك انني شعرت اثناء اقامتي في المستشفى
ان كل من فيه من كبير وصغير ، كان يسهر علي ويهمه ان تتجسح
عمليتي ، فصدقني .

وأخيراً اني اشكر من عاودوني وآسوني في بلواي ، وأنا هنا في مقام
الشكر . أما العتب فله مكان آخر وسيكون حسابه عسيراً .

مذكرات شباط

شباط شهر ناقص لا تفعل فعله ملوك الشهور . حقاً ، ان كل ذي عاهة جبار . كانت أمي تخاف شباط وتخوفني منه . فلا تنتشر غيمة في الجو حتى تغرزي حد الموقد كالوتد ، ولو قدرت ان تكتفني وتربطني بخناق ، لفعلت .

كان حديث الشتاء حديث شباط متى جاء . فكلّما مات شيخ أو عجوز كنت أسمعهم يقولون : أخذه أو أخذها شباط . وكانت أمي تردد ، دائماً ، هذه اللازمة : ومن يعصي عليه ؟ وأخيراً فارقت هي فيه . ودخلنا المدرسة فأنستنا الشيطنة حديث شباط ، إلى أن كانت سنة قارسة البرد ، فقلنا : راح شباط وراح معه الشتاء ، فقال معلمنا وكان يفخّم اللفظ ويؤثر الغريب من الكلام : رويدكم يا أولادي ، راح الصن ونحن اليوم في الصنبر . فقلنا كالمستهزئين : وما الصنبر ؟ فأجاب : هو ثاني أيام العجوز . فضحكنا ورددنا : أيام العجوز ؟ فصاح : هيهي ، أي نعم أيام العجوز ، المستقرضات في لغة العوام ، أربعة أيام من شباط وثلاثة اقترضها شباط من آذار ليتشفّى من عجوز شمتت به . فقلت : وماذا عمل بها ؟

فاجاب : سد بوزك . لا تضيع الوقت .

وفي الثامنة عشرة من عمري انتشرت الحمى في المدرسة ، فكانت لنا فرصة مرفع في شباط ، والتلميذ يرحب بالطاعون إذا كان يعطي فرصة . وفي طريقي الى البيت نزلت على صاحب لوالدي وبت عنده ، فكان حديث السهرة عن عنصرة الشهور ، وكم جادت يداه بعاجل طعنة . فقال صاحب البيت : شباط قاشوش . فابتسمت . فقال لي : إن شاء الله تكبر وتخبّرنا فيما بعد . فأوحت إلي كلمته ان أكتب مذكرات شباطية . ولما عدت إلى المدرسة شاورت « مرشدي » في الأمر فقال : اكتب ، ولكن توقّ الفلسفة .. فالتفت اليه مستفهماً ، فأوماً بيده إيماءة من لا يريد البحث ، وقال : ليس ، اكتب . فشرعت في عملي بعد سنوات ، وهذا بعض ما كتبت :

في الثانية والعشرين كنا ندرس كتاب الذمّة : كانوا يسمّون علم اللاهوت هكذا ، يوم كانت شئون الذمّة وشجونها تشغل البال - فرفعت إصبعي في أحد أيّام شباط وقلت : مسألة .

فاجاب المعلم : هاتها . فقلت : هذي العلامات التي نراها على الأبواب في شباط ، ألا تظن أنها مأخوذة عن العبرانيين عندما أمرهم الرب ان يعلموا بيوتهم بعلامة لئلا يدخلها غلطاً ويقتل أبنائهم خطأ ؟ فقال منيظاً : هني من مذكرات شباط ؟ أقعد يا إبني : بس .

في الخامسة والثلاثين بدأت أحس بوجود شهر اسمه شباط . أمّا في السنين التي مرّت قبلها فكانت أفرح بقدومه ويمجّيني ثلجه وهواه وشمسه وشتاه ، وأتهلل حين أرى اللوزة تتخطّر بثوب الزهر . وأذكر لما كنت

صبيًا ، أنني رأيت جملاً يرغي ويزبد دالقا جرابه الأحمر ، فقلت لعشير
أكبر مني وأخبر : أتقول قلبه يوجعه ؟ فاجابني ضاحكاً من سذاجتي :
عجل ، هات له الطست .

ولما بلغت الأربعين تهيبت شباط ولبست لاستقباله طاقاً فوق طاق ،
فقلت الشباب : صرت تخاف شباط ١٢ فأجبت : درهم وقاية خير من
قنطار علاج . فقال أحدهم : وكيف يكون قنطار العلاج إذا لم يكن
هذي الشياب التي عليك ؟

وبين الخمسين والستين صرت كلما انقضى شباط أقول في قلبي :
دعسنا رقبته . وفي الستين أحسست برقة جلد ووهن عظم ولكنني كنت
أتجاهى بقوتي عند من جاوزوا حد الأربعين ، لتطمئن قلوبهم : يظهر أن
الانسان متى كبر يظهر من الضعف قوة .

في الثانية والستين غطى الثلج البلاد حتى المراكب في الميناء ، ومع
ذلك انقضى شباط ولم يمض إلا طفلة بنت ستة أشهر .

في السابعة والستين . غريب شباط ، المرفع فيه ، والأعراس فيه ،
وأكثر الأمراض والوفيات فيه . جمال تهر ، وسانير تتنادى من كل فج
– لكل خطاب يا بئين جواب – وفي زوايا البيوت شيوخ وعجائز تغص
بسعالها وتشرق بريقها ، متضايقين من ضجيج الحياة حولهم ، فيصرخون
ولعابهم يسيل : الله يقطع جنسكم ، ما أفضى بالكم ١١ وما يكون الجواب
غير مواء موسيقي منغم ..

في السبعين ارتخت ركبتاي فدعمتها بالعصا . أغلقت الباب طول
الشهر . صارت أخف نسمة هوا تفرعني . وإذا تجولت في يوم دافئ

تحسبني فراشاً يمشي على الأرض .
في الثالثة والسبعين زارني أبو الركب^١ فهدّ حيلي ، الله يهدّ عظامه ،
ولكن رحمة الله كانت واسعة . تخلصنا منه .
هذه السنة هي الخامسة والسبعون ، الصّحة مثل الحديد ، لا رشح ولا
من يحزنون . أكثر الناس ناموا جمعه وجمعتين ، ما خلا بيت من فراش
وفراشين . أنا كنت مثل السبع . نشكر الله ١١
في السابعة والسبعين راح شباط وفي ظهره غبّاط . كل شباط
ونحن بنخير .
شباط الثامنة والسبعين كان هيناً علينا كأنه شهر تموز . ما مرض
أحد . صح فيه قول المثل : لو شبّط ولو لبط ريحة الصيف فيه . الله
يبعد الجراد . شمس شباط تخوف .
في التاسعة والسبعين . شباط هذه السنة متقلب مثل أحكر الناس .
الحق مع من قال : شباط ما عليه رباط .
اليوم دعست في الثّانين - العمر كله إن شاء الله - ولكنني تفكرت
كثيراً في شباط هذه السنة الملعونة . الموت كثير ، إذا قلنا من شدة
البرد ، فشر كانون فعل الشتاء . ما عرفت لماذا ينتظر الناس شباط
حتى يموتوا ١
أنا اليوم في الثانية والثّانين . الصّحة ممتازة . الأبواب كلها مسدودة .
ومن أين يخش المقصوف العمر ١٩ ولكن قضية شباط ترافقني إلى القبر .
لا نحل مشكلة حتى تجيئنا الثانية . قال لي أمس الشدياق جرجس ، وهذا
١ - مرض الضنك .

ملفان من تلاميذ روميه : إن أغلب العلماء والرجال الكبار ولدوا في شباط . استحيت أن أقول له : إني أنا من مواليد شباط . ولكنني قلت في قلبي : إذن أنا عظيم وما عرفت حالي . طلبت دفتر العباد من الخوري وما فتحت أول وجهه حتى عرفت أن الخوري من مواليده فقلت : النظرية صحيحة ؟! ولما قلبت الدفتر كله رأيت أغلب بهاليل الضيعة ولدوا فيه ، ما ترقينا شيئاً !!

في الرابعة والثمانين كان شباط قاسياً جداً . مات جمهور كبير . مشيت خلفهم كلهم . المهمة قوية وهذا أجر عظيم . وفي الخامسة والثمانين مات نحو عشرين نسمة في آذار ونيسان ، وما مات أحد في شباط . سألت من هم أكبر مني فضحكوا وقالوا : لعل عزرائيل خرف . قلت : ياليت . ربما ينسانا .

شباط السابعة والثمانين أقسى شباط مر علينا . صواعق متلاحقة ، اكتب والرمود تهز البيت هزاً . قدّوس قدّوس قدّوس . صاعقة قريبة جداً . نشكر الله .

في التسعين صحّ الصحيح وطينت الباب الشالي والشباييك كلّها . تذكرت ما كنت أراه على الأبواب فقلت لابن ابن إبني : أرسم على الباب شكل صليب ، فضحك الصبي واستفهم . فتذكرت مسألتي لمعلم اللاهوت من سبعين سنة ، وقلت بصوت ربما يكون سمعه الصبي : آه ، كم كنت جاهلاً ومرتداً .

في الواحد والتسعين زارني واحد من جيلي . دخل عليّ وهويضحك ويقول : صارت تنفع اليوم صلبان شباط !

فقلت له : صرنا في الواحدة والتسعين ...
وفي الثانية والتسعين ، ظاهرة غريبة : أتخيل الموتى من رفاقي
وأقاربي قاعدين حولي . ما هني التصورات الغريبة ١٢
في الثالثة والتسعين راح شباط وجاء آذار . عيّدت مع المعيّدين .
أكلت خمس بيضات مسلوقة ولو أعطوا أكثر أكلت .
اليوم في الخامس من شباط بلغت الرابعة والتسعين . طيّنت الباب
وأرخت البلاس على الشباك الذي عند رأسي . صرت كاني محبوس
في قنينة .
السنة كبيس واليوم آخر شباط . انتهى والحمد لله . حاولت أن
أكتب فما طاوعتني أصابعي . فنبهت فجاء ابن إبني ، فقلت له :
أكتب عني .
وهنا تغير الخط وكتب الحفيد : قعدت لأكتب ولكن جدي نتش
الورقة من يدي وقال :
غداً أكتب أنا بخطي . هذا طرف فالج ، عارض ويزول .
وكنت أرى حنكه يرتخي وأسمعه يقول : جدك يقنطر إن شاء الله
— يعني أنه يبلغ المئة — .
وبعد قليل انعقد لسانه ، ومات من ساعته ، وهو ينظر إلي بعينين
يكسرهما الموت . فعرفت أن في وجهه كلاماً لم يقله في الأربع
والتسعين سنة .

وجوهٌ وحِكايات

واليسم واليسم

ليلة « الغطاس »^(١) ليلة خصبة تحبل فيها العقول بالأحلام والأمانى،
فتلد العجائب والغرائب ، وهنيئاً لك يا فاعل الخير .
تربّع^(٢) الخوري نصر الله ، في تلك الليلة ، عن يمين الموقدة ،
وتقرّفت^(٣) قبالة خوريته كأنها قفّة ثياب .
الخوري معبّس حيران ، ثارة يمشط لحيته الطويلة بأصابعه ، وطوراً
يحكش النار^(٤) وينفخها ، فيتطاير الرماد في سماء العليّة^(٥) ، ثم يستقر

-
- (١) ليلة الغطاس : ليلة السادس من شهر كانون الثاني من كل عام وهي
ذكرى حلول الروح القدس على السيد المسيح في نهر الاردن .
(٢) تربّع : ثنى قدميه تحت فخذيه مخالفاً لها .
(٣) تقرّفت : جلست على ركبتيها وألصقت بطنها بفخذها .
(٤) يحكش النار : يحركها .
(٥) العليّة : الطابق العلوي من المكن .

أجلى ما يكون على جبته ، وقاوقه ، والبلاس ^(١) ، فتصر الخورية فيها المتكرش ^(٢) ، فيصغر حتى يصير كالحاتم . تتذكر كم حفت ثياب الخوري ، ليظهر نظيفاً ، يوم عيد الغطاس ، فتتهد وترقص على شفيتها كلمة ، ثم تتوارى ، فتتنفض ثيابها وكوفيتها بتأفف كأنه توبيخ لبق للمحترم العكش ^(٣) ، ولكنه لا يحس .

بماذا كان يفكر الخوري في تلك الساعة ؟ أبنسله المقطوع ؟ فهو ، علم الله ، مؤمن بأنه ابن الكنيسة ، ومن أبنائها ذرية واحدة لأب واحد هو المسيح ، فسيان عنده أعقب ^(٤) أم لم يعقب . ثم ماذا يرتجي ابن الثانين من امرأة تحبو الى السبعين ؟

لو كان علمانياً لترقب الموت فضاض المشاكل ^(٥) ، ولكن الخورية كالصنوبرة إذا قطعت لا تفرخ ... فماذا يحير الخوري إذن ؟ وما يشغل باله ، وهو الحاكم المطلق ، وليس على الرعية إلا الطاعة ؟ أتقول إنه مؤمن

(١) القاوق : غطاء الرأس للكاهن . والبلاس : بساط من شعر .

(٢) المتكرش : المتقبض ، الكثير التجاعيد .

(٣) للعكش : القليل للترتيب . والمحترم : صفة أصبحت شبه لقب يطلق على رجل الدين المسيحي .

(٤) أعقب : أنجب ولداً .

(٥) الموت فضاض المشاكل : أي تموت زوجته فيزوج غيرها . الخورية كالصنوبرة : إذا ماتت زوجة الكاهن لا يحق له أن يتزوج ثانية ، فهي كالصنوبرة التي لا يفرخ بعدها إذا قطعت .

كالعوام من الناس بمرور « الفادي » على بيوت النصارى ، ومن يعمل
ساعة مروره عملاً دام عليه ، إن حسناً فحسناً وإن سيئاً فسيئاً ؟

كل هذا تخمين . أما الثابت فهو أن الخورية لم ترَ زوجها قط كما رآته
الليلة . حاولت أن تنبيهه ، فقامت إلى مغزله ، هاتفةً : يا يسوع ! ثم جاءت
به من عن يمين مخدتها وقعدت قائلة : يا مريم ! ولكن بلا جدوى . الخوري
في دنيا غير هذه الدنيا . فانكبَّت أخيراً على نفس الصوف وغزله ، غير
منفكة عن التأمل في خوريها المنتصب أمام وجهها كالوتد .

وبعد صمت طويل فتح الخوري فمه وقال : كم رطلاً عجنت ؟ .

فتنهدت الخورية وقالت : أربعة أرطال .

فقال : قليل . الضيعة كلها عندك الليلة .

ف قالت وهي تعد على أصابعها : القمح ، والحمص ، والتين ، والجوز ،
واللوز ، والزبيب .

فاجابها بهدوءٍ مرح : عادتكَ يا مبيضة الوجوه ، احسبي حساب
الضيعة كلها . أطعمي ولا تبعزقي^(١) .

فاجابته وقد هزها ثناؤه : ما عليك ، عندنا خير كثير ، وبركتك
تغنيننا عن كل شيء .

فحنا الخوري رأسه اتضاعاً وقال : أنا خاطيء يا خورية .

(١) بعزق الشيء : أنفقه بإسراف وبغير حساب .

فحسبت أن خطايا رجلها تتراعى له في هذه الليلة المباركة ، فانغمت
وسكتت .

وعاود الخوري الصمت ، فأخذ يعدّل النار وينفخها ، فيتطاير
الشرار من أرومات التوت التي توقد خصيصاً ليلة الغطاس . ومرّت فترة
لا نفخ فيها ، كأنما كانت استعداداً لعاصفة أثارها الخوري في الموقدة ،
ونذرى الرماد .

لم تطق الخورية ، فقالت بنبرة تحالطها ابتسامة مرة : وسّخت الدنيا
يا خوري ، توقّ ثيابك .

فانبسط وجهه اعتذاراً ، وطلب السراج ، فنهضت على الأربع ،
فقال لها مداعباً : قصّرت يا خورية . فاستضحكت ، ومشّت وهي تقول :
نشكر الله ، بيّن الخوري سنّه الليلة ^(١) .

وأجلست الممرجة ^(٢) عن يمينه وقعدت في مبركها ^(٣) تغزل

حوّل الخوري وجهه نحو الشرق ، وركع يصلي . ثم نظر شزراً
فراها تغزل ، فتحنّح ، ثم أحّ الأحة الممهودة ، فحلّت محل المغزل
مسبحة وردية ^(٤) طول الحبل .

(١) بيّن سنّه : أي ابتسم .

(٢) الممرجة : القائمة التي تجعل عليها السرج - القنديل - .

(٣) برك : جثا للركب ، والمبرك موضع البروك .

(٤) سبعة طويلة للصلاة مؤلفة من خمسة عشر بيتاً .

وأخذ الناس يتوافدون على بيت الخوري ، فجلسوا صامتين .

لم تكن تخرج كلمة إلا من أفواه الأطفال ، فتحبسها الأمهات في تلك
الأكام ، ولا يفلت منها إلا القليل ، وإن أبطأوا عن إسكات طفل جار^(١)
الخوري وهمر^(٢) ، فيسد^(٣) فم الصبي سداً هرمسياً^(٤) .

وأطبق الخوري شحيمة^(٥) وتحرّك للقعود، فمستوه^(٦) جميعاً بصوت
واحد، وتكوموا^(٧) حوله يقبلون يده - والمورد العذب كثير الزحام -
فاصطدمت الرؤوس بالرؤوس كأكر البليار . لم يرتدوا حتى بأسوها ،
جميعاً ، ثم قعدوا ، سكوتاً ، ينتظرون كلمته ، فقال لهم : هذي ليلة
شريفة ينتظرها الناس كل عام مرة . هي تذكّر حلول الروح القدس على
المخلص في نهر الأردن . طوبى لأتقياء القلوب ، فإنهم يعاينون الله ، كما
قال مخلصنا وإلهنا له المجد ، هل أتم مستعدون يا أولادي المباركين ؟

فأجابه الذين لا يفكرون بزلاية الخورية : نعم يا معلمي .

فقال الخوري بتواضع : هذا ما أتمناه لي ولكم يا إخوتي .

(١) جار : هنا حدق بقوة .

(٢) همر : أرسل صوتاً غامضاً دلالة على الإزعاج .

(٣) هرمسياً : أي محكاً بقوة .

(٤) الشحيمة : كتاب صلاة الكاهن الماروني الأسبوعية .

(٥) مستوه : ألقوا عليه تحية المساء : مساء الخير .

(٦) تكوموا : اجتمعوا حوله .

وجرّأهم عليه تلطفه في الحديث، فذكروا له رجلاً طرده من الكنيسة
لأنه وشوش^(١) جاره فيها ، فغفر له ، وأدخلوه .

وعاد الخوري إلى سهوته ، وانطلقت ألسن الرعية في الحديث عن
شؤونهم القروية ، فلم ينسوا شيئاً منها . أما عيونهم فكانت في الغالب
تتجه صوب المعجن والقدر . ولما أتت الساعة تحلحلت^(٢) الخورية من
موضعها لتضع المعجنة على طرف المصطبة^(٣) ، فامتدت لرفعها عشرون
يداً وشمرت^(٤) الصبايا عن أذرعهن يقرّصن^(٥) المعجين^(٦) .

وعلا صراخ الزلائية في المقل ، وأخذ الصغار ينتشون^(٦) ما في أيدي
الآباء والأمهات . وألهام انتظار النوبة^(٧) عن الحديث – وعند البطون
تضيع العقول – فظلّ منقطعاً حتى قالت صبية ، وهي تمطّ قرن زلائية
فوق المقل : عجينك تخ يا عمّي .

فأجاب شاب في نفسه شيء من تلك البنية : إذا كان عجّين الخورية
لا يتخ فعجّين من يطلع ؟

(١) وشوش : همس إليه الكلام .

(٢) تحلحلت : تزحزحت من مكانها .

(٣) المصطبة : مكان مهاد قليل الارتفاع عن الأرض يجلس عليه .

(٤) شمرت الثوب : رفعه .

(٥) قرّص المعجين : قطعه قطعاً متساوية .

(٦) ينتشون : يخطفون بسرعة .

(٧) النوبة : الدور .

فأعجبت الكلمة الجمهور وكان الإيمان بالمعجبة الاولى^(١) . وامتلا
البيت غبطة ورائحة زيت .

واستلنوا زلاية الخورية المقرفلة مغموسة بالدبس فذكروا «الدايم»^(٢)
الذي يأكلون على ذكره ، فقال واحد : هنيئاً لمن يركع الليلة على السطح
ليباركه المسيح بمروره .

فأجابه شاب : لا تفوتنا هذه النعمة إن شاء الله .

وصاح شيخ رعشن^(٣) من الزاوية : يا نسوان ، الليلة يتركون خلايا
الطحين مفتحة ليباركها الرب .

فتنبهت لذلك امرأة خليتها مسدودة ، فصفتت كفاً على كف ،
وهرولت إلى بيتها ، ثم عادت تلهث ، خائفة على فوات شيء من زلاية العيد .
وعلى ذكر الخير قالت امرأة أنها علقت عجنتها بالشمشة ، فأجابه
الرعشن ، راوية أخبار الدايم : لا يا أم يوسف ، هذا غلط . الشمس
يركع . علقيها بالتينة أو التوتة . التوت متكبر لا يسجد . والتينة حاقدة
على المسيح .. لأنه لعنها .

فقال شاب : نسيت الخروبة يا جدي .

-
- (١) يعتقد بعض العامة أن العجين يختمر في هذه الليلة بدون خير .
(٢) الدايم : يريد به المسيح . ومن معتقدات العامة أن المسيح يمر على البيوت
عند منتصف ليلة الفطاس ، ويبارك الخيرة منها ، فيدوم فيها فيض
النعم سنة كاملة .
(٣) رعشن : أي كثير الارتجاف ، مرتعش .

فقال : نعم ، نعم ، الخروبة تقول للرب : حبلى مرضعة على كل كتف أربعة .

فأعجبوا بفصاحته، وصدّقت كلامه امرأة علّقت عجينتها بالشمشة عام أول، فتلوّثت بالتراب.. فأسرعت أم يوسف لتنقل عجينتها الى التينة. وكان الزيت يغني ، والمعجين يرقص ، والناس يأكلون ويتحدثون، والخوري غارق في بحرانه^(١) كأنه لا يرى ولا يسمع ، والخورية تتمجب كيف لا يأكل قرناً من زلاية العيد مع أنه يموت عليها^(٢) .

وكان الامتشاط في التبان^(٣) بعد قلي الزلاية ، فتطير الشرار من رؤوس بعض البنات وتراكض الساهرون ليروا، والتفت الخوري التفاتة غير كاملة ، ولم يتكلم .

وجاء دور القمح والحمص المسلوقين ، فصبّت الخورية في صحن الفخار الصفراء ، وأعطت كل كومة^(٤) صحناً ، فأقبلوا عليها يغرفون، وقال شاب فه محشو : مرّ الدائم في زي فقير على امرأة تسلق قمحاً ، فقالت له إنها تسلق بحصاً - أي حصى - فدعا عليها . ولما كشفت قدرها امتلأ بيتها حجارة ، ولو لم يصلّ الخوري على الباب طمّت الحجارة الضيعة . فاجابه ثان : وبالعكس حصل لمرأة فقيرة ، ولكنها بنت أوادم ،

(١) بحران : شبه غيبوبة .

(٢) يموت عليها : يحبها كثيراً .

(٣) التبان : مستودع علف البقر ، كان موضعه في مسكن الفلاح اللبناني

يوم كان الخوري كمامة الناس يفلح ويزرع .

(٤) كومة : جماعة .

فاكل أولادها من الحول الى الحول .
وتذكروا عجائب لا تحصى . أما الخورية ، فكانت تغمز حبقوق
ليحدث الخوري ، فقد شغل بالها سكوته الطويل .
فلبى حبقوق الذي هو على سن الخوري وماله : ما قولك يا معلمي ،
البحر يحلو الليلة مثلما خبرونا ؟
فلم يجب الخوري ، وظلّ ناظراً الى الباب الذي يفتحونه خصيصاً
ليدخل منه الدائم ، ولا يدعو على البيت بالتسكير الى الأبد .
فقال روحانا ، وهو ابن ستين وما فوق : مؤكّد عند نصف الليل تماماً .
أعرف كثيرين جرّبوا وشربوا فكان أحلى من الدبس .
ونكعت^(١) الخورية حبقوق ليسأل الخوري سؤالاً آخر لأنها اعتقدت
أن الله ربط لسانه كما عقد لسان زكريا^(٢) في الهيكل . فقال حبقوق بصوت
عال : خوري نصر الله أين أخبارك الحلوة ؟ ما سمعنا منها شيئاً ، الليلة .
فنظر اليه الخوري نصر الله نظرة مفلطحة^(٣) ، ولم يتكلم . فراع

(١) نكع : لكز بمرفقه أو بكوعه .

(٢) زكريا : كاهن من العهد القديم ، تراءى له الله في الهيكل ، وربط لسانه
عن النطق حتى يتم وضع زوجه اليصابات التي حملت بعد أن كانت
عاقراً وطاعة في السن ، فولد لها يوحنا المعمدان الذي عاش متقشفاً
وظهر في الثلاثين من عمره على شاطئ نهر الاردن داعياً الناس الى التوبة
والرجوع الى الله ، مبشراً بمجيء المسيح . وقد قطع الملك هيرودس
رأسه (م ٣١) .

(٣) مفلطحة : منبسطة وعريضة .

الخورية منظره ، وأيقنت أنها سترزق ولداً في الستين ، وقد يكون عند الله يوحنا آخر . ولماذا لا ؟ فالإنجيل يقول : ليس عند الله أمر عسير . وهذا الخوري مربوط اللسان ، وهو كاهن مثل زكريا ، والخورية عاقر كالأصابات ، وتقية طاهرة مثلها .

أما الجماعة فلم يدركوا شيئاً مما يحدث ، وأفاضوا في حديثهم عن « الدائم » لأن ساعة مروره قربت ، فقال واحد : طلبت بنت كسيحة من سيدنا يسوع المسيح أن يعمل واحدة من يديها منجلاً^(١) ، والثانية فَرَاعَةً^(٢) ، فقبل طلبها ، وخلّصت من الذين يعذبونها .

وقال غيره : كان لواحد عمه اسمها خرستين غنية بخيلة لا يستنتج منها شيئاً ، فقالت له : اطلب لي طلبة من الدائم . فقال : يا دايم المجد والطهارة صير عمتي مثل الكاره^(٣) . فسأله شاب : صارت كاره ؟ فأجابه بإيمان : وأية كاره ! فمال ذاك إلى جاره وقال له : هينة عليك . اطلب الليلة من الدائم يعمل عمك مثلما تريد واسترح من دينها .

وبينا الشباب يكسرون الجوز واللوز ، والشيوخ يضغطون^(٤) الزبيب والتين ، فرّ الخوري إلى الباب بغتة ، فهاج الجمهور متعجباً من فرّته الغريبة . وتبعه بعضهم ثم عادوا معه يسألونه عما رأى ، ولكنه لم يتكلم ، فتحرك الجنين في بطن الخورية ...

(١) منجل : آلة من الحديد عكفاء يقضب بها الزرع .

(٢) الفراعة : الفأس .

(٣) سبق شرحها بالمقدمة .

(٤) يضغطون : يلوكونه في القم بدون أسنان .

وبعد سكوت غير قليل قال كبير القوم قوموا يا جماعة ، الثريا^(١)
مالت فودّعوا كما سلّموا .

وتعلق نظر الخورية بشفتي الخوري ، وإذ لم يتكلم شعرت أن بطنها
اتنفخ كأنها في شهرها السابع . فمدّت فراشها ونامت تتوقى الطرح
والإسقاط .. ولكن الخوري بدّد حلمها الشهوي حين صاح بالناس من
الباب : القدّاس نصف الليل .

فأخذت الخورية تتعمّل ، وتفتح في فراشها . سالها الخوري عن
مصيبتها فماردت جواباً ، فتوهم أنها آسفة على ما أنفقت لأن حاشية
الخوري رقيقة^(٢) ، فتركها وقعد يصلي صلاة « الستار والليل » . ثم
اتكأ قرب الموقد فغفى . وتراءى له الطيف الذي مرّ بياله منذ ساعة ،
وسمع دقاً على الباب ، فاستيقظ مذعوراً يرسم إشارة الصليب ويغمغم .
وهب إلى قنديله يشعله ، وتلفلف بجبته ، وقبل أن يمضي إلى الهيكل ،
نكز الخورية بعصاه ، فقعدت تتمطى .

ولم يبتعد عن البيت بضع خطوات حتى أخذته أفكار غريبة، ورأى
رؤى مخيفة ، فمات فزعاً .. وهم بالرجوع إلى البيت ولكنه تجلد ، وأكثر
من إشارات الصليب والصلاة ، فاشتد عزمه وتبدّد كل شيء .. وبلغ
لكنيسة غير مصدّق أنه فيها ، وتعلق بجبل الجرس ، فدقه بعد عناء

(١) الثريا : مجموعة كواكب ، وهنا أوشك الليل أن ينتصف .

(٢) حاشيته رقيقة : ليس له مال كثير .

بضع ضربات وصعد الى الخورس^(١) ، وهو يرتل الأناشيد البيعية^(٢) ،
ليتشجع .

أوقد السرج والشموع بيد ترتجف وجلد يقشعر . وكان كلما شجع
نفسه ازداد خوفاً ورعباً .

وانتقل أخيراً الى زاوية الكنيسة الشمالية ، وأخذ يقلب الكتب
البيعية مفتشاً عن رتبة الفطاس^(٣) وقدّاسه ، لعله ينسى مخاوفه ، فاستوى
قدّامه شاب غريب رأى فيه ملامح من يسوع . فصاح الخوري بالسرّانية:
« بار حايو دا كاس بت ميتة^(٤) » فمدّ الشاب يديه نحو الخوري مفتوحتين .
فزاد إيمانه بأنه المسيح ، فخرّ أمامه ساجداً ، وأغمى عليه .

وأقبل الشماسة الذين يلبون دعوة الجرس قبل الرعية ، فرأوا
الخوري نصر الله منبطحاً على البلاط كاليت . فأسرع أحدهم إلى الماء
ينضحه به ، وأحرق آخر رقعة أدناها من منخريه^(٥) ، وقرع ثالث
الجرس قرعاً عنيفاً ، ثم دقه الضربات المعلومة بين الأهالي للاستغاثة ،
فانصبوا على الكنيسة كالسيل ، وكانت الخورية آخر من جاء .

(١) الخورس : مكان مرتفع في الكنيسة يقوم عليه المذبح الكبير .

(٢) البيعية : الدينية الكنسية .

(٣) رتبة الفطاس : صلوات خاصة تقام في هذه المناسبة .

(٤) جملة سرّانية معناها : ابن الحي الذي مكث بين الأموات .

(٥) يلجأ أهل القرى عادة إلى إحراق قطعة قماش وإدخالها من أنف المغمى
عليه لأن رائحتها تساعد في استفاقة .

رأت زوجها صريعاً فانحنت فوق رأسه تولول وتبربر^(١) : راح
الخوري، يا ويلى ! مات، مات خوري نصرالله. يخرب بيتك يا عزرايل.
ومطت ياء عزرايل ولامه مطاً طويلاً جداً ، انتهى بنتف شعرها ،
وقعدت تزحر وتطهر^(٢) . وأخيراً أرسلت صوتاً رعب السامعين :
خرب بيتي يا ناس . يا حسرتي عليك يا خورية نصرالله !

ففتح الخوري عينيه ، ولكنه ، لم يتكلم ، فهدأت الخورية وعاولدها ،
حالا ، الإيمان بالحبل ، وآمنت أكثر من ذي قبل ، لأن ما أصاب الخوري
أصاب زكريا تماماً ، وفي الهيكل ، وعن يمينه أيضاً ...

وأشار الخوري يجمع كفه الى الناس ، فتهللت الخورية وكادت
ترقص ... وبعد قليل غمغم الخوري بعض الكلمات ، ثم انفكّ لسانه
فخبر الشعب كيف رأى الدائم أول مرة في البيت عندما فرّ الى الباب .
ثم كيف ظهر له في الهيكل وعينه وجهاً لوجه . فسجدوا شاكرين الله
إلا الخورية، فالرؤيا لم تعجبها لأنها كانت تحمل بأخرى^(٣) . غير أنها سلمت
وقنعت قائلة في قلبها : تقبر الأولاد ، السلامة غنيمة .

وبعد قليل ، نشط الخوري وشعر أن شبابه يتجدد كالنسر ، فاقام
قداساً صارخاً رناناً بوجه يقطر منه الإيمان ، واحتفل برتبة الغطاس

(١) تبربر : تقول كلاماً غير مفهوم .

(٢) تزحر وتطهر : ترمي أصواتاً خشنة .

(٣) أي كانت تفكر بأن تحمل بعد عقمها .

احتفالاً دام ساعة وأكثر ، فكان يغط الترانيم والتهاليل ، وإن رأى من شماس فتوراً أو تراخياً غمزه وانتخى^(١) ، ثم ختم القداس بمرح يشبه رقص داود أمام التابوت^(٢) .

وعند الضحى طاف في القرية يرش ماء الغطاس على البيوت ، فاستقبلته الرعية بإجلال وفرح عظيمين . إن قعد قعدوا حواليه ، وإن مشى مشوا خلفه فعاد الى بيته عصر النهار فارغاً دلوه من الماء ، ولكنه مليء بشالك وأنصاف بشالك وزهراويات وأرباع مجيدية^(٣) ، فقد أجزل الجميع عطاءه حتى الأراامل . وابن المذبح من المذبح يعيش .

وتناقلت الألسن خبر العجيب العظمى ، فجاء الزوار من أماكن بعيدة يلتمسون البركة والدعاء . ومن لم يجد الخوري اكتفى بمقابلة الخورية وسمع من فيها حكاية « الدايم » . وكثيراً ما كانت تهم بقص حكاية حبها ، فتبتسم ابتسامة قليلة ، ثم لا تقول شيئاً .

حلت على أيينا الخوري نعم « الدايم » فصار نافذ الكلمة عند الله ، تنتظره الجماهير في المناحات ليفوزوا بلثم يده الطاهرة ، وتحل بركته عليهم ، وأمسى يصلي على الماء فيطرد الفار والجربان والحيات ، ثم عظم

(١) انتخى : أبدى شيئاً من النخوة . تحمّس .

(٢) رقص داود أمام التابوت : دليل الفرحة الكبيرة ، وكان ذلك عند إعادة تابوت العهد الى اورشليم .

(٣) عملات تركية في العهد العثماني .

سلطانه الديني ، فأضحى يبارك الأرض المجدبة فتستغني عن السهاد ،
ويركض نباتها طلوعاً .

* * *

وبعد شهر جاء عيد مار مارون ، فطلب الخوري نصر الله الكاس
الذهبية فلم يجدها ، فطرَّ عقله^(١) ، ولكنه تجلد وقدس قداساً وجيزاً
استغربت الرعية ، وظنت الخوري مريضاً . وجدَّ في البحث سراً عن
مرتكب الجريمة العظمى فلم يوفق .

ودرى أهل القرية بسرقة الكاس المخصص بها عيد أبي الطائفة ،
والميلاد والفصح^(٢) فطولوا ألسنتهم كثيراً ، حتى استخفوا بقديس
الضيعة واتهموه بالعجز والشيخوخة ، لأنه لم يخنق السارق قبل أن امتدت
يده الى بيت « الجسد » .

وبلغ الخبر الكرسي البطريكي ، فرشق السارق « بالحرم الكبير^(٣) » ،
الذي يخرق العظام كما يخرق الزيت الصوف . وتلاه الكهنة في كنائس
عديدة بيوم واحد ، فبات المؤمنون يترقبون عودة الكاس ولكنها
لم ترجع ...

(١) طرَّ عقله : فقد صوابه من الحيرة .

(٢) أبو الطائفة : مار مارون . الميلاد : ذكرى مولد المسيح . الفصح :
ذكرى قيامة المسيح من الموت .

(٣) الحرم : قرار يصدره مرجع ديني كبير يمنع من يرمي به من الاشتراك
في الصلوات والمراسم والحقوق الدينية .

وفي التاسع عشر من آذار - عيد مار يوسف - دخل الضيعة غريب راكب بغلة، فأطلوا من الأبواب على وقع حوافرها . وتبعه - كعادتهم - نفر منهم ، ودخلوا وراءه بيت الخوري . فعلموا من حديثه أنه رسول الوكيل البطيرير كي الخوري بطرس ضو ، وأن الكاس قد وجدت ، فزرعوا الخبر في القرية .

وما بدّل الخوري ثيابه ولبس جبته الزرقاء حتى كانوا كلهم متجمعين حول مركوبه قدام الباب ، ينتظرون سفره السعيد ليدعوا له بالتوفيق . عدّوا وجدان الكاس إحدى عجائبه لأنه تغضب على السارق مرتين: بعد تلاوة الحرم الكبير ، وفي ختام زياح القربان المقدس .

وبلغ المحترم جبيل ، فاستقبله الوكيل البطيرير كي باحترام جزيل يليق بصاحب الغبطة ، وخبره أن الكاس محبوزة عند خليل الصائغ ، وسارقها محبوس في القلعة ، وذهبا معاً ليريا الكاس والسارق .

ولما وقعت عين الخوري نصر الله على الحرامي ، ارتجف واصفرّ : عرف به « الدائم » ، فأحسّ في الحال أن قوة خرجت منه ...

مُعَلِّمٌ

عرفته في عنفوان^(١) شبابه . صدر^٢ كالصندوق على فخذهين
كعضادتين^(٣) ، وهامة^(٤) تثبت للعلماء أنه كان على وجه الأرض عمالقة .
في مشيته شيء من الخيلاء^(٥) يرى تسميتها غطرسة^(٦) . كان
خطواته موقعة إيقاعاً أو مقسمة بالبيكار . مشي السحابة لا ريث^٧
ولا عجل ولكن ليس إلى بيت جاراته .

يتزيًا بزي^٨ العلماء ويتوقّر مثلهم ، فأبداه غنباره « الديما »^(٩)

(١) عنفوان الشباب : أوله ، وعنفوان الحرة حديثها .

(٢) عضادات الباب : خشبتاه من جانبيه ، وتطلق على الركائز الحجرية التي
يقوم عليها البناء المعقود .

(٣) هامة : رأس كل شيء . وتطلق على الجنة .

(٤) الخيلاء : المعجب والكبر .

(٥) غطرسة : كبرياء ، وأيضاً المعجب بالنفس .

(٦) الديما : نوع من القماش صنع الذوق وبيت شباب .

أطولَ مما هو . متأنقٌ في كل شيء حتى في الحديث . كان يرطُل^(١) كلَّ كلمة ويروّزها قبل أن تنطلقَ في الهواء . رأسه ثقيل ، كما يعبرُ العوامَ عن الرصانة . يدور على قدميه بكلّ مهابةٍ . إن التفت كأنه مصراعُ بوابة الدير المصفحة ، فلا تسمع منه جَلنبَق كما أكد لنا أبو عثمان المازني إذ حدثنا عما يقوله مصراعاً الباب عند الغلق والإصفاق .

فحصت ضميري فحصل مؤمنٌ موسوسٌ^(٢) قبلَ الاعتراف لا تذكر ابتسامته فأصفها ، فما تذكرت قط أني رأيتها باسمًا . أذكر أن لثته^(٣) كانت عمرةً ، ولهذا حكاية : رأيتها وأنا ابن خمسٍ حين كان يعلمنا الألفباء . قال لأحد رفقاتنا النجباء : قاف ، فانتصب بوجهه كاللارد ، فغضب المعلم لهذه البلادة . هو يريد الحرف المعروف لا الوقوف ، فرفع شفته العليا وأرخى السفلى وربسه بيديه ساخطاً .

استيقظتُ في المعلم الجرثومة^(٤) اللبنانية فهاجر إلى فلسطين ، وعاد بعد سنواتٍ ومعه عروس . كان عرسه أوّل الأعراس التي شهدتُها . جواهرٌ زاحفة بتلك الهدية العسلية ، غناء وحذاء^(٥)

(١) يرطل : يروّز ليعرف الوزن ، أي وزن ، ومنها كلمة رطل .

(٢) موسوس : من أصابه خلل بعقله .

(٣) لثة : ما حول الأسنان من اللحم وفيه مغارزها .

(٤) أي حب اللبناني للهجرة .

(٥) حذاء : أهازيج الأفراح والمواسم .

وزغردة^(١) . الملبس والرزّ والقمح تتناثر من كل بيت تمرّ به العروس ، وأيدٍ لطيفة تلوّحُ بالقهاقم راشّةً عليها وعلى موكبها ماء الزهر والورد . العريس على السطح منتصب فوق الباب الذي تدخل منه العروس . لصقت العروس^(٢) الخميرة على العتبة ، وانهاالت عليها ضرباً بالرمّان ورشقت به الناس ، ثم نزلت عن الفرس ودخلت عشّها الجديد . كانت أمّ العريس تصطنع الابتسام وترحب بكنيتها العتيقة طائفةً حولها بصحن البخور . كانت تبخرها وتدرسها درساً فيزيولوجياً^(٣) . الثياب جميلة والزي طريف . العروس بنت مدرسة ولكن وجهها الديناري^(٤) يدل على أنها قليلة الجاذب جداً . ذراع كالمسلكة^(٥) ، وساق كالمغزل^(٦) ، ويد كأص الكباش .

(١) زغردة : غناء النساء في الأفراح .

(٢) من تقاليد القرية اللبنانية ، أن تلتصق العروس قبل دخولها بيت الاحماء خميرة فوق عتبة البيت تيمناً بالخير والخصب خاصة في حياتها الزوجية الجديدة ، ويكون التصاق الخميرة على العتبة فال خير يبعث الغبطة في صدور المهين من أهل العروسين .

(٣) علم وظائف الأعضاء الحية وهو علم يبحث في تركيب المخلوقات الحية ووظائف أعضائها .

(٤) أي أنها نحيلة الوجه ، صفراء اللون .

(٥) المسلكة : آلة رفيعة تلف عليها خيوط الغزل ، والمسلك النعيف .

(٦) المغزل : ما ينزل به الصوف وغيره .

كانت أم العريس في تلك الساعة نهياً مقسماً^(١) ، تجيب الجميع على عباراتهم التقليدية بالأجوبة المعدة لها ، وتؤهل بحرارة بربة البيت العتيدة^(٢) . وقد سمعتها فيما بعد تشكر ربها على خروجها من تلك الهمة^(٣) ظافرة ، يشهد لها الناس بالفصاحة وضبط النفس ...

وُصِدت العروس فوق صندوق وإلى جانبها شبيبتها^(٤) ، ومن حولها بنات جنسها . وتصدر العريس المجلس . وقعد الناس حوله وبين يديه في السماطين^(٥) . وافتتح شاعر العرس سوق عكاظ فقال « ردة^(٦) » هي أول محفوظاتي ، مدح فيها العريس ، فسرتي عن والديه بعض الهم . نقر الدف^(٧) نقر مدل^(٨) ، فتناولت إليه الأعناق ، وكان صمت . وما هتف « اوف »^(٩) حتى صاح الجمهور بصوت واحد كالرعد « اوف ، اوف ، اوف » . ولم يقل :

-
- (١) نهياً مقسماً : مشتتة غير مستقرة على حال .
(٢) العتيدة : المقبلة المنتظرة .
(٣) الهمة : الانشغال .
(٤) الشبين : هو الشاهد على الزواج (والكلمة سريانية) .
(٥) السماطين : الصفين .
(٦) ردة : اسم المرة من رد وهي لازمة في الزجل .
(٧) دف : آلة طرب .
(٨) واثق بنفسه وعدته .
(٩) اوف : صوت يطلقه الزجال ليسترعي انتباه السامعين عند الابتداء .

كلن غابوا وما جابوا والسبع غاب وجاب

حتى تماوج الجمهور . أخذت الردة بالعقول كأنها السبا المحكي عنها أنها تحوّل الأشياء عن حقيقتها ، فردّها الجميع متحمسين وصارت زيارة - اسم العروس - أخت الزهرة^(١) وبلقيس^(٢) ، إلا ثرثرة سمعتها تقول : « لولا يرجع وحده ، كان أحسن . الله يساعد أمه » .

وقالت امرأة أخرى : « هني زيارة ؟ هني زيار يا طنوس » . وبعد أخذ وردّ بين القوالة^(٣) ، لعبت الحرة في رؤوس الشباب ، فكان الرقص على قرع الطبول وعزف القصب . وهمّوا بأن « يدبكونا »^(٤) فمنعهم ، لأن البيت عليّة^(٥) أرضها خشب . أما نحن الصغار فعمنا في النقولات : ملبس وقدامي وفستق العبيد شيخ النقل الدائم . وفزنا علاوةً بتحف مقدسية^(٦) ، مسابح وصلبان وصور وايقونات من أورشليم المقدسة ، فترنّحت نفوسنا بنعمة الله ، وامتلات بطون الكبار لحماً وخمراً .

-
- (١) الزهرة : إحدى الكواكب السيارة وهي عند الأقدمين آلهة الجمال .
(٢) بلقيس : ملكة سبأ ، وهي إحدى اللاتي اشتهرن بالجمال الأخاذ .
(٣) القوالة : الزجالون ، شعراء الزجل .
(٤) يدبكون : يرقصون الدبكة ، وهي نوع من الرقص الفولكلوري .
(٥) عليّة : الطابق العلوي من المسكن .
(٦) نسبة إلى القدس .

كان عرس المعلم أميرياً ، دام أسبوعين فأجهز على كيسه . أنفق في شهر ما جمعه في سنوات ولم يبال لأنه ما تعود أن يبالي . نشأ وحيداً مدلاً في بيت كان غنياً فاقتقر . أمه أنوف^(١) ولكنها لا تستحي بالعمل . تأكل طوراً من المغزل وطوراً من الرفش . مشهود لها بالترتيب والنظافة ، فبيتها دائماً مسنون الأرض لا يدخله الناس إلا حفاة لئلا تخذش نعالهم وجه الطين ، فهي تحمّره^(٢) كل سبت وتدلّكه . كانت خبّازة عبقرية تسهر على الرغيف سهر أكثر نساء اليوم على وجوههن وأثاملهن ... يههما أن يخرج الخبز من عندها بدون لو . أما زوجها أبو طنوس فكان جمّالاً ولكنه جمّال أبيّ أمين . دستوراه أعطنا خبزنا كفاف يومنا . جعل وكده تعليم ولده ليعتز ويستريح ، فشبع فخراً ولم يأكل خبزاً .

لم يكن المعلم غير برّ بوالديه ، ولكنه كان والرغيف فرسي رهان^(٣) ، لا يدركه حتى يقطع في الجري أنقاسه . حال علمه وتربيته الأولى دون رضاه بالخصيس^(٤) من العيش ، وأصيب بمرض الكرسي^(٥)

(١) أنوف : مترفعة .

(٢) تحمّره : تصقله وتلممه وتطليه بترابة طينية حمراء ممزوجة ماء .

(٣) مثل يضرب لاثنتين يستبقان الى غاية واحدة فيستويان في الجد أو الفضل وهي هنا كناية عن فشل المعلم في الوصول الى الفنى والثروة .

(٤) الخصيس : القليل ، الزهيد .

(٥) مرض الكرسي : هنا طلب الوظيفة .

فسعى وراء المثل الأعلى ، هاجر في طلبه الى البرازيل وكان آخر العهد به .

كان جميل الخط حلو الإنشاء ، إذا ظفر والده منه بمكتوب أقرأه معلم الأولاد فيعجب بتعايره وينسخها ليتعلمها ويعلمها ، يتمنى المسكين لو يوفق مرة في العمر الى واحدة مثلها . لم يكن يؤلم أبا طنوس هجران ابنه مثلما يؤلمه سؤال الناس عن أخباره ، وما يسألون إلا عن الفلوس . وشاع يوماً في الضيعة أنه تناول حوالة ، فسأله على أي بنك ، فقال بكل برودة : على بنك من علمني حرفاً كنت له عبداً .

تلك كلمة ابنه عند افتخاره بالكرسي ، فكانت رمية من غير رام . وأخيراً ورد المكتوب المضمون فتجهر الناس على تلك البشارة ، فإذا بتلك الرسالة الحبلى تلد قصاصات من صحف المهجر كالمنظر والمنازة وأبي الهول ، كلها تشي على المعلم ثناء عاطراً وتعظم إقدامه على إنشاء مدرسة لأبناء الجالية بعدما كادوا أن يتامركوا ، فعلمهم لغتهم التي تربطهم بوطنهم . وفيها أيضاً مختارات من شعره ونثره وصورته بين أكابر الجالية . فاستقامت قناة^(١) أيه بعدما حناها الهرم ، وكاد يسمن بعد أن اخترم^(٢) جسمه الهم ، فاقعنسس^(٣) بين

(١) قناة : قامة .

(٢) اخترم : أضنى .

(٣) اقعنسس : نفخ صدره متكبراً .

القوم متعزياً مغتدياً . « الصيت الجيّد خير من المال المجموع » .
هكذا كان يقول إذا ذكر المال ، ثم يخرج من عبّ الكيس الخملي
ليقدم الى كل قارئ أوراق اعتاده ، أي قصائد ولده ومقالاته وما
قليل فيه . كان أحبّ شيء إلى قلبه أن يتلى على مسامعه شيء منها
فيترنج ترنج فاهم ، ثم يردها الى مستقرها .

وعند نشوب الحرب الكبرى ورد من المعلم كتاب على إثر نعي
أمه يعد فيه أباه بمبلغ من المال متى غلا « الرايش »^(١) ، ولكن
الأحلام لم تصحّ ، فالرايش لم يرتفع ... وأطبقت الحرب كاشتها على
الشرق والغرب فقصر أبو طنوس معمن قصرها من القرية عن
إدراك المعاش ، فباع أول المقتنى وآخر المبيع أي البيت . كان يحول
في القرية صامتاً كأبي الهول لا يشكو ولا يتنمر . جلس قبالي يوماً
مطبّقاً شفّتيه إطباقاً صارمة . تأملته ملياً فرأيت شفّتيه تتحرّكان
وصدره يخزّ كزمارة . علمت أنه يحدث نفسه . أما ماذا كان
يفكّر ... طبعاً لم يكن يفكر باختراع البارود ! هو عي^(٢) يعمل
بقول المثل : « خليها في القلب تجرح ولا تخرج من الفم تفضح » .
وبعد فترة رأته يتهاى لحركة ثم يعدل عنها ويفرق في أحلامه .
وأخيراً دنى مني وابتسم ابتسامة مخيفة وقال : « يا ترى ، ابن

(١) عملة البلاد التي هاجر المعلم اليها .

(٢) عي : عاجز عن النطق .

خالتك نسينا بالمرّة ، أم بعث لنا شيئاً وضاع ؟ اقرأ تفرح جرب تحزن .
هذا الذي صار فينا .

فقلت له : أنت محتاج اليوم ؟

قال : لا ، معي بقوي^(١) من ثمن البيت ... ثم تنهد وقال : راحوا
من خلف البقر واغتنوا ، قبروا الفقر ، ونحن نشتهي العضة بالرغيف .
أنا صرت على حفة قبري ولكن البنت . رطل الطحين بنصف عسملّي .
أكلنا خبز حاف . ويا ليت قح !

وفي غد ذلك اليوم استيقظنا على عويل البنيّة . مضى جدها لسبيله
ولم يترك لها إلا ذاك الكيس الخملي . وجاءنا الجدري ، فمن لم يمت بالجوع
مات بغيره . فلحقت البنت بجدها ، وانقطعت عنا أخبار المعلم حتى نعتة
الينا صحف المهجر منذ أربعة أعوام .

مات كآبيه ميتة حكيم مضطر ، فأجمعت صحف المهجر على تقديس
جهاده القومي في تعليم مواطنيه لغتهم فما نسوا أمتهم . وشكرت جريدة
أبى الهول رجلاً - لا أتذكر اسمه - واساه^(٢) في مرضه الأخير وجهّزه
للرحلة الكبرى تجهيزاً لا تقا به .

لم يكن هذا الجندي المجهول كسلاناً ، ولكنه كان يعتقد أن الدينار
شرّ جار ، واعتقاله جريمة لا تغتفر . وبالاختصار لم يكن من أصحاب الجمع
والمنع^(٣) ، فمات ميتة جاحظية ، وهذا معنا قولنا : أدركته حرفة الأدب .

(١) بقية . (٢) عاونه . (٣) البخلاء الموسرون .

جَبُورُ بَكْ

١

كان جبور بك ينتظر ويفتكر ، فتداعت أسراب الذكريات حتى
أمست كما قال النابغة : « عصاب طير تهتدي بعصائب » .

أصغى إلى أحاديث حوائج بيته البليغة ، فذكرته السجادة النادرة
بتلك الحصيرة المقطعة الموروثة عن جده ... وذكرته المرأة الكبرى يوم
كان ينحني فوق أجران « الصفوة »^(١) ليفتل شاريه فتلا مغاراً^(٢) .
ولس طوق معطفه المجلل بفرو السمور^(٣) ، فتذكر العباءة البلدية القصيرة
الكمين ولقب « دحدوح » .

(١) وعاء من الحجر يوضع فيه الماء والرماد يستعمل لغسل الثياب يكون
ماؤه صافياً جداً كالمرآة .

(٢) الشديد القتل .

(٣) حيوان بري لونه أحمر مائل الى السواد يتخذ من جلده فراء ثميّة

وتحرك جبور على الصفة^(١) ، فهاج كرشه وترجرج ، وأبرقت
سلسلة ساعته الغليظة المدللة على صدريته ، فتذكر « الكمر »^(٢) العتيق
الذي أعطاه إياه أبو خليل حلواناً^(٣) فشد وسطه به سنين وألقاه عنه في
فندق انطون فارس بمرسيليا حيث كان يحتفل بالباس أولاد العرب
التياب الفرنجية .

وحكّت جبور رجله فانطوى بعناء مزعج وكاد ينبجّ بطنه ولما
تبلغ يده رجله ذكره الجورب الحريري والحذاء اللعاع بالمداس^(٤) الذي
يرى اخوته في أرجل معاناة الضيعة وبقارتها .

وسمع جبور حس رجل فقال : « هذا هو » وحبس أنفاسه بتنصّت
فإذا بالحس يبتعد ثم يضمحل .

وعاد جبور إلى أحلام يقظته الرائعة ، فجرّه تفكيره بالقصادم إلى
مئات الليرات التي أعدّها برطيلاً ، فهزّ برأسه وقال : « هاي ! ما شاء الله ،
هاي ! حصلت يا جبور . مدير ناحية جبيل فرخ قائمقام . غداً تضع
رجلا على رجل في العربة - سق يا عريجي . وحدّ العريجي نفر عسكري
ياخذ سلامك ، ويخدمك ويقول لك : هنيئاً يا سيدي . يقول لك الناس :

(١) مقعد .

(٢) قطعة من القماش تربط على الحصر فوق السروال .

(٣) العطاء لشخص استخدم لحاجة عرضت .

(٤) حذاء ضخم ينتعله الفلاح .

يا صاحب العزة ، إن لم يقولوا : سعادتك . وبعد أن كنت « دحدوح »
تصير جبور بك ، وإذا أمحلت جبور أفندي .

تنحني وأحكم قعدته ، ثم أخرج ساعته الذهبية الضخمة وقلب شفته
وقال : « الغائب عنده معه » .

والتفت إلى كتفيه لفتة غريبة ، فبش ثم عبس . عبس إذ رأى
كتفه اليسرى نازلة عن أختها ، فتذكر الكشة^(١) الثقيلة التي رجحتها .
وحاول إصلاح ما أفسده الدهر فما قدر ، فاعتصم بحمد الله ، وتناسى
الماضي وقال : « كثر الله خيرك يا ربي ، ربيت على معجن هذا وذاك ،
واليوم صار بيتي مفتوحاً للرائح والجانبي ... أهلاً وسهلاً . كلوا يا بشر .
ربك طعمك ، كل واطعم » .

ودرى المسكين أنه تمادى في تحديث نفسه ، فضحك ثم قهقه . لوى
رأسه صوب الشمال فبصّ القلم الذهبي فقال : « وهذه نعمة نشكر الله
عليها ، صرنا نمنّي ونكتب بالهندي . الذي لا يخاف عليه ، يخلص حاله ،
من رأني يخمن أني تلميذ بولاق »^(٢) .

وجاءته الخادمة بالقهوة فأخذها بلا شعور . ولما اقتربت من الباب
ناداها مشيراً بأصابعه الخمس فبدت يده كالمنرى^(٣) : « من عندنا يا ناهيل ؟ »

(١) طبق خشبي يشده البائع المتجول بحزام إلى كتفيه ، يمرض عليه
أصناف المبيعات .

(٢) حي من أحياء القاهرة اشتهر ب مدرسته ومطبعته .

(٣) آلة على شكل أصابع اليد تستعمل لفصل التبن عن القمح .

— جمهور يا معلمي ، الضيعة عندك .

قالت هذا وأشارت بيسراها إشارة قلة اكتراث واستقبلت الباب .

قال : حم !

التفتت فأوما إليها ، فعادت .

— قولي لهم : معلمي مشغول جداً ، عنده ناس غرباء ، وإذا اهتموا ،
بالغي وزيدي . قولي لهم عنده ناس من قبل الحكومة ومعهم أوراق
أوراق . إسقيهم قهوة ، اعتذري عني ، قدمي لهم سواكير .

وأشعل هو سيكارة من نوع اكسترا اكسترا فاستطيبها على القهوة .
تذكر كيف كان يشحذها من الناس . واحتار كيف يعلل جمعه الثروة
الضخمة وهو ذاك الرجل ، بينما فلان الفلاني ، وهو معلم مشهور تركه
في البرازيل وهو جوعان عريان . سرّ عظيم ، سبحان الخالق ، هكذا قال .
كان يسكن بيتاً دون بيوت الضيعة جميعاً فصار بيته قصراً . وهذا
من من ؟ طرح هذا السؤال ثم أجاب عنه بصوت مفخّم : « من الله ،
نشكرك يا رب ونحمدك » .

وتذكر أنه ينتظر فانبرى يمشى . وطال الانتظار فسئم وخرج
يتنزه . مرّ أمام بيت الجيران فوق اسم في أذنيه . سمع امرأة وولدها
يتعاجلان^(١) فتقول المرأة : « جبور رجل . ما كان عليه من الخام ريحه^(٢) »

(١) يتعاوران .

(٢) كناية عن أنه كان فقيراً معدماً .

فصار أمير زمانه ، بيته قصر . الخيل مربطة قدام بابه ، والحكام تزوره .
بنات الضيعة ماتت عليه ، وتقى أحسنهن . كان يتنقل من بيت إلى بيت
وقت الغدا والعشا حتى يأكل اللقمة و صار أغنى الضيعة والجوار . وأنت
يا بغل ، قاعد على سكين ظهرك تقشط أمك البشلك والمتليك ^(١) . باب
البحر مفتوح ، تغرب يا بهيم ، الله يقصف عمرك ما أبلدك ، ليتني خلفت
جرو كلب وما خلفتك ! » .

فضحك الشاب ضحكة سامة ثارت لها أمه وهاجت ، ولكن ضحكته
وقعت على جبور كجلمود صخر حطه السيل من عل . وقال الفتى لأمه
ساخراً : « ومن يعمل مثل جبور ؟ عاش بين عبيد أميركا عيشة نور ،
وجاء يتبغدد ويتفرعن على الضيعة . هذا مال رائح ، مال مول ، لا
تنغري بالظواهر . رغبة ^(٢) ، رغبة يا أمي » .

صاحت الأم : ليتني أقبرك بجاه السيدة ، تفلسف يا جعش .
وآتم الشاب كلامه : بعد سنة أو سنتين يعود جبور كما كان .
فصرخت الأم : وإذا صار جبور مثلنا اغتينا نحن ؟ يا حسرتي عليك
بعد يومين ثلاثة يصير جبور مدير جبيل وتقف له الناس على الصفين .
— لو صار متصرف جبل لبنان يظل عندي أقل من دحدوح .
قصرها ، لا تطولها .

(١) من العملة المئانية القليلة القيمة .

(٢) ما علا الحليب وغيره من زبد .

فامتعض جبور تحت الشباك وكاد يزفز زفرة رنانة لو لم يتذكر الموقف . سمع لقيه القديم فكاد ينشق من الغيظ .

وضاق صدر الأم فأسرعت إلى الشباك ففتحته . فاضطرب جبور ، ومشى مفكراً بما سمع . تنبّه وحسب عن ظهر قلب ماذا صرف من مال أميركا . وبعد تعبيس دام هنيهة ضحك ضحكة استهزاء وقال : « لعن الله الحسد ، ما ترك بيتاً عامراً . غداً يعرف طنوس أين صار جبور . غداً نكتفه ونفرك رقبتة ويزور بيت خالته » .

قال هذا وتمشى يتخطر كالأعيان . وأفاق من نجواه على صوت خادمته الراكضة وهي تصيح : « يا معلمي ، عندك ناس » . فانفتل راجعاً .

وبعد عبارات المجاملة والترحيب دخل جبور وزائره الموضوع فأجاب السمسار : « مديرية جليل أمر بسيط ، تصير قائم مقام كسروان إذا كنت تريد . الواسطة تعمل عجائب ، خمسمائة ليرة عثمانية تعمل أكثر من مدير » .

فالتفت إليه جبور التفاتة استغراب وقال : « السر بيننا . أنا لا أصدق ، هذا ضحكك على دقني ، مدير بالكدة يعلق امضاه » .

فقال الوسيط محتداً : « بلى ، صدق يا سيدي » . ثم ضحك وقال : « تريد رئاسة القلم التركي محل ناصيف بك الرئيس ؟ ادفع . يا خواجا جبور ، انت فيلسوف بالنسبة الى فلان وفلان » .

فقال جبور : قالوا ننتظر « حلة »

... لا تصدقهم يا سيدي ، الحلة عندك ، حلّ عقدة كيسك تنحلّ
ظهورهم .

فأطرق جبور ثم قال : « الخمسة ليرة حاضرة » . ثم حكّ رأسه
وقال : « نسيت أن أذكرك بواحدة ، أخاف أن يحتجوا أن ابن عمي
موظف »^(٢) .

فضحك السمسار بملء فكيه وقال : « حيف عليك ، يا خواجه
جبور ، ما متّ ، ما رأيت من مات ؟ تأمل بعينك عيال بأسرها موظفة .
تغيرت الأيام ... الاستحقاق قبل كل شيء انت مستحق . انت رجل
ربيت في بلاد العالم تعرف كيف تحكم . الغربية مدرسة عظيمة » .

فزهى^(٣) جبور وتنفس كالديك على مزبلته ، وتذكر هجرته ، ورفع
رأسه بأبهة الموظف الكبير وقال : « سي سي سنيور » .

فضحك الرجل غصبا عنه وقال : « هذا قليل عليك ، انت تستحق
قائمقامية . نسيت انك تحكي باللسان الاسبانيولي ؟ الخير قدام إن شاء الله .
هسيء المبلغ ، بعد ثلاثة أيام يصدر البيلوردي - المرسوم » .

(١) و (٢) حل كل مشكلة ، والمقصود بها هنا حل مشكلة جبور في إمكانية

حصوله على وظيفة ، وابن عمه موظف ، وكان في ذلك الزمان لا يجوز

توظيف اثنين من عائلة واحدة .

(٣) تكبر وناه .

والتفت اليه فرأى الشك في وجهه فقال : « أريد أن أفهمك بالقلم العريض ، فلوسك تصيرك رئيس مجلس الادارة . أفندينا مظفر باشا ينظر الى الاهلية ، انت مستاهل ، أفهمت ؟ إدفع ولا تخف . صدقتي إذا قلت لك ان الوظيفة في أيامنا خير من سفرتين الى أميركا . من انتخاب شيخين ثلاثة ، وتعيين أربعة خمسة مختير ورئيس بلدية تحصل أكثر من المبلغ. وإذا كنت صاحب بخت وسياسة تحصل المبلغ من جناية واحدة... الوظيفة بقرة درتها مثل الجرة ، والحلاب التقدير مثلك يسطها ، ” .

حسب جبور كلام السمسار تعريضا بماضيه يوم كان يحلب قطيعه كاملا لقاء رغيقين وصحن طبيخ ، فانتقبض . وتابع الوسيط حديثه فقال : « إذا الدفع غدا . أهنتك سلفا يا جبور بك » .

فانبسط جبور وقال : « ولقب بك أيضا ؟ »

— نعم اذا زدت المبلغ متين .

فقال جبور : أظن ذلك أليق .

— بدون شك ، ومع نيشان أحسن وأحسن .

ففكر جبور قليلا وقال : نؤجل النيشان لنعمل كرحة ثانية .

فقال الرجل : طيب ، اوريفوار . فارتبك جبور ولكنه تماسك

(١) يمين في إخراج ما في الصرع من حليب حتى آخر نقطة .

وتذكر ما يقال فصاح : آديوس ! وهزّ يد الوسيط هزّة كادت تخلعها من الكتف .

وكانت ناهيل بسمع من سيدها جبور فاغتبطت حتى كادت تطلع من ثيابها . وتخيلت الناس يسألونها قضاء حاجاتهم ويدسون في يدها الريالات المجيدية ، وهي تابى أولاً ثم ترضى ، فصاحت : « آهيك ، يحرز دينك يا جبور بك ! » .

فزأرها البك الطازج قائلاً لها : « على مهل يا ناهيل ، هس ، لا تفسدي الطبخة . لا تقولي فول حتى يدخل المكيول » .

فرقصت ناهيل ابتهاجاً وقالت : « صارت في العب » وزغردت : آووها ... فهفّ إليها جبور وسدّ بوزها ييده .

كانت مديرية جبيل - على عهد لبنان الدولي - أعلى المديريات مهراً^(١) ، لجودة مناخها وجود أهلها . يدرّ على مرعاها اللبن ، ويسمن من يطول له في ضواحيها ، فيستكمل شحماً ولحماً ...

وكان المدير في ذلك العهد السعيد أطول باعاً من المحافظ اليوم ، يشغل مناصب شتى : فهو مستنطق ، وقاض ، ومدّع عام . وهو قائد « الضابطية » - الدرك - يقول لضابط المركز اليوزباشي^(٢) رتبة : رح فيروح ، وتعال فيأتي . يأخذ الناس بالظنة ، إذا شاء ، ويحتاجهم كالعاصفة إذا كان قوي الظهر ، لا كبير عنده إلا الجمل ... يبت الضابطية في القرى للجباية^(٣) ، فيذبجون عنزة هذا وخروف ذاك ودجاجات تلك ، وقد يذبجون البقر إذا كانت « الأوامر شديدة » ويمسحون - كما يعبرون - بفروة المدير .

(١) الصداق ، والمقصود بها ما كان يدفعه الموظف ثمناً لوظيفة يبتغيها .

(٢) من رتب الجيش العثماني .

(٣) جمع الضريبة .

يتولى « عزته » التحقيق في الجرائم حتى الجنايات ، وإذا أذنب « شيخ صلح » فهو المحقق ، ثم يشرف على انتخاب الخلف . وإذا كرجت الليرات في الساحة ، ضرب « الصندوق » بقضيبه السحري فيصير الأبيض أسود ، والأخضر أحمر . وخير تعبير عن تلك السلطة الهوجاء قول العامة : « كان يقضي ويمضي » .

فلا بدع إذا إن تبرجت اسكلة جبيل - اورشليم العالم القديم - وازينت كالعروس يوم الزفة . ففي الساحة العمومية ، وعند سيدة البوابة ^(١) ، وأمام مدخل القلعة ، عقدت أقواس نصر احتفاء بقراءة البيلوردي - المرسوم لجبور بك الذي أصاب عصفورين بحجر واحد : البكوية والمديرية ...

هبط المدينة شيوخ القرى ، والمختارون ومن يحملون بمشيخة الضيعة أو المختارية ... كانت توجه الدعوات الى الأعيان فياتون من كل فج ، وأكثرهم يهنئ عزة المدير بالمبلغ المرقوم ... احتياطاً ... من يدري فربما احتاج الى معونته لينكي جاره ، أو ابن عمه ، أو أخاه ، فالمشيخة والمختارية والناطور والوقف والمشاع والمقابر والطرقاات أجل وأعظم خطراً عندهم من الممر البولوني ...

ماجت جبيل بالخلائق فضاقت الخناات على الخيل والبغال والحمير .

(١) اسم مكان .

لم يكن في ذلك العهد طرقات ولا سيارات ، فجاء أكثر المدعوين مساء السبت ، ولم يتأخر الى صباح الأحد غير وفود القرى القريبة .

كان قلب جبور يضرب مئة وما فوق . تعروه لذكرى الموعد اهتزازة العصفور بلله القطر . ولا غرو فالوظيفة سيدة المعشوقات ... أخذت جبور رجفة سماها « تشة برد » ، وكان ينهض كل دقيقة ليعرض « بكويته » الطريئة على المرأة ، فيعادل في كل لحظة ميزان شاريه جاعلا القب على العاتق^(١) ... وأتت الساعة فشى يختال في ابراده^(٢) إلى القلعة ، والأعيان حوله وحواليه . أخذت سلامه على الدرج شزيمة ضابطة المركز فارتعد ، فضحك البعض ضحكات مستورة إلا واحدة أفلتت من فم مدير قديم ، فاحمر وجه جبور بك ... لم يرد جبور التحية فأراح الجنود بندقياتهم ضاحكين ، وقال جندي عتيق اسمه رجب : « راح السلام طعام القرد ! » .

كانت ييارق القرى تتطاول في الهواء ، والقوالة يتنافسون في الحداء والهزج^(٣) و « القول » . وكلمة « يا بيكنا يا عزنا » كانت أحلى « القول »

(١) كناية عن اعتدال كفي الميزان عندما يوازي القب العاتق . والقب ، لغة ، ثقب من وسط البكرة يدور عليه أو يجري فيه المحور . والعاتق لغة الكتف .

(٢) مفرد ما برد ، وهو الثوب الواسع .

(٣) هزج المغني في غنائه : ترنم وطرب في غنائه أو قراءته .

وقعاً في قلب جبور ، يتمنى لو ظلوا يردّونها . وجاء وفد يعطط^(١) :

جبور متّى يا ملك من سطوتك رجّ الفلك

فازبأر^(٢) جبور وقال : « هذا قول ؟ هذا طق حنك . سكّتوهم » .

وأطل المدير على الناس وعن يمينه ضابط المركز وعن شماله قارئ
البيوردي ، فقرأ ما كتب على الظرف بصوت بين بين :

« لحضرة صاحب الرفعة جبور بك متّى مدير ناحية جبيل المحترم » .

فامتعض جبور وقال له بنبرة : راجع . قوْ صوتك .

وأخرج الكاتب البيوردي من الظرف فاحتدم التصفيق حين لاحت
الطغراء^(٣) الهمايونية ، وضجّ الناس فصاح القارئ : « اسمعوا يا بشر ! »
ومدّ صوته في كلمة « بشر » مدّاً طرب له جبور واهتزّ . وقال واحد :
« اسكتو » . وقال ثان : « وحوش ! » فقام عراك بين وفدين من ذوي
الحزازات^(٤) ، فأخذته الضابطة إذ صرخ جبور : « كيت وكيت من ...
خنوهم إلى الحبس » .

وساد الهدوء فقرأ الكاتب بصوت جهوري كما يشتهي جبور :
« رفعتلو بك محترم دام بقاءه » .

(١) المعططة : اختلاط الصوت .

(٢) ازبأر الرجل : نهياً للشر وازبأر الشعر انتفش .

(٣) الطغراء : علامة ترسم على الفرمانات والمسكوكات السلطانية .

(٤) الحزازات : التعسف في الكلام والخلافات في الرأي .

فتطاول لها واشرب ، وغزاه ليعيدها فأعادها ، وجرّ « محترم »
جرّة تمنى جبور لو أنها « للبك » . وما تلي التوقيع : « مظفر » ، حتى
هتفت الضابطية : « بادشاهم جوق ياشا ! »^(١) فتزعزعت أركان جبور ،
ولا سيما حين ردّ الجميع : « الله ينصره ! » .

وجاء دور الشعراء فقالوا أبياتاً لا بأس بها . فاغتنبط جبور ، وبان
الفرح في وجهه الأسمر ، وقال في قلبه : « تقبر الليرات ، ساعة مجد تسوى
الدنيا وما فيها » . ثم انتخى ودعا الناس إلى الأكل ، فاستأنفوا الشراب
والهزج .

* * *

وظلت أعصاب جبور متوترة فما ذاق طعم النوم إلا قبل الصبح
بقليل ، فرأى حلماً راعه ، وكان مسك ختامه خواراً مثل خوار الثور .
هرولت ناهيل مذعورة فعثرت بالسجادة وتدحرجت ثم نهضت وهي
تقول : « مديرية منحوسة ، وبكوية أنحس ، ما ذقنا حلاوتها بعد .. »
وظلت تحبو^(٢) وتتلمس^(٣) حتى وقفت عند رأس جبور ، فصلّبت على

(١) تحية بالتركية كان السامعون يرددونها كلما تلي عليهم اسم السلطان
معناها أطال الله عمر السلطان .

(٢) حبا الولد زحف على يديه وبطنه .

(٣) تلمس الشيء طلبه مرة بعد أخرى .

وجهه وحوطته باسم الصليب المقدس فعلَ الأم عند سرير ابنها ساعة الكابوس^(١). وضوأت الغرفة فرأت العرق يتقطر من جلد جبور السمين. وانفتحت عينا البك على ناهيل ، فقال لها : « لا تخافي يا أختي ، حلم بشع . الله يستر ! » .

فصاحت ناهيل : « لا تفزع يا بك ، الله معنا » .

فطرب جبور لسماع كلمة بك منها . أما حرصها جداً على أن تخاطبه دائماً بيا بك ، وعلمها كيف تجيب الزوار ؟ فإذا قالوا مثلاً : « الخواجا جبور في البيت » فعليها أن تجيب : « نعم ، البك في البيت » ، أو : « لا ، جناب البك في المدينة » .

وبعد تنهد وشهيق ، قال جبور : « أبصرت في نومي اني على ظهر حصان مثل حصان مار جريس وأعظم » . فقالت ناهيل على الفور : « الخيل عز يا بك » .

— واني في سهل مد العين والنظر . الحصان يشخر وينخر ، وأنا ألهث وأطهر ، حتى وصلنا الى رأس جبل عالٍ ، فامتد قدامنا سهل جديد ما بلغت آخره حتى اتصل بسهل آخر أطول منه . سهول أعرفها من قبل ، ولكنني كنت أتعجب من اتصال بعضها ببعض . وأخيراً انفتحت هوة قدامي وانشقت الأرض وبلغتني .

(١) الكابوس : ما يحصل للانسان في نومه فيزعجه وكأنه يكبسه .

فوجئت ناهيل ثم تذكرت أن الأحلام تعبر بالقلوب فقالت : « عشت
عمرأ جديداً » ...

* * *

وطلعت الشمس وانصرف جبور الى سياسة الرعية ... ومرت
شهور وما خلف الله عليه بشيء ، فتذكر التجارة في البرازيل . رأى أن
تحديد الأسعار مريح ، فجعل لكل قضية سعراً : ناطور لا خلاف عليه :
هدية لا بأس بها . وإذا كان خلاف فالسعر من خمس ليرات فصاعداً .
والمختار من عشر الى عشرين ، والشيخ من خمسين الى مئة . والتوقيف
في حبس القلعة من خمس وما فوق ، تبعاً للمدعي والمدعى عليه .
وإحضار وجيه تحت الحفظ من عشرين الى ما يمكن تحصيله . أما
« ملحوظات المدير » فيكون سعرها حسب أهمية الدعوى . وحضور
الماتم : المدير وحده خمس ذهبات ، وإذا كان معه ضابطية يواكبون النعش
فلكل نفر ليرة ذهب .

وكانت آيته الذهبية : الفساد^(١) على قدر الدم . وكان يضحك من
مكاتيب التوصية ويسمياها : « عملة ورق » ويقول : « جواب الورق
ورق مثله : ... » .

وحدث حادث مستعجل والكاتب غائب ، فأصدر أمره بخط يده
فكتب : « للفحص عن هذه المسألة ... » فكتب « الفحص » بلا حاء ،

(١) الفساد : البضع لاستخراج الدم وغيره .

والمسألة مسألة ...

وجاء دور الاستثمار والحلب ، فبلغوا جبور أنه « مهزوز »^(١) .
أوعزوا اليه بإعداد هدية الى رئيس أحد الأقسام ليدعمه عند أفندينا .
فاشترى خمسين رأساً من الغنم وساقها راعاً الى بعبداء . استغرب الرئيس
تلك الهدية الثمينة وردّها غاضباً ، فباعها جبور كما أشير عليه ، وحمل
ثمها الى الرئيس فرحب به ، واستضحك عند القبض قائلاً : هذي هدية
لا « تمعق »^(٢) وطيب خاطر البك الطازج .

وجاءت نوبة حرم أفندينا ، فعوّلت على زيارة جليل للتفرّج على
آثارها .

لم تكن الزيارة لأنتيكة جليل ، بل لدار المدير ، فقد بلغت مسامع
عصمتها أخبار ثروته وطرفه النفيسة ، فانصرفت من عنده ومعها خاتمه
الأماسي ، و « المضاليون »^(٣) - بلغة جبور - ، والقرط النادر الذي
أعدّه لعروسه . وشبعت الخاتم من اللآلئ ، فعوّلت وجهها نحو السجاد
المعجمي ، فاخذت الكبرى ، وطولها سبعة وعرضها خمسة .

حلم جبور بالثروة مع الجاه فخاب خيبة مرّة . جمعها حبة حبة ،

(١) مهزوز : أي سيعزل من الوظيفة .

(٢) معاء : صوت العنزة .

(٣) « المضاليون » محرفة عن « ميداليا » وتعني الوسام .

فكانت للجمال غبة . ونفذ ماله فأبرق الى شريكه في «الريو»^(١) فأجابه:
« الرايش » هابط . التجارة واقفة . ثورة ..

وأطلّ السمسار بعد أيام يسال جبور أن « يغطّي » ، فضرب يده
الى أزراره ... فضحك السمسار ، ثم أفهمه بعد هدأة الضحك ما معنى
التغطية في لغة المضاربات ، فاعتذر وأراه التلغراف ، فانصرف عنه
متهدداً .

ونام جبور على مضض فلم يصب . واستيقظت الاسكلة على صراخ
ناهيل وتفجعها .

وقال طنوس حين أذاع الجرس نعي جبور الى الضيعة : أمّاه !
يسلم رأسك ، جاء خبر جبور . صدّقتِ انه مال رائج ؟
فدّقت أم طنوس يداً بيد ، وُبّهت هُنيهة ، ثم استأنفت شغلها ...

(١) الريو دي جنيرو .

معانز الفتية

رأسه كالبطيخة ، وحول أنفه الأفطس بُشورٌ زرقاء كأنها طلائع
الزنجار^(١) في ذلك الوجه النحاسي المفلطح^(٢) . عيناان ثعلبيتان فوق
شاربين كثيبين . مفركح^(٣) أفرم^(٤) يلبس عباءة برّاقة ذات كمين دون
الكوع . ليس يتخلى عن عصاه ، أحيانا يعرضها كالرمح ، وطورا يمدّها
فوق كتفيه تحنى عليها الأصابع . ما رأيته يتمركز^(٥) عليها إلا بعد
وقعة الذئاب .

يصفّ قطيعه كالعسكر المدرب ، إذا شرّدت عزّة يناديها باسمها

(١) الزنجار : صدأ النحاس (فارسية) .

(٢) المفلطح : المنبسط ، المريض .

(٣) مفركح : غير متزن الخطوات .

(٤) أفرم : متعطم الأسنان .

(٥) تمركز على العصا : اعتمد عليها .

فتعود الى مستقرها . رام ماهر إن شاء أصاب القرن ، وإن أراد أصاب
الفخذ ، ويُصيب المقتل إن كان قرماً الى اللحم ، فالويل للعاصية من
حجر جليات . وإذا عصى الكراز^(١) فهناك المسؤولية العظمى والحساب
العسير : عصا زعرور تهتز في الهواء ، وراعٍ كأنه متر مكعب يهول
ليلقي على التيس دروساً مسلكية يستفيد منها كل فرد من أفراد الرعية ،
والتيس تقبل الآداب .

ما ألدَّ وقع حوافر القطيع عائداً عند الغروب ، فهو كحفيف
أوراق الخريف الصفراء وكتساقط المطر على السطوح الخرساء . موكب
صامت ، القطيع بين مدبرين : الكراز أمامه والراعي خلفه ، والكلب
يروح ويحيى بينهما . في كتف الراعي سطله ، وهو مزنر بالجراب^(٢) ،
يشكُّ في وسطه الناي ، وزأس القصبين^(٣) المضمومتين يدير من عبه .
الموكب يمشي الهويناء ، والزعيان لا يتكلمان . لا صوت يسمع إلا رنين
الجرس المعلق في عنق الكراز ، وعلى الكراز مهابة تفيض على جنبات
الدرب ، فهو لا يلتفت البتة كأنه يحس طعم الزعامة تحت أضراسه . إذا
حاول رُبْع أو سدس^(٤) أن يماشيه ، ينكزه بقرنه العظيم فيعرف مقامه .
أما الأتشي فلا يخاشنها ، ولا بأس عليها إن اخترقت خط العظمة .

(١) الكراز : ما يتقدم قطيع الماعز وغالباً ما يكون أكبر تيس في القطيع .

(٢) الجراب : كيس من الجلد يضع فيه الراعي زاده ويتمنطق به أي يشده
الى وسطه .

(٣) مزمار الراعي .

(٤) ربع : الفطيم أو ما له من العمر أربعة أشهر والسدس ستة شهور .

من رأى الكراز يمشي بأبته وجلال خاله يفكر بمشاكل خطيرة .
كان صوت جرسه يعلن قدومه فأسرع إلى استقباله . ومتى غاب عني
شغلني المعازي الطريف ، يداعب سائليه عن الحليب واللبن وعينه على
رعيته . لسانه مر ، وحديثه حامض ، يعبث الأولاد بقطيعه ليغضب
ويسب ، ولكنه لا ينثر درره الغوالي ما لم يتحقق أن ليس هناك من
يحتشم . كثيراً ما كنت أدعوه إلى السهرة فيجىء . وكنت أوسع عليه
في الحديث ليتبسط في مواضيعه . مارست ذلك معه مدة فصار يأتيني بلا
دعوة ، وسقطت كل كلفة ما بيننا .

عجبت لمعرفة قطيعه واحداً واحداً فقال : « لا تتعجب . أعرفهم
مثلاً تعرف تلاميذك ، ولكل واحدة اسم ، وفي عزاتي المطيعة والعاصية
والهادئة والورشة ^(١) . عندي عزة شقراء تتلصص مثل البشر ، تغافلني
وتغزو . السكاء آدمية جداً ، بنت حلال لا تتعبنى أبداً » . وقال بصوت
مسموع : « الله يرضى عليها ! ولكن الملحاء شيطانة ، بنت حرام ، لها
حركات تشيب الرأس ، إذا غفلت عيني عنها تهجم وتنتش ^(٢) ، الله
يقصف عمرها ، هي وحدها سوّدت وجهي عند الضيعة » .
فقلت له : اذبحها .

فتهدّلت ^(٣) شفته السفلى وقال كالمستهزئ : « اذبحها ؟ الحكيم هين .

(١) الورشة : الكثيرة الحركة ، الرعناء .

(٢) تنتش : أكل قرضاً ، وتنتش الشعر فتقه .

(٣) هدل : أرسل إلى أسفل وأرخاه .

كل سنة بطن . تخلف ثلاثة أربعة ، اثنين ثلاثة . خلفها اليوم جدي^(١) ،
إن الله أعطاه العمر الكافي ، كان أعظم فعل في المسكونة .

وجئنا ليلة على ذكر الجن فتبسّم وقال : « سمعت عنهم وما ظهر لي
شيء منهم . قالوا انهم اختفوا لما كثرت الأجراس في البلاد . ومع هذا أنا
أصلب كثيراً ؟

ورأيت مرة يضرب الكراز ضرباً عنيفاً فقلت له : ما عرفت
يا مخايل ؟

فأجاب بهزة كتف عنيفة مستغرباً .

فقلت : الشريعة الحاضرة تغرّمك وتحبسك إذا ضربت الكراز كما
ضربته اليوم .

فقهقه وجعل يضرب الأرض برجليه ويصفق على ركبتيه ، وطفرت
الدموع من عينيه . ولما هدأت ثورته قال :

— ومن يرّبّي الكراز كلما خرّب^(٢) ؟ نتشكى إلى المدير . بآية لغة
نحاكيه حتى يفهم ؟

ثم أغرب في الضحك وقال : « كلّ خطرة يعصي عليّ الكراز أقيم
عليه دعوى » . ثم افترق قليلاً وقال : « طيّب ، يا سيدي ، ومن يشتكي
عليّ ؟ الكراز ؟ »

(١) جدي : ولد المعزى في السنة الأولى .

(٢) خرّب : أصاب ضرراً بملك الغير .

قلت : الناطور .

فغضب وصاح :

— الناطور ؟ الناطور يضرب الأطفال ولا نشتكى عليه . شريعة عوجاء .

قال هذا وسكت ينتظر حديثاً جديداً . فقلت له : تسمع ما يقول هذا الشاعر الفرنجي عن الراعي ؟
فقال وقد هدأت فورته^(١) : هات خبرنا .

فقلت : يصف الهواء المعطر الذي تتنشقه ، وأشعة الشمس المطهرة التي تنسكب عليك حرارتها المحيية ...

فقاطعني قائلاً : حقاً نار الشمس غنيمة^(٢) ، ما كان عندنا خبرها .

قلت : والمناظر الجميلة التي تتمتع بها ، والأعشاب المفيدة التي تأكلها .

فقال : قل له يجيء يرعى مع العزرات ، عندنا ما يكفيننا ويكفيه .

قلت : والقطيع المخلص الذي تسوسه والكلب الأمين الذي تعاشره .

فقال : يحسدنا على عشرة الكلاب ! الجنون فنون .

وترجمت له القصيدة كلها بلغة يفهمها ، وأسرعت كيلا يقاطعني ،

فكان أحياناً يتعجب ، وأحياناً يستهزئ ، وأحياناً يصدق على قول

(١) فورة الغضب : حدته .

(٢) الغنيمة : ما يؤخذ من المحاربين عنوة وهنا مكسب .

الشاعر بإحشاء الرأس . ولما انتهيت قال لي : « ولكن الشاعر نسي زبل
المراح وصينة المعزى »^(١) .

فاجبته : لست أقول لك شيئاً من عندي ، هذا المكتوب أمامي .

فقال : أنت صادق ، ولكن هذا مثلك لا يعرف من حياتنا إلا دقّ
القصب^(٢) والغنا . لا يعرف أنني أنام مرّات وما عندي عشا ليلة . أمس
استمرنا عشرة أرغفة . لا يذكر كيف نهرب من وجه « العدّاد »^(٣) ولا
ما يصيبنا أيام البرد والثلج . نسي المرض الذي يقني المعزى ونعلّق
الجرس على الكلب . تعجبكم حياة المعازة في الربيع . ولما يمعننا^(٤) المطر
ولا نلاقي مغارة نلطي^(٥) بها ، يكون الشاعر قاعداً على النار يتدفأ .

وجاءني يوماً بسؤال غريب ، سألني إن كان سماع القداس في الراديو
يغني عن حضوره في الكنيسة . فعجزت عن الجواب ، فوجم ومغمغ^(٦) :
« ما ترقينا شيئاً »^(٧) .

وبعد هنية قال : ما يقول كتابك اليوم ؟

-
- (١) الزبل : السجاد . والمراح : زريبة المعز . والصنة : الرائحة الكريهة .
(٢) القصب : المزمار .
(٣) العدّاد : من يعدّ المعزى لاستيفاء الضريبة عنها في تلك الأيام - الجابي - .
(٤) معك الشيء : دلكه ومعك الرجل ذلّه وأهانّه ، ومعك المطر مرّغه .
(٥) لطا : التجأ إلى صخرة أو غار من مطر وغيره .
(٦) مغمغ اللحم : لم يحكم مضغه ومغمغ الكلام لم يبينه .
(٧) « ما ترقينا شيئاً » لم نستفد .

قلت : فيه حكاية حلوة ، حكاية امرأة وأختها .

فتربّع^(١) وأنصت^(٢) ، فقلت : كان لمرأة أخت عزيزة عليها فمضت وماتت ، فركعت أختها قدام فراشها على جلد أسد تسأل ربنا بجرارة أن يحيي جميع من في تلك الغرفة ، فسمع ربنا واستجاب . كان على برنيطتها عصفور محنط ففر فر وغنى . وكان على رقبته فروو ثعلب فعاش وأخذ يدور في الغرفة ليهرب ، وفتحت أختها الميتة عينيها وطلبت الأكل ، ولكن الأسد لم يمهله فعاش وأكل الجميع .

فارخى فكّه الأسفل تعجباً وقال : « يا رب ! » ونهض .

فقلت : ما لك ؟ أقعد .

فقال : عندي في البيت جلد ذئب وقشرة حية كبيرة ، أخاف أن تصلي بنت عمي في ساعة رضا ، فيقوموا وياكلوا العتازات .
وخرج من الباب وهو يضحك .

وجاء مرّة وكان يلبس فرواً ، فقلت : فروك يذكرني بعاموس النبي^(٣) .

فقال : من يدري ، ربما أصير نبي آخر الزمان .

(١) تربّع في جلوسه : ثنى قدميه تحت فخذه مخالفاً لها .

(٢) وأنصت : سكت مستمعاً لحديثه .

(٣) عاموس : أحد أنبياء التوراة . كان راعياً لنوع من الغنم يعطي أئمن أنواع الفرو وأحسنها .

فقلت له : أكثر الأنبياء قاموا من بين الرعيان .

فضحك وقال : الله يجبر خاطرك ، أمس كنت معازاً ، واليوم صرت راعياً . كلنا رعيان ، من كبيرنا الى صغيرنا . منّا من يرعى في البيوت ، ومنّا من يرعى في العبد مثل البراغيث ، ومنّا من يرعى في الجبل الأقرع^(١) مثل المعزى .

فتفرست لأثبت إن كان يعني ما يقول ، فما تبينت في وجهه دليلاً .

وقلت له ذات يوم : في هذا الكتاب ، وأشرت الى مجلة أمامي ، بعض سوالات ، فهل تجاوب عليها ؟ فقال : اسأل .

قلت : ما ألد ساعة في حياتك ؟

فجاوب فوراً : ساعة ترجع المعزى الى البيت وبطونها مزكّرة^(٢) مثل عرائيس^(٣) النرة .

فقلت : وأبشع ساعة ؟

ففكر قليلاً وقال : ساعة أرجع وتكون حرمتي غائبة ، والمعزى عطشانة ، وبطني لازق بظهري من الجوع .

(١) اسم مكان .

(٢) زكّر : امتلأ والذكورة وعاء من جلد للخمر وغيره .

(٣) العرائس : ثمرة النرة .

فقلت : وأصعب ساعة ؟

فضحك وقال : ساعة أنسى الضبوة^(١) في البيت وتنسى أن تعطيني سيكارة .

وصعد دخان سيكارتته حلقاتٍ حلقاتٍ فانبسطت أمرته ، فقلت :
من مع المعزى اليوم ؟
فاجاب : الصبي .

فقلت : تكثر الوحوش في الأيام الباردة .
فاجاب : معه غدارة^(٢) تفلق الصخر ، وهو يصيب عين الدوري .
شب يرضي خاطرك .

وفي يوم عمّ الثلج فيه كنت مستجيراً^(٣) بالنار ، فإذا بنادٍ يصيح :
يا مارون عبود . فردوا عليه ، فاجاب : قولوا له يطل . فاسرعت الى
الباب ، فصاح بي من الجبل المقابل : ايش رأيك بحياة المعاز اليوم ؟ قل
لشاعرك الفرنجي يعمل نشيدة جديدة .

ودام الثلج في تلك السنة زهاء شهر ، فتضايق أصحاب المواشي
وخصوصاً المعازة . عزّ المرعي وتكاثرت عليهم الوحوش ، فكانت

(١) الضبوة : كيس من جلد يوضع فيه التبغ .

(٢) غدارة : مسدس بدائي كان يحشى بالبارود والبندق حشواً .

(٣) استجار : استغاث .

بينها وبين معازنا وابنه معركة حامية . انقض ذئب ضارٍ على
المعزى وكاد أن يفترس الراعي لو لم يغامر ابنه ويصرع الذئب
برصاصة من غدارته .

وجاء الناس لنجدتهما ، فراح فريق يبحث عن القطيع المذعور
المشتت ، وفريق حملوا المعاز الجريح . ولما استلقى على قفاه في زاوية
بيته ، قال لي بصوت يرتجف : « أتحسد المعاز بعد ؟ »

فقلت : السلامة غنيمة .

فأجاب : « الله يسلمك » ، وتلحَّف^(١) .

(١) تلحف : تغطي باللعاف .

الناس

لقد أصبحت عبداً للناس منذ تصوّرت في البطن . وتقيّدت
بسلاسل مشيتهم حين رفعت يديّ أول مرة نحو السماء . ضايقتني
فضولهم^(١) منذ تحركت في ذلك الزندان^(٢) ، فتهافتوا على والدتي ساعة
عرفوا أن عددهم سيزداد واحداً . هذا يُدلي برأي طيّر ورثه عن جد
جده ، وتلك تنثر نصائحها وإرشاداتها الصحية . وهكذا توطدت
العلاقات بيني وبين أصحاب المروءة وصاحباتها . وأرسلوا إليّ نجدة ،
تلو نجدة ، قبل تشريفني هذه الدنيا ، ليحفظوا حياتي الغالية ، فلا أذهب
طرحاً^(٣) وتخسر الانسانية واحداً ، ليته لم يكن .

وبعد آلام استمرت ثلاثة أيام غير كاملة ولدت أخيراً... ولو عرفت

(١) الفضولي : الذي يتعرض لما لا يعنيه .

(٢) الزندان : السجن الضيق .

(٣) الطرح : الجنين الذي طرحته أمه قبل التام .

أن نساء القرية في انتظاري واني سأعرض عليهن واحدة واحدة لهربت .
ولكن أين المفر ؟ ما أرسلت أول صرخة حتى وقعت علي عيونهن
وامتدت إلي أيديهن : كل واحدة تحاول أن تستلم الحجر الأسود^(١) ...

وكان معرض قصير الأمد عقبه^(٢) النقد المرّ . هذه تروزي^(٣) وتقلب
شفتها السفلى . وتلك تنظر إلى التي حدثها رافعة حاجبيها وجفنيها إلى
العلا . وأخرى تغمز بعينيها . وواحدة تقرص جارتها قرصة خفية
وتقول : يا حسره ! هاتيك تقول : دميم^(٤) ، وتلك تقول : مليح - وتجبر
الياء وتقطم^(٥) الحياء . وأخرى تقول بشع ولكن بشاعته حلوة ...
وغيرها تقول ، جبراً لحاطر الوالدة المنكوبة : الولد يتغير ويتقلب ،
منتحلة لي العذر كاني أنا أفرغت نفسي في القالب الذي لم يعجبها .

لم تقل : اسم الله حوله وحواليه ، يخزي العين^(٦) عنه ، إلا واحدة
فقط تعرفون من هي . هذه أمثلاً فمها ضحكاً وقلبها فرحاً ، وحشي
صدرها رجاء وأمل . وكيف لا ، أما صارت أمأ ؟ ..

(١) الحجر الأسود : الحجر المقدس في الكعبة يتلمسه الجميع للتبرك .

(٢) عقب : أتى بشيء بعده .

(٣) رازة : وزنه ليعرف ثقله .

(٤) دميم : قبيح المظهر .

(٥) قطم : قطع .

(٦) يخزي العين : دعاء لدفع الإصابة بالعين عن كل موهوب .

وتعددت النذور^(١) الى قديسين وقديسات وسيدات اختصاصيات ،
فلم ينفعني إلا سيدة « المكبوسين »^(٢) ، فاستويت على قدمي . تحننت هذه
« السيدة » على الوالدة فمشی ابنها « المكبوس » مشية الجواد المشكول^(٣) ،
ولكنه رأى حوله سوراً من الناس أطول من سور الصين^(٤) . سوراً لا
يفر منه إلا ليصطدم بجدرانها . يظن أنه أفلت من بين حيطانه فإذا هو
فيه ، فكانه عين ضمير قاين^(٥) .

الناس ، وما أشد فضول الناس ! هذا يزجرني^(٦) ، وتلك توبخني ،
وذاك يرشدني ، فكيفما اتجهت أضايقهم ويضايقوتني ، كاتني ابنهم
جميعاً وكانهم كلهم أولياء علي .

وازداد تقيدي بالناس لما صرت أفهم عن أبي وأمي . إن تحرّكت
قال الوالد للوالدة : يا امرأة ، ربي ابنك مثل الناس . وإذا توحشت قالت
هي : ألبس ثيابك مثل الناس . اسمع فلا آخذ ولا أعطي . ويعلو

(١) النذر : ما يقدمه الانسان لله أو يوجهه على نفسه .

(٢) سيدة المكبوسين : شفيعة الأطفال الذين أصابهم ما يوقف غمهم .

(٣) المشكول : المقيد .

(٤) سور الصين : السور العظيم الذي بناء قدماء الصينيين ليدفعوا به شر
الغزاة عن وطنهم .

(٥) ضمير قاين : الضمير المؤنب الذي لم يسكت على أثر قتل هابيل من قبل
أخيه قاين .

(٦) زجره : نهاه صائحاً به .

صياحي وضجيجي فتصرخ بي : استع من الناس . وألتفت فلا أرى
حولي أحداً غيرها . فارفع عقيرتي^(١) هاتفاً : وأين الناس يا أمي ؟ فتقول
لي : لا ترفع صوتك ، أنا طرشا ؟ إحك مثل الناس . وإذا تراقصت في
مشية مدفوعاً بنزق^(٢) الصبوة صاحت : إمش مثل الناس يا صبي .
وأخيراً تنتهرني فأركض وتركض خلفي ، فتعجبها خفتي فتقف
ضاحكة ، فتصيح بها جارتنا العنيفة : عافاك يا أم مارون ، اضحكي له
اضحكي ، ربّيه مثل الناس .

أما الوالد، رحمة الله على تراه، فكان له أداتان يسبكني^(٣) بواسطتهما
في قالب الناس : قضيب ولسان أمر من القضيب . إذا تحركت في مقعدي
وقف حاجباه على سلاحهما استعداداً للطوارئ ، ثم يصيح بي : اقعد مثل
الناس . وإن ترنمت صباحاً وصوتي رخيم كما تعرفون ، انتهرني قائلاً :
سبح ربك مثل الناس ، بهيم أنت ؟ وإن مددت يدي إلى الزاد قبلهم ،
أو كبرت لقمتي انتهرني بقوله : كل مثل الناس . وإذا ضحكت ضحكة
ليست على الوزن والقافية المفروضين قال لي : اضحك مثل الناس .
وكثيراً ما كان ينهاني عن الضحك عملاً بالمادة المشهورة من قانون آداب
المجالس : ضحك بلا عجب من قلة الأدب .

(١) صوت المغني والباكي والقاريء ، ويقال رفع عقيرته أي صوته .

(٢) النزق : الخفة في كل أمر - العجلة في جهل وحمق .

(٣) سبك : أذاب وصب في قالب ، وهنا يهذبني وفق أعراف الناس
وعاداتهم .

هكذا كانت كلمة « الناس » حملاً ثقيلاً على ظهري ، وشريطاً شائكاً في طريقي أصطدم به أينما اتجهت ، فنشأت عبداً للناس يسيطرون عليّ ويسيطرونني كما تشاء أهواؤهم وعرفهم وتقاليدهم ، كأنني لا أعيش لنفسي بل لهم ، كأنني مرتبط بهم بناموس أشد من ناموس^(١) الجاذبية ، لا يحول ولا يزول ولو مات أحد الأجرام كالقمر مثلاً . كلما قلت أحطم هذه السلسلة التي يسمونها الناس أجدني مقيّداً بها من جديد ، إنها لأغرب من أساطير ألف ليلة وليلة .

أجل ، ان كلمة الناس أثقل عبيراً يُلقى على ظهور الناس . فمن منا لا يستجدي إعجابهم ، وكم فينا من يحمل نفسه فوق طاقتها ليظهر بمظهر يرضيهم ويلفت أنظارهم اليه ، فيقضي العمر وشبح الهم يماشيهِ كظله ، يأكل معه في صحنه ، وينام معه في فراشه . وكم من امرأة خربت بيتها لتكون على حد قولها : مثل الناس ولا بأس .

اسمعوها تخاطب زوجها : ماذا يقول عنا الناس إذا رأوا بنطلونك مرفوعاً^(٢) ؟ اشترِ غيره . وماذا يقول عنا البشر إذا جاء العيد وليس لابننا طقم جديد ولبنتنا فستان من أحدث طراز ؟ وماذا يقول عنا الناس إذا لم نشترِ كذا وكذا ، ولم نأكل كذا وكذا ، ولم نعمل Soirée و Après - Midi ؟ وتظل تقول : الناس الناس حتى تدك البيت من الأساس .

(١) ناموس : شريعة .

(٢) رفا الثوب : لأم خرقه وخاطه .

غريبة كلمة الناس ، ما أعظم سلطانها على العقول . لا أقول الناس بلاء الناس كما يقولون ، ولكني أقول : الناس تسيطر الناس وليس أحد منا حراً في ذاته ، فمن يزعم أنه لا يبالي بهم يخدع نفسه . انه أشدنا تهافتاً عليهم . ومن حسب أنه معلمهم فهو أحد تلاميذ مدرستهم ، ان شاؤوا منحوه الشهادة بامتياز ، وإلا عاد محترق الفؤاد يردد : ما أصعب مرضاة الناس !.

ان كلمة « الناس » نطّار^(١) منصوب في مقشاة^(٢) الانسانية ليردّ عنها الثعالب ، وهي الخفير^(٣) الدائم على أبواب كهوف التقاليد، حالت وتحول دون ردائل كثيرة ما كنا تتابها^(٤) لولا أعين الناس . وأقصرنا نظراً من ظن أنه يتغلب على الناس بغير الناس ، ففي كل عبقرية أثر من عبودية الناس . فأنا وأنت وهو جميعنا عبيد الناس ولا نحيا إلا بهم .

أما قال المسيح لتلاميذه : من يقول الناس إني أنا ابن الانسان ؟ فرددوا له أقوالهم فيه ، فسألهم : وأنتم من تقولون إني أنا هو ؟ فأجابه بطرس : أنت المسيح ابن الله الحي .

(١) النطار : الخيال المنسوب بين الزرع .

(٢) مقشاة : موضع زراعة القشاء وهو نوع من النبات ثمره يشبه الخيار .

(٣) الخفير : الحارس .

(٤) تتابها : نمتنع عنها .

ان جواب التلميذ لمعلمه ، وهو واحد من الناس ، لفجر وردي انبثق
منه عهد وعالم جديدان .

فهل ألوم أبي وأمي إذا كانت كلمة الناس نجمة القطب عندهما ،
يراعيانها في بحر الحياة خوفاً من التيه والسقوط في اللجّة ؟

ففي خلوتنا الخرساء نسمع ضجيج الناس الصاخب ، وفي عزلتنا
نحسّ أنهم حولنا يتجولون في غيلتنا جولان أشباح الغوغاء على الشاشة
البيضاء .

كانوا في انتظاري عند المهد، وسيجذفون^(١) قاربي لنبلغ ميناء اللحد،
وان حسبت يومذاك اني نجوت منهم لأنني نمت عنهم ، فشباكهم ستلحقني
الى بحر الظلمات .

كل امرئ رهن غربالهم. سوف ينصبون ميزانهم ساعة ينفضون يدهم
من ترابي ، ويا ويلى ان شلت في ذلك الميزان .

فإن كنت تخشى السنة الخلق ، وتصديق انها أقلام الحق ، فاعمل بالمثل
القائل : كل ما تشتهي نفسك والبس ما يعجب الناس . ومعنى هذا
وقوف الدولاب، وبقاء القديم على قدمه . ليس ذلك من نوااميس الطبيعة.
فالطبيعة تركض وتوصينا لنسرع معها ، وان وقفنا جرفنا تيارها ،
فلنركض .

(١) يدفعون ويسوقون بالمجازيف .

ان الطبيعة تهدم اليوم ما بنته أمس فلا يفزعك هذا الخراب . واعلم
أن الحياة ترقص بين النوائح حول التابوت . أما نحن فلسنا نراها لأننا
نحب الركود . نؤثر أن نعيش أمواتاً على أن نحيد عن الدرب ليمشي
أبناؤنا ولا يعثروا بنا .

أرأيت الولد في عبثه^(١) كيف يعمر ويخرّب ؟ انه يقلّد أمه
الطبيعة . فهي لا ترفع عرشاً حتى تدكه وتجعله شمعة لإحدى
ثورات اليوم الثامن .

قد تقول : وما هو هذا اليوم الثامن ؟

اسمع فأعرفك بهذا المخلوق الجديد العجيب .

في ستة أيام خلق ربك السموات والأرض . وفي اليوم السابع استراح
الجبار وتنفس الصعداء ... أما اليوم الثامن فهو يومنا نحن ، أعني يوم
الناس . يوم صباحه الأزل ومساؤه الأبد . فلا يكون صباح ولا يكون
مساء حتى تحبل الإرادة الإنسانية وتلد العجائب .

اليوم الثامن جبهة سرمدية ، لا تهدأ جنودها ولا ينفد عتادها .
تنقض صواعق الأيام السبعة فتقتل حماراً أو تشقق جداراً ، وتهبط
صواعق اليوم الثامن فيغمر الأرض طوفان الموت والخراب .

لم يسترح ربك إلا حين خلق ابناً على صورته ومثاله . أطلق يده فيما

(١) عبث : لعب وهزل واستخف .

أعد له ميراثاً ، وخبأ له الكنوز في الماء والهواء ، وبين الجمادات والأحياء
ليأكل خبزه بعرق جبينه كما وصّاه ... فانتزع هذا الابن الذكي تلك
الكنوز من مخابثها ، وسيظل يجد ما دام يجد .

قل سبحان ربك في ملكه ، فهو من جعل كلمة « الناس » قوامة على
الناس ... وذر المتنطق ودع القياس . فالفرض ضروري لحل المضلات
وامتخراج المجهولات ...

جساءة أنفسي

صاحبنا حنا شاب انسلخ من جميع معاني محيطه فأصبح كاللفظة الجوفاء . هو ابن بناء قضى عمره يشنّ على الصخور حرباً ضارية ، لا تشفياً وانتقاماً من تلك المخلوقات الخرساء ، بل طلباً للرزق عن طريق التعمير والتجديد . فكم من بيت بان العيب فيه فجاءه أبو حنا بملطاسه - الشاقوف^(١) في لغة اليوم - وييكه^(٢) ودردييكه^(٣) فهدمه ، وهذب حجارتها ونظمها صفوفاً يتمنى الطغاة أن تكون جيوشهم مرصوفة مثلها . ان ازميل بو حنا ومطرقة ثقفا الصخور المتمردة فلانت

(١) الشاقوف : أداة يستخدمها البناء في تهذيب الحجارة وإقامة زواياها .

(٢) البيك : أداة أخرى يستخدمها البناء للغرض عينه وهي ذات رأسين مدبيين .

(٣) الدردييك : أداة ثالثة ذات رأس مدبب وآخر مسطح كالشط ولكن دون أسنان .

ملا مسها الخشنة وبادت^(١) نخاريبها . فلانة بو حنا الكبرى أن ينصب^(٢) على عمله نهـساراً ويعود إلى بيته مساء فيصافح ولي عهده حنا بيده التي كُتبت^(٣) . ثم يصغي إلى حديثه الغريب فيقول : لم تعص عليّ الصخور الصماء ولكنني عجزت عن هذا الولد الخراط الفشّاط^(٤) .

كان حنا منذ نطق لا يعثر بالصدق ، وقد يكون كذب في المهد صبيّاً ، فمن يعلم ؟

كان يخرج مع لدانه^(٥) على عادة الصغار في القرى ، إلى البرية ، ويعود إلى البيت وفي جعبته أخبار كلها خارجة عن نسق العادة . فكم حية قتلها بضربة قضيبه . ثم أخذها بذنبها ليقايسها على قامته فبقي منها على الأرض قدر شبرين ، مع أن حنا شال^(٦) يده اليمنى حتى كادت تنخلع . وكم من ثعلب ضربه بحجر فأصاب مقتله . وكم من عابر سبيل تعرّض لرفاقه وابتهر^(٧) عليهم حتى تصدى له هو فلفّ ذنبه ومشى . وخاطره^(٧)

(١) بادت (الشمس) : اختفت ، والنخروب : الثقب .

(٢) كُتبت اليد : غلظت من العمل .

(٣) الفشّاط : المغالي في حديثه .

(٤) لدانه : أترابه رفاقه .

(٥) شال : رفع .

(٦) باهر : فاخر .

(٧) خاطر : راهن .

رفاقه يوماً - كما زعم - على ربيع مجيدي إن دخل مغارة الرصد^(١) ، فما
تلكا^(٢) عن ذلك . وفي أعماق المغارة وجد شيخاً قاعداً يقتل
شاربيه فطرده منها . ولكنه لم يقع على الكنز فصاحت أمه : هذا الرصد
يا مجنون ، إياك ثم إياك أن تعمل هكذا مرة ثانية .

وأرى والده الربيع المجيدي الذي كسبه فكاد يصدقه لو لم تقل عمة
حنا العانس^(٣) : هذا الربيع مسروق مني .

وأدخله والده المدرسة لعله يستقيم ، فلقط الحرف يوم دخلها ،
ولكنه خرج منها بعد سنين ، وقد ازدادت أخلاقه سوءاً .

كان حنا ملساناً^(٤) حتى الهذر . كان يتناول على الناس ، وبقي
كذلك من شب إلى دب .

شكّ الدواة في زناره على نسق القاريء الكاتب من أهل ذلك الزمان .
ولم تعد تطيب له الحياة القروية الهادئة ، فغير زيه واستبدل الشروال
بالغبناز لباس علماء عصره . ثم ارتقى بعد حين فلبس الطقم الفرنجي
حين هاجر إلى المدينة .

وظل يتتبع سير الأزياء فلبس صديرية حمراء ذات أزرار زجاجية

(١) اسم مكان لمغارة تسكنها الأرواح .

(٢) تلكا : أبطأ وتوقف .

(٣) العانس : التي لم تتزوج .

(٤) الفصيح الذي يتكلم كثيراً ، والهذر مسقط الكلام الذي لا يعبا به .

مدوّرة برّاقة . شرع يكتب للناس « المعارض »^(١) ، قدام السراي لقضاء نصف بشلّك^(٢) وما دون . ثم علت درجته فصار عنده كرسي وطاولة . وأخيراً اكرى^(٣) زاوية من دكان عطار ، تجاه السراي ، فكثرت زبائنه . وفاض عليه الخير ، ففتح مكتباً فرشهُ فرشاً حسناً : كراسي منجدة بعد تلك الخشبات التي لمعها الوسخ ، وسخ زبائنه من حمالين وفحامين ومكارين .

ووردت الأخبار على الوالد فكانت تأتيه مضخمة ، فصار حنا عنده رجلاً مقرباً من الباشا ، ورجال الحكومة يرتعدون إذا غضب ، كلمته تفك المشائق كما يقولون ، فيحمد الله على تلك النعمة .

وبعد حين ورد كتاب من حنا الى والده . المكتوب متوّج بسيدي الوالد العزيز ، والظرف مكتوب عليه : جناب الوجيه الامثل الهام الشيخ خليل عبّو . الانشاء جميل والخط أجمل وأجمل ، والعاطفة تحرق العشب . ولكن أمرين حيّرا العم بو حنا . أولاً الشيخ خليل عبّو ، فهو خليل عبّو « حاف »^(٤) ، فمن أين جاءت المشيخة ؟ وثانياً توقيع المكتوب جان ، والعهد باسم ابنه حنا وهو بو حنا . ظن انها ضحكة ،

(١) المعارض : يستعملونها الآن للكتاب يقدم الى الحكام ويعرض فيه أمر من الامور .

(٢) بشلّك : من العملة التركية الزهيدة .

(٣) اكرى : استأجر .

(٤) حاف : بدون ألقاب .

وان في المكتوب سحراً لأن الامضاء جات ، فلا شك أن للجن يداً في الأمر . فهرع إلى الخوري الذي أقرأه المكتوب وعرض له ما تصوّر ، فضحك الخوري وقال : اسمع يا عمي ، حنا وبو حنا ويحيى ويونس وجان وأوهانس ، هذه الكلمات كلها معناها حنا .

فقال الرجل : ولماذا تقى ابني جان وما تقى يحيى مثلاً ؟

فأجابه الخوري « موضة » يحيى بطلت ، وجان اسم عصري جديد ، فانت صرت بحسب ناموس الارتقاء بو جان .

فهمهم^(١) الرجل : بو جان ، آخرة حلوة . ثم قال للخوري : لا يا معلمي ، خلوني بو حنا ، أنا راضٍ باسمي العتيق .

أما جان أفندي فكان يحيا حياة رخاء . أثث بيتاً صغيراً صار يدعو اليه صغار رجال الحكومة فيستفيد من تلك الدعوات . وأمسى يكتب العريضة ويقتفي آثارها . يدخل على أصحابه صغار الموظفين ساعة يريد . يعتمد بملاحقة القضايا المحبوسة في خزائن المأمورين لأمر ما ، فيطلق سراحه ، فورم^(٢) كيسه . ثم رأى انه لا بد له من المقامرة ليحتك بذوي الحل والربط فأخذ يقامر ويربح .

(١) مهتم المرأة في رأس الصبي : نومه بصوت ترققه له . وهنا تكلم بكلام غير مفهوم .

(٢) ورم كيسه : امتلاً مالا .

وبالاختصار طابت له الريح فذرّى^(١) وازداد غروراً .

وفي ذات يوم أخذ يحدث رفاقه في أحد الأندية عن مزارعيه في الضيعة ، عن أخبار المواسم الطيبة التي وردت اليه من جناب الوالد الشيخ خليل ، وعن الفيلاً التي بناها له أبوه وفقاً للخريطة المرسومة ، وأراهم إيّاها ، فهي دائماً في جيبه : صورة بيت مسنّم مقبّب^(٢) كأنه قصر الحمراء ، وتمنى على أصحابه أن يزوروه فيها فوعده خيراً . وكان صاحبنا يفتخر بالمرحوم جده عبدو ويزعم انه من بقايا السلالة الغسانية ، أما والده فعالم علامة ، وأمه مثقفة ، وأبوه أيضاً رجل إداري مع ان هذا لا يتفق مع العلم العميق .

انه يرعى أملاكهم الواسعة بعين يقظى ، ويشفق كل الشفقة على « الشركاء »^(٣) كما يريد جان . وروى لهم عن والده الشيخ أخبار رحمة وشفقة وعدل تذكر بعمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، فتاق أصحابه إلى رؤية ذلك الأب الطريف وصاحوا جميعاً : في الصيف ، في الصيف . وفيما هو يتدفق « كالنياغرا »^(٤) ، إذا بالوالد العلامة الإداري الرحيم يقف بالباب . هو قادم من الضيعة .

اضطرب جان أيما اضطراب ، فممّ يخاف يا ترى ؟

(١) ذرى : نثر هباء في الهواء ، وهنا ساعده الحظ فاغتم الفرصة .

(٢) مسنّم مقبّب : ذو أبراج وقباب .

(٣) الشركاء : الشريك ، الفلاح الذي يعمل في حقول الغير لقاء جزء من الغلة .

(٤) النياغرا شلالات مشهورة .

ان والده غير بشع الصورة ، هيكله فخم ، وثيابه نظيفة جديدة ،
يعلق ساعة « ليبية » ومفتاحها النحاسي مدلى على زئله الحريري المخطط ،
وسلسلتها فضة ، وصديريته من الخمل الأسود الناعم ، وكبرانه^(١) مطرز
مزرکش بخيط من القصب الفضي ، وشرواله من الصوف المارينوس
الممتاز وعلى جيبه تطريز جميل معقوف من الجانبين ، ولستيكه^(٢) أيضاً
جميل الشكل جديد . إذن ، ممّ يستحي جان أفندي ؟

إنه كان يحدث الناس ان والده من رجال الوقت ، طقمه دائماً من
بابة نسيج وحده ، أي كوبتون .

وهجم الأب ليصافح ولده بعد هجران طويل ، فإذا بحاجي الولد قد
قعدا ونوته^(٣) انكشت .

أدرك الوالد ذلك فوقف مكانه وقال : يا ذوات ، منو^(٤) منكم جان
أفندي ابن الشيخ خليل عبدو ؟

فأجابه ابنه : أنا هو ماذا تريد يا عم ؟

فأجابه : سيدنا الشيخ والدك كلفني بكلمة أقولها لك سراً .
وانزويا في الغرفة ...

* * *

(١) الكبران : ثوب الى الوسط يلبس فوق الصدرية .

(٢) لستيكه : حذاؤه .

(٣) نونة : عقدة ما بين الجفنين .

(٤) من هو .

وجاء تموز فغلى الماء في الكوز^(١) ، وتلاه آب اللهب ففنت على بال
جان الضيعة بعد غيبة طويلة لمشاهدة أمه العاجز المشتاقة اليه .

كان له استقبال ، والكل يخاطبونه بيا أفندي ، والكرماء الأسخياء
بيا بك . أبوه معجب يضحك له إذا مشى ، ويشعل له سيكارتة كلما
سحبها من جيبه ، أمسى يصدق كل ما يرويه له من أخبار ، كصداقته
للمتصرف ، فيقول مثلاً : « قلت لأوهانس » ، إذا كانت الحديث مع
الخاصة ، وإذا ذكر دولته قدام العوام يقول : « دولة أفندينا » ، ويعض
على كلمة الباشا عضة مشوشة فتخرج البساء كضربة الطبل ، والشين
كرشاش المضخة .

وخبر الضيعة عن ضيوف كرام سيزورونه فباتت القرية تنتظرهم
كل ساعة . وأخيراً صار الهزل جداً وأذنت حقاً تلك الساعة الرهيبة .
أقبل الضيوف الكبار يسألون عن بيت جان أفندي ، عن بيت الشيخ
خليل عبدو ، فدلّوا على بيت حقير لا يصلح اصطبلًا لخيولهم . وطلبوا
جان فما وجدوه . أما والده « الشيخ » فحاول أن يتنكر فما قدر ، لأن
صورة ذلك الرسول اللبق لم تزل مرسومة في ذاكرتهم .

واستراح الزوار في ذلك البيت الحقير ممتنعين^(٢) . أما جان أفندي
فكان مستديراً منطوياً على نفسه في قبو البقر ، يضرب قلبه فوق المثة ،

(١) الكوز : إناء كالابريق ولكنه أصغر منه .

(٢) امتنع من الأمر : غضب منه وشق عليه وهنا غير منشرحين .

^١ يخاف أن يسألوه عن الجناثن المعلقة التي خبرهم عنها ، وعن .. وعن ..
فيعثروا عليه ، ولكنهم اشمأزوا مما حدث فانصرفوا ولم يسألوا عن شيء..
وخرج جان من مزربه ينفذ القش اللاصق بطرفه المبلل... وفيما
هو يصلح ما أفسدته من هندامه تلك المفاجأة ، جاءه خبيث يقول له :
الحمد لله على السلامة !

فاجابه جان وقد أرشدته إلى المنفذ بديته^(١) المعهودة : كيت
وكيت^(٢) من دينهم ، الشبعان يفت^٣ للجوعان ، نحن في انتظار الأوامر
لا النصّابين مثلهم ...

(١) البديهة : المفاجأة . عدم طول التفكير ويقال أجاب على البديهة أي
من غير تفكير .

(٢) كيت وكيت : عبارة شعبية : وهنا بمثابة الشتم .

أنف الطوف

بلغت جميلة الأربعين وحرنت^(١) هناك .

تكرُّ الأعوام وهي واقفة لا تتزحزح ، فكلما سألتها عن عمرها انكسرت عينها وأجابت : حوالي الأربعين . من لا يعرفها يظنها أخت كنتها لا حماها . لم تخطُ أقلام السنين في صفحة ذلك الوجه الواضح خطأ واحداً غليظاً ، فما هنالك غير خطوط دقيقة كأنها جواهر السيف . فام لطوف كانت نادرة زمانها : جمال جذاب ، وقامة طويلة مستقيمة ، لاسمينة ولا رقيقة ، عينان لوزيتان تصدقان أخبار هاروت وماروت ، ظلت تترقرق فيها ماوية الفتوة حتى انطفأتا . من يدقق النظر يرى أنها ذات أنف غير قليل ، ولكن عظمتها ضائعة في ذلك السهل الواسع .

كانت المرحومة جبارة عنيدة ، حاكمة بأمرها ، مهيمنة على

(١) حرنت : لزمت ولم تفارق .

زوجها وبني عمها ، لا يُعصى لها أمر ، وتستشار في المعضلات^(١) ، كلمة من فمها الصغير تلهب القرية ، وهي ، إذا علق الشر ، تراشق بالحجارة وتضرب بالعصا ، فلولا تكون في غير محيط القرية الضيق لكان لها شأن غير شأنها .

كانت كبنات جيلها تعصب رأسها بعصاة مشكوكة بها الجهاديات - دنائير ذهبية - فلا تكاد تفرق بين الذهب الإبريز^(٢) وذاك الجبين العريض . تضفر^(٣) شعرها الطويل فيتدلّى حتى خصرها صفائر صفائر ، وفي رأس كل صغيرة ثلاثة دنائير . وعلى رأسها كريشة حريرية تعقدها تحت ذقنها الحلوة . تمشي « الغندره » كأنها بنت خمسة عشر . فانت الستين وظلّت نفسها خضراء . كانت تقول دائماً : « لا تأثير للعمر ، الدنيا أنفُس » . كانت بسّامة مشهورة بالكرم والجود ، ما انشغل بالها قط إلا حين فكّرت بزواج ابنها .

حاولت أن تصاهر البيوت الكبيرة فلم تنجح . ابنها شاب جميل ، وعقله راجح ، ولكن بنات الناس يخفن غطرسة^(٤) أمه واستبدادها ، فاحجمن^(٥) عن اقتحام بيتها .

(١) المعضلات : الامور المشككة ، الضيقة الخارج .

(٢) الذهب الابريز : الذهب الصافي .

(٣) تضفر : ضفر الشعر نسج بعضه على بعض عريضاً ، والصفائر حبال من الشعر .

(٤) غطرسة : كبرياء وأيضاً المعجب بالنفس .

(٥) أحجم عن الشيء : كف أو نكص هيئته .

لم تكن أم لطوف تكفّ لسانها عن بنات الناس ، فكلما ذكر لها
ابنها واحدة هزئت وزجرته^(١) بقولها : « حسبتك تفهم . ولد قليل
النوق ، واطي . هذي أبوها كذا ، وتلك أمها كذا وكذا » . وهكذا
تقضت الأيام فبلغ لطوف الخامسة والثلاثين ولم يتزوج ، وما حظيت أمه
ببنت أوادم كما كانت تزعم .

لم تكن أم لطوف راغبة في تزويج ولدها . تابى أن تصير حمة ،
ويشعر بدنّها حين تتصور أنها صارت جدّة تنادى : « ياسقي » . كانت
تغضب إذا كنيّناها^(٢) ولم نسمّها . من قال لها : « يا جميلة » ، أرته سنّها^(٣)
وأهّلت به ، فكأنها أحد الفائزين بلقب دكتور في الآداب والفلسفة ...
وأخيراً ضجر لطوف وملّ . راعه المشيب القادم بطبل وزمر .
حمي صاحبنا في إحدى ليالي المرفع^(٤) فجاء أمه بالبنت التي اختارها ،
فرحبت به بالنعل سققاً على وجهه وقفاه . ودخل الأب بينها فزجرته
بالعبارة المعدة له : « سد بوزك ، أقعد بعيداً » . فبهز رأسه ويسكت .

(١) زجرته : نهته ومنعته .

(٢) كنيّناها : ناديناها بكنيتها أي : يا أم لطوف .

(٣) أرته سنّها : ابتسمت له .

(٤) المرفع : أيام معلومة تتقدم الصوم عند المسيحيين وهو الزمن الذي فيه
ترفع بعض المأكولات أي ينقطعون عنها ولا يعودون إليها إلا بعد عيد
الفصح ، وفيه كذلك تكثّر الزيجات لأن أيام الصيام بعده لا يحل فيها
الزواج .

انه رجل حقل تديره امرأته ، وهو أطوع من الخاتم بالخنصر .
ولمhole هذا نسب الناس ابنه إلى أمه .

أصرت أم لطوف على إرجاع العروس ، ولكن ابنها قال لها :
« تزوجنا يا أمي ، لا تتعي . ما ربطه الله لا يفكه الانسان » .

فصرخت به : « ليتك تتجنز يجاه الرب ، صرت من الفلاسفة
يا جعش ! » .

وأخذت تصفرّ وتخضرّ وتحمرّ وترجف كأنها مصابة بالبرداء .
وأخيراً أغمى عليها . وطالت الغيبوبة واختفى النبض فدعى الخوري .
واستيقظت بعد حين فرأت المحترم قابلاً عند رأسها ، فحاولت أن تأخذه
بلحيته فانهزم ، وهو يسمع : « ان وقعت عيني على عينه تتحاسب . يكلل
ابني ولا يسأل عني . لا بد من حشّ لحيته » .

وصفا على مر الأيام خاطر أم لطوف ولكن عيشها تنغص^(١) . كانت
كنتها تحاسنها فتزداد نفوراً واشمئزاً ، ان مشت انتقدتها ، وان تكلمت
تغامزت عليها ، وقلما كانت تذوق طعامها . كل هذا والكنة صابرة عليها
تجاملها وتطايبها ، فتطغى وتتجبر^(٢) ، وأخيراً اعتدل الميزان وحميت
المعارك فكانت ضارية^(٣) .

(١) تنغص : تكدر .

(٢) طغا : جاوز القدر والحد ، وتجبر : تكبر وكان عاتياً شديداً .

(٣) ضارية : شديدة ، فتاكة .

وهجم الهرم على أم لطوف فاندحرت أمامه. فارقها مرحها إذ فارقها
السلطان ، وقلّ الزحام على المورد الذي كان عذباً ، فكانت ترد على الجماعة
بقولها : « كبرت جميلة ، وحنة صبية » .

واستعدت السيدة جميلة لهجوم معاكس عليها تسترد شيئاً من حصون
جمالها. فحنّت^(١) شعرها، وتبودرت^(٢) ، وتحمرت^(٣) ، وتخططت^(٤) .
كانت ترتاع كلما رأّت ذلك الحُسن يندحر ويحدّ في الحرب ، فعزمت
بغثة على زيارة بيروت .

ما درى أحد بما تنويه حتى عادت بعد جمعة وقد بدلت بثيابها
الهرقلية أزياء جديدة ، ولم تنس الجزدان والشمسية . باعت شكتها^(٥)
وضفائرها واشترت أطراف الأنسجة وأغلاها ، وعادت إلى الضيعة كأنها
عروس . رمت الزنار وعصبت رأسها المحنّى بمنديل وردي كأنها تنافس
كنتها وترهو عليها . ولكنها لم تلق التفاتاً من الناس فكانت تقتلها
الضحكات الصفراء المزوجة باستهزاء مرّ . فحارت بأمرها ولجّت^(٦)
في الخصام .

(١) حنت : خضبت بالحناء ، صبغت .

(٢) تبودرت : رشت البودرة .

(٣) تحمرت : صبغت بالأحمر .

(٤) تخططت : نسقت حاجبها .

(٥) شكة : قلادة ذهبية كانت المرأة تزين به خمارها والخمار غطاء الرأس
من منديل أو قبعة .

(٦) لجّت : أمضت به وزادت فيه .

نفرت من بيتها بل من كل بيت ، وخالت الناس كلهم خصومها .
كانت تقعد تحت سنديانة تاريخية طالما قعدت تحتها حماها من قبل ...
فتحدث نفسها كأنها تحدث شخصاً آخر ، تتذكر أيام العز والمجد وتبكي .
الناس عندها غداً ارون يظاهرون كنتها عليها لأنها صبية ، وقد جفاها
الجميع حتى الأحباب .

ودخلت عليّ يوماً ومعهما حفيدها . أجلسته حدها وقعدت . لا حياءً
ولا سلم الله . كانت ساهية كأنها لا تريد أن تقول شيئاً أو أنها تجهل أين
هي . فلم أتحرش^(١) بها لئلا تقلق الحارة . ولما طال الانتظار قلت لها
باسماً : « يظهر انك بالعة لسانك . الله معك » .

فاجابت بفتور^(٢) يخالطه نفور : « لا الله معك ولا السلام عليك .
كلكم عليّ . المولي ما له صاحب^(٣) » . قالت هذا وأخرجت من عندها
كعكة باقية مما تحوجته من بيروت ، ناولتها الولد وقالت : « تعرف
سبب محبتي لهذا الصبي ؟ »

فهزئت كتفي اليسرى نافياً ، فقهرت قهقهة بلهاء وقالت : لأنه
غداً ياخذ بثاري . ربّيت وما لقيت .

فقلت لها : تريدان الصحيح يا جميلة ؟ الحق كله عليك ، اتركي ، راح
دورك .

(١) تحرش : تعرض .

(٢) فتر : سكن بعد حدة ولان بعد شدة ، ونفر : أنف منه وكرهه .

(٣) المولي ما له صاحب : الذي خذله الأيام فولى وارتحل .

فهزّت برأسها وقالت : أنا تعبانة ، كنتي حمارة وابني جحش . أنا
عمّرت البيت وأنا صيرته بيتاً . تجي شقفة دابة ، بنت غريبة تتحكم
فيه ، ولا تسأل عني ؟ هذا ما أنزله الله بكتاب .

فقلت لها : الدنيا أدوار ، راح دورك .

فقالت : لا تأكل إلا مثلاً تريد ، كلامها كله بلا طعمه ، حديثها طق
حنك ، أثقل من المرسك^(١) . لا تشاورني بشيء كاني كلبة . ما
افتكرت بنت الحرام اني أنا صاحبة البيت .

فقلت لها : الدنيا أدوار ، راح دورك يا جميلة .

فاحتدمت لساعها : راح دورك . كانت قاعدة فوقفت واندفعت في
حديثها ، تارة تهجم عليّ فتضع أصابعها في وجهي ، وأحياناً تتأخر كاهر .
وأخيراً قالت : ابني يحب امرأته أكثر من أمه ، ولدناكر الجميل . قال
المثل : الدنيا أم ، المثل كذاب ، الدنيا مرأة .

فقلت لها : لا توروري^(٢) ، راح دورك يا جميلة .

فصرخت كالمجنونة : وعن قريب يروح دورك .

وانفتلت^(٣) غضبانة ، وسفقت^(٤) الباب خلفها ، وسمعتها تقول :
«من يقصّ من جلد غيره يوسّع . كلهم في الهوى سوا . الناس مع الواقف» .

(١) المرسك : الرصاص .

(٢) ورور في النظر : أحده وفي الكلام أسرع وأكثر منه .

(٣) قتل وجهه عنهم : أي صرفهم .

(٤) سفق : لطم ، وسفق الباب : رده .

وصرخ الولد حين استحال عليه فتح الباب، فعادت وشفتها ترقصان
التشارلستون، وتنتشته نتشاً، وقالت وهي تعض شفتها السفلى : « القروود
تسحب روح أمك » .

فاستوقفتها لأقول لها : ابنك يموت يا أم لطوف، صار مثل المسلول
ولكنها لم تقف ، فرشقتها بما قلت زشقا ، فهرولت وهي تقول :
« البغل موته أستر له » .

وكان لطوف في جهد جهيد من حياته مع أمه وزوجته . كان دائمه
ضامتا كالسمة لا ييدي ولا يعيد . يروز مشكلته ولا ييهدي إلى
أهون الشرين .

وكانت معركة فاصلة بين الحماة وكنتها فصوب لطوف مسدسه الى
رأسه متهدداً ، فصرخت به أمه وتعلقت بيده ، فانطلق المسدس وبقر
البطن الذي حمله تسعة أشهر ، فانحلت عقدة الرواية هكذا : الأم في
القبر ، والابن مات في الحبس ، وصارت المرأة تحت رجل آخر .

وحيء غريب

أين هو المولد ، فانتا رأيتنا وجهه
في المشرق ؟

(متى ، فصل ٢)

في ميلاد الأربعين يبلغ عدد ميلادي أربعة وخمسين ، ما عدا الليل
فإنه ليس بالحساب . كان ذاتي ظفر مرضوض ينسلخ ليخلفه غيره . ففي
كل عام أجدني رجلاً آخر ، وأنسى التفت أرى أشلاء^(١) ذاتي مكومة
حولي كأنها أسلاخ^(٢) الحيات . أراها مبعثرة في غابة العمر فأرثي لها .
ثم أحسبني أفلت من شراكها^(٣) فإذا أنا كالديك العائر بمكب^(٤) من
الغزل . فيا من يخلصني من ذاتي !

(١) أشلاء الانسان : بقايا أعضاء الانسان .

(٢) أسلاخ الحيات : قشرها والسليخ أيضاً جلد الحيوان المسلوخ .

(٣) شراكها : فتاخها .

(٤) مكب : ما يلف عليه الغزل أو الخيوط .

أحبّ هذا الجليلي^(١) لأنه أحب الحياة . وكم تشجيني ذكرى ميلاده العجيبة . من ميلاد بين البقر والتيوس ، إلى معلم يحلّ الناموس ، إلى ذروة العبادة والطقوس . أزعجني أن تربياني في خرجه^(٢) فأرى أعشاب المجدل مخلوطة بنبات سدوم ، فيا ويل العالم من خير الكتبة^(٣) والفريسيين^(٤) ! ختم المعلم قصة عمره ختاماً فنياً رائعاً . قصر حياته فما اضطربت ولا تذبذبت . أحسنت يا سيدي .

للأستاذ « ألن » ،^(٥) مجموعة عنوانها « آراء في الدين » كتب فصولها في ربيع قرن ، وختمها « ميلاد السلام » المكتوب سنة ١٩٣٥ . « ألن » زميلنا ولا فخر ، فالأساتذة جميعهم مرتيحيّون ، تسيطر عاطفتهم على إرادتهم . غرّم الثناء فصدقوا أنهم شركاء الله في تدبير الكون .

يدعو ألن إلى السلام العالمي ، ويحث على التملّص^(٦) من ضباب اللاهوت^(٧) . يريد أن تكون هدية الجحوس للطفل كتباً لا مدافع، ومدارس

-
- (١) نسبة إلى الجليل في فلسطين وهو نسب الحق بالمسيح .
(٢) خرج : ما كان يضع فيه الصيد لاني عقاقيره ، يضعه على ظهر دابته ، وهو كالكيس ولكنه ذو عينتين .
(٢) الكتبة : من الموسرين كانوا يعملون في الكتابة ويحصلون الضرائب .
(٤) الفريسيين : جماعة من اليهود اشتهروا بالتظاهر بالعبادة وهم بعيدون عن حقيقة الايمان وقد هاجمها السيد المسيح لمرأوغتها .
(٥) ألن : من نقاد قرن الجاهليين .
(٦) تملص : أفلت وتخلص .
(٧) اللاهوت : الانعتاق من غموض الإلهيات - علم موضوعه الله - .

لا قلاعاً وحصوناً .

الفكرة سامية والخيال ناعم كريش النعام ، أما الواقع فأخشن من
المبرد والمنشار .

يقول ألن : أطفال اليوم كأولاد العصر الحجري ، فلا الراديو ولا
السيما ولا المتراليوز تغير خلية من خلاياهم الزلالية ، ولا ذرة من
احساسهم الرخص وفسفور تفكيرهم . والعيون التي تنفتح في الطابق
الخامس كالتي انفتحت منذ ألوف السنين في أعماق الكهوف .

هذه حقيقة علمية لا غبار عليها ، ولكنها حجة على « ألن » على أن
الانسان لا يتغير ، فمن وحش خام يقتل الفرد بانيابه وأظافره إلى رجل
متمدن يقتل الألوف بعقله وعلمه .

يريد الأستاذ ألن أن ينصت الأولاد إلى أمثال الناس كهومير
وشكسبير وغوته وموليير وهيغو وغيرهم ليتعلموا أن الناس اخوة ،
والدنيا كلها وطنهم . فالسربون والهيكل والكنيسة والكنيس تعد
أقيسة منطقية ليست أقل قتلا من المدافع . والمرشالون يقدمون
سيوفاً معللين الفتيان بالشرائط المقصبة . فليس من يرجى منه الخير
غير المربّين - المعلمين - المهدّدين من بيلاطس وقيافا لأنهم لا يعدّون
الحمل للمجزرة .

فيا أصدقاء الطفولة هلموا إلى شجرة الميلاد الخضراء . فلنغنّ حولها :
وُلِدَ يسوع اليوم ، ووُلِدَ أمس ، وسيُولَدُ غداً . انه ينقذ العالم ان

لم يقتله قيافا وبيلاطس^(١) قبل الثلاثين من عمره . ولكن قيافا^(٢)
وبيلاطس يحفان بالمهد ، يتبجحان بأبجداد عزرائيل ، مالتين العلب
الحاكية بأناشيد الحرب ليقتلوهم قبل هذا العمر .

إيه يا ألن ، أين عيناك ؟ لقد أمست شجرة الميلاد ملهاة تعلق
في أغصانها المسدسات والطيارات والقذائف ، لا الشموع والخراف
وملائكة الرحمة .

البشرية تعبد ذاتها في شخص يسوع . والذات شر من حوت يونان ،
وأكثر زؤوساً من تنين يوحنا . قد سقط فندق السامري على رأس بانيه ،
ومات السيد عطشاً على بئر يعقوب ... لا تدع الناس إلى الهزل ، فلنجد
يا صاحبي .

* * *

ورفعت نظري عن الورقة المبسوطة أمامي ، فوهلت^(٣) إذ رأيت
قبالي رجلاً جالساً كأنه الطيف . لم أشعر بدخوله ، وعجبت من صبره
عليّ ، فتنهدت مبتسماً كالمعتذر ولكنه ما بالي . هو مطرق^(٤) دائماً ،

(١) بيلاطس : الحاكم الروماني الذي وافق على صلب المسيح .

(٢) قيافا : رئيس المحكمة التي حكمت على المسيح بالصلب .

(٣) وهلت : خفت .

(٤) أطرق : سكت ولم يتكلم ، أيضاً أرخى عينيه ينظر إلى الأرض .

عربي الزيّ من قُمة رأسه إلى نعله ذات الشراك^(١) والسيور^(٢)، ملتج^(٣)،
عليه عباءة رفع ذيلها الأيسر إلى كتفه اليمنى، منكسر الطرف كمن أفاق
من النوم. تذكرت اني رأيت وجهه ولكن اسمه لم يدر على لساني. فما
تراه جاء يعمل في هذا الليل؟ ولماذا لا يتكلم؟

ذقت أجراس عاليه كلها بعيد الميلاد. الأجراس تدق وتطنطن^(٤)،
والرجل جامد. سكوت بليغ.

ضغطت على الزرّ فما لبّاني البوّاب، فتعلّحلت من مكاني، ولكن
ضيغي لم ينزل من قمة رصاته.

أقول لك الصحيح؟ اقشعر^(٥) بدني وغرقت في الكرسي. راعني
سكوته، وهو لم يتكلم لعرفت ما عنده.

وأخيراً هتفت كمن ركبه كابوس^(٦): الله يمسيك بالخير.

فترحزح خياله قيد شعرة وكانني سمعته قال: مرحباً يا عم.

مرحباً يا عم! هذه غلاظة. أهكذا يقضي على أبهة كافحت لأجلها
كفاح عنثرة؟..

(١) الشراك: الحبال.

(٢) السيور: الأحزمة الجلدية.

(٣) ملتج: صاحب لحية.

(٤) طنّ: صوت، ردد صوت الجرس.

(٥) اقشعر: ارتعد خوفاً.

(٦) الكابوس: ما يحصل للانسان في نومه فيزعجه وكأنه يخنقه.

ولكني تصبرت وقلت في نفسي : هو رجل لا شبح . إذن الأمر
هين . ساعرفه من أنا ، وأؤدبه غير هذا الأدب .

ووزنته لأرى إذا كنت أقوى عليه فوجدتني كذلك ، ولكن العصا
النائمة في حضنه رجحت كفته . ووجدت في الكلام قوة وشجاعة ،
فقلت : من أين شرف جناب الشيخ ؟

فهز برأسه وقال : ابني عندي يا أخي ؟
فامتعضت وتصبرت وقلت : لهجة السيد فلسطينية ؟
فاجاب : نعم يا بي .

فظننته يقول : يا بك ، فانشرح ، وانبسط ، وأجبت بلهجة
المرتاح : نعم ، يا سيدي ، المحروس عندنا . اليوم جئتم حضرتكم من
الناصره ؟ كيف حال تلاميذنا القدماء ؟

فقال : يا ليت ! طفت الدنيا كلها من أقصاها إلى أقصاها وما وجدته .
فاكدت له أنه عندنا وصحته جيدة ، وهو من الأولين في صفه ...
فرفع بصره قليلا وشال حاجبه الأيسر وتضاحك قائلاً : ابني يتعلم !
والأول في صفه !

فكانت خيبي مرة ، وجرحني حديثه الناشف المتقطع : « ما
عرفتني ولا عرفت ابني . حططتم من قدرتي جداً لتعظموا ابني وأمه .
نسيت فضل الرب » .

وصحّ عندي أن محدثي آتٍ من العصفورية ، فقلت له : ما اسم ابنك
يا عم ؟ بحياتك حلّ هذه العقدة .

وكانه أدرك اني تضايقت فقال: لا تؤاخذني ، ثقّلت عليك . كنا
نضيق هذا الصبي ونجده يناظر العلماء ويجادهم ، أما هذه المرأة فما لقيناه ،
لا في الهيكل ، ولا في العرس ، ولا في أي مكان آخر .

فطفقت أردّد من غير قصد : يناظر العلماء ويجادهم . أين سمعتها
يا ربي ؟

وتطلعت صوبه كمن انفتحت له مغاليتي^(١) الأسرار ، فرأيت عصاه
قد برعمت ، وفاحت رائحة الزنبق ... تم عن طهارة الرجل مرة ثانية .
ودخل يعقوب يحمل القهوة فشربتها مردداً : واصنعوا هذا لذكري .

(١) مغاليتي : خبايا .

مَوْعِظَةُ الْقِيَامَةِ

خرج الخوري يوحنا عبود من الاحتفال بدفن المسيح يوم الجمعة ،
وصدره يكاد ينشق من الحزن ، وفي غضون ^(١) وجهه بقية دمع لم تجف
بعد . مشى يتعكّز على عصا سنديانية معقوفة المقبض ، يحرق أذبال
جبته الزرقاء ، وعلى رأسه قاووق ^(٣) الخوري الماروني العتيق الذي لم
يرضَ به بديلاً طول العمر .

كاهن شيخ خدم المذبح ٦٥ عاماً ، ما تمثّلت له مأساة سيده الشاب عند
مغيب شمس العمر حتى خال أنه يراها بعينه في أورشليم سنة ٢٢ مسيحية .
انفطر قلبه التّباعاً ، فكان يحسب كل زهرة تلقى على الصليب الدفين
من أيدي المؤمنين حربة مسمومة . وأمست كل كلمة يسمعها من

(١) غضون : تجاعيد .

(٢) جبة : ثوب واسع يلبس فوق الثياب .

(٣) قاووق : غطاء الرأس للكاهن الماروني .

ولما اجتمع الشعب قامت الصلاة ، فمنح رعيته البركة في آخرها وأوصاهم جميعاً أن ينقثوا ضمائرهم ويستعدوا لملاقاة الختن^(١) السماوي ويا لفجيعة إذ رأى السيد ، وحده ، بين الكهنة ورؤساء الكهنة والكتبة وأذناهم يبصقون بوجهه ويلطمونه ، وتلاميذه تركوه وخذلوه . تمنى لو أنه كان في ذلك الزمان فينصره ويموت معه شهيداً ، فيرث الملكوت باقرب وسيلة وأضمنها .

هكذا كان الخوري عندما برح^(٢) الهيكل . كان يسير في طريق بيته منكس الرأس ، مكسور الخاطر كأنه قبر أحد بنيهِ ، وسارت رعيته خلفه صامتين كأنهم عائدون من مأتم شاب في ميعة العمر ، ولا غرابة فكلهم مسيحيون تغفل اليقين^(٣) في قلوبهم حتى الصميم .

بلغ الخوري بيته وليس وراءه غير بنيهِ ثلاثتهم ، لأن الناس ارفضوا عنه شيئاً فشيئاً ، فالوقت الظهر وكلهم صائمون ، وبيت الخوري في رأس الضيعة .

أفطر الخوري وأولاده ، وودع الطبق إلى صباح الأحد . تلك كانت عادته في مثل ذلك اليوم كل عام ، يطوي هذين اليومين زهداً وإماتة

(١) السنكسار : مجموعة تراجم القديسين يقرأ على الشعب في البيع النصرانية .

(٢) تذبذب : تردد وتحيّر .

(٣) برح : ترك .

(٤) اليقين : الإيمان .

نفس ابتغاء النعمة والأجر^(١) .

تغدي وعاد إلى الكنيسة ليزور قبر القادي^(٢) ويتعظ بفاجعة ابن
الإنسان^(٣) ، ويتألم لآلامه ، ويشبع بمجاءته الروحية قبل الرحيل متروداً
لآخرته ما يشفع به عند الله .

كان يصلي لأجل رعيته ، ويحاسب نفسه قبل أن يأتي السارق^(٤) ،
ويمحو بدموع التوبة كل لطخة في كتاب أعماله قبل عرضه على ربه في
الدينونة الخاصة حين يقف بين يديه عريان ، والموعد قريب ، فالخوري
يوحنا ابن ثمان وثمانين وإن يكن بعد ذاهمة .

صرف عصارى الجمعة في الكنيسة ، طوراً يصلي جاثياً ، وثارة
يقرأ متأملاً في كتاب « مرشد الخاطيء » ، وحيناً في كتاب « مرشد
الكاهن » ، ويتبحر في شرح بلرمينوس للعقائد المسيحية . ثم ينتقل إلى
منبر التوبة يسمع اعترافات المؤمنين والمؤمنات .

ولما غابت الشمس قرع الجرس حزناً . ولم لا ؟ فالمسيح مات . ثم
أسرج قنديلاً وفتش عن صلاة المساء في « الحاش » ، وقلب صفحات
السنكسار و « الريش قريان » والأنجيل والافراميات حتى إذا عثر على
الفصول الخاصة بتلك الليلة الرهيبة طوى الكتب ووضعها ناحية . وجاء
دور السجدة فنصف عدد ركعاته على المنة .

(١) طلباً للتوابع .

(٢) و (٣) المسيح .

(٤) كناية عن مجيء الأجل .

ولما اجتمع الشعب قامت الصلاة ، فمنح رعيته البركة في آخرها وأوصاهم جميعاً أن ينقثوا ضمائرهم ويستعدوا لملاقاة الحتن^(١) السماوي بمصاييح^(٢) العذارى الحكيمات المملوءة بزيت التقوى المنبثق منها نور الإيمان وحرارة الندامة والرجاء وأشعة المحبة المسيحية الصادقة .

عاد الناس إلى بيوتهم وظلّ الخوري يوحنا يصلي عند القبر . يطيب له الرنين ويلدّ له النواح الروحي المرسل من صدر عامر بالإيمان ، ومن نفس قاتنة^(٣) ألبسها الله ثوب ندامة لم يلبس داود إبان توبته أجمل منه وأبهى .

وكان يجثو بالقرب منه شقيقه الخوري موسى الضرير ، يصلي ويسمع ما يقرأ عليه أخوه . وكان الخوري موسى رقيق القلب تفيض دموعه بغزارة لأقل كلمة تلامس شعوره الديني .

وقبل منتصف الليل أثلت الكهنة : انضم اليهم أخوهم بالمسيح الخوري يوحنا الحداد الذي قام برتبة دفن المسيح في مزرعة مجاورة لا خوري لها . هذا الكاهن طيّب القلب اشتهر بالصراحة البريئة من الغمز واللمز^(٤) ،

(١) الحتن : العريس وهنا المسيح .

(٢) إشارة الى العذارى الحكيمات اللاتي سهرن الليل ينظرن العريس دون أن يفرطن بزيت مصابيحهن ودخلن معه المنزل عند دخوله ، وهذا مثل النجيلي .

(٣) قاتنة : زاهدة ، طائعة .

(٤) لمز : عاب وأيضاً أشار اليه بعينه ونحوها مع كلام خفي .

تزينه السلامة المسيحية النقية . فاشترك الآباء الثلاثة في صلاة الليل ، وحضرها نفر من الشيوخ المتجهدين^(١) . وبعد ختام الصلاة ولَّى الكهنة الثلاثة وجوههم نحو القبر وأخذوا يقومون ويخرون ساجدين الى الأذقان أمام الضريح حتى بان التعب فيهم .

مشهد رائع : بضعة شيوخ أصغرهم ابن خمس وسبعين يقومون بهذه النافلة^(٢) الدينية الشاقة ، والكهنة الشباب يغطون في مضاجعهم الناعمة . ثم ودَّعوا القبر بلثم الغطاء بعد أن ملأوا السرج زيتاً .

كان نوم الخوري يوحنا عبود تلك الليلة متقطعاً ، ينتفض بين آونة وأخرى . واستيقظ فجر السبت على صياح الديك فتذكَّر جحود^(٣) بطرس فتالم . وسار الى الكنيسة ماراً بأخويه الكاهنين ، ومشوا معاً الى الهيكل بخطى الشيوخ ليقيموا صلاة الصبح والذبيحة الإلهية^(٤) .

وبعد إتمام واجباتهم الدينية خرجوا ثلاثتهم وجلسوا ضحى ذلك اليوم الضاحك تحت سنداينة الكنيسة . قرأوا فصلاً من كتاب « الاقتداء بالمسيح » وتذاكروا بعد تلاوته شؤون القرية . فتنهد^(٥) الخوري يوحنا عبود ، وتأفَّف^(٦) الخوري موسى ،

(١) المتجهد : القائم من النوم الى الصلاة .

(٢) النافلة : ما تفعله مما لم يفرض ولم يجب عليك فعله .

(٣) إنكار بطرس الرسول للمسيح يوم اعتقاله وقد كان مصحوباً بصياح الديك .

(٤) الذبيحة الإلهية : القداس .

(٥) تنهد الرجل : أخرج نفسه بعد مده حزناً أو ألماً .

(٦) تأفَّف : تضجر .

وتنحني^(١) الخوري يوحنا صادق ، وكان حديث ...

قال الخوري يوحنا عبود : خطيئتنا ، نحن الكهنة ، كبيرة جداً
ولولا ذلك ما تخلى ربنا عنا وعجزنا عن التوفيق بين أقاربنا . الخلاف
خرّب الضيعة ، والشر الكبير قدامنا .

فقال الخوري موسى بنبرة : أوف ، أوف ، ضيعة شيطانها كبير .
فأجاب الخوري يوحنا صادق : يا معلمي خوري يوحنا ، كل الحق
علينا نحن الخوارنة . يا خوري موسى ، شيطاننا نحن أكبر من شيطان
الضيعة لو كان فينا روح الله طردناه باسم الصليب ، وانطفأ خبره .

فاطرق الخوري يوحنا عبود قليلاً وأجاب : الحق معك يا أخي
الخوري ، ينقصنا كثير من التقوى . لو كنا كما يجب ما عجز المرسل
البطريركي عن مصالحة أولاد رعيتنا .

فاحتدّ الخوري يوحنا صادق وقال : يا معلمي ، الحكيم الغريب
لا يعرف المرض البلدي ، نحن وحدنا نعرف كيف نطبيب مرضانا ،
صدقتي قلت لك . لا تهز برأسك .

فهزّ الخوري موسى رأسه كعادته أيضاً وقال : مليح . هات يدك
يا خوري حنا .

فلم تعجب الخوري يوحنا صادق لهجة الخوري موسى فردّد : هات
يدك يا خوري حنا . يا خوري موسى ، يد واحدة لا تصفق ، المسألة
بسيطة جداً ، اسمعوا : أنا أبو ثلاثة ، وأنت يا خوري موسى أبو ثلاثة ،

(١) تنحني : تردد صوته في صدره .

ورأيت بيتها وأنا ابن سبع . سكنت مع والدي في طريقنا الى
« البترون » ، فأومات بأصبعها الى بيت معلق على صدر جبل وقالت :
هناك بيت ام نخول . فشيت ، ولكن نظري ظل عالقا بذاك البيت ،
فقلت : وأين هي ام نخول ؟

فضحكت أُمي وقالت : من يعلم ؟ أشغالها كثيرة .

فقلت : حجارة بيتها بيضاء .

فقلت : عجّل يا صبي ، إمشِ ، هذا كلس .

لم يخرج كراً السنين ذاك الاسم من رأسي، بل قامت الى جانبه صورة
بيتها . وسمعت عنها أحاديث أغرتني بزيارتها ، ولكنني تهيبت العقاب^(١)
القائمة دونـه . وأخيراً ، ولا أدري كيف ... رأيتني على مقربة من
بيتها ، وكتبها « غبار » . يستقبلني استقبالا صارخا كان له النهر والأودية
والكهوف^(٢) كمضخات الصوت .

لو كان غبار وحده لاتقيته ، ولكن أسرته الكريمة معه ، وكانت
أشد احتفاء بي منه .

تسمّرتُ في مكاني أنتظر العوث ، فإذا براعٍ صغير يصيح من
ورائي ، في الجبل المناوح ، ويسألني أين أقصد . فأجبته : اني زائر .
فصاح الولد على البيت ، فردّت عليه أنثى بصوت يسمعه من هم على الشط .

(١) العقاب : جمع عقبة ، والعقبة المرقى الصعب من الجبال .

(٢) الكهوف : المغاور .

وما عمت أن انتصبت بالباب ، فقال لها : ردّي الكلاب . فاجابته :
ما عليك ، انتبه لعزاتك .

ثم نادت قائد الكلاب باسمه ، ففهم عنها ولفّ الذنب الذي كان لرأسه
اكليلا ، وعاد وجيشه .

وجدتني تلقاء امرأة لا هي طويلة ولا قصيرة ، لا ضخمة ولا هزيلة ،
لا جميلة ولا قبيحة ، لا صبية ولا عجوز . تعصب جبهتها بقدة^(١) سوداء ،
وتلفّ رأسها بفوطة بيضاء نظيفة كأنها من ممرضات اليوم . تلبس
فسطانا منتفخا على كتفها كان هناك رمانتين . قماش كثير من الزنار
ونازلا فكانها خاية^(٢) من خواحي بيت شباب .

وقبل أن أبلغ البيت الأبيض مررت بين أشجار كلها حوامل ،
بعضها مؤزر^(٣) بشباك ترد عنها الطير فلا تفسد ثمارها ، وعلى رؤوس
الفصون الشائخة جماجم غنم ومعزى ، وقشور بيض مرفوعة على قصب
مفروز في الأرض ، وعلى شناخيب^(٤) مساميك العريش قدد من نسيج
مختلفة ألوانه ، كأنها سمات أوسمة منحتها أم نخول أشجارها المتفوقة في

(١) قدد الثوب : تقطع ، والقدة قطعة من ثوب .

(٢) خابية : وعاء كبير من الفخار - على شكل الجرة - اشتهرت صناعته
في بيت شباب ، وبيت شباب اسم بلدة لبنانية .

(٣) مؤزر : مفطى .

(٤) شناخيب : أعلى الكاهل ، والكاهل أعلى الظهر مما يلي العنق .

الحمل ، تئاتم وتعاويز^(١) تتقي بها عيون الحساد فلا تصيب مزروعاتها .
أما الأوابد^(٢) فلها دواء آخر : هنا نطّار على هيئة رجل ، وهناك لعين^(٣)
بشكل امرأة . أشكال وألوان تقشعر لرؤيتها جلود البشر فكيف لا تفزع
ابن آوى والعصافير .

خلتني وأنا مار بينها كاتني بين خفراء مختلفي السحن وكلهم فظ
غليظ القلب^(٤) .

وحدجني^(٥) غبار بعينه المحمرة وكشّر عن أنيابه البيضاء ،
وتحسس^(٦) كمن يريد الوثوب فقالت له : غبار ، سد بوزك ، هذا ضيف .
فتبدلت ملاحه في الحال ، واستخذى^(٧) وزحف صوبي حتى دنا
مني يشمني .

(١) التسمية : خريزة أو ما يشبهها كان الأعراب يضعونها على أولادهم
للقاية من العين ودفع الأرواح - جمع تئاتم - ومثلها التعويذة : صلاة
تستخدم لرفع الأرواح الشريرة .

(٢) الأوابد : الطير المقيمة بأرض شتاء وصيفاً .

(٣) لعين : ما ينصب وسط الزرع كهيئة امرأة أو رجل تستطرد به
الوحوش :

(٤) السحنة : الهيئة واللون ، والفظ : الشيء الخلق ، والغليظ : الخشن
الكلام .

(٥) حدج ببصره : حدّق .

(٦) تحسس : تحرك .

(٧) استخذى : اتضع وانقاد .

فقالت لي : لا تخف ، أهلاً وسهلاً .
 وغابت ثم آبت وفي يدها كأس فشربت شراباً استبيطته جداً حتى
 قلت : طيب شرابكم .
 فقالت : الليمون بلدي ، والسكر بلدي ، والماء من رأس العين ،
 وأنت عطشان .
 فضحكت ضحكة فيها تعجب وحيرة وقلت : وكيف يكون
 السكر البلدي ؟
 فقالت : نحن نعقده من قصب المص . السكر غال والعصير يمد
 أكثر وهو ألذ .
 فقلت في نفسي : هذه إحدى عجائبها ، انها هي . واستولت
 ام نخول على المبادرة فاجبتها : شاب من الجيرة ، سمعت باسمك ، جئت
 أتعرف بك .
 فقالت بتعجب صادق : باسمي أنا ؟
 - نعم باسمك أنت .
 فسكتت وشاع الابتسام في وجهها قبل أن تقول : طيب يا حبيبي ،
 شباب كثير في الجيرة ، فمن أنت منهم ؟
 فقلت لها : فلان ابن فلان .
 فتنهدت ورحبت .
 ودخلت علينا صبية لا تعلم اني هناك فارتدت مذعورة ، فقالت لها
 أمها : منّا وفينا .

فتقدمت وسلمت عليّ تسليم من تستلم حيط الكنيسة^(١) . وخرجت بعد أن تلقت أمر أمها بإيماة لم أفهم معناها إلا عند الظهر .
أما أم نخول فقالت : ترانا اليوم مهموكين^(٢) بتقميع^(٣) اللوز وتشميسه ، وغداً لمّ التين وقطاف العنب ، وبعده الزيتون وعصره .
الحياة كلها شغل .

فقلت : بيتكم منفرد ، ألا تضجرون وحدكم ؟
فضحكت لأول مرة ضحكة عامرة وقالت : ما عندنا وقت حتى نضجر .

فقلت : أنتِ مستاهلة هذا الصيت يا ست ام نخول .
فجادت بربع ابتسامة وقالت : ستك العضرا يا روجي ، كلمة ست صارت رخيصة في زمانكم .

وانقطع الحديث فخيلت أنني أسأت اليها ولكنها قالت : فكري قال لي انك مأمور حكومة ، فأخذت حذري منك .

فقلت لها : والحكومة تفرّج !

فأجابت : لا ، ولكن ضرائبها تخوفنا . الحكومة ملح الأرض ولولاها ما كنا نعيش في لحف هذا الجبل . سمعنا عن الباشا الجديد انه حطّ ضرائب على البقر والحمير والدجاج . أخبار لا تصدّق .

(١) سلمت بنخشوع : من يلمس جدار الكنيسة لنيل البركة .

(٢) همك : جد وليج .

(٣) قمع : أزال ، وقمع الثمرة . ما التصق بأسفل الثمرة .

— لا تخافي يا عمتي ، احكي لي عن أحوالكم ، عن المواسم عندهم .
فقلت : أية مواسم تريد ؟ وأخذت تمدُّ على أصابعها : الحرير وسط ،
والدخان مليح ، واللوز عال ، والتين ممتاز ، والعنب كسر المساميك^(١) ،
والزيتون أكثر مما كنا ننتظر . سنة خير ، المرعى بجر والواشي شبعانة ،
والأسعار لا هي شرف ولا هي طرف .

فقلت : وأنت كيف ؟
فأجابت : مثل الناس ، ولا بأس .
فقلت : قالوا لي عندك تسعة أولاد .
فأجابت : وأنت الصادق ، عندي عشرة ، أربع بنيات وستة
صبيان لألله .

— إذن عيلتكم دزينة .
فأجابت : وعمي وحماتي .
قلت : إذن بيتكم دير^(٢) .
فهزت برأسها وقالت : وأي دير !
فقلت : وكيف تعيشون ؟
فقلت : من الأرض . في الأرض خير كثير يلاقيه من يشتغل .

(١) المسماك : عود بسمك أو يرفع به الحباء ، والحباء ما يعمل من وبر أو
صوف أو شعر للسكن وهنا إشارة إلى كثرة العنب المرفوع على المساميك .
(٢) بيتكم دير : لكثرة سكانه يشبه الدير . والدير بيت يسكنه الرهبان
وقد كان يشتهر بكثرة سكانه .

انظر ، البيت خال . واحد مع المعزى ، والثاني مع البقر ، والثالث
يكاري^(١) ، والبقية مع والدم ينقبون^(٢) الارض ، والبنات واحدة تطبخ
وتنفخ ، والبقية لأشغال البيت ، وأنا للحياكة والخياطة والترقيع^(٣) .
قلت : ترتاحون في أيام الشتاء .

فابتسمت وقالت : ومن أين لنا الراحة ؟ أنا والبنات نغزل ونسدي^(٤)
للحياكة في أيام الشتاء ، والرجال للزرع والقلع . من لا يزرع لا يشبع .
قلت : وكل هذا من أين ؟

فاجابت بنبرة : من أين ؟ من الارض يا حبيبي ، من الارض . الله
يبارك فيها .

قلت : والحيطان من أين ؟
فاجابت : من صوف الغنم والشرانق^(٥) ، والقطن من البترون .
لو كان البيت يلبس من السوق كان خرب ونزحنا من هذي البرية .
ثم أخذتني بيدي وأرتني ما في صناديقها من نسيج وقالت : هذا

-
- (١) يكاري : ينقل الأحوال بالاجرة على ظهر دابة .
(٢) تنقب في الشيء بالغ في الفحص عنه . وأنقب في الارض سار فيها وهنا
قلب تراها .
(٣) رقع الثوب : ألحم خرقه وأصلحه بالرقاع .
(٤) السدي : ما مد من خيوط الثوب عند الحياكة واللحمة ما مد عكس
خيوط السدي .
(٥) الشرنقة : هي البيوت التي ينسجها دود القز لنفسه .

جهاز البنات . ثم أرتني نولها ^(١) باسمه . وكنت أرى في كل مكان
قطارميز ^(٢) الدهن ، وبراني ^(٣) السمن والعسل ، وخوابي الزيت والنبيد
والدبس ، وبتيات ^(٤) العرق ، وأخيراً أرتني صيرة المعزى ^(٥) ، وقبو ^(٦)
البقر ، ودلتنى على قن ^(٧) الدجاج والأرانب .

قلت : وهل أملاككم واسعة ؟

فقلت : بين بين . ولكن الشغل متواصل ، والزبل كثير ،
وشريك الماء لا يغلب . عندنا مئة رأس معزى وما فوق ، عدا
الغنم . وراءها السنة أكثر من خمسين جدياً . وعندنا ستة رؤوس
بقر . وعندنا ، يا سيدي الأكرم ، دابة مثل البغلة ، خلفها جحش
يسوى نوم العينين ، حلو حلو أكثر مما تتصور . والتفتت نحو
الأرض وقالت : هذي الأرض تقبها أبو نخول العتيق ، عاش فوق
المئة ، ما دخن ولا شرب أبداً . كان أغلب شغله في ضوء القمر .

(١) النول : خشبة الحائك أو آله ينسج عليها ويلف عليها الثوب وقت
النسيج .

(٢) قطارميز : آنية من زجاج أو خزف .

(٣) البرنية : آنية من خزف .

(٤) البتية : برميل عظيم من الخشب .

(٥) الصيرة : حظيرة الغنم أو المعزى .

(٦) قبو : بناء معقود بعضه الى بعض .

(٧) قن الدجاج : بيت الدجاج .

كانوا يسمعون ضربة مهدته^(١) ونحيطه^(٢) من المدفون . نحن اشتغلنا وزدنا عليه الفواكه . الفواكه لا تنقطع . عندنا من كل شيء ، حتى الأدوية من أعشابنا ، الكينا قنطاريون ، والمساهل دبس خرؤوب . قال الله لا تكذب ، لا نشترى إلا حبة الرز . الأحد مخصص للملح^(٣) وصيد السمك .

فقلت : والسكافة^(٤) يا أم نخول ؟

فهرولت أمامي وأرتني آلات السكافة والجلود .

فقلت : والعلم ؟

فهزّت كتفيها وقالت باستهزاء : تقبر العلم ، جارنا علّم ابنه وعرفنا النتيجة . تعلّم أولادي القراءة والكتابة والحساب ، وهذا كاف . المدرسة مجاناً من كيس الوقف .

ونوديت من خلف الستار فلبّيت . وفيما هي راجعة دقّ جرس الظهر فوقفت « تبشّر^(٥) » حيث كانت . ولما أنهت صلاتها أمسكت بيدي وقالت : تفضّل الغدا حاضر . فاعتذرت منها ، فعزمت

(١) مهدّة : مطرقة كبيرة .

(٢) النحيط : الزفير أو من يسعل قوياً .

(٣) للعمل على استخراج الملح إما من صخور ملحبة أو من ماء البحر .

(٤) السكافة : صناعة الأحذية وقرميمها .

(٥) التبشير : صلاة الظهر .

عليّ وقالت لي : بيننا وبينكم خبز وملح . لو كان لنا نصيب كنت أنت ابن اختي .

وتغدينا دجاجاً وأرانب وبيضاً ولبناً وأكثر خضرة الوقت .
وكان الحلو عسلاً وقريشة^(١) وفواكه متنوعة . أما شرابنا
فنبيد عتيق .

وانصرفتُ قرب العصر أردد قول المثل اللبناني : « فلاح مكفي
ملك مخفي » . ورأيت أبا نخول يستريح وأولاده تحت التينة ،
فذكرتني صلته النحاسية بصلعة أبي حفص الوراق التي قال فيها
ابن الرومي :

كانت ساحتها مرآة فولاذ
ترنّ ان قرعت أرجاء بغداد

(١) قريشة : مادة تستخرج من الحليب بعد أن يستخرج منه اللبن ، وهي
تشبه اللبنة .

... بعد هاتيك الحرب

خوى^(١) عرشُ الملكة المخفية فزرتُ القريةَ المعلقة مرة ثانية . بُهِتُ
إذ وجدْتُني قدَّامَ بابِ هامدٍ كان بالأمس نباضاً^(٢) كقلب العصفور
المروَّع^(٣) .

البيت بلا سكان كجسم بلا دم ، والوقوف عنده وعند المقبرة
سواء بسواء .

كان الجاهليون على حق إذ بكوا على الطلول^(٤) ، فخراب البيوت
كموت الأحياء . كان بيت أم نخول دنيا عامرة مؤنسة ، فإذا به اليوم
كهيكل مهجور^(٥) . لا كلاب تعزف فتنفخ روحاً محيياً في ذاك المحيط
الأعزل ، ولا حيوانات أليفة تناجينا عيونها البريئة الحلوة . لا ثور يخور

(١) خوى : سقط وتهدم فرغ وخلا .

(٢) نباضاً : خفّافاً بالحركة .

(٣) المروَّع : الخائف .

(٤) الطل : الشاخص من الآثار .

(٥) مهجور : أي موحش .

ولا جدي يَمُوءُ ، ولا حمار ينهق ولا هرة تموء . سكون راعب ناء
بكلّكله^(١) على ذلك البيت كأنه ليل امرئ القيس .

الشجيرات الغضة^(٢) الشباب نخلت واصفرّت فهي قائمة حوالى
البيت كالمسلولين يتفرّجوت حول المصحّ . والعرائش سقطت عن
أرائكها^(٣) فهي مبعثرة هنا وهناك كاشلاء المحاربين بعد المعركة .
الأرض بور منذ سنوات فسيطر الشوك على مملكة أم نخول فبدت
كالخسنة في الأطهار^(٤) .

دققت الباب دقة يائس فاردّ عليّ أحد . ودفعته فانفتح فخلتني
أمام باب قبر .

البيت الذي كان لماعاً مصقولاً كترائب أم الرباب^(٥) ، أمسى منكوتاً
كأنه وكر قنفذ تنبعث منه روائح العفن ، وقد فارقه صفاء القرية النقي .
في أرضه الزبالة ، وعلى حيطانه ستائر من نسيج العنكبوت ،
والرتبلاء تروح في سقفه وتجيء كأنها أم نخول حين كانت تسدي .

(١) الكلّكل : الصدر في الفرس .

(٢) الغضة : النضرة .

(٣) الأريكة : سرير مزين فاخر وهنا ما ينصب من عهد ترتفع عليها
العرائش .

(٤) الطمر : الثوب البالي .

(٥) الترائب : ما بدا من الوجه ، كالحدين . وأم الرباب : كنية كنييت بها
أكثر من فتاة . ويقصد هنا أن بيتها كان ناعماً براقاً كخدي أم الرباب
تلك التي اشتهرت بجمالها ونعومتها .

لم أسمع حين أحس في ذلك البيت القائم الأعماق ، الخالي إلا من
الذكريات الصامتة ، فصحت محدثاً نفسي : وأين هي أم نخول ؟ فإذا
بصوت يقول : من ؟

فالتفت حيث نجم^(١) الصوت فرأيت في الزاوية الغربية الشالية لحافاً
يتحرك وامرأة تصلب^(٢) على وجهها ثم تقول : تفضل . أهلاً وسهلاً .
وبعد تسليم شرحه طويل ، جلست قبالتها على كرسي يصوصي^(٣)
تحتي ويقوقي كلما تحركت ، فاحكت جلستي معتمداً على ركبتني أكثر من
اعتمادي على تلك الخشبات المفككة ، وقلت لها :

— عرفت من أنا يا أم نخول ؟

فتفرست بي بحدقتين^(٤) منفتحتين وقالت : أمهلي .
وطالت المهلة ، فقلت ممهداً طريق المعرفة : وأين « غبار » يستقبلني
ذاك الاستقبال الرابع ؟

فضحكت وأجابت بحسرة زادت ابتهامها الفاترة وضوحاً : مسكين
غبار ! راح مع من راحوا .
وأطرقت تعصر صدغيها ييسراها .
أردت أن أكفيها مؤونة الجهد وأعرفها بي ، فأومات يجمع يدها

(١) نجم الشيء : ظهر وطلع .

(٢) تصلب : ترسم الصليب .

(٣) يصوصي : يصدر صوتاً مزعجاً لعدم تماسك أجزائه .

(٤) حدقة : سواد العين .

أن امهل ، فقلت لها : لا تكلفي نفسك يا خالتي ، يستحيل أن تعرفيني ،
 الدنيا تغيرت ، ونحن تغيرنا معها ، فكيف تعرفينني ؟
 فأجابت : عرفتكَ ، عرفتكَ . أنت جئتنا منذ عشرين سنة . نعم ،
 نعم . أنت كبرت ونحن شخنا . لا تحسب أنا نسيناك . زيارتك تاربخ
 للضيعة . كيف حال الوالد ؟
 فقلت : وهبك الله عمره .
 فأجابت : والقائل . من خلف ما مات .
 والتفتُ فعلق نظري بالمذبح المنسوب فوق رأسها ، وهو رفٌّ
 عليه بضع صور و صليب كسوته من حياكة أم نخول ، وكشكشه شغل
 صنارتها .
 ودخلتُ بُنيةً في يمينها إبريق ، فراعني تطرّفٌ^(١) الدهر في جوره
 على هذه المرأة النفيسة .
 وعقب الشرب سكوت كصمت المعزّين في الخطب المدهم^(٢) .
 قالت : هنيئًا . وتنهدت وأطرقت كأنها تتذكر الماضي .
 وأجبت : هنّاك الله .
 ورحت أفتش عن كلمة لا تثير ذكرى ، فما حضرتني واحدة .
 ولكن: أم نخول استولت على الكلام فقالت : تأمل ، أين كنا ،
 كيف صرنا .

(١) تطرّف : جاوز حد الاعتدال .

(٢) الخطب : المصيبة ، والمدهم : الأسود ، وهنا العظيم الشدة .

وكرجت^(١) دمعات من عينيها ما لبثت أن تكسرت في ثلوم تجاعيد
وجنتيها .

تمررت قليلاً ثم قالت : انفخت الدف وتفرّق العشاق^(٢) . راح
جمهور البيت الذي سمّيته ديراً . ما بقي إلا قريد العش - تعني أصغر
أولادها - دبّ الفنا فينا ، ما بقي عندنا شيء يدب على الأربع . بلى
عندنا دابة يكرّري عليها الصبي لأنه قليل الجلد كثير الحكي . إذا قلت له :
"حسن" الدابة^(٣) ضحك واستهزأ ، وتمغط ربع ساعة قبل الوقوف .

فقلت : وأين بقية العيلة يا أم نخول ؟

فاجابت : الكبار في ديار البلى^(٤) ، والصغار تاهوا^(٥) في البلاد .

وشرعت تتولّه^(٦) وتبكي . وبعد دقائق قالت : قصّتنا قصة طويلة .
راحوا كلهم وبقيت وحدي مثل البومة^(٧) العمياء . آخر شنيعة^(٨) . لا
تقل خرفت أم نخول . عشنا مدة الحرب بألف خير ، الناس باعوا ما

(١) كرجت : تحدّرت .

(٢) كناية عن تبديد الشمل . كتفرّق الشرب أو عشاق الغناء بعد أن
يثقّب الدف .

(٣) حسن : نظف .

(٤) أي ماتوا .

(٥) تاهوا : ضلّوا .

(٦) تتولّه : تتعسر .

(٧) البومة : طائر شؤم .

(٨) شنيعة : مستقبعة .

فوقهم وما تحتهم ونحن اشترينا . وبعد الحرب دار الدولاب بالقلوب .
بعض الناس قال : حسد ، وبعضهم قال : إصابة عين .
وسكنت . فاغتنمت الفرصة وقلت : وانت ايش قلت ؟
فقلت : أمهل يحبك الخبر .

وأخذت منديلا كان عند مخدتها ومسحت به دموعها ، ثم أحكت
جلستها وقالت : انتهت الحرب وتغير كل شيء ، أولادنا كانوا طوع
والدم فصاروا يردون الكلمة كلمتين . أعجبتهم عيشة المدن . كان ابن
جارنا يقف على بابنا حتى نطعمه لقمة ، فترك الضيعة بعد الحرب ورجع
اليها كأنه خواجا ، لا يحكي إلا عن المغنيات والرقاصات ، حاشا قدرك^(١)
فأفسد واحداً من أولادنا وأخذ معه . أما البقية فقضوا الأيام متكرهين
ومتذمرين . ذاقوا طعم ركوب السيارات فاستخفوا بالدواب . استنكفوا^(٢)
من رعاية المعزى وكرهوا البقر . صاروا مترننين^(٣) ، فبعنا الطروش
– الحيوانات الداجنة – أنفقوا كل ما جمعه أم نخول والقلعة تورث
النقار^(٤) . فصار بيتنا مثل جهنم الحمرا . حديثهم الدائم : فلان ما عنده
رزق وعيشته أحسن من عيشتنا ، وفلان أفقر أهل الضيعة وثيابه جوخ
وحرير شغل البلاد – تعني أوروبا – ونحن نلبس من حياكتك . الله الله

(١) كلمة يستخدمها المتحدث اللبق بعدما يهين رفعاً لقدر السامع عما ذكر .

(٢) استنكفوا . أنفوا ورفضوا استعلاء .

(٣) مترننين . متكبرين .

(٤) النقار . الشجار .

من الأيام ، فضلوا الشيت والمقصود على الحرير لأنه حياكتي . ابن فلان
مستريح أكثر منا لا يمشي ربع ساعة ونحن نقتل من المشي قبل الوصول
إلى طريق البحر . قنطار الحطب عندنا بربع ليرة، وعند غيرنا بليرتين.
إجاصنا وتفاحنا وسفرجلنا يسقط تحت أمه . الزبل^(١) ينفق عند غيرنا
ونحن نختار كيف نصرف حاصلاتنا . راحت الأيام التي عرفوا فيها
قيمة الزبل . كان عندنا ولد يحب الأرض ، أخذه عزرايل^(٢) . مات موة
بشعة ، أبعداها الله عن كل محب . كان يحطب^(٣) لوليمة أحد التهنئة فهباً
حمل حطب وحزمه بالحبل ، وبدلاً من أن يحمله خطر له فكر كان سبب
موته : دفر الحمل^(٤) برجله من فوق صخر علوه عشر قامات^(٥) ، فعلق
الحبل برجله وسقط مع الحمل الى الوادي . وضار أحد التهنئة مناحة .
البننت التي سقتك هي بنته .

وطفقت تنوح وتبكي زهاء ربع ساعة ، فحاولت أن أحوّل مجرى
الحديث فصاحت : لا تقاطعني ، أنا ألتذ بالبكاء كما يلتذ غيري بالغناء
والرقص . وأبو نخول ، يا حزني عليه ، عضته حية فحملناه الى جسر

(١) الزبل : روث البهائم و السباد .

(٢) عزرايل : ملك الموت .

(٣) يحطب : يجمع الحطب .

(٤) دفر : رفس .

(٥) القامة من الانسان . قدمه طوله .

المدفون^(١) لنعالجه في بيروت ، فمات في بعشتا^(٢) . مات بعد ابنه بتسعة أشهر ، ليتة مات قبله ! كان استراح من مصيبته فيه . آخر ولد ترك الضيعة منذ شهرين . قدمنا وأخرنا فما نفع الحكي . خبروني انه يخدم في لوكنة . تأمل ضعف العقل : كان يحكم ويامر في بيته فصار أجيراً للناس . وهكذا تم فينا قول المثل . راح الرزق مع أصحابه .

— ومن أين تاكلون اليوم يا ام نخول ؟

— من ظهر الدابة^(٣) ، أجلك الله . كنا نشبع جبيل والبترون من خيرات أرضنا فصرنا نشتهي عنقود العنب في أيدي البشر . ما بقي من العمر أكثر مما مضى ، ولكن يقول المثل : تموت الدجاجة وعينها بفراخها . عزّ عليّ خراب بيتي قدام عيني^(٤) .

وأخذت تتفجع^(٥) ولا تدري من تلوم . ثم هدأت ثورتها بغتة وشرعت تبدي نظراتٍ عمرانية اقتصادية لو عمل الناس بها لصارت كل قرية جنة . ثم عاودتها ذكرى أيامها السالفة^(٦) ، أيام كان بيتها يضيق من غلة أرضها فعَلِقت تعدد عقاراتها قطعة قطعة ، وتتفجع على مواسمها واحداً واحداً ، وتصفق على ركبتها توجعاً والتياغاً ، فنهضت إذ ذاك ،

(١) و (٢) أسماء لأمكنة بين جبيل والبترون .

(٣) أي من تأجير الدابة ، وبما يعود به تأجيرها من مال زهيد .

(٤) صعب عليّ أن أرى الخراب يلم بأسرتي وأنا لا أستطيع دفعه .

(٥) تتفجع . تبكي متوجعة .

(٦) السالفة . الماضية .

فقالَت بانكسار : اقعد . فاعتذرت ، فقبضت على يدي بيديها الثنتين
وقالت ، كل مصائي هيَّنة عند خروجك من عندنا بلا أكل . آخ من
الأيام ! ثم تهتدت وقالت : ما لك جود إلا من الموجود . لا تؤاخذنا .
وما بلغتُ الباب حتى سمعتها تقول لي بصوت يخالطه البكاء : ردُّ
الباب خلفك^(١) .

وبلغتُ التينة التي رأيت تحتها أبا نخول بين أولاده فاذا هي
معصرة^(٢) الإزار ، بعد أن كانت كعداري دوار^(٣) . فخطرت في بالي
كلمة قالها جبران : مصيبة الأمم في من لا يستنبتُ بذرةً ، ولا يرفع
حجراً ، ولا يحوك ثوباً .

وانتصبتُ قبالتها كلمة قالتها ام نخول في بحثها العمراني : ماذا يصير
بالبلاد لو هجر الضياع^(٤) أهلها ، ومن أين يأكل الحكَّام والتجار إذا
خربت بيوت القرى مثلما خرب بيتنا ؟

وفي صباح اليوم التالي دقَّ جرس القرية المعلقة حزناً على ربة الحقل .
ماتت سيدة الضيعة ولحقت بمن سبقوها الى ظل السنديانة العظمى^(٥) .

(١) اغلق الباب بعد خروجك .

(٢) مغطاة بإزار أصفر ، أي أن ورقها قد اصفرَّ وبدأ يتساقط لقلة
الاعتناء بها .

(٣) العداري اللائي ذكرهن امرؤ القيس في معلقته يلبسن الثياب المذيلة .

(٤) الضياع : جمع ضيعة ، القرية .

(٥) الى المقبرة الواقعة تحت تلك السنديانة .

صَلَاةُ نَائِبٍ

استيقظ النائب ضحى الاثنين ، فانتصب كالنبي بعد هبوط الوحي ،
والبستاني على أثر ركود العاصفة . أحب أن يذكر الله في تلك الساعة ،
وكيف لا يذكر ربه وقد صار نائب أمة يكتب كتابها لمن شاء وان لم
يستطع ما فعل الفرزدق^(١) ... أجل أراد النائب ان يصلي - والنواب
كالناس يصلون في الازم^(٢) - فلم يقل : اللهم ... حتى قرع ناقوس
التلفون فتناول اللاقطة وأجاب :

- نعم ، نعم ، أنا .

- صبحك بالخير .

- أبو نجيب ، الله يسعد صباحك .

(١) إشارة الى ما اشتهر به الفرزدق الشاعر من كثرة تطليقه زوجاته .
ومعنى العبارة أن نائب الأمة يستطيع أن يزوجه لمن شاء وان كان
لا يستطيع تطليقها .
(٢) الازم : الشدائد .

– كيف الحال ؟

– هاه ، عال ا

– يا سيدي القضية التي عرضناها لك ...

– أية قضية ؟

– نسيتهما ؟

– لا لا لا ، تذكرت ، بهذين اليومين ان شاء الله ...

– بحياة جنابك ، نحن متكلون عليك .

– على الله يا شيخ ... وغير هذا ؟

– رضاك وتوفيقك .

– الله يحفظك . مع السلامة .

وعاد النائب ليصلي ، فلم يقل اللهم أعطنا خبرنا ... حتى دخلت
خادمتها ملهوفة تعلن مقدم أحد الأعيان ، فتعلم وخف^١ لاستقباله ، فإذا
به يجر وراءه وفداً ، فحيّوا النائب الجديد ، وحيّاهم وهنّأوه ، فشكر
لهم . وأديرّت عليهم كؤوس الشراب فاتدبوا لها بعضهم ، لأن الخادمة
لا تعرف التقاليد ، فأخذت الكأس تروح وتجيء بضع دقائق بين : أستغفر
الله ، وتفضل أنت ، وهذا لا يصير .

أما النقل فتناولوه محافظين على الكياسة جهدهم . والتفت قيودهم
ليغمز الخطيب فيتكلم ، فإذا به لإيراه ، فتغمغم^(١) وخرج في طلبه ،
وما عثم أن استرضاه وعاد به وأوقفه في وسط القاعة خطيباً . فادى

(١) غمغم الكلام : هم به ولم يبين .

خطابه أداءً صالحاً ، وتبرنس^(١) النائب بأطول منه ... كما قال بديع الزمان. فصفق الوفد وأجاب النائب واعدأ بتحقيق الأمانى والوعود... وقدمت القهوة فترشفوها^(٢) . وبعد أن قال كل واحد منهم ما جاء على لسانه لثلا يرمى بالعمى^(٣) ، انصرفوا ، وشيَّعهم النائب الى البوابة ، وعلى ثغره ابتسامة مسخرة .

وعاد النائب يصلي فلم يقل : ساعدني يارب على خدمة البلاد ولو عشت بالتقتير^(٤) ... حتى انتفض لأن التلفون يدعوه ، فانفتل^(٥) عن صلاته متأففاً . ظنَّ ان احد انصاره يدعوه ليذاكره بحاجة - وصاحب الحاجة أرعن^(٦) - فإذا به غير من ظنَّ ، فاستوى مهابة كأنه في حضرة المتكلم ناسياً انه يخاطبه تلفونياً وقال :

- نعم ولدكم ... يا سيدنا ... مستعد يا سيدنا ... نعم سيدنا ... تأمر ... الآن . أمر غبطتكم ... نعم . وختم الحديث بالتماس البركة الرسولية فمنحها من صميم الفؤاد .

واستعجل النائب خادمته بوقف سيارة مقفلة نظيفة ، وأصلح ثيابه وخرج ، فما بلغ البوابة حتى أرجعته ابنته الى التلفون .

(١) رد على الخطاب .

(٢) ترشفوها : احتسوها .

(٣) العمى : المعجز عن الإبانة .

(٤) التقتير : بالتقليل والتضييق في النفقة .

(٥) انفتل : ارتد .

(٦) أرعن : أحمق .

— نعم . من ، من ؟

— أنا .

فزرّ ردائه احتراماً وقال : عفواً ، فخامة الرئيس ... محسوب
فخامتكم . نعم ، أمر فخامتكم . وظلّ يهزّ رأسه ويهمر^(١) بنعم ، نعم ،
نعم ... الى أن ختم كلامه بقوله : حاضر يا مولانا .

وما ألقى اللاقطة حتى كان في الشارع . فاطلّ وفد أطول وأعرض
من الوفد الذي شيّعه منذ هنيهة . وبعد السلام والمصافحة لبعضهم اعتذر
لزعيمهم أن فخامة الرئيس وغبطة البطريرك يستعجلان حضوره الى
ناديهما ، وأنه سيعود بعد قليل ، ودعاهم جميعاً ليتغدّوا عنده ، ثم ودّعهم
قائلاً : البيت ببيتكم ... ومضى .

واستحال البيت الى حانة شرب وقصف^(٢) . والنائب يطوي
الطريق الى القصرين .

وعاد الى البيت وقد أدركه الليل فسأل عن الجماعة فقيل له :
تغدّوا وراحوا .

فاوى الى غرفته تعباً منهوكاً . ولم يخلع معطفه حتى قرع الباب
وانشقّ عن زميل كريم قال :

— يا هو ، كيف حال الوفود عندهم ؟

— العاطفة طيبة ، والثقة كبيرة .

(١) همز في الكلام : أكثر منه .

(٢) شرب ولهو .

- والخطب ؟ .. والمطالب ؟
– هي هي ، كل الدنيا مثل بيتك .
– انت عندك من هذه البضاعة ، أما أنا ... الله وكيلك مونسير ،
لا أعرف الألف من المادنة .
– تمرّن ، انت قادم على جلسات حامية الوطيس .
– وطيس ... ايش الوطيس ؟
– يعني جلسات حامية .
– اوه ، الآن فهمت ، بحياتك قل لي ... والنتيجة ؟
– لا تحمل السلم بالعرض .
– ماذا قال لك فخامة الرئيس ؟
– كما قال لك .
– والبطرك ؟
– كما قال لك .
– وسيادته ؟
– أيضاً .
– والرئيس وال... ، وال...
– كذلك .
– وما العمل ؟
–
– إذن قم .

– إلى أين ؟

– أأست مدعوا ؟

– بلى ، بلى كنت نسيت .

وشبكاً أيديها وخرجاً .

ورجع النائب الى بيته مجهوداً بعدما هدأت العين والرجل ، فإذا بأحد « المحترمين » في الانتظار . فحيّاً بالاحترام وتجلداً وجلس . وأخذ المحترم^(١) يدل عليه في حديثه ، ويريه كيف جاهد وجهوره ورعيته يومى الانتخاب . وكان النائب يسمع بخشوع . وبعد القهوة تحلحل المحترم للانصراف فقال له النائب : أبقى الليلة عندنا . فاعتذر له . وفي طريقها الى الباب ساق المحترم الحديث فقال :

– لا تنسَ شعبة طريق ... فهذه حياة الدير .

– نعم ، ولكن ما رأي قدسكم لو شقّت من الجهة الجنوبية فتمر بقرى ومزارع فينتفع أهلها المساكين ... والطريق ، كما فهمت ، صارت على باب الدير تقريباً ، وهؤلاء محرومون .

نريدها على باب الدير تماماً ، فالزوّار ، نشكر الله على هذه النعمة ، مثل الجراد . كلهم يتنمرون من مشي خمس دقائق . قال هذا ماشطاً لحيته المقنفشة^(٢) بأصابعه وضحكت منه .

(١) المحترم : لقب للكامن .

(٢) لحيته المقنفشة : المتداخلة الشعر غير المنسقة .

فهزّ النائب رأسه مدعناً^(١) ، وجرّ المحترم حديثه الى ثلاث أربع قضايا فقال : لا تنسَ المختار فهذا من غير حزبنا . والناطور كفّوا يده لأنه حشد لكم في الانتخابات ، فاسعَ جهدك لتبرئته . أما مسألة البلدية فإلى وقتها و... و... وكان النائب الصادق يحرك رأسه كالخرزون ، وظلّ يفعل كذلك حتى توارى المحترم .

وخلا النائب في مخدعه وتجرد وقعد في فراشه ، فذكر الصلاة التي لم يتمها فقال مع بشار : « الذي يقبلها تفاريق لا يرفضها جملة » . وأخذ رأسه بيديه وصلى :

« الشكوى لغيرك مذلة يا الله ، فلتبقَ في القلب تجرح ولا تخرج من الفم فتفضح ، انظر إلينا يا كريم .

« استكثروا راتبنا فاقتضبوه^(٢) حتى مسخوه . فلا ينطوي الشهر وينشر كشف النفقة حتى ترانا مكثوراً^(٣) علينا .

« الشعب يصرخ : اصلبوه ، ونحن نردّد : اقتسموا سلطتنا بينهم ، وعلى راتبنا اقترعوا .

« أياكون راتب النائب أقلّ من راتب كاتب البلدية يا الله ؟ وعلى هذه الغضاضة^(٤) أغضينا وقلنا خير من اللاش^(٥) ، في هذه السنين الضيقة ،

(١) مدعناً : منقاداً ، خاضعاً .

(٢) قضب : قطع .

(٣) مكثوراً علينا : مرهقين من كثرة المصروف .

(٤) الغضاضة : القلة والمهانة .

(٥) اللاش : اللاشيء .

وإذا لم نكن نحن للوطن فمن له ؟

« فنظرة يارب من أعالي سمواتك تثبت الحنان في قلب العميد ،
والتفاتة من عليائك تمدد سلطتنا المقرفة^(١) ، فنبیض وجهنا ونحقق
ولو شيئاً من آمال منتخبينا .

« ردّ عنا يا الله الوجوه المقرفة^(٢) الملحاحة^(٣) التي تتبعنا كظلمنا ،
وترجع مجالسنا أين كنا . يقولون أننا لا شيء ، ويطلبون منا
كل شيء .

« ارحمنا اللهم ، ووقنا عثرات السياسة يوم انتخاب الرئاسة .
« اللهم لا تدخل عبيدك النواب في التجارب ... ونجّهم من حلّ
المجلس ، وخلصهم من أسنة الجرائد . آمين ! »

وما انتهى حتى أغفى ، وظل يغط في نومه حتى الصباح .
واستيقظ ضحى الأربعاء فإذا بالقصاب^(٤) بالباب فقال : العمى ،
أقبل الضوء يا خليل ، يا فتاح ، يا عليم ...
فاجاب خليل بسذاجة : حمي النهار يا بك .
فتأفف النائب بين الجد والهزل وقال : آخر الشهر يا خليل ،
آخر الشهر .

-
- (١) المقرفة : المنكشة على ذاتها .
(٢) المقرفة : التي تبعث القرف والاشمزاز .
(٣) الملحاحة : الكثيرة الالحاح .
(٤) القصاب : بائع اللحم .

ثم ضحك ضحكة مكروب^(١) - وشر البلاء ما يضحك - وقال :
شباط ٢٨ يوماً يا خليل . فقال القصاب : وما عليه لو كان أربعين ؟ أنت
في العبّ يا سيدنا . وضحك ضحكة بلهاء وانصرف .

وزال الكابوس عن النائب ، فاغتسل وامتشط وهندم قوامه وخرج
يتوكأ على عصاه ، فهو على موعد مع مدير إحدى الشركات ...

(١) من اشتد عليه الكرب ، أو الضيق .

وَعَلَّتْ رَوَاكِبُ

كانت الحرب التي مضت حرباً مفترسة ، غرزت أنيابها في القرية اللبنانية فأنختها الجراح . فهاتيك البيوت المتهدمة أفواه من جساد تشهد أن البشر أشد فتكاً من اخوانهم في اللحم والعظم .

كنت عام المجاعة - ١٩١٧ - في قرية من جرود كسروان أقوم بعمل حكومي ، فدهمنا الميلاد فيها . وكان لي في تلك القرية صديق جمعتني وإياه مدرسة الحكمة سنتين . ثم تفارقنا وانقطع الحبل . صار صديقي حارثاً^(١) في كرم الرب ، وتحت أنا كما أراني حتى الساعة .

كان صاحبي متمسكاً بدينه لا يقبل فيه الجدل ، شعاره : « من تمنطق فقد تزندق^(٢) » ، الإيمان وكفى . وان أخرجته تجمعت أصابعه وصارت يده دبوساً^(٣) أقطع من برهان ذي حدين ...

(١) حارثاً في كرم الرب : من رجال الدين .

(٢) من تمنطق فقد تزندق : تمنطق تعاطى علم المنطق والزندقة الكفر .

(٣) صارت يده دبوساً : أي جمع أصابع يده للقتال .

بلغ صديقي نبأ قدومي « السعيد » فأرقل^(١) أرقال الجمال المصاعب ،
وأقبل عليّ بلحيته الوارفة ، فقال رفيق آخر : أحزر من هو ؟
فانكرت منه كل ما كنت أعرف ، ولم تنحل المعضلة^(٢) الكبرى إلا
حين تكلم وابتسم .

حبسنا الثلج في تلك الضيعة أياماً ، فكان صاحبي في أثناءها يتصرف
بي كما يتصرف في عقار ورثه عن جد جده : ارحم فلاناً فأرحمه ، وفلانة
أرملة مقطوعة لا تجعل عليها ضريبة وارمة^(٣) فناخذ من الجمل أذنه .

— مارون ، غداً عيد الميلاد أسمع وعظتي ؟

— وعظمتك أنت ؟ أنت تعظ ؟

— نعم ، ووعظاً يرضيك .

— حسبتني نسيبتك يا زيدان .

— أنت مفسوش^(٤) ، تندم اذا لم تحضر .

— غيايي وأندم خير من هلاكي بالبردين^(٥) ...

والتفت فإذا بأصابعه تتجمع فأخذت حذري ، فضحك وقال :

(١) أرقل : أسرع .

(٢) المعضلة : المسألة المستغلقة المشككة والخطبة الضيقة الخارج .

(٣) ورم الجرح : اذا انتفخ وتضخم .

(٤) مفسوش : مخدوع .

(٥) أن أندم بعد غيايي خير من أن أحضر وأهلك من برد الطقس
وبرد العظة .

« يا سبحان الله ما زلت كما كنت . تسمع ما يرضيك ان حضرت . كنيسة
ليست كاتدرائية ^(١) ولكنها خشوعية ^(٢) . قديمة من عهد الفينيقيين ، فيها
رهبة ونور ضئيل ، تلهم أشياء أشياء » .

قلت : اذا يتضاعف هم القديس هيرونيموس في كنيسة .
ورأيت لم يدرك ما عنيت فضحكت وقلت : الكنيسة معتمة .
فاجاب وهو يززعني ^(٣) بيديه كأنه يقلع توتة : والقسيس أعمى .
احضر يا مارون ، واحك ما تريد .

ودقت أجراس القرى تسبح الله نصف الليل . وقرع جرس كنيسة
صاحبي ، فتغلغلت ^(٤) في فراشي وقلت في نفسي : أعتذر له بغرق في
النوم . ولكن صاحبي لم يحل عن عهدي ^(٥) به فجاء بنفسه ، وفتح الباب
وهو يقول : المجد لله .

فقلت : وعلى الأرض السلام .

فقال : قم ، بلا طق حنك ، ولا سلام ولا رجا صالح . أنا عاجنك
وخابزك ^(٦) .

(١) الكاتدرائية : الكنيسة الكبيرة في الأبرشية .

(٢) خشوعية : توحى بالخشوع والتقوى .

(٣) ززع : حرك شديداً .

(٤) تغلغل : دخل فيه على تعب .

(٥) لم تتغير عما عرفته .

(٦) أعرفك على حقيقتك .

وساقني أمامه .

حقاً ان كنيسته ، كما قال ، تلقي الرعب في القلوب نهراً فكيف بها في تلك الليلة القائمة الأعماق ، والثلج على سروات الأشجار كما قال الفرزدق^(١) . لم يضيء بها غير فانوس ، وباليته جاحظ الفتيلة كمصباح راهب امرئ القيس ! ولكنه كقناديل بخلاء الجاحظ^(٢) ...

حاول أحد الشمامسة أن يوقد بضع شمعات فزجره الخوري ابراهيم مكتفياً بشمعتين عسليتين . ورفل^(٣) في ثياب التقديس المزركشة ، وأسرع في تلاوة قدّاسه فبلغ الانجيل برفّة عين^(٤) . فقلت في نفسي : عافاك يا خوري ابراهيم ، هذا قدّاس ! والتفت صاحبي صوب الشعب منكسر^(٥) الطرف ، وبعدما فرك يديه قال :

يا اخوتي المباركين !

عيد الميلاد هو عيد ولادة البشر كل عام ، كما قال الرب يسوع لثيقوديمس : الحق الحق أقول لك ، ان لم يولد الانسان ثانية فلا يقدر أن يعاين ملكوت الله .

(١) يكسور رؤوس الأشجار وسيقانها .

(٢) لم تكن فتيلته بارزة فنوره ضئيل كقناديل البغلاء الذين صورهم الجاحظ يقتصدون ويةتروون ، يشخصون الفتيلة لئلا تستهلك الكثير من الزيت .

(٣) رفل : جر ذيله ، تبختر .

(٤) رفة عين : أي سريعاً .

(٥) منكسر الطرف : خاشع البصر .

فأجاب نيقوديمس : وكيف يمكن هذا ؟ فأجابه الرب يسوع : أنت معلم اسرائيل وتجهل هذه ؟ أتعلمون ماذا أراد المعلم ؟ ان المعلم يريد أن نولد بالروح ، أن نولد بالرجاء ، أن نولد بالحب ، أي أنت نولد كل عام بتعاليمه . ولو تحققت هذه الولادة لما كانت هذه الحرب العالمية .

ان هيرودس وبيلاطس وقيافا يبرزون كل عام الى الميدان ليحولوا دون هذا الميلاد كما أرادوا قتله في ذلك الزمان . يريدون اطفاء سراج الانجيل الذي خلق عالماً جديداً . لا أدري ما أقول عن الهيرودسين والبيلاطسين أعداء السلام المسيحي الذي ولد في مثل هذا اليوم ، الذي لا حياة للعالم بدونه .

لا أحدثكم عن يسوع الإله ، بل عن يسوع ابن الانسان ، فأقول لكم ان عيد ميلاده هو عيد ميلاد حقاً . ولحكمة فائقة جعلته أمنا الكنيسة المقدسة في هذا اليوم . ان الطبيعة التي قال لها كوني فكانت تولد اليوم . أليس الشتاء كالميلاد ، والربيع مثل الشباب ، والصيف كالكهولة ، والخريف مثل الشيخوخة ؟ أليست الشمس تولد اليوم من جديد فتصعد الى أعالي القبة ؟ وكذلك النهار فهو ينمو مع السيد ، ومعنى هذا ميلاد النور والحق والحياة .

ثم التفت نحوي وقال كالتوجع : آه من البشر ! كل شيء يتجدد مع الميلاد إلا الانسان . الانسان لا يريد أن يولد مع المعلم ، لا يريد أن يفهم معنى الميلاد الحقيقي . ان الحيوانات كانت أرأف بالطفل من البشر . الحيوانات أعطته كل ما تملك ، ومن كل قلبها ، أعطته جزءاً من نفسها ،

أي حرارة تدفئه ، بينا ملوك العالم ، أي المجوس أعطوه من فضلاتهم ،
مرأ^(١) وذهباً ولباناً^(٢) . نعم ، ان سجود هؤلاء الملوك السحرة له هو
اعتراف بعهد جديد ، عهد حرية بني الانسان ، عهد تغلب الحق على
الشعوذة^(٣) ، ولكن ما حاجة يسوع الى ذهبهم وهو القائل : يا بني أعطني
قلبك ؟ ان زعماء البشر أعطوه المال الذي أبغضه وداسه ، ولم يعطه من
قلبه ونفسه إلا البهائم فكانوا خيراً منا . الحيوان يكتفي بقتل حيوان .
أما الانسان فيقتل اخوانه جملة ولا يكتفي . ألا ترون هذا بأعينكم ؟ أما
ندفن كل جمعة أربعة خمسة ؟

يا اخوتي ، تعلمون لماذا سمى يوحنا الحبيب الطفل يسوع كلمة الله .
ان في ذلك سرّاً عظيماً ، فالكلمة هي سر السلام ، سر المسرة ، سر الرجاء
الصالح . ألا يقول المثل : من وطأ كلمة وطأ جبلاً؟ ولو نبتت كلمة الله
في قلب هيرودس ويلاطس لما كان الشر الذي نلقى غبه^(٤) اليوم .

ان الطفل الذي نحتفل بعيد ميلاده اليوم هو الدائرة التي تضم
في قلبها الانسانية كلها ، وان خرجت الانسانية منها أكل بعضها
بعضاً كالوحوش الضارية . والبرهان ما ترون وتسمعون . فكما يخلق

(١) المر : مائع يسيل من شجرة فيجمد وهو طيب الرائحة مر الطعم .

(٢) اللبان : صمغ طيب الرائحة والمذاق .

(٣) الشعوذة : التدجيل .

(٤) غبه : عاقبته .

البرق والرعد الكأة^(١) في الصحراء كذلك تخلق فينا كلمة الله المحبة ،
وحيث تكون المحبة يكون الإيمان ، وحيث يكون الإيمان كان الرجاء
والسلام .

ان النجم^(٢) الذي هدى المجوس الى المغارة هو رمز الانجيل الذي قاد
العالم الى ميناء السلام والاطمئنان . ويا ليت هذا النجم يطلع كل عام في
سماء الانسانية ليهدىها الى القناعة فمغارة الميلاد استعالت قلعة محصنة
بالرشاشات والمدافع والقنابل ، وشجرته أمست كتلك الشجرة الهندية التي
يقولون انها تاكل البشر . وكل هذا من ظلم هيرودس ، وطمع بيلاطس ،
وجشع يوحانان ، وأنانية قيافا ، وفتور إيماننا نحن .

فيا ليت الملوك يولدون مع المسيح لتستريح الانسانية المعذبة ،
الجائعة ، العارية ! ان النفوس التي اشتراها المسيح صارت عندهم أرخص
من الزبل .

أيها الأحياء !

ان الميلاد يجب أن يتجدد في كل مكان ، في البيوت وفي المدارس وفي
الحكومات ، وبدون ذلك لا تتقدم البشرية .

سمعنا أن المتحاربين يقفون القتال في مثل هذا اليوم إكراماً للميلاد ،
ولو كانوا يولدون معه لآلقوا سلاحهم تحت قدميه .

(١) الكأة : نبات يوجد في الربيع تحت الأرض كالقلفاس .

(٢) النجم الذي سطع ليلة ميلاد المسيح يهدي المجوس الى المغارة التي ولد
فيها السيد .

فاجعل، ياربنا وإلهنا ، ميلادك ميلاداً حقيقياً ، وانفض الانسانية
من سقطتها ، انك أرحم الراحمين ، آمين .
وانتقلنا بعد القداس الى بيت أينا الخوري . وفيما نحن نأكل ديك
الميلاد ونشرب عليه خمر لم يذق مثلها الاخطل^(١) ، قال الخوري ابراهيم:
كيف وجدتني ؟
فاجبته : المحبة تخلق كل شيء حتى البلادة . عيد مبارك .

(١) غياث بن غوث التغلبي من شعراء العصر الأموي ، اشتهر بشربه الخمر
وإجاده في وصفها .

حبس مقيت

ما رأت عيني مثله رجلاً . لو تراه يمشي على الرصيف وفي يده عصا
يتوكأ عليها بعظمة وجبروت^(١) لحسبته حاوياً^(٢) أو ساحراً من بقايا
زمن عبادة العجل والأفعى . شعر مثني^(٣) ومرسل^(٤) كما قال امرؤ
القيس^(٥) . وعينان ساهيتان تحلمان باللاشيء . وجد على الأرض منذ ثلاثين
عاماً فخالها أوسع مدى من دهر أبي العلاء . أسمر مربوع ، على كرسي
خده خال^(٦) أشعر تحسبه شارباً مغتر بجماله يظن أنه فلقة^(٧) قمر ، لو بدا

-
- (١) جبروت : سلطة ، قدرة ، عظمة .
(٢) حاوي : الذي يرقى الحية .
(٣) مثني : معقوص الى أعلى .
(٤) مرسل : متروك يتدلى على الكتفين .
(٥) إشارة الى بيت امرئ القيس في وصف شعر فتاته الذي منه : تضيق
المقاص بين مثني ومرسل .
(٦) خالة : شامة ذات شعر .
(٧) فلقة قمر : قرين القمر في الجمال .

لحامل في طور الوحام^(١) لجاءت بيد لم يحلم بمثله الشعراء . يؤمن بملكوت
الأدب ويرجو الخلود فيه ، فهو في عين نفسه إحدى فلتات الزمان ، بل
شاعر العرب المسكوني .

عرفته مساء يوم معرفة وجه فما أصبح حتى شنّ عليّ غارة عتاها
حقيبة في شهرها التاسع فيها شعر وفيها نثر ، مقالات وقصص ، قصائد
طوال وقصار . وبالجملة فيها ما في قبوي^(٢) المعدّ لسقط المتاع^(٣) .

صاحبنا مبتلي بملاريا الأدب ، ومتى نفضته البرداء^(٤) يشتد هذيانه^(٥)
فيه . يأنس بأشياء من العلم الحديث فيخيّل اليه أنه وجد حجر
الفلسفة . إن رأى معازاً أو بقاراً أو فلاحاً ابتسم له وحيّاه تحية
صبّ^(٦) مشتاق ، حتى إذا استأنس به انهل عليه بأسواط منظومة
ومنشورة . يطمع في أن تعمّ شهرته جميع الطبقات ، فأعار الأرض اهتماماً
اقتداء بفرجيل ، ثم وصف المارك كهومير ليسدّ برأس قلمه ثغرة في
جدار الأدب العربي .

-
- (١) طور الوحام : الأشهر الأولى من الحمل .
(٢) الطابق السفلي من المنزل يستخدم كمستودع للأشياء الغير مستعملة والبالية .
(٣) سقط المتاع : الأشياء القليلة القيمة والبالية .
(٤) البرداء : الحمى مع البرد .
(٥) هذى : تكلم بغير معقول لمرض أو لغيره .
(٦) حجر الفلسفة : الحجر الذي بحث عنه العلماء ليعولوا به المعادن الى ذهب .
(٧) العاشق الوطان .

تقرأ على مسامعه قصيدة لأعظم شاعر. فيفتّر^(١) عن أسنان مصفرة
ولثة^(٢) مزرقة ويقول بكل وقاحة : منو المتنبي ؟ ومنو شكبير ؟
أليساً بشراً مثلنا ؟

يفتح كشكوله^(٣) ويخرج منه أفاعي رقطاء ورقشاء دونها حيات
أدهى الحواة ، فتسمع وأنفك راغم . وان تشاءت يحدجك بعين زرقاء
لو رآها ابن الرومي للزم بيته شهراً كاملاً .

عليك عند سماع درره اليتيمة أن تهز برأسك كالضب^(٤) ، وترجع^(٥)
كالحمام ، وتثر زهور الاستحسان عند كل نظرة يلقيها عليك وعند كل
شدة يعض عليها ... ولا تحسب أنك اتقيت شره ان فعلت ، فصاحبنا
مغفل^(٦) يخالك طربت حقاً فيتمادى حتى يؤنسك ساعات ... لا يدرك
أن أحداً مشغول لأنه بطال، أدركته حرفة الأدب فلا عمل له غير النظم
والنثر وكب هذا الزفت على رأس من يتشبث^(٧) به . مؤمن بأنه من
عباقرة الشرق العربي ، ويرجو أن تنصفه الذرية التي تربى تربية
حديثه . أما معاصروه فجلبهم حساد ، ومعظمهم غلاظ الأكباد .

(١) يفتّر : يتسم .

(٢) لثة : منفرس الأسنان .

(٣) كشكول : دفتر كبير .

(٤) الضب : حيوان من الزحافات شبيه بالحرذون وذنبه كثير العقد .

(٥) ترجع : تكرر الصوت .

(٦) المغفل : من لا فطنة له .

(٧) تشبث : تعلق .

لا يستقر إن جلس ، فكأنه قاعد على خازوق^(١) ، فهو يتفنن في جلسته كأنه أمام مصور ، وكثيراً ما يدعم ذقنه بإبهامه ويثني السبابة على شفتيه فيغطي بها السفلى ويسند العليا .

دعاني يوماً الى زيارته وألح عليّ وأغرائني بقوله : « تعلم ان كل بلد معروف بلون من الطعام والحلويات ، وأنا عندي لون ما ذقت مثله أبداً ، ولا أبصرته في نومك . إن زرتني أذقتك إياه وعلمتك صنعه ، فتأكله وتبيض به وجهك أحياناً » .

فقلت في نفسي هذا صياد ماهر يضع في صنّارته ذبابة ليصطاد دلفيناً^(٢) ... وارتخت نفسي إذ سمعت بأكلة جديدة . ثم حسبت أنه سيحبسني عنده حتى الغداء ، وأنه سيعدّ لي من مطهيّاته^(٣) خيولاً تجول في كل ميدان ، فجئته بعد الميعاد بساعتين . تذكرت الأكلة الجديدة التي لم أحلم بها ، وحياتي كلها أحلام من هذا الضرب ، فهان عليّ سماع سفاشفه^(٤) ثلاث ساعات .

كان جالساً الى طاولته جلسة فنية ، وقد نشر عليها أوداقاً تخال سطورها دروب النمل على الرمل أو أعشاش البق في زوايا بيت لم تعرف حيطانه المكائس . انقبض صدري وأخسست بما تحس به النفوس قبل

(١) الخازوق : عمود طويل محدد الرأس .

(٢) دلفيناً : دابة بحرية كبيرة .

(٣) المطهم : السمين ، والجواد المطهم التام الحسن .

(٤) السفاشف : السخافات والردىء من كل شيء .

الخطر والنكبات ، ولكنني تجلّدت وقلت : « هما ساعتان ويليهما الغداء .
فهب اني في حبس الدم »^(١) فما يكون مقدار ويل ساعتين ثلاث في سبيل
أكلة تتلذذ بها ونضيفها الى معجم المطبخ ؟ » .

وكان ردّ التحية توبيخاً لطيفاً على تضييعي ساعتين أخسر بها
مشاهدة أسراب من عذارى الخلود^(٢) . عنّفني كاني غريمه ، فاعتذرت
بما ألقناه من أكاذيب المعاذير . زعمت له اني التقيت أديباً آخر استوقفني
ليسمعي آية فنية جديدة . فتأفف وتمتم : « ما أشد غرور الأدباء ! ما
أسمجهم »^(٣) ايفلقون^(٤) الناس بترهاتهم^(٥) . ثم استعجل حرصاً على
الوقت وفتح دفترأ من قطع شعيم^(٦) كنيستنا . فرمقت ذلك الدفتر
بمؤخرة عيني ، فأدركت انه لا يزيد عن كف ، فقلت في نفسي : « اللطمة
بكف هينة ، وقانا الله شر الكفين » .

شرع يقرأ ويشرح ، فقلت له : « لا تضيعني . اقرأ وعجل
والمناقشة بعدئذ » . ومضى هو في نثر درره ، وسحت أنا في دنيا اللاوعي .
فكنت كالأطرش في الزفة .

(١) حبس الدم : سجن المحكوم بالاعدام وهو أيضاً بمعنى حبس ضيق لا

يخرج منه كحبس الدم في الشرايين والأوردة .

(٢) عذارى الخلود : القصائد والأبيات الخالدة .

(٣) أسمجهم : أقبحهم .

(٤) فلق : شق .

(٥) ترهاتهم : أباطيلهم .

(٦) شعيم : كتاب صلوات كبير الحجم .

ودقّت الساعة الثانية وصاحبي لم ينته من قراءة تحليل نفسيّ من قصة فتاة هجرها صاحبها وأحبّها غيرها .

قال صاحبي : انها كانت تفكر في مصيرها وخيبة آمالها . أما أنا فكنت أفكر بالأكلة العبقريّة التي وعدني بها . لم أسمع قعقة صحن ولا وسوسة^(١) ملاعق ، ولم أشم غير رائحة أدبه ... فادركت اني وقعت في الشرك ، وتذكرت المثل القائل : « ان الشقي وافد البراجم » .

وانتهت القراءة وجاء دور التعليق فأخذ يدلني على مواضع الحسن . فيئست من حديث كليل^(٢) ابن الفارض ، وأخذت أتحسّن الفرصة للفرار وهو يسدّ عليّ الدروب ، ولا يدع لي مجالا .

وشاء القدر فسعل وانقطع سيل كلامه الجارف فوقفت ، فأخذ يسعل ويومئ اليّ : أن اقعد ، فحييت وانصرفت لا أسمع نداء ولا ألتفت ورائتي .

وبعد عامين قرع صاحبنا باب غرفتي ، وكان بطني ماشياً في ذلك النهار ، فدخل عليّ الساعة الثامنة وأخذ ينزع من كنيّته^(٣) الحجّاجية سهماً اثر سهم ويصوبها إليّ ، زاعماً انها فتح جديد في الأدب العربي ،

(١) وسوس : صوّت .

(٢) كناية عن الطول الممل .

(٣) الكنيّانة : جعبة يضع فيها الصائد سهامه . والكنيّانة الحجّاجية نسبة الى الحجّاج بن يوسف الثقفي وقد قال في خطبته من أهل الكوفة : ان أمير المؤمنين قد نثر كنيّته بين يديه .

وانه قرأها على أئمة العواصم فقرّظوها وأثنوا عليها . وأراني خط كل واحد منهم ، وفي نيته أن يظفر بشيء مني ، فقلت له وقد شقني : « الأدب ذوق يا صاحبي ، فلو كنت شيخ أدباء العالم ، وهذا ذوقك ، فإنك أفتك من طير أبايل »^(١) الرامية بحجارة من سجيل . قم غني يا أخي ، فجسمي مهدود لا يحتمل مسهلين ... كيت وكيت من الأدب والأدباء ، متى كان الأدب حقنة ؟ ... ليتك تحلل نفسيتي بدلاً من تحليل نفسية تلك المستورة ، بطله روايتك . ليتك تدرك هذا فتكتب أروع فصل تحليلي . غفر الله لبورجه وستندال ودوستويفسكي . للطاعون مصل واقر ، أما أنت فبهيات أنت يقيني منك واق ، ولو هاجرت الى مدينة النحاس والواق واق . ارحمني يا صاحبي ، وخف ربك ، فعندي أولاد عيال^(٢) علي . فاخضوضر واحمومر ، كما عبّر أصحابنا الرمزيون . ولكنه كانت أدهى مني فشنّ عليّ هجوماً معاكساً وسألني كأنه لم يسمع ما قلت : « ما قولك في الكلمة ؟ » فاجبته جبراً لخاطره المكسور ، وإصلاحاً لما أفسده الغيظ وارتفاع الضغط من أدبي معه فقلت : « الكلمة ، الكلمة بنت سفر التكوين العجيبة ، وهي أعظم أسرار الله . ان صدرت عن نفس خيرة كانت نعمة وبركة ، وان قذفها قلب أسود كانت لها أزرق يلتهم الناس كالهشيم » .

(١) طير جاء ذكرها في القرآن الكريم رمت الجيوش المفيرة على الكعبة

بحجارة من نار .

(٢) عيال : عليّ أن أعمل لأعيلهم .

« الكلمة ، يا صاحبي ، أبدعت كل شيء كان . صارت الكلمة فعلا
فكان الكون . أما قال الله للكائنات كوني فكانت ؟ ألم يقل يسوع للرياح :
اهدني اسكتي ، فهدأت وسكتت ومشى على الماء ؟ الكلمة وشاح الرسالة
والنبوة ودرع القواد وعدة الساسة وضالّة ^(١) الأديب مثلك . بها اقتاد
النوابغ البشرية وبها خلدوا ، فاسأل الله أن يقول كلمته ، ويكتب اسمك
في سفر الخلود » .

واستأذنت بالخروج لاستنشاق الهواء وإفراغ ما في صدري وبطني .
كنت لا أدري في تلك الساعة أهو عندي أم أنا عنده . وعدت فإذا به
يخرج قصيدة من عبّته وأنشدنيها فور دخولي فقلت : لا حول ولا . آخر
الدواء الكي . وإذا بصاحبي يستطرد من واحدة الى اخرى ، فعلت
أنه لا يحسس إلا بالمسّاس ^(٢) فقلت له : « وماذا تبتغي مني بعد هذا
الاضطهاد والتنكيل ؟ »
قال : أريد رأيك .

فقلت : لا رأي لمن لا يطاع . اقسم لي بشرفك انك تطيعني . ان
هذه الرزم التي شئت بسوادها آذان أئمة ^(٣) العواصم ، كما يعبر الكذّابون ،
لا تصلح إلا لذلك الموضع وذاك الغرض ... فتش ، يا عزيزي ، عن

(١) ضالّة : مطلب .

(٢) المسّاس : قضيب طويل يستخدمه الفلاح في حث ثوربه على العمل أثناء
الفلاحة .

(٣) أئمة : جمع إمام .

رزقك ، فالله يرزق من يشاء - الضمير يعود الى المسترزق - ولئن قطع
غيري لسانك بثنائه عليك فأنا أصدقك الخبر وسبني ماشئت . أنت
تعتمد على عبارات معلوكة معروكة ، وعلى صور أبدعها الانسان الأولي،
وتراها كما يراها غيرك ملاك البلاغة العربية . أما انا فأحاربها ، وأحفر
الخنادق كل يوم لأقبرها فيها أفواجاً . ليس لي رأي في المومياءات ، بل
اتقزز من ينبشون قبورها ، وأكاد أتقيا اذا نظرت اليها .

وبعد شهر حمل إليّ البريد كتاباً ضخماً التام بين دفتيه شمل تلك
الوريقات المشؤومة ، وفي طليعتها مقدمة فضفاضة كفساتين راقصات
النور ، كتبها أديب موقر فحشاها ألفاظاً ورواسم مألوفة جعل بها
المؤلف من قادة الفكر وأصحاب الفتح المبين ، فاوهنا أنا ما سرينا في
ظهور جدودنا إلا لنرى هذا الأديب الكبير ، كما زعم المتنبي لكافور .
فقلت للذين حولي في تلك الساعة : « ما أكثر الدجالين ! ان زجاجة
عرق من عيار ثلاثين أقل إسكاراً من لقب الأديب الكبير ، ويا ويل
الأدب والأدباء من أشباه ابن القارح ! »

مهاجرة

١

فرنسيس ابن بيت توارث مشيخة الصلح^(١) منذ نشأة المتصرفية .
أحب هدلاً فزاحه عليها الكثيرون من شباب القرية ، فغلبهم ولم يثبت
له في الميدان غير شبان غرباء من أبناء وجوه البلاد ، فوجدوا لهم أنصاراً
من المقهورين الخائضين ، فانشقت الضيقة حزبين . اخذ ابو هدلاً حذره
فكان يزرب خيول « الساهرين » عند بنته ، في القبو ويشك المفتاح في
زناره مظهراً نصفه ، كان لسان حاله يقول لأنصار فرنسيس : « المفتاح
تحت زناري ، فلا تحلموا بجز أذنان الخيل ونواصيها^(٢) ... » يفرغ
بيته صباحاً ويمتلئ مساءً ، فالسهرة عند البنات شروط ، منها المجيء بعد

(١) مشيخة الصلح : منصب إداري يشغله شيخ صلح .

(٢) جز : قص الصوف او الشعر ، والنواصي الشعر المتدلي على غرة الجواد
وناصية الشيء مقدمته .

المغرب ، والرواح قبل الفجر ، وعدم النوم في الضيعة لأنه جبن وفزع .
إذا جاء فرنسيس ملاً أنصار مزاحيه البيت ، وكبسوا عليه حتى
الفجر . وإن جاء راغب آخر أقبل رجال فرنسيس بالعصي والتبايت^(١) ،
وخناجر بعضهم الجزينية^(٢) مشكوكة في الزناير من وراء ، وفي الناحية
المقابلة من الخصر تعلق أكياس التتن^(٣) المحملية المطرزة: هدايا الحبيبات
الى الأحباب .

كهرب جمال هدلا جو القرية وصارت حديث الناس في بيوتهم ، وفي
حقولهم ، وعلى العين ، وقدّام باب الكنيسة صباح الأحاد والأعياد . فهذه
واحدة صادرة عن التبغ ، وجرتّها على كتفها ، تستوقفها جارتها الواردة
لتقول لها : « أمس كان عندها شبّ مثل القمر ، سبحان الخالق يا امرأة ،
صورة بورق » .

فتضاحكت أم فنيانس وقالت : « بسّ » ، يا أم ضومط ، نسيت قول
المثل : زوان بلدك ولا القمح الصليبي . صحيح ان فرنسيس أسمر ،
ولكن له هيبة السباع ... »

فقاطعتها قائلة : « قولي أسود ولا تخافي . »
فلم تعر مقاطعتها اهتماماً وقالت : نعم هو ضخّم الجثة ولكنه أنعم
من الحرير .

-
- (١) النبوت : العصي الطويلة ذات الرأس المكور .
(٢) الخناجر الجزينية : التي كانت تصنع في جزين .
(٣) التتن : التبغ ، ما كان يوضع به التبغ وكانت تصنع من الحمل المطرز .

فصرخت بها ام ضومط : بسّ ، بسّ ، عين الحب عمياء .
فتحركت ام فنيانس مظهرة الغضب ، فتمسكت ام ضومط بفستانها
وقالت لها : ما سمعت قول المثل : الذي لا يتغرب لا ينال غنائم .
فرنسيس ابن أكبر بيت ولكنه مكثور عليهم .

فضحكت ام فنيانس قائلة : ومن يدريك ، ربما كان الذي حكيت
عنه مثل قول المثل : الذي في الصندوق على القفا ملزوق^(١) ... لا تهوروا
البنات ، حرام عليكم يا بشر . ما لكم دين ؟

فاحتدت ام ضومط وقالت : شبّ في السوق ولا مال في الصندوق .
وامتدّ الحديث وطال ، والجرّة ترشح^(٢) ، فغار الماء ، ومشى الى
حيث لا تحتمل ام فنيانس فوحوحت^(٣) وقالت : الطبخة استوت ،
الميعاد بعد يومين ، خميس السكارى^(٤) .

وما مشت خطوات حتى صاحت بام ضومط : قولي الله يستر .
فاجابتها ام ضومط : السالم لأهله .

وأخيراً أخذ فرنسيس هدلاً بعد معركة حمراء أصبحوا يؤرخون
بها في الضيعة فيقولون : خلق فلان سنة شر هدلاً ، وجاء سيدنا المطران
الى الضيعة بعد شر هدلاً بسنة ، مثلاً . أما العريس الأسمر فتتعم بزواجه

(١) معنى المثل أن الظواهر تم عن السرائر .

(٢) رشح : ندي بالمرق .

(٣) وحوح : صات بصوت فيه بحج .

(٤) الخميس الذي يسبق الصوم .

وأمسى يزيد عدد أبناء آدم واحداً كل عام . ومات أبوه فاستدان الف ذهب ، وصار شيخاً ، فاجتمع له أمران عظيمان في القرية : زوجة « عيوقة »^(١) ، والمشيخة .

وخرق في بيته يسهر على كنزه الذي لا يفنى . كان يخبر في النهار مرّات كيف كعم^(٢) الضيعة وأخذ هدلاً ، فصار يقص عليهم أيضاً كيف دعس الرقاب وصار شيخاً . وظلّ ينفق المال ولا يبالي حتى ركه الدين . وبانت القيلة في البيت ، فعبس في وجه أهله وزوّاره .

وكان فرنسيس يتشبث بأطواق عابري السبيل ليعشّهم ويغديهم فسموه مخزق الثياب ، فصار يحسب ألف حساب لرغيف يكسره في وجه ضيف ما منه مهرب . وعلا عياطه^(٣) في البيت فردد خصومه قول المثل : القلة تورث النكار .

ورأت هدلاً برودة من زوجها فتساءلت إن كان هناك حب جديد فكان الجواب : لا . فرجلها لا يتردد على بيت أحد . من البيت الى الكنيسة ، ومن الكنيسة الى البيت . حقوق المشيخة محفوظة... والتفتت حوالها فما رأت غير نسوان آدميات . وسمعت ما قال الرب يسوع يوم الأحد : الويل للعالم من الشكوك ، والويل لمن تأتي على يده . فصلت بحرارة طول القداس ، وردّت بصوت عال سمعته حماها : « يا ربي ،

(١) عيوقة : لطيفة الشكل ، لبقة في تصرفها .

(٢) كعم الضيعة : أرغم الضيعة وأتعب أهلها .

(٣) عياطه : صياحه .

لا تجربني . « فقلبت شفتها وهزّت كتفها .
وسرى ميكروب القلة الى الاولاد فهدأوا وصمتوا . وصارت هدلا
تكاد تشمئز حين تنادى : يا شيخه !
ودخل البيت يوماً دائن ملحاح فتجهم وجه فرنسيس . كان يغضب
لأقل حركة يأتيا بنوه حتى صفع أصغرهم على هفوة فانطبعت أصابعه
الخمس في خده الطري . فاحتجت هدلا على فظاظة ابن عمها بدمعتين قفزتا
من وكرها الفتان وكرجتا على صحن المرمر . أما فرنسيس فما درى بما
فعل لأن وجه غريمه سد عليه الأفق ، كعراض السماء في الليلة السوداء .
أمسك فرنسيس قلبه بيده ، يخاف أن يشق غريمه حديث الدين أمام
زوجته والاولاد ، فكان يسد الأبواب بلباقة . ولكن الدائن جبار عنيد
إن بان له خور^(١) في مديونه . وكان واثقاً من مناعة الموقف . وحوّم^(٢)
الزائر الكريم في آفاق المطالبة ، وقبل أن يقع نهض فرنسيس وقال له
بنفور : « تفضل الى الأوضة^(٣) . هناك نحكي بحرية أكثر » .
فاجابه هذا بفتور : هذا سر عن الشيخة والمحروسين ؟
فأهوت يد فرنسيس الى زند غريمه ، فاحسّ هذا كأن كمّاشة أطبقت
على ذراعه . واقشعر^٢ فرنسيس وقال : « هذا أمر لا يعني غيري . »
وأشار صوب الغرفة قائلاً : « قم ، تفضل . »

(١) الخور : الضعف ، الانشقاق والتفسخ في الأرض .

(٢) حوّم : دار .

(٣) الأوضة : الغرفة .

فنهض الدائن متثاقلاً وانشقَّ شذقه عن ربيع ابتسامة نفذت الى صدر
فرنسيس كرسامة مسدسه المشهور في البلاد... وكان بين الرجلين حديث
طويل التقطت منه هدلاً بضع عبارات منها إن القصة قصة دين استدانه
زوجها بعد معركة الزواج ، واستنتجت أيضاً أن أكثر زوارهم الذين كان
يذبح لهم فرنسيس مواشيه هم دائنوه . وأت فتور الحب ناتج عن ضيق
اليدين . وأمعنت في الملاحظة^(١) فسمعت كلمة أميركا تتردد ، ولكنها
لم تفهم ما يعنيان ، فتركتها وذهبت تعد الغداء . لم يبق في البيت معزى ،
ولا غنم ، ولا ديوك ، ولا أرانب ، فذبحت الدجاجة البيضاء العزيزة ...
يقول المثل : اطعم الفم تستح العين ، فما يسد بوز الدائن ، موقتاً ،
غير هذا .

وكان الحديث على المائدة طرياً ناعماً ، وكانت الوجوه طليقة ، وكان
الدائن ينظر إلى هدلاً كمن عنده سرٌّ يتردد في إذاعته . رأى أدلة النجاح
الباهر في المهجر متجمعة في ذلك الوجه الحلو ، فحلم بالاستيفاء نقداً
وعداً ، ليرات انكليزية تخرج على حروفها... وكان زوجها جالساً قبالة
يبتسم ابتسامة أخرق^(٢) حتى إذا عاودته الفكرة قطب وعبس . ثم يذكر
انه في موقف لا يجوز فيه التعبيس ، فينطلق وجهه كجواد يقف لحظة
ثم يجري . فقالت هدلاً لزوجها : « في وجهكم حكي » . فغمغ الدائن كلامه
وقال : « لا ، الأمر بسيط » .

(١) الملاحظة : استراق السمع والنظر .

(٢) أخرق : لم يحسن عمله ، أحق .

فاجابت هـدلا : بلى ، قولوا ما عندكم بسيطا كان أو مركبا .
فاجاب الدائن كالمثلث : أنت ... عارفة أنت ... زوجك ...
وسكت .

فاتسعت حدقتا هـدلا منتظرة الحكم ، فقال الرجل : مغلوب .
ومغطها^(١) .

فاطرقت هـدلا . فقال : أبديتُ له رأيا لا أعرف اذا كنتِ
توافقينا عليه .

انتفضت هـدلا انتفاضة مستغرب ، وكيف لا تستغرب كلمة
« مغلوب » ؟ فهي معتقدة أنها تزوجت ابن روكفلر . وازدحمت في رأسها
خواطر أعجز عن تحليلها ، ودق قلبها دقات أخافتها . فالتفت الى الرجل
تسالة بسكوتهما الإفصاح عما يريد ، فقال لها : لا يخلصكم غير أميركا .
فاطرقت المرأة وقالت بصوت ضعيف : أميركا ! إذن صرنا
مثل غيرنا .

فقال الدائن : نعم أميركا ، فلان كان مثلكم وخلصته أميركا ، وفلان
عمر القصور من مال أميركا ، وفلان اشترى الضياع ، وفلان لولا مال
أميركا ما صار مدير ناحية وتغدى عنده الباشا ...

فقاطعت المرأة قائلة : وفلانة راح زوجها الى أميركا وانقطع خبره ،
وفلان باع بيته المرهون لأن زوجته ما ردت له « الناولون » ، وأمس
جاء خبر فلان وفلان من أميركا .

(١) مغطها : مطها وأطالها .

وطال الحديث بين هدلا والرجل ، وزوجها مطرق كأنه أخرس
أطرش ، فهزته كالداعبة : ما قولتك انت ؟
فتنهّد وقال : حيران والله . الفرقة صعبة . لا الصبر هين ولا
كيد^(١) العدا هين .
فصاحت هدلا : قو قلبك ، نشخذ ونعيش ، رجلي ورجلك . أتم
الرجال لا يركن لكم ...
فضحك فرنسيس وقال : روحي انت .
فاصفر^(٢) وجه هدلا كالزعفران^(٣) .
وبعد أسابيع كتب صك الرهن ، وقبض فرنسيس مبلغاً كبيراً
جهّز « الشيخة » الراحلة ، وبقي له قسم ينفق منه إلى أن يفرجها المولى ،
ويرد المال من خلف البحر .
الباخرة تنهّيا وقد ملئت مراسيها ، وهدلا تقبض يسراها على
درازين^(٣) الباخرة ، وتلوّح يمينها تلويحات تزداد شدة وعنفاً كلما
ازدادت السفينة صغيراً ، وزوجها وأولادها على المرفأ يلوّحون بالمناديل
مثلها . وتحركت الباخرة فصرخت هدلا وهوت ، فتلقاها ابن الجيران
المسافر أيضاً ، فارتمت فوق صدره وهوى رأسها على كتفه مستنداً الى

-
- (١) كيد : قهر ، وأيضاً المكر والخبث .
(٢) الزعفران : نبات أصفر الزهر له أصل كالبصل .
(٣) الدرازين : قوائم منظمة يعطوها متكأ .

خده ، وثنى الشاب يده على خصرها فكانت لها كنطاق^(١) .
شاهد ذلك الشيخ فرنسيس فكادت الغيرة تأكل قلبه . انتظر ختام
المشهد العنيف فإذا به يمتد ويتطور ويلحّ في استفزازه ...
تمنى لو تحول السفينة عنه وجهها فيستريح . ولكن السفينة ليست
من أبناء ضيعته لتغضي^(٢) من مهايته ، فهي تجري على عينيه وتريه بوضوح
كل الحركات الهستيرية المثيرة للشعور .
ولما طال تقلص هدلا وتمدها بين ذراعي ذلك العتل^(٣) ، زفر الشيخ
فرنسيس زفرة تحرق العشب وقال : « اقبض يا فرنسيس ، هذي أول
دفعة من مال اميركا ... »

(١) نطاق : حزام يوضع على الخصر .
(٢) تغضي : تنظر الى أسفل رهبة أو خشوعاً .
(٣) العتل : الأكل ، الجاني الغليظ .

الفراق مرّ ، وأمرّ منه شماتة الأعداء .

رأى فرنسيس الشماتة على جميع وجوه القرية حتى كاد يراها ممزوجة بشيء من الازدراء في عيون أخلص أصحابه ، فامسى يحسب كل ابتسامة هزءاً به . رأى في بنيه ، وخصوصاً بنته ، ذلاً وانكساراً ، فتعاضم اضطرابه ، فطفق يفوه في مجلسه بكلمات متقطعة تُفْلِتُ من محاسنها عفواً . وشاء أخلص خلصائه أن يهون عليه فراق زوجته ، وحاول فرنسيس أن يتجمل فخاتته دموعه .

وتحلحل الناس عن مقاعدهم إيذاناً بالانصراف فما استمهلهم ولا استبقاهم . ولما خلا بيته شرع يطوف فيه كالجنون ، ينادي بنته فيهتف باسم أمها . ويدرك خطأه فيعبر عن غيظه بصريف أسنانه . كانت مصيبتة أشد لو لم تكن بنته تستطيع قضاء حاجات البيت البسيطة .

وهال فرنسيس موقفه الصعب فنام على غيظ عازماً على أن يبرق الى هدلا لترجع . وفي الصباح رأى جارته سلطانة منهمكة في تهيئة القهوة والفطور بعدما نظمت ما تشوش من أثاث البيت ، فأعجبته منها هذه

المروءة، فشجّعها بالشكر الجزيل، فنظرت اليه بعينين فاترتين^(١) مهّدتا الطريق لهدلا، فزّق فرنسيس البرقية...

أما هدلا فكانت مضطربة ساهمة، روعها البحر وآلمها فراق زوجها وأولادها فما جفّت دموعها. لم يرق لها شيء مما حولها من شخوص وأشياء. «هل يا ترى نرجع الى الأوطان، ونرى سنداينة الكنيسة وندبك حولها ليلة العيد؟»

قالت هذا عفواً وبصوت مسموع. فوضع الجار المتهيب الملمات^(٢) ذراعه الجبارة على كتفها وكادت تطوق عنقها، فأحست برعشة غير مألوفة، وأبدت حركة تملّص، ولكنها لم تتملّص بل أجهشت اليه. وظلّ الجار يحاسنها ويطايبها حتى لانت وأفرخ روعها^(٣).

كانت هدلا تحسب بيروت سيدة مدن العالم، فإذا بها تتضاءل في نظرها أمام مدينة مرسيليا. ولفتت نظرها طيور غريبة متجهة نحو الشط فقالت بسداجة: «ترى هذه الطيور مهاجرة مثلنا، وهل الصغيرة منها أولادها؟»

وكادت تبكي، فامتدّت ذراع الجار ولكنها ارتدّت هذه المرة. وبعد أيام قضتها هدلا في مرسيليا انفكت بضع عُقدٍ من جبينها المقطب فأصبح منظرها طرياً ليناً مألوفاً، فحامت حولها العيون.

(١) فاترتين : ما كنتين مكسرتي الأجفان .

(٢) الملمات : النوازل الشديدة من نوازل الدنيا .

(٣) أفرخ روعها : اطمأن قلبها .

أرسلت كتاباً حاد العواطف ، ولكن خط الجار العكش وبيانه
المبتذل قلل من روعتها . ولولا بيت « عتابا » أرادت هدلا أن يختم به
الكتاب لكانت الرسالة جوفاء .

ما أن أخذ فرنسيس المكتوب حتى صرخ : « هذا خطه » .
دبت الغيرة الى قلبه فاحمر وجهه وازرق ، وأخذ يتخيل الغرفة
التي اختلت بها زوجته بالجار حتى كتب هذا الكتاب . كان يقف عند كل
عبارة ويقول : « كيف تناظرا عندما كتبا إلي هذه الجملة ؟ » وظل يردد
مثل هذه العبارات حتى نهاية الكتاب . وأخيراً ألقاه على الطراحة^(١) الى
جانبه وقال : « من يسكر لا يعد الأقداح^(٢) » . ثم صرخ بجارته : « هاتي
قهوة مرة ، مرة حادقة يا سلطنة . » وبينما هو يحسو القهوة كالفكر ،
ويدخن النارجيلة مع المصطبحين عنده ، سمع هتاف صبيان فاصغى ،
وتعالى الهتاف : « يا يسوع شدّ طلوع ، شيخ الضيعة مات من الجوع ! »
فزفر زفرة ، وأظهر أنه لا يسمع شيئاً . وأخذ يرفع صوته ليخفي
الأغنية عنهم . وأخيراً سكّت الصبيان فهدأت أعصاب الشيخ بعد قليل
وتنفس كصاب بضيق الصدر وقد زالت عنه الأزمة .

يقول المثل اللبناني من تزوج بالدين باع أولاده بالفائدة . الفائدة
ترهب الفلاح ، والرهن أعظم نكبة تحل به ، فصاحبنا فرنسيس ينظر
إلى جارته بعين حامية ولكن تذكر البيت المرهون يبردها . يخاف أن

(١) الطراحة : الوسادة الصغيرة .

(٢) مثل عامي معناه من رام هدفاً فلن يتشاغل بتعداد عقبات الطريق .

يكتب أولاد الحلال الى زوجته ، كما هي العادة في القرى ، فتبرد حرارته ، ولا يتمنى على الله إلا توفيق هدلا إلى مبلغ يفك الرهن . فالبيت كما يقول الفلاح اللبناني : أول المقتنى وآخر المبيع . كان على فرنسيس أن يرهن كل ما يملك ما عدا البيت ، ولكن ما بات فات وعلى هدلا المعول .

إنها في ميناء نيويورك .

شدهت^(١) لرؤية التمثال العظيم ، وراعتها ناطحات السحاب ، وظلت تضرب في الولايات المتحدة حتى استقرت في مدينة سنسناقي ، وبعد لبث^(٢) أشهر فيها ذهبت عنها سياء^(٣) القرية : جمال عربي ، شعر كالفتح ، وعين سوداء مكحلة تذبذب ذبحاً ، وابتسامة فيها كل ما خلق ربنا من جاذبية ، تهبط آيات جمالها على القاسية قلوبهم فتلين وتفتح لها أبواب الخزائن .

عشقها لأول نظرة فتى من أغنى أغنياء بلاد الدولار ، فنصب شراكه في دربها ، ف وقعت الحمامة في الشبكة ، وتركت « الجار » في بلواه كانت الشبكة مرصعة بالذهب والألماس فرفلت هدلا بالحرير والديباج ، وسكنت بيتاً مفعماً^(٤) بالرياش الثمينة والرسوم الفنية المغربية المثيرة .

(١) شدهت : فتحت فاما دهشة واستغراباً .

(٢) لبث : إقامة .

(٣) سياء : ملامح .

(٤) مفعماً : ملآن .

صار ذلك العش الادونيسي^(١) هيكل عشروت^(٢) لبنان يتركه الشاب صباحاً لياوي اليه مساء ، حيث يتهجّد^(٣) ويسجد لدميته^(٤) . فانتقلت هدلا من دار زعامة الضيعة الى دار زعامة شايخة تشد بنيانها ملايين الدولارات .

وفكرت ليلة بزوجها وبنيها فبكرت الى البنك فكانت حوالتها عشرين ألف ريال : عشرة آلاف لفك الرهن ، وخمسة آلاف دوطة^(٥) لبنتها ، وخمسة آلاف لمصروف الشيخ فرنسيس وتعليم الأولاد .

وقبض فرنسيس المبلغ وهو لا يشك بطهارة ذيل بنت عمه ، وكان دائماً يقول للناس : «ما نظرت عيني امرأة أحرص من بنت عمي هدلا» . والتفّ الناس حوله بعدما جفوه ، وعاد الشيخ شيخاً ، ولم يسمع في القرية بعد ذلك : يا يسوع شد طلوع ...

وطال الأمد فأنفق الشيخ المال حتى ما اختصت به بنته على التي حلّت محل زوجته بعد هجرتها . وانتظر الحوالة الثانية فإذا بحرب سنة ١٩١٤ تعلن ، وانسدّت أبواب البحر على لبنان . واشتدّ الضيق ، ثم كانت

(١) العش الادونيسي : نسبة الى أدونيس أحد آلهة الأماطير .

(٢) عشروت : إلهة الجمال عند الفينيقيين وهي تقابل فينوس عند اليونان .

(٣) تهجد : صلى في الليل .

(٤) دميته : التمثال الجميل ، وهنا فتاته الجميلة .

(٥) دوطة : مال او متاع تأخذها العروس معها لعريسها .

المجاعة التي ذهبت بثلث السكان ، فبيع باب البيت برغيف خبز شعير ، ودونم^(١) الأرض بإقة طحين . وأكل الناس الفثران، والجراذين، والحمر الميتة . وكُنت ترى البائسين على طرق العربات صفوفاً كالتي تخيلها الفرزدق حول سماط جدوده ، صفوفاً حول روث الخيل ينقبون منه الحب الذي لم يهضم .

أما الشيخ فرنسيس فأنصرف الى عقاراته الواسعة يستغلها ويفي من ريعها ما بقي من ديون : كل ليرة ذهبية بليرة ورق أو أقل .

وانفتح باب جديد فتسرب مال المهجر عن طريق المطبعة الاميركية، فأصبح اسم المستر دانا والمعلم أسعد خيرالله على كل لسان . ثم انفتح باب آخر عن يد القومندان ترايو . كان يرسل الذهبات عيناً فيستبدلها عماله بالورق هرباً ... من المسؤولية . فمات أصحاب المال جوعاً ، واغتنى السماسرة الى ولد الولد .

وأخيراً ورد الى فرنسيس مبلغ ألف ريال عن يد المطبعة الأميركية فما فرح به كثيراً . أغنته غلة عقاراته عن هدلا وحوالاتها فكان يقول : « نشكر الله كل ساعة ، زيادة الخير خير » .

وانقطع الحبل بين الزوجين ، كل يعمل في حقله ... ثم سكنت الحرب فورد كتاب من احد أبناء القرية في المهجر يروي خبر اقتران

(١) دونم : ما مساحته ألف متر مربع .

هدلا رسمياً برجل أميركي ، فالحّت سلطنة بدورها على الشيخ فرنسيس
أن يتزوجها أيضاً رسمياً .

أفهمها أن ذلك مستحيل ، وان وضع زواج هدلا كعين الشمس ،
فجفته ^(١) ولم يطق صبراً ، فنزل أخيراً على إرادتها . وكانت المؤامرة التي
ورد على أثرها كتاب الى فرنسيس من المهجر ينبئ بموت زوجته ويعزيه
أحرّ تعزية . فتسلح فرنسيس بالرسالة وأقام جنازاً ^(٢) حافلاً جداً .
وبعد أشهر التمس إجازة زواج من أسقفه ^(٣) فتمّ إكليله باحتفال لم يقل
أبته عن العرس الأول ، مع أنه أرمل . أما بنوه فبكوا امهم ثم نسوها ،
ولكنهم لم ينسوا بؤسهم : البنت عنست ^(٤) لأن سمعة أمها ساءت ، ولأن
أباها أكل دوطتها فأمست كالخادمة لخالتها سلطنة ، وأما إخوتها فهجروا
الضيعة بعد اعتداء البكر على أبيه . ورزق فرنسيس غلاماً من سلطنة
أحبه جداً .

وبعد سنتين شاع ، على اثر وصول البريد ، خبر ماله : ان هدلا ستعود
من « البلاد » في أول أيلول . فاضطرب فرنسيس ، وارتفعت سلطنة .

(١) جفته : أعرضت عنه .

(٢) الجناز : الصلاة على الميت حاضراً وغائباً .

(٣) الأسقف : لقب ديني لرئيس الكهنة .

(٤) العانس : من طال مكثها في بيت أهلها بعد إدراكها ولم تتزوج .

استشارت معلم ذمتها^(١) فوجم أيضاً ، ولكنه صدقها الفتوى^(٢) فقالت :
بأي حق ؟

فأجابها الخوري : هذا هو اللاهوت يا بنتي ، ما في اليد حيلة ، السماء
والأرض تزولان وحرف من الناموس لا يزول : الزوجة الاولى أحق
برجلها .

فقالت المرأة : والأولاد ؟

فتنهد الكاهن وقال : على الله يا بنتي .

فنبشت المرأة شعرها وتفجعت ما شاءت ، ولكن اللاهوت ظل
لاهوتاً ، ورجعت الى بيتها كالمجنونة .

ورفعت هدلاً الدعوى على زوجها فاستغرب ذلك راعي الأبرشية
وقال لها : يا بنتي ، أنتِ متٌ . لا تموتوا وترجعوا إليّ .

وأثبتت انها لم تمت فسمع الديوان دعواها وحكم ببطلان زواج
فرنسيس الثاني ، وقضى بعودة زوجته الاولى اليه .

ولكن القدر فكأك المشاكل^(٣) ، فقضت المسكينة نحبها تحت سقف
بيت آخر غير بيتها . فأسرع فرنسيس الى حيث ماتت ، واعترف أنه

(١) معلم ذمتها : الخوري الذي يقوم بجلها من خطاياها ويسمع اعترافها .

(٢) صدقها الفتوى : صدق في إسداء النصع والمشورة ، واستخراج الحل
لمشكلة عرضتها عليه .

(٣) القدر فكأك المشاكل : الموت يحل الكثير من المضلات .

خاضع لأحكام الديوان الأسقفي^(١) ، بعدما تمرّد ورشق بالحرم الكبير .
قعد للعزاء بلا حياء ، فعظّم الناس أجره وشكره وسعيهم . ولما
دنت ساعة الميراث عثروا على حوالة قيمتها عشرة آلاف ليرة انكليزية أبرق
لها وجه فرنسيس . إلا أنه ما عثم أن اسودّ عندما قرأوا على قفاها : وعناً
دفع المبلغ الى ولدينا جميل وأنيس وبنقنا ليلي ، والقيمة وصلتنا نقداً .

(١) الديوان الأسقفي : ديوان المطرانية ، وهو محكمة الأحوال الشخصية ،
تقضي في الطلاق والزواج وشؤونها .

نَفِخْ نَفِخْ

منذ ألف وتسعمائة وأربع وأربعين سنة وقعت حوادث قصة الليلة.
أما مكانها فبيت لحم وضواحيها . كان رعيانٌ يحرسون مواشيهم ،
ويتحدثون عن شؤون وطنهم المقهور. مستهم القُرَّ^(١) فخصرت أيديهم
وأرجلهم ، فاوقدوا ناراً قدام خيمتهم المنصوبة بين بيتِ جالا وبيت
لحم . ثم عادوا الى حديث ملكهم المنذر لما استدفاؤا فعللوا النفس
« بانتصار الأسد من سبط يهوذا » .

العهدُ عهدُ هيرودس ، فتذكروا سُخرة^(٢) فرعون ورقّ سي^(٣)

(١) مس : أصاب ، والقر : البرد .

(٢) سُخرة فرعون : الفارة التي انتقم فيها الفراعنة من العبرانيين بتشغيلهم
مجاناً في مصر .

(٣) سي بابل : مدة ٧٠ سنة من السي قضاها العبرانيون في بابل على أثر
انكسارهم على يد الملك البابلي نبوخذ نصر من سنة ٦٠٧ - ٥٣٧ ق.م .

بابل ، فطفقوا يتمطقون^(١) بما في النبوءات من آمال وأمانٍ معسولةٍ عن عودة ملك إسرائيل . فقال أحدهم ، واسمه ناتان ، مترنماً : « وأنتِ يا بيت لحم ، أرضَ يهوذا ، لستِ الصغيرةَ في الأممِ لأن منك يخرجُ مَدْبِرٌ^(٢) يرعى شعبي إسرائيل » .

فقال منسى ضاحكاً : أنبياء بسطاء يرجعون في الغيب ، ويرشقون في الهواء حجارة طائشة تحارُ فيها النرية .

أح ، أح ، دبٌ للنار بالخطب يا يمين ، الليلةُ باردة جداً . مكتوب علينا الرق لأننا عصينا يهوه^(٣) ، ويهوه رب ثاراتٍ وثارات لا يغفر ولا يرحم .

قال هذا وأخذ يوحوح^(٤) ويقضقض . ثم أخفى رأسه في لبادة^(٥) كما تختفي البزاقة في حلزونها^(٦) ، فاستدفاً وأخذ ينفس ويهوم^(٧) ، فصاح به ناتان : أوع يا منسى ، يا تعس شعبُ يغفي رجاله حين يتحدثون عن حریتهم ، وعن مصيرهم .

(١) يتمطقون : يرددون الكلام كمن يستعذب طعام فيطيل مكثه في

فه قبل بلعه ثم يحاول استعادة الطعام ثانية فيلوك لعابه .

(٢) يهوه : الاسم العلم للاله كما جاء في الكتاب المقدس سفر الخروج ١٥: ٣ .

(٣) يوحوح : ينفخ بيده من شدة البرد . ويقضقض : يصرف أسنانه .

(٤) لبادة : هنة من صوف تلبس على الرأس .

(٥) البزاقة : إحدى الزواحف . والحلزون الصدفة التي تحتمي بها البزاقة .

(٦) يهوم : يستسلم للنوم جالساً فيميل رأسه ذات اليمين وذات الشمال .

أما يمينُ فاستضحك وانطوى ينفخ النارَ من صدر كأنه الكور ،
والنار تدخن ولا تشتعل . فاصفرت لحيته المبيضة وكساها الرماد طبقةً
رقيقةً فأضحك منظره رقيقه .

وبينما هم في حال كالتى يكون فيها المرء بين الغافى والواعى إذا برجل
طلع عليهم بغتة ، فانشقت أعينهم ، ثم انفتحت عليه متفرسة ، فإذا
بنور عجيب ملاً الوادي وقاض على رؤوس القُلل^(١) . وارتخى الفك
الأسفل فانشق الفم نصف شقة، وأصبحت وجوه الرعيان كالزعفران^(٢) .
فقال لهم ملاك الرب : « لا تخافوا . ها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون
لجميع الشعب : وُلد لكم اليوم في مدينة داود مخلص هو المسيح الرب .
وهذه لكم العلامة : تجدون طفلاً مقمطاً مضطجعاً في مذود^(٣) » .

كان الرعيان الثلاثة يسمعون مشدوهين ، لا يفهمون ما يُقال لهم
لأن عقولهم كان موزعاً ، كانوا يفكرون بالنور الذي لم يبصروا مثله من
قبل ، وبالرجل المنتصب أمامهم . وما اطمأنوا الى المشهد العجيب حتى
تلاه أعجب : دهمتهم^(٣) طغيات^(٤) منظورةٌ وغير منظورةٍ من الجند
الساوي ، ظهرُوا مع الملاك وأنشدوا جميعاً النشيد الوطنى الدولى :

(١) القُلل : أعلى الرأس والجبل .

(٢) الزعفران : نبات أصفر الزهر له أصل كالبصل .

(٣) دهم : اجتاح فجأة .

(٤) طغيات : جماعة أمرهم واحد .

« المجدُّ لله في العلا ، وعلى الأرض السلام ، وبالناس المسرَّة » .

وأُسدل الستار وانتهى الترتيل^(١) والتهليل^(٢) ، ورجع سفراء السماء ورسّلها أدراجهم ، وظلّ الرعاة مبهورين بما رأوا وسمعوا . وبعد دقائق معدودات انحلت عقدة لسان ناتان فقال لرفاقه : يا هو ، بيت لحم على رمية حجر منا فهيتوا بنا اليها لننظر ما خبرنا به هؤلاء .

فضحك منسى ولكنه مشى ، وسار يمين وراءهما متهدّجاً^(٣) . وما كان أشدّ تعجب منسى حين أبصر ثوره وحماره قد سيّقاها الى الخان المعلوم . فالتفت ناتان الى منسى التفاتةً كاد يأكله بها وكأنه يقول له : تأمل يا قليل الإيمان ، حمارك سبقك . لقد صحت بنا كلمة أشعيا القائل : « عرف الثور قانيه والحمار معلف صاحبه ، لكن اسرائيل لم يعرف ، وشعبي لم يفهم ... »

وقصّ ناتان حكاية ما رأوا وسمعوا على يوسف النجار ، وكان يعرفه من الناصرة وقد عمل له نيراً ممتازاً ، فتعجب كل الذين سمعوا مما قاله الرعاة . أما أم يسوع فكانت صامتة تسمع الكلام متفكرة في قلبها . وكان نظر منسى لا يتحول عن ثوره وحماره ، وقد لحظ أنها ياتيان عملاً كأنهما مندوبان له أو موحى به اليهما .

(١) الترتيل : الصلاة الموقعة على الإيقاعات الموسيقية .

(٢) التهليل : صلاة الابتهاج .

(٣) متهدجاً : متلجلجاً في مشيته كالشيخ .

الثور عن يمين ، والحمار عن شمال ، وفرواها في المعلق ينفخان دائماً
ليدفنا الصبي المقرور^(١) . كان على وجه الحيوانين سياء تفكير عميق .
فقال الحمار للثور : ما تقول يا سيد ، أصحيح أن عهد هذا الطفل على
الأرض عهدُ سلام ورجاء ومحبة كما سمعنا من الطيور البشرية
الحضراء ؟ من عادة الطيور أن تُنبئنا بأشياء وأشياء ، ولكن هذه
الطيور غريبة ، ما رأينا مثلها ولا اختبرناها بعد ، فما قولتك ؟ في
الناس المسرة ، هذا أمر مفهوم ، ولكن أنا وأنت لا يهمنا أمر
الناس . يهمنا أمرنا قبل أمر الآخرين ... أن يكون على الأرض
سلام صحيح ، فاستريح أنا من الأحمال الثقيلة ، ولذعِ المسلات في
كتفي ورقبتي ، ومن ضرب العصي على كفلي^(٢) ، وتستريح أنت
من أُنقال النير الذي يحُزُّ رقبتك ، ومن لذعاتِ المساس الذي صير
جلدك كالغربال .

وكان الثور دائماً على التنفيخ والحمار يتدفق في خطابه الاجتماعي ...
يتساءل عن خيرات العهد الجديد المرجوة ، عهد المولود الذي بشرت به
جنود السماء والملائكة ...

وتعيب الحمار من خطابه الطويل كاذبيه ، فقال للثور : لماذا
لا تقول كلمة ؟

(١) المقرور : البارد الذي أصابه البرد .

(٢) الكفل : الردف .

فصاح به الثور : نفّخ نفّخ ، الصبي بردان . انت لا يهتمك
إلا بطنك وجلدك . سيعود مجد اسرائيل ، أما سمعت بأذنيك
الصغيرتين : وبالناس المسرة ؟

فأقبل الحمار ينفخ بحماسة فملاً التبن منخريه فعطس عطسة
مشؤومة ، وعوّع^(١) منها الصبي .

فاخذ الثور ينفخ تنفيخاً ناعماً ، فأغفى الطفل الإلهي . ولم
يطلق الحمار سكوتاً فقال للثور : أنت يا أخي في العبودية ، أخذت
حصّتك في زمن مضى ... عبدوك وقدسوك وطلبوا شفاعتك
فنالوا بإيمانهم خيراً جزيلاً على يدك . ولكن أنا المسكين للشطّ واللط^(٢)
في كل عهد ...

فضحك الثور وقال للحمار : وكيف كان عهدي عليك ؟

فقال الحمار : أقول لك الصحيح ؟

فأجاب الثور : نعم .

- وبكل حرية ؟

- نعم .

- أمّني ، احلف انك لا تتطحنني .

(١) وعوّع : صوّت .

(٢) للشطّ واللط : للحقير من الأعمال .

— حلفت .

فقال الحمار : كان عهدك أشنع العهود وأبشعها : ضربٌ وقتلٌ
وقلّة أكل .

فسدّد الثور نحوه قرنه اليمين ، ثم ذكر الوعد فارعوى وقال :
نفّخ نفّخ ، الصبي بردان .

فقال الحمار : وأنا بطني فرغان ... ثم يا صديقي الحميم ، ما
عرفتَ ان تنفيخك لهذا الملك الصغير تنازلٌ عن حقوقك الشرعية
الإلهية ؟ انتبه ، حافظ على خط الرجعة ... لا تكن مندفعاً ، فقد
يكون عهده أسوأ العهود عليّ وعليك .

فسدّد العجل قرنه وتها للنطاح ، فتراجع الحمار قليلا ، ولما
رأى الثور قد عدل رجع ينفخ .

وظلّ في نفسه شيء يدفعه الى الكلام فعاد يقول : أتظن أن
شيئاً يتغير في البشر ونزاح من عبوديتهم ؟ أخاف ان ننتقل من
سيئ الى أسوأ . انت ذقت طعم السيادة طويلا ، ولكن أنا المسكين ،
أنا في كل عهد عبدٌ العصا والمسلة ... جعلني شعراء الناس الذين
عبدوك مثلاً للذلة والهوان ...

فصاح به العجل : اسكت يا بهلول ، اشكر ربك . أنت تموتُ
حتفَ انفك على الأقل . لا لحمك يؤكل ولا جلدك يسكف . أما
أنا فانتظر الساطور كل ساعة ، ولا أدري متى تأتي ساعتى . لا تحلم
بالأمانى الكبار ، بعدك عنها أوفق .

والتهى الفيلسوفان بالحوار والجندل ، فرجف الصبي في المهد
فعبج العجل قائلا : نفخ نفخ ، الصبي بردان . فلندفته لعله
يغير ما بنا . قد كرهنا قصر المسوس الهرم . ولكن الناس ناس
في كل الدهور . أنا للحراثة والاكل ، وأنت للركوب والنقل ،
نفخ نفخ ، الصبي بردان .

القسم الثالث

اقزام جبارة

اقاصيص



أبو نعوم فات التسعين بضع خطوات وظل يروح ويحيى. لم تهرهر^(١)
التسعون جدران بنيته الشائخة . هيكَلٌ ضخم ، أحكم بنيانه مناخُ قريته .
الجبليّة ، فكأنما استعيرت مواده من صخور ضيعة السمرّاء . حاجبان
ثقيلان ، ورأس مدوّر أسمر ، نحاسي ، خربش^(٢) الزمن حول أنفه
الأفطس خطوطاً مزرقّة كأنها الزنجار^(٣) .
ما شان^(٤) ذلك الوجه الصلب في شيخوخة أبي نعوم المباركة إلا

(١) هرهري : نثر .

(٢) خربش : خربش الكتاب أو العمل : أفسده وخرابيش الخط ما
فسد منه . وهنا وضع خطوط ملتوية .

(٣) الزنجار : صدأ النحاس .

(٤) شان : عاب .

رمدٌ ربيعي اجتمع أشده في السبعين ، فصارت حدقتاه كعيني الوروار .
وفي الثمانين ارتحى جفناه فاتقلبا ظهراً لبطن . أما عقله وجميع حواسه
فما أخذت منها الأيام شيئاً : عقل ابن ثلاثين لولا أنه يحدث نفسه
بصوت عالٍ .

يقعد على 'صفة' ^(١) قرب حائط الكنيسة يتشمس . ان شرقت
الشمس شرق معها ، وان غربت غرب ، ومتى غابت يغيب في فراشه .
وفي هذه الجلسات قلما يسكت . يهرف ^(٢) مراجعاً ذكرياته . لم يتعلم
ليكتبها ويحصى بين المؤلفين . لذلك كان يحدث بها نفسه إلقاء وإيماء كأنه
يكرر دوراً تمثيلاً ليحيد إخراجَه على المسرح . وان الليلة ليلة تمثيل
الرواية .

تجري على لسانه أقوال حكيمة لو قالها في الأربعين والخمسين لأحصى
مع الحكماء الكبار . ولكن الشيخوخة متهمة ^(٣) ، وان قالت من الأقوال
اثقبا . لو نطق في الأمس بما يقوله اليوم لأحصى مع أبي فلان وفلان
وفلان ، حكماء الضيعة السعيدى الذكر ...

يقع رف ^(٤) دوري على سندية الكنيسة فيتهلل أبو نعوم للفظ ^(٥)

(١) صفة المسجد : مقعد حجري بالقرب منه مظلل .

(٢) هرف : اطراً في المدح إعجاباً .

(٣) الشيخوخة متهمة : بفساد العقل .

(٤) الرف : الجماعة من الطير أو الماشية .

(٥) لفظ : أصوات مبهم لا تفهم .

تلك العصافير وثرثرتها . قد تزرّق أحياناً عليه فيمسح صديريته باسماء ،
ولا يتقزز منها فكأنها من حفدته . واذا غرّد الحسون رجّح رأسه لتلك
الموسيقى التي ألفها . واذا رأى السنونو تباشر ولوى كتفه كأنه يرمي
عنها شباط الثقليل ، وعلّل نفسه بالعيش الى العمام المقبل . ثم يلجّ في
تحديث نفسه بنبرات عنيفة تارة ، وخفوتٍ طوراً .

وفي يوم من أيام نيسان البسامة قعد أبو نعوم على حائط قبالة الكنيسة .
لم يستطع استقبال الشمس بعينيه المتهدّلتين^(١) فولأها ظهره . ثم أوغل
في ذكرياته وعلا صوته بسردها : حجارة مخرشبة^(٢) ، ولكني أراها مثل
البدور . كل ثقب من ثقبها بوز^(٣) يحكي وعين تنتظر . ما أجمل حديثها
وأحلاه ، كأنها تقول لي :

« أبو نعوم . أهلاً وسهلاً . مرحباً يا عشير الصبا ، مرحباً يا ابني
الصغير ، أنا ربّيت جد جد جدك . تحت جناحي تحبّاً في الضيقات
والشدائد ، وفي حضني كان يحدث ربه بكل هدوء وخشوع ، وتحت
أرجل منبر اعترافي طرح خطاياهم فخرج من بركة التوبة أبيض مثل الثلج .
ضمن هذه الحيطان تبارك اكليل جدك الاعلى منذ أجيال ، وأنت واحدة
من ثمرات بركتي . وها هم ناموا حولي جميعاً . وها أنا أرعى قبورهم كحارس
لا ينام ، وناطور لا يغفل .

(١) متهدل : مسترخي وما تهدل من الاغصان تراخي .

(٢) مخرشبة : كثيرة الثقوب .

(٣) بوز : قم .

قم يا ابني، قم قبل خذ بابي الأملس، قبله لتحس شفتاك طعم شفاه
أجدادك الأقدمين . ان شفاههم الصلبة قد نعت هذا الخد فصار مثل
الحرير .

وتحلحل أبو نعوم رويداً رويداً . ثم نهض ومشى مشية المقيّد، وقال
بصوت عال : أمرك يا عيوني !

وتقدم من خذ الباب قبله وقال : هه ! هذي بوسة ثانية ، وهذي
ثالثة . والتفت بجدار الكنيسة كأنه يسأله : أبوس بعد ؟ ... ثم ترامى على
خد الباب وقبله قبلات لا تحصى ، وقفل راجعاً . رأى جرنأ في ساحة
الكنيسة فوقف عليه وقال : هذا جرن الشباب ، هذا أيضاً يقول لي :
تذكر ، يا أبو نعوم ، يوم كنت شيخ الشباب ، يوم كنت تلعب بهذا
الجرن^(١) لعباً ، كنت تقيمه فوق رأسك خمس مرات حتى إذا انتهيت
رفعوك على الأيدي .

واقترب من الجرن ، وبعد ألف جهد استطاع تحريكه ، فhez رأسه
وقال : هاتيك أيام وهذي قبالها .

وما استقر حيث كان حتى رأى دودة سارحة على طرف عباءته ،
فقال لها : هه ! من قبر من طلعت ؟ ومن جثة من تغذيت ؟ على مهلك .
لا تخافي . على كل حال أنت منا وفينا ، أنت بنت ضيعتنا .

وفي الغد دق قداس الأحد فكان أبو نعوم أول الملبين . قعد يتشمس
في مكانه منتظراً ابتداء القداس . جلس وحده . ولكن واحداً ، تعود

(١) جرن : حجر مقعر للماء وغيره .

أن يدون أخباره في دفتر لتظل تاريخاً للضيعة ، فقد حده فطفق يروي له ما شاهد وما سمع من أخبار امراء لبنان من فخر الدين وآل سيفا الى المير يوسف والمير بشير الجالس سعيداً على كرسي إمارة الجبل .

وأقبل شاب غريب في يده طبر^(١) ، وتحت زناره من وراء خنجر جزّيني ، ملثم بكوفية شامية مقتلة الهداب^(٢) . شاب معتد بنفسه يعرف شاباً وأكثر من الضيعة . فسلموا عليه واحتفوا به .

سال ابو نعوم الشاب القاعد حده : من أين هذا الشب ؟ فأجابه الفتى : غريب .

فقال : أهلاً وسهلاً ، من رأس شفتيه .

وابتدأ القداس فدخلوا الكنيسة جميعاً ، وكان آخرهم ابو نعوم ، فقبع في مكانه المحفوظ حد العضادة^(٣) يجنب الباب . رأى ، وهو داخل ، الطبر معلقاً بفتح الباب فهز رأسه وعبس .

وانتهى القداس فكان ابو نعوم أول الخارجين . وأخذ الطبر وقعد على الصفة . فأقبل الشاب مسلماً على الشيخ ، وقال له : أعجبك الطبر يا جدي ؟

فأمسكه ابو نعوم بيده المرتجفة وقال له : عندنا مثله كثير يا ابني . تعلم في المستقبل ان لا تعلق طبرك بفتح باب الكنيسة . هذا خرق

(١) الطبر : الفأس من السلاح .

(٢) الهداب : القسم المتدلي من الشيء .

(٣) العضادة : عامود من الحجر يقوم عليه البناء الحجري المعقود .

لحرمة الضيعة . أخذته فكّة مشكل ، وإلا كان وقع الشر . يا أولاد ،
هذا من جيراتنا وضيقتنا . قوموا بواجبه . هذا طبرك يا شب . ثاني مرة
خذ حذرک .

وذهب الناس الى بيوتهم ، وراح الشاب مع أصحابه .
وأحبّ أبو نعوم أن يتمشى في ذلك اليوم المشمس . كان يجدّ لذة في
النظر الى حجارة الضيعة ويطلق عليها لقب الأصحاب . كان ينفر من
الحيطان المرمّمة ، ويأسف لأنها تغيرت عن عهده .

وبلغ في نزهته برج الضيعة القديم ، فرأى أن حجارة منه قد أخذت
فثار وهاج . خبروه أن بطرس ، وجيه الضيعة ، احتاج اليها ليكمل
مدماكا في بيته الجديد ، فأخذ يرغي ويزيد كأنما قتل أحد أولاده :

— لا كبير ولا صغير . هذه حجارة عاشت جدودنا وأفضلت عليهم
وحمتهم ، لولاها ما بقى منها المالك من يخبر . فبدلاً من أن نبني البرج
نهدمه ؟ يا خيبتنا تجاه الأجداد !

ومضى يعدد ما أثر تلك الحجارة التي اقتلعت من مكانها كأنه يرثي
ولدآله مات في عزّ شبابه :

— حجارة دهرية تخبر عن تاريخ جدودنا وأعمالهم . هي وحدها
تربطنا بضيعتنا وبلادنا . أنطمع بها ، وتنقلها من وطنها ؟ أوكد لكم أنها
توجعت . والله العظيم انها حزنت لما فارقت أخواتها بعد ما عاشت معهم
مئات السنين . قولوا للشيخ يردها مثلما كانت ، وإلا فإنها تنتقم منه ومن
الضيعة ...

وقعد على حائط البرج يبكي . ثم تناسى المصيبة فطفق يحدث نفسه
بصوت عال :

« هذا البرج حمى الضيعة مرات . هذا أخو الكنيسة في الساعات
السود . كيف يأخذ منه واحد حجراً ، وفي الضيعة حجارة مرمية على
الطرقات ، والمقلع على رمية حجر من بيته ؟ أي معنى يبقى للضيعة إذا
راح البرج ؟ في كل حجر من حجاره وجه جد من جدودي . آه ، كلما
تغير حيط من حيطان الضيعة أحسّ كأنني فارقت واحداً من عشرائي !
« يا مرين ، يا مرين ، هاتي لي اتغدا يا جدي » .

ولما تيقن أنها سمعت قال لنفسه : أريد أن آكل بين أصحابي وأحبائي .
ثم أخذ يمر يده بحنو على وجه حجر أمثل في البرج كأنه يداعب جداً
محبوباً . وألقى نظرة على الجبال القائمة حوله ، فخال أنه أحاط نظراً
بالمسكونة كلها ، فقال : ما أجملك يا بلادنا وما أحلاك !

وسال نفسه كمادته : قولتكم هاتيك الدني حلوه مثل هذي الدني .
من يدريك ؟ سلمها ربانية يا بو نعوم .

وفيا هو في هذه النجوى ، جاء بضعة كهول ليقفوا على رأيه .
الطاعون تفشى في البلاد وظهر في القرى المجاورة فماذا يعملون ؟
فصلّب أبو نعوم يده على وجهه وقال : الله يرد البلية عن الضيعة .
زنّروا الكنيسة .

فاستغربوا كلمته ، فافهمهم كيف . فطافوا على بيوت الضيعة واحداً
واحداً . وعاد أبو نعوم بعد ما تغدى الى مجلسه على الصُفة عند الكنيسة .

وجاؤوا بالحوائج التي يعملون منها زناراً: من هنا ملاءة، ومن هناك
كوفية، ومن عند هذا ملحفة. وجمعوا كثيراً من الحرير غير المفصل
والخيط، من حياكة نساء الضيعة وبناتها.
وحلّ أبو نعوم كمره عن وسطه ودفعه اليهم، فقالوا له: تعطينا
زنارك! اتركه. أخذنا من بيتك.
فصاح بهم: خذوا بدني أيضاً. بدني من ضيعتي ولها.
وبعد تزير الكنيسة أمر أبو نعوم أن يحرسوا مدخل القرية، ويمنعوا
الغرباء من دخولها.
ولما أمنوا شر الطاعون فكوا الزنار. فكان على من يريد استرجاع
حاجته أن يدفع فكاكاً، وإذا تركت تباع بالمزاد وثمنها للكنيسة.
وردوا على الشيخ كمره، فقال لهم: فكاكه فيه. نذرته دفع بلاء
عن الضيعة.
كان في كمره خمس ذهبات ادخرها ليومه الأسود، ولكن الضيعة وفته
حقه حين مات، فجهرزوه من مال الوقف، ودفنوه في الكنيسة تقديراً
لإخلاصه.



السنبلة تعطيك صورة ست الاخوة ، فهي مثلها استواء قامة وانحناء
رأس ، تزدحم في وجهها المعاني الطريفة : فالعينان كالماويتين^(١) تجول فيها
عذوبة مرحة ، وتستقر في أعماقها أحلام قصية ، والأنف كأنه اصبع
الارادة العنيفة يلمى ولا يحيص^(٢) ، ولولا ما في فمها وعينيها من وداعة ،
لكانت أصدق تمثال للعناد ، في خديها نوتتان^(٣) تتحدثان عن أنوثتها المثالية
كلما ابتسمت ، ذات منطق فعال ، يوقظ ما في صوتها من غنة^(٤) كوامن
النفس ، وإذا صمتت انبرى جمالها يصدق قول الحكماء : السكوت من ذهب .
سموها ست الاخوة لأنها أخت سبعة . كان لها عمة تدللها وترعاها

(١) الماوية : المرأة .

(٢) يحيص : يحيد ، مهرب .

(٣) نوتة : نفرة .

(٤) غنة : صوت من الأنف .

بمقامهم جميعاً ، وكلما خطرت أمامها رافقتها بنظرة كلها محبة وقالت :
سبحان الخالق ، كانها أنا !

وبلغت ست الاخوة أجلها فتهافت الشباب عليها ، وقعد لهم ذوو
قرابتها بالمرصاد ، فقد جرت العادة على أن يكون أمر البنت شورى
بينهم ... تائب عليها بنو عمها ، واخوتها ، وأعمامها ، وأخوالها ، وأما
العنيدة ، حتى والدها المفلوج ، ليزوجوها شاباً دميماً^(١) ، ولكنه منسوب
العم والخال ، كثير المال ... كان لكل منهم مارب إلا أمها التي ذقت
طعم القلة فتمنت البحبوحة لبنتها ، بعد ما علمها الدهر أن الحب ماض
والثروة باقية .

وبعد طوفان من النصائح الثمينة ، قالت الأم لبنتها تسهلاً لأمر هذا
الزواج ، وفكاً لهذه المشكلة : عوّدي نفسك عليه .

فضحكت ست الاخوة وقالت : أهو أكلة يا أمي ؟

فأجابتها : أي نعم ، كل شيء عادة .

وجربت ذلك ست الاخوة فوجدت مرشح أهلها قريباً أكره
منه بعيداً .

أما عمتها التي تحبها فكانت تنفض طوقها كلما استشارتها وتجييبها :
انت حرة . من يغصبك عليه ؟

ولما أطبقت الكاشة فكيفها على ست الاخوة كانت تقف عمتها ست
البيت حياها ، وتهتم بالكلام ثم تنثني . وكثيراً ما كانت تدنو منها فتضع

(١) دميم : حقير ، قبيح المظهر .

يدها على كتفها ، وترفع حاجبيها وتكاد تنطق ، ثم تعدل ولا تقول شيئاً .
وإذا كانت ست الاخوة قاعدة وضعت عمتها يديها على خصرها وانحنى
نحوها ، ثم تستوي ولا تقول شيئاً .

فقال لها ست الاخوة يوماً : احكي يا عمتي ، لا تبلمي كلامك . ولكن
العمة انقلبت وهي تقول : ماش ^(١) ، ماش .

فقال البنت لنفسها : حيرتني عمتي يا بشر !

وتذكرت يوماً كلمة كان يرددها أبوها كلما اغتاض من عمتها : قصتها
لا تنتهي إلا في القبر . فراحت تبحث عن تلك القصة .

ان المعضلات ^(٢) كالانشوطة ^(٣) ، فبينما تراها معقدة إذا بها تنحل
بغثة . فقامت ست الاخوة : عمتي ! عملت أحسن عمل واسترحت من
هموم الدنيا .

فتجهم وجه العمة وقالت : هذي إرادة الله فيه ، تعب ساعة ولا كل
ساعة . الله ساعد .

فاستنجدت ست الاخوة بما عندها من دلال وغنج وقالت لعمتها :
الله ، الله قال لك ابق عمة يا عمتي !

فضحكت ست البيت وقالت : ليتك تقبريني ما أحلاك ! ذكرتيني

(١) ماش : لا شيء .

(٢) المعضلات : الامور المشككة ، الضيقة الخارج .

(٣) الانشوطة : العقدة التي يسهل حلها .

أيام عزّي . لا ، يا حبيبتي ، الله ما قال لي لا تتزوجي ، ولكن الناس .
كل البلاء من الناس .

— لا تضحكي عليّ... كيف؟ بحياتك فهميني . الفخ منصوب قدامي .
فسكتت العمة وحدثت الى بنت أخيها ، فكادت أسرارها تنهض من
أثلام وجهها . وفتحت فمها لتقول شيئاً ، ولكنها أطبقته . فغمرتها
البنت بالقبل . فأبعدتها عنها بلطف ، وقالت لها ، وعيناها تتفرغان
بالدموع : قومي ، روعي نزور القربان^(١) ونرجع .

وهناك في ظل الكنيسة العتيقة التي كانت هيكلًا لأدونيس، منذ ألفي
سنة ، وقفت ست البيت واتسعت حدقتها فبدت كنيّ يُوحى اليه ،
فضربت كفها على خد باب الهيكل وقالت بلهجة جندي يتحدث عن
معركة ربحها هو : « لو كان لهذا الحيط لسان حكى وشهد . قصتي قصة
عظيمة يا بنتي ، كل من عرفوها صاروا في ديار البلي^(٢) . ما بقي منهم إلا
واحد لا غير ، هو أبوك . قصتي مثل قصتك تمامًا يا حبيبتي .

« سمعت قول المثل : عروس في الاكليل لا تعرف لمن تصير ؟ أنا
صدقته بالفعل . اسمعي الخبر : كنت أحبه من كل قلبي : صدقيني اذا
قلت لك : حبه معشش في عظامي . شبّ مثل السبع ، طلعة أسد ، ولفته
نمر . ما خلّوني آخذه . قطعوا «التحلية»^(٣) ليزوجوني غيره . وعينوا

(١) القربان : مكان صغير في الكنيسة يحفظ فيه الخبز المكرس .

(٢) ديار البلي : الفناء ، الموت .

(٣) التحلية : الاذن بالزواج من مرجع ديني .

الوقت يوم الخميس في جمعة المرفع^(١) . تواجها قبل الاكليل بيوم ،
فصربت صدري وقلت له : أنا لك .

« فتعجب المسكين وقال : والتحيلة ؟

« فقلت : لها حلة .

« وقعدنا تتفق على خطة... فجئنا المسكين ، وسقط على يدي ، فقلت
له : اقعد بعيداً . ما لك حق . وحق القربان الطاهر ، ما سمحت له بيوس
ذيل فسطان عمتك » .

فقلت ست الاخوة : بحياتك يا عمتي ، سمي لي اياه .

فضحكت وقالت : اسمه مثل اسم صاحبك : مخايل .

فشهقت ست الاخوة وضربت كفيها على ركبتيها . فقالت العممة :

اسمعي : اتفقنا على خطة ما عملتها امرأة قبل عمتك الحقيمة بعيونكم .

— لا يا عمتي ، حاشا قدرك^(٢) .

— بلى ، يا عيون عمتك ، كل ابن عصر يستصغر من كان قبله .

وسكتت ست البيت هنيهة حسبتها بنت أخيها ساعة ، وتعلقت

عينها بوجه عمتها فتصورتها بنت ثلاثين . انبثق في وجهها نور جديد

كان أشد وضوحاً في عينيها . لم تشأ البنت أن تقطع صمت عمتها .

(١) المرفع : أيام معلومة تتقدم الصوم عند المسيحيين وهو الزمن الذي ترفع

فيه بعض المأكولات أي ينقطع عنها المسيحيون ولا يعودون اليها إلا

بعد عيد الفصح .

(٢) حاشا قدرك : كلمة يستعملها المتحدث اللبق بعدما يبين رفعا لقدر

السامع عما ذكر .

كانت ست البيت مكرمة^(١) في ثيابها ككل عجوز في شباط، ولكن
ست الاخوة خالتها غصن بان. ولما لم تستطع صبراً قالت لها : وماذا
صار يا عمتي ؟

فهممت^(٢) العجوز : ثم تنهدت وقالت : « برزوا^(٣) عمتك برزة
ما لها مثيل . وعتك كانت ست زمانها . وطلعنا من البيت بين حداء^(٤)
الشباب ، وزغاريد^(٥) النساء . ووقفنا في صحن الكنيسة . جماهير .
كانت الكنيسة محشوة مثل الرمانة . وبدأ الخوري يكلل . وتعجب
الناس من وجود مخايل فشكروه .

وقرأ الشماس « الرسائل »^(٦) : يا أيتها النساء ! اخضعن لأزواجهن
كما لربنا لأن الرجل رأس المرأة . فاصفر وجه مخايل ، فغمزته فاشتد
حيله^(٧) .

« وتابع الشماس : لأن الرجل رأس المرأة ، كما أن المسيح رأس
الكنيسة . وكما أن الكنيسة تخضع للمسيح ، هكذا فلتخضع النساء لأزواجهن
في كل شي .

(١) مكرمة : مكومة .

(٢) هممت : تكلمت بكلام غير مفهوم .

(٣) برزوا : ألبسوا لباس الاكليل .

(٤) حداء : أهازيج الأفراح والمواسم .

(٥) زغاريد : غناء النساء في الأفراح .

(٦) الرسائل : اسم لكتاب جمعت فيه أقوال رسل المسيح .

(٧) حيله : قوته .

« وبعد « البولص » ^(١) قرأ الخوري الانجيل : ذكرأ وأنشى خلقها ،
لأجل ذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته ، ويكونان كلاهما جسداً
واحداً . فما جمعه الله لا يفرقه الانسان .

« وأخذ الخوري يوجه إلى النصائح ، فقال كما سمعت عدة مرات في
الاكليل : وأنت أيتها العروس المباركة قد سمعت ما قلته لزوجك .
« فصار مخايل يخضر ويصفر ويزرق مثل جمل اليهود » ^(٢) ، فغمزته
فتنشط . وأتم الخوري : فالوصية لكما معاً ، فعليك أن تكوني خاضعة
لزوجك كما للرب ، ومطبعة له في كل شيء ما عدا الخطية . قدمي له كل
كرامة ومحبة ، واخدميه في جميع لوازمه . كوني وديعة ، فاضلة ،
عفيفة ، حسنة الأخلاق كالنساء التقيات ، فالمرأة العاقلة خير من الجوهرة
الشمينة » .

فضحكت البنت حين سمعت عمتها تروي كل ما جاء في رتبة ^(٣)
تكليل العرسان عن ظهر قلب ، وقالت لعمتها : حفظت كل هذا !
الخوري العتيق بالكد يعرفه .
فأعجب العمه هذا الشئ وقالت لبنت أخيها : عمتك بنت أخوية .

(١) البولص : فصل من كتاب كنسي .

(٢) جمل اليهود : حيوان يشبه الخرضون يتلون بلون الموضع الذي
يعيش فيه .

(٣) : رتبة : مجموعة صلوات وقراءات وأناشيد دينية مرتبة لإقامة احتفال
ديني معين .

كانت ريسة . لا أحد غيرها من بنات الضيعة كان يقرأ ويكتب . صوت
حلو ، وتلحين ملائكي يسكت الخوري والشامسة .

ثم استأنفت الحديث بقولها : لا تضيعيني ، خليني اكمل لك قصتي :
« وجد الجد فقال الخوري للعريس : أيها الابن الحبيب لا وندس ،
أتريد أمة ^(١) الله ، ست البيت هذه ، الواقعة هنا ، زوجة لك ؟ فكان
لا وندس أرشق من النسيم وجاوب : نعم ، نعم ، يا معلمي .

« والتفت إلى الخوري وقال : وأنت أيتها الابنة المؤمنة ، ست
البيت ، أتريدن عبد الله لا وندس هذا ، الواقف هنا ، زوجاً لك ؟
« فما جاوبت .

« قال البعض : مستحية ، مستحية .

« وقال غيرهم : قالت نعم . كلل يا محترم .

« فقال الخوري : ما سمعت . وأعاد السؤال .

« فأجبتة : لا ، يا بونا .

« فطلع صوت من خلفي يقول : البنت صندوق مقفول ^(٢) . هذي
ما صارت ،

« وماجت الخليقة . وكل من معه كلمة قالها . هذا يقول لي : عيب .

وهذا يقول : لا تخيبينا ، يا ست البيت . وأنا مصرة لا أقبل .

(١) أمة : خادمة .

(٢) البنت صندوق مقفول : شبهت بصندوق مقفول لا يدري ما يحويه
(مثل لبناني) .

« فقال الخوري : وأخيراً يا بنتي ؟
« فجاوبته : الأخير مثل الأول .
« وهمّ الخوري بقلع البطرشيل ^(١) ، فقال عمي : امهل يا بونا ^(٢) ،
أنا أقنعها .
« فطار صواحي إذ ذاك وقلت للخوري : اشهد يا محترم ، أخذت
مخايل بطرس زوجاً لي .
« وصرخ مخايل من بين الناس : اشهد يا بونا ، أخذت ست البيت
زوجة لي .
« وحمي الشر يا بنتي ، وجري الدم ...
« انقسمت العرب عربين ^(٣) . ما بقي على المذبح شموع وشماعدين .
كسروا العكاكيز . ضرب بالكتب ، بالمباخر ، بحقّ البخور ^(٤) . ما سلم
إلا الكاس .
« مسكين هناك الخوري ، كان روح قدس ! فشل ، ورقصت لحيته
على الحبل .
— وأنت ايش عملت ؟

-
- (١) البطرشيل : وشاح كنسي يلبسه الكاهن في عنقه لدى قيامه
بالاحتفالات الطقسية .
(٢) بونا : لقب للكاهن .
(٣) انقسمت العرب عربين : أي انقسم أهل البيت فريقين .
(٤) حقّ البخور : وعاء نحاسي يوضع فيه البخور .

- أنا ايش عملت ؟ كنت حاطة روحي على كفي .

- والزواج ؟

- ثبت يا بنتي ، ولكنهم « حرمونا »^(١) مدة ، فخرقت في البيت .

- وأخيراً .

- وأخيراً ، الكنيسة حليلة ، حلّوا الحرم ، وسبقني مخايل الى أميركا كما اتفقنا . وهناك مرض المسكين بالحمى ومات ، ورجعت عمتك من مرسيليا .

« سمعت قصة عمتك يا بنتي ؟ هذي هي » .

فقالت ست الاخوة: اذن « اشهد يا بونا » تغني عن صلاة الاكليل^(٢) .

- معلوم . معلوم . كان « الصلاة الفرنجية » معمولة لحفظ حرية البنت الضعيفة .

- وإذا كان العمل جائزاً وصحيحاً ، فلماذا حرموكم ؟

- الزواج صحيح ولكنه غير جائز ، وقبلما يحدث ، ويعدّ تمرداً على ما رسمته أمنا الكنيسة المقدسة . ولهذا ما استصوب الناس عملي . ولكن أنا رأيته أحسن من تركيب القرون ... مسألة الحب طبيعة لا تتطلب فلسفة ، والضعيفة فيها بطل ، فكيف إذا كانت جبّارة مثل عمتك ؟

(١) الحرم : قرار يصدره مرجع ديني كبير يمنع من يرمي به من الاشتراك

في الصلوات والمراسم والحقوق الدينية أي الفصل عن الكنيسة .

(٢) صلاة الاكليل : مراسم الزواج .

« المسيح أقام العازار من الموت لأنه كان يحبه ، فكيف أقبر قلبي الى الأبد ؟ لي فرد قلب .

« سمعت قول المثل : ظلمك خورك ، لا تصدقي . لا الدين ولا الخوري ولا الشرائع تظلم . الحق كله على الأهل ، وعلى البنت الجبانة .

« قولي : لا ، واستريح طول العمر . الناموس ضروري ، وإلا صارت الناس مثل البهائم ، ولكن الناموس لا يجبر الناس . ايش معنى قولهم : بسمت الله ورسوله ؟ أي بناموس الله . وإذا تعدى الناس على الناموس فالحق عليهم .

« صدقيني ، إذا قلت لك : لا تمر جمعة حتى أبصره في نومي . وهذي أكبر تعزية .

فتبسمت ست الاخوة . فقالت لها عمتها : اضحكي . صدقيني اذا قلت لك : كلما قلت فعل الإعتراف ووصلت الى قولي « مار مخايل وجبرائيل » ، يقشعر شعر بدني ، وأهتز من كعب رجلي الى قرص مخي^(١) .

« مسكين مخايل ! لا تضحكي يا بنتي ، الحب المتين لا يموت ، وكل فرس لها خيال .

« قومي نرجع . اكتمي السر ودبّري أمورك . البنت من طبعها الحياء . قوّي قلبك وكبّري راسك . لا تنساقى مثل النعجة ... خلاصك في يدك يا اسرائيل .

(١) مخي : رأسي .

ولما اشتد الضغط على ست الاخوة دخلت على أبيها الذي ما عاق دفنه
إلا بقية نفس تتردد بين الجلد والعظم . وهناك صرَّحت لوالدها بما
في نفسها .

فالتقى عليها والدها نظرة يأس ، ثم اصطكت أسنانه ، وقال بصوت
كأنه آتٍ من بعيد :

— البنات من صدور العماة . روحي يا بنتي ، الله يستر عليك . نحن
في غنى عن « صلاة فرنجية » ثانية ... بيتنا معود ...



– الضغط يولد الانفجار . انفجرت يا جماعة .
ثم أخذ يحدث نفسه عاداً أصابع يده اليسرى : يا ميلاد ، عَشِّ^١
البقرة والعجل . ميلاد سرح^(١) العنزات .
ثم قال يقلد صوت أمه : ميلاد ، بحياتك ، تملي الجرة . وبعد سكتة
كأنها تفكير انتفض وصاح : ما بقي إلا يا ميلاد كنس البيت ، يا ميلاد

(١) سرح العنزات : أرسلها ترعى .

غسل الصحن ، يا ميلاد غسل الثياب ، يا ميلاد اعجن ، ويا ميلاد
اخبز ... وأين الموت يا هو ؟ ما عندي دقيقة احك راسي .
فتضاحكت اخته فروسينا ، فانفجر غضبه وكشر عن نابه متهدداً
فتضاحكت وقالت له : الذي يسمعك تحكي يقول انك خوري مرقص
غرقان بين كتب اللاهوت والسرياني حتى ينسى غداه وعشاه . هذا
شغل الفلاحين مثلنا يا عيوني . أنا قاعدة . وأين أمك ؟ وأين أبوك
واخوتك ؟ كلهم في الشغل .

وقع هذا الحديث في اذني الوالدة ، فالقت عن كتفها حلة الخطب ،
ووقفت تنصت . ثم دخلت وهي تتكلف الابتسام استرضاء لابنها ميلاد
الساخط ، فقال حين رآها : جاءت الجنيّة ، حرمة ما لها دين ، لا تستريح ،
ولا تخلي أحداً يستريح .

فقالت له بعطف وحنان : ايش قلت يا روحي ؟
فاجابها ميلاد بهزء وسخرية : ماش يا روح حالك . ما أحلى لسانك
وأكثر مطالبك !

— بلي ، سمعتك تحكي .

— لا بلي ولا ملا . بيت مثل جهنم ، عيشة مقرقة مثل وجوهكم .
قال هذا ومشى ، وهو يطبطب^(١) . ومشى أمه من على يمينه تداعبه
وتراضيه . وظلت تطايبه حتى انفجرت ضحكته المعهودة ، فهدأت
قدره الفائرة .

(١) يطبطب : يتكلم بكلام غير مفهوم .

ورجعت الام ، وهي تقول في نفسها : الحق معه ، حياة كلها تعب وشقاء . مسكين ميلاد ، ما رأى يوماً أبيض !
ومرّ في خاطرها فكر عنيف اسودّ له وجهها . وسرعان ما تكشفت تلك الغيمة السوداء حين لاحت جارتها على الطريق ، فرشقتها بالحديث من بعيد : كل الأولاد صاروا مثل ابنك ، يا ام سعيد . البلية كلها من ابن اغناطيوس . قعد يومين في بيروت ورجع أمس ، ومعه أخبار يا أم سعيد ! أخباره أشكال وألوان . الأولاد عقلهم قليل . داري ابنك وإلا فالحسارة عليك يا اختي .

فاقبلت أم سعيد على جارتها تستفهم ، فوقفتا على قارعة الطريق . في يد أم سعيد سل^(١) فيه أشياء ، وتلك جرتّها ملآنة على كتفها . دار الحديث نصف ساعة وأكثر . ولو لم يمر « نقّادة الضيعة » الناعي على نساءها هذه الخصلة ، ما انزوت أم سعيد في بيتها ، ولا ذهبت حاملة الجرة في طريقها . أزعجت أخبار حاملة الجرة أم سعيد ، فرقست شفتها الضخمتان رقصة هينة . وغل^(٢) الخبر يديها ، فأمست لا تدري ماذا تعمل . تبدأ بعمل ثم تتركه . وظلت كذلك أكثر من ساعة . وأخيراً تذكرت أن الظهر قد قرب وأن زوجها سيعود ليتغدى . هو لجوج لا يرضى بغير الطبخ أكلاً ، وخصوصاً الضخم منه . شعاره : لا يحمل الركب غير البطن . فوضعت القدر على النار وشرعت تنقي العدس ، ولكن أخبار

(١) سل : وعاء من قصب .

(٢) الغل : طوق من حديد أو جلد يحمل في اليد .

جارتها ظلت تشغل عقلها . وبينما هي شاردة الذهن إذا بجارة أخرى تمر ، فصاحت بها أم سعيد ، بعد رد الصباح : تفضلي !

فتفضلت ، ونشر بساط البحث . كان الموضوع ابن الجيران العائد من بيروت ، فأقلق القرية الهادئة . وطال الحديث ، فنصب ميزان الدينونة . استعرضت المرأتان بيوت الضيعة واحداً واحداً ، ثم قرأ رأيهما على أنها حالة لا تطاق . الكبار راحوا إلى أميركا ، والصغار سيتزحون إلى بيروت ، ولمن تبقى الأرزاق والبيوت ؟

وتنحنح أبو سعيد وسعل ، ففرّت الجارة من الباب الغربي ، ودخل هو من الباب الآخر يشخر وينخر . وقبل أن يصبح ابتدرته أم سعيد بـ **يعطيك العافية** .

فردّ من رأس شفتيه ، وتنهد ، وقعد فملاً الحصيرة . قال : الحمد لله ! فردّت أم سعيد كالعادة : كل ساعة . وبعد أن شرب دورق^(١) ماء مسح شاريه يده ، وأوماً مستفهماً من زوجته عن تعبئتها ، فقالت : اسكت يا رجل ، أخبار بشعة جداً .

فقهقه أبو سعيد وقال : بحياتك ، قولي لي ، متى كانت أخبارك مليحة ؟ قلت لك ألف مرة لا تحملي السلم بالعرض . وصّي على غير هذا الوجه يا أم سعيد .

فامتعضت ، ولكنها لم تجبه على تهكمه لئلا يقوم القرد^(٢) .

(١) دورق : إبريق كبير له عروقان ولا بلبلة له (فارسية) .

(٢) كناية : عن الغضب والفيظ والشر .

وبعد محاولات واستعدادات انفتح فمها وقالت : الكلام بيننا .
فقاطعها : لا تقولي الكلام بيننا ، ويكون الكلام بين سيقان الدجاج .
فبهتت وسكتت . فقال : طيب ، احكي .

فقالت : ابن جارنا البيروتي لعب بعقل الصبي . حلّى في عينه عيشة
بيروت . ربما راح معه .

ففقّه ابو سعيد وصاح : صدّقت يا مجنونة ؟ واذا راح يرجع مثل
الكلب . اتركه يكشف بخته . متى تغرب يعرف انه عائش بنعمة .
فتطلعت اليه ام سعيد بعينين واسعتين ، فقال لها : كليني بعينيك .
بومة ^(١) ! ما عندك إلا بشائر النحس .

فنابت دموع الام عن الكلام . وتأثر ابو سعيد اول مرة في حياته ،
فذهب في الكلام مذهباً آخر ، وقال لزوجته بوداعة : خلينا نعيش يومين
مثل الناس . نسيت قول المثل : قلبي على ابني وقلب ابني على الحجر ؟
الله معك ، قومي غدينا .

فرضيت المسكينة وقامت ، ولكنها تذكرت أن ولدها ميلاد لم يعد
بعد ، فاستمهلت زوجها ريثما يرجع ، فأبى .

وتغدى وعاد إلى عمله ، فالطقس ملائم ، وعنده أشياء يجب أن يتمها
قبل أن ينخر المزراب ^(٢) . الجو معكر ، والبرق مشتعل منذ ليال .

(١) بومة : طائر ليلي ، شؤم .

(٢) ينخر المزراب : كناية عن ابتداء فصل الشتاء .

وفي المساء شامت الام أن تفتح ولدها بحديث بيروت ، فقطب ابو سعيد جفنيه الرهيبيين ، فارتعدت .

وغدا ميلاد الى بيروت غدوة امرىء القيس . غاب الولد فانتظروا يومين ثلاثة . وأخيرا عرفوا انه في المدينة . وانقضت جمعة وجمعتان ، وميلاد لم يرجع .

وسرت الوشوشة في الضيعة : ابن ابو سعيد دائر على أبواب الناس ، جوعان عريان ... ولكن الخبر لم يبلغ اذني أبي سعيد الكبيرتين لأنه لا يخالط البشر . لا يؤمن بغير الحقل . وليمت جوعاً مَنْ لا يعبد الأرض . مذهبه : من لا يزرع لا يشبع .

أما ام سعيد فعرفت أخبار ولدها من حاملة الجرة ، الملقبة بالضيعة « بالبوسطة » لثريتها ، فقعدت تبكي . وقبل عيد الميلاد بيومين قالت لزوجها : اسمح لي فتش عن ميلاد . وقبل أن يقول : لا ، اندفعت تقول ، وعيناها عالقتان بوجهه : بحياتك اسمح لي . كيف يمرُّ عيد الميلاد والصبي غائب عن البيت ؟

فعبس ابو سعيد . فقالت بانكسار : بحياتك ، قل لي : روحي . - روحي ، مع السلامة يا ام سعيد . ولكن خيطي فسطانك . له نصف سنة في الصندوق . وكندرتك ؟

فاجابت : الفسطان نخيطة الليلة ، وأستعير كندرة ام حبيب . فاستضحك وقال : خيطي على مهلك . الفرس ما قلعت التوتة (١) .

(١) الفرس ما قلعت التوتة : (مثل) أي لا استعجال .

بيتربى أحسن اذا خليناه يعيد في بيروت .

- لا لا لا لا لا .

- طيب ، الحق معك . اركضي ، الحقية .

وخافت أن يسترده أبو سعيد الاذن فلم تخطط شيئاً . استعارت كل شيء حتى النعال والجوارب وغيرها ... وكانت ليلة عيد الميلاد في بيروت . لم يفتح ميلاد باب رزق في بيروت فأمثاله في المدينة مثل الجراد الزحاف : هذا يُعتل ، وهذه تشخذ ، وذلك ينشل . أما ميلاد فحاول ذلك كله فاففق . لم تسد العتالة والشحاذة جوعه ، فذبل حتى كاد ييبس ، وتوسخت ثيابه وتمزقت ، فأصبحت الناس تتقزز منه فيزجر ليبتعد .

وسمع المسكين أن الناس يحسنون ليلة الميلاد ونهاره فاستعد للمعركة . ولكن ضفادع بطنه كانت تنق ، وسيقانه لا تحمله . تذكر قول والده : التين مسامير الركاب^(١) . فتحسر على لعقة^(٢) تين ، ومشى في السوق كأنه البؤس متجسداً .

رأى شجيرات عيد الميلاد منصوبة عند أبواب المخازن فضحك منها ، ولكنها ذكرته تينتهم الشتوية فتأوه . ثم مشى بعين مكسورة يفتش عن الرغيف ، والرغيف دولاب هيات أن يدركه بأش مهدود مثل ميلاد !

(١) التين مسامير الركاب : أي أنه غداة مقور يشد الأرجل .

(٢) لعقة : لحسة .

والتفت فرأى ديوك الحبش مسموطة ومعلقة بمناكيرها فظنها دجاجاً
فهتف ، وهو ماشٍ يا بارك الله ! هذا دجاج .

وهاجته وسوسة^(١) الملاعق ورنات الكؤوس هنا وهناك ، فتذكر
فطور أمه ، يوم عيد الميلاد ، عام أول ، وتنهد وزحف بعزم قادماً ساحة
البرج . وأزجت^(٢) عليه الشمال جامد البرد فوحوح^(٣) . وتذكر الغارة
التي كان يشنها على خابية^(٤) النبيذ فتحسر على مصة .

ولما أعياه الطواف لطفي قرب كاتدرائية مار جرجس ، ومدَّ يده أول
مرة وصرخ : حسنة عنكم يا أجاويد ، دخیلکم . جوعان .

ومرَّت الناس وما وقف عليه أحد . طرحت له بضعة أنصاف
قروش ، ولكنها لا تشتري رغيفاً . وحي صراخه فازداد عددها قليلاً ،
فوضعها في لبادته المزفتة .

كان يصرخ ويحسب ، فإذا معه ثمن رغيفين ، فحمد الله . وتذكر الآية
الانجيلية القائلة : اطلبوا تجدوا ، اقرعوا يفتح لكم . فراجعته توجعه
وأنيته ، وطفق يتحمس ويجدُّ في التمسك حتى استولى على أمد بلاغة هذا
الفن ، ولكنه لم ينتفع لأن الازدحام على مورد «مغارة الميلاد» كان قد خف.
فحبس ميلاد لسانه ، وشرع يحسب ما في اللبادة^(٥) حساباً نهائياً ،

(١) وسوسة : أصوات . (٢) أزجت : سقطت سقوط الرماح .

(٣) ووحوح : نفخ في يده من شدة البرد .

(٤) خابية : وعاء من الفخار يجمع فيه النبيذ .

(٥) اللبادة : هنة (قبعة) من صوف .

فضمن العشاء، وبقي له ما يفك به ريقه ان أصبح. فتوكل على الله ونهض.
فما كاد يستوي حتى بطحه أزعر^(١) من لداته^(٢) واختطف القبعة وطار.
فزعق^(٣) ميلاد زعقة منكرة وهم^(٤) باللاحاق به، فدوخه الجوع وسقط
كومة في مكانه .

وكانت امرأة تشاهد عن الرصيف الآخر صراع بانسين من صبية
الازقة حول الرغيف ، فرق قلبها وحر كتمها الشفقة حتى اندفعت الى
حيث الصريخ . مشت وهي تتعثر بأذيال فسطان أطول منها . تكوي^(٥)
وتجمع^(٥) كان حذاءها ضيق ، وقد كادت تسقط في حومة الطريق
لو لم تتشدد .

وبعد ألف جهد وصلت الى حيث يتكوم الولد المغلوب ، فوقفت
عليه وعيناها تتغرغران بالدموع ، ثم كرجت على خديها حارة تكاد
تحرقها . وبعد هنيهة تأمل ، لا يعلم أحد ما وفد فيها من ذكريات على مخيلة
تلك المرأة ، رأت نفسها تهتز للاحسان، مندفعة اليه ، على قلة ما في جيبها
من مال .

وأخيراً امتدت يدها الى الولد فهزته وقالت له ، وهي بين الوعي
واللاوعي : قم يا ابني ، تعال معي ، أنا أعشيك .
فشق ميلاد عينيه وصاح : أمي .

-
- (١) أزعر : شمس الخلق . (٢) لداته : رفاقه .
(٣) زعق : صاح . (٤) كوكى : اهتز في مشيته وأسرع .
(٥) جمعت : مشت كان بها عرجاً .



عرك سياسة القرية وعركته فتوهم انه بسمرك زمانه او عبد الحميد.
ومنى تمطى بصلبه^(١) وقعد يخبرك عن بلائه الحسن في المعارك الانتخابية،
تخال انه يضع من يشاء ، ويرفع من يشاء . يظن انه يقص عليك أحسن

(١) الصلب : عظم يمتد من الكاهل إلى أسفل الظهر ، والكاهل أعلى الظهر .

القصص . فيتمكن من الكرسي ويرفع طربوشه الدهري عن جمجمة
كانما خطت بالبيكار . قلت جمجمة لأن الجزر بلغ أقصاه في ذلك الرأس .
ألقيت عليه نظرة بلهاء ، وكدت أتوه في عالم التأمل لو لم يهزني
بعنف ويهتف بي : أعجبك رأسي ؟ يا ما مرَّ على هذا الرأس من مصائب
وبلايا ! ضربات لا تهر الشعر فقط ، ولكنها تهد الجبال الشامخة . تحب
تسمع ؟ سماع أخباراً تشيب رؤوس الأطفال .

ثم تطاول ونظر بعيداً ، فالتفت لأرى ما يرى ، فاذا به يقول لي :
ما لك ؟ فقلت : لا شيء .

ودعمت رأسي بيديّ التنتين لأمكن عيني من وجهه الطريف علامة
الإصغاء . أما هو فأخذ يحكم قعدته ويرتب فناجين القهوة على الطاولة .
كان يعبث بها ويلتفت نحوي ، وأنا أنتظر وهو يتها .

وبعد دقائق أظنها لا تقل عن العشر ، قال : نعم . قلت : نعم .
قال : ماذا تريد ؟

قلت ، وقد كدت أنشق من الغيظ : قلت لي سماع حتى أخبرك ،
وأنا أنتظر منذ ربع ساعة .

قال : أسألني يا صاحبي ، عندي مليون قصة . عمن تريد ان أخبرك ؟
تريد أخباراً قديمة أم جديدة ؟ أنا تاريخ من لحم ودم .
قلت : عرفت .

قال : عرفت ... ثم كر كر^(١) في ضحكته الصاهلة وقال : قلت

(١) كر كر : أعاد مرة بعد أخرى ، وفي الضحك : اغرب .

عرفت ، هذا غلط . حقاً انني لا أعرف ماذا أعرف .
قلت : حديثك غريب اليوم يا خواجاً مخول ، لا أفهم قصدك .
فقال : أشرح لك ، معناتها لا تسأل . يعني بحر له أول ماله آخر .
ولما يئست منه قلت : والآن ماذا تعمل في المدينة ؟ طلقت الضيعة ؟
كلما جئت يروت أراك في هذي الساحة .
فدّ نحوي رقبة زهاء فتر^(١) ، وقال كأنه يفضي إليّ بسرّ دولي :
موعود .

لفظ هذه الكلمة مقطّعة ، مفخّمة . ثم أعاد تلك الرقبة الى نصابها
وتشاءب ، فوجدتني تجاه فم كأنه مغارة قاديشا ، تتدلى في سقفه وترتفع
من أرضه بقايا أنياب وأضراس ... وكأنه أحسّ كراهية ذلك المنظر
فاتقاني بيد أصابعها كاللوز ، ثم استرسل في الحديث وقال :
— كل هؤلاء الجالسين على الكراسي أعرفهم كما تعرفني وأعرفك .
أمس تعشيت عند فلان ، وأكد لي أن غرضي مقضي ، ولولا بعض
مشاكل داخلية وخارجية مستعجلة كنت على الكرسي من زمان . كل
هؤلاء لولانا ما وصلوا .
فاجبته : ما فهمت .

فتضحك وقال : بلى فهمت ، لا تتجاهل . وصلك مثلما وصل غيرك
ما عمله مخول لإنجاح الجماعة . يقولون لي من بعيد : كيف حالك
على الفضل .

(١) الفتر : ما بين طرف الإيهام وطرف السبابة إذا فتعتها .

قلت : طيب ، سلمنا بهذا ، ولكن أية وظيفة تقدر عليها انت ؟
فطفق يفح كالصل^(١) ، ويتلوى على كرسيه . وبعد مهمة وتمتمة ،
قال بغضب : أنا ؟ أنا أي عمل أعمل ؟ كل هؤلاء أولادي ، ما عرفوا من
السياسة والادارة ربع ما عرفت . أعرف الأقلام الأربعة^(٢) بلا غلط .
هذي أساس علم الحساب . الوظيفة لا تحتاج الى أكثر . خطي جميل جميل
أكثر مما تتصور . كتبت لمعالي الوزير مكتوب تهنئة ، ولما التقينا البارحة
قال لي : سمعت عن خطك وما صدقت حتى وصلني مكتوبك . هذا
خط يدك يا مخول بك ؟ فقلت له : وخط من يا سيدي ؟ فقلب شفته
وقال : الرجال مخبأة في ثيابها . قليل في الدولة من يخط مثلك .
فعندما سمعت هذه الكلمة ضمنت المركز وتأكدت انني ساعين في
هذين اليومين .

وشرع ينبش محفظة كجراب الكردي وهو يقول لي : هذا مكتوب
الوزير ، وهذا كرت المدير . كانت يلقي كل ذلك على الطاولة ليريني ما
كتب على الظرف . وأخيراً صاح : لقيته ... تفضل ، هذا خطي ...
وبعد استراحة قليلة صاح بي : آه ! لولا تعرف كم تعبت قدامهم وكم
ركضت ؟ يشهد عليّ ربي ، ما كنت أنام الليل ، اترجى هذا وارضى
هذاك ... الغاية وصلناهم . وصلوا وما زالوا حافظين الجميل . ما التقيت
بواحد منهم إلا بش^٣ لي وقال : ننسى حليب أمنا ولا ننسى أفضالك .

(١) الصل : الحبة الخبيثة جداً .

(٢) الأقلام الأربعة : الجمع والطرح والضرب والقسمة .

قلت : ولكن كل اعتمادك على الجداول الأربعة والخط ، وهذا لا يكفي . أخاف ان تعلق وتخيب . الخيبة مرّة .

فضحك وقال : انت خائف على مخول . انت لا تعرف داعيك . والله ثم والله ، أنا انزع الدبس^(١) عن الطحينة . خوفك في غير محله .

ثم أخذ يهز برأسه ويقول : هذا مخول . انت خائف على مخول . خوفك في غير محله .

قال هذا وهو يحدق الى وجهي كأنه يريد أن يا كلني بعينه . وأخيراً صاح بعد ما لطم الطاولة بجمع يده : الدنيا وهم يا صاحبي ، لا بدّ من الجرأة . اذا لم تخف من المقام ركبتك ، وإلا ركبك . والحمد لله تعالى قلبي أشد من الحديد . كثرة الدعاوى صيرتني اعرف « الشريعة » مثل محام كبير ، وتقلب الدول علمني السياسة . لا يهمني شيء بإذن الله ودعاك .
— ألا تظن ، يا مخول بك ، أن المركز يضرك مادياً ولا ينفعك ؟
فجنابك ، كما سمعت ، صاحب عقارات واسعة تدرّ عليك أكثر من دخل وظيفة صغيرة تجدد وراءها منذ زمان .

فتناول للفظه بيك ، وصفق تصفيقاً حاداً التفت له كل من في القهوة :
هات قهوة يا صبي . عجّل علينا .

ثم قتل شاربين معقوفين وقال باستهزاء : من خبرك انها صغيرة ؟ لا ، لا يا خواجه بطرس ، أنا موعود بوظيفة أكبر مما تفتكر . غداً تعرف .

(١) ينزع الدبس عن الطحينة : مثل يضرب للماهر بكل شيء .

قلت : هبها كبيرة فأنت في بيتك أكبر منها ، والتوتة والزيتونة والعريشة والتينة أكرم من صندوق الحكومة . الناس يدارونك اليوم وأنت لا تداري أحداً . وغداً متى توظفت تضطر أن تداري من يداريك وتستعطف من يلتمس رضاك لتثبت مركزك . وإذا جرت الرياح بالعكس فهناك المصيبة يا مخول ... يا مخول بيك . الصواب أن لا تقبل وظيفة .

فامتعض وبان الكدر والغم في وجهه وقال لي : السر بيننا ، الحق معك ، ولكن ينكيني ناس كانوا خدّاماً عند المرحوم جدي واليوم صاروا يأمرون وينهون ، تستقبلهم الناس كأنهم شيء عظيم . بحياتك قل لي ، كيف ابقى في ضيعتي بين فلاحين يصبّحوني ويمسّوني ، وإذا حوّلت ظهري قالوا في قفاي : تأملوا ابن فلان أين صار ، وهذا غارز كالوتد . هناك صار شيئاً من لا شيء ، وهذا يدلّ كل يوم على قطعة أرض ، ويكون سعيداً إذا لقي من يشتري .

— ولكن أنت واثق من هذه الوعود ؟

— مؤكّد . وشدّ على الكاف شداً عنيفاً . بهذين اليومين ينتهي كل شيء .

قلت : وفقك الله ، هذا ما تتمناه .

وتهيأتُ للنهوض فقال : اقمسد ، ما انتهينا بعد . إذا احتجت إلى شيء في المستقبل فأنا مستعد . تعال صوبي . ما غاييتي من الوظيفة إن أعر بيتي ، غاييتي خدمة إخوان وأصحاب مثل فضلك ... ونكاية بجيرانني .

ظنوا اني عاجز عن وظيفة ، ولذلك حلفت للاولاد مينا انني لا أرجع الى البيت إلا والمرسوم في عبي .

قلت : ولكن أراك في هذه الساحة منذ سنة وأكثر .

قال : ما سمعت ، قلت لك حلفت ألا أعود إلا ظافراً .

وهمت بالنهوض فصرخ : اقعد ، دائماً مستعجل .

فقلت : علي قضاء أشغال كثيرة والشمس كادت تغيب . أستاذن .

— اذنك معك .

وما خطوت بضع خطوات حتى ناداني وهرول^(١) نحوي ، ولفني

بذراع كأنها يد القدر ، وانحنى على اذني يوشوشني ، فابدت أسفي .

فقال : بسّ بسّ ، خنت^(٢) انك ميسور ، فقلت تقرضني مئة ليرة

أردها لك بعد يومين ثلاثة ، بعد التعيين القريب جداً .

ورحت أسعى في قضاء حوائجي ، ثم عدت عند الدغيشة^(٣) فرأيت

قابلاً في مكانه ، ينتظر أوب^(٤) الناس الى بيوتهم ليستنجزهم ما وعدوه

به ، ولكنه قلما يحظى بالمواجهة ... لا يظفر إلا بهذا الجواب التقليدي

لقارعي الأبواب من أصحاب الحاجات : البيك ما رجع ، غائب ، في

الجل ، الافندي مدعو الى حفلة شاي . وهكذا دواليك ...

ومرّت شهور انقطعت خلالها عن زيارة بيروت . ولما هبطت اليها

(١) هرول : مشى مسرعاً . (٢) خنت : ظننت .

(٣) الدغيشة : الظلام . وهنا انتهاء النهار بعد الغروب بقليل .

(٤) آب : رجع .

وجدته حيث كان في تلك الزاوية من القهوة ، فضحكت وقلت : كيف الحال يا أخا ساحة البرج ؟

فأجاب فوراً : قال لي اغدُ عليّ ، انتهى كل شيء .

قلت : ما أطول بالك !

فقال : الصبر مفتاح الفرج . صبرنا ولقينا .

قال هذا وهو ماشٍ ، ثم التفت إليّ وقال : لا تؤاخذني ، الآن أجدهم في البيت . هذه الساعة المناسبة ، وإلا أفلتوا من اليد .

وجعلت أتأمله فخلتني رأيتُه منذ عشر سنوات : أصفر هزيل . ثياب رثة وسخة . اطار طربوشه مسودّ كأنه مصبوغ بفحم القِدر . عيناه غائرتان حتى تخالهما قابعتين في كهف . خفت خطواته وذهب نشاطه .

ولاح له البيك على الرصيف المناوح فعلق يناديه ، والبيك يتغافل ولا يريد أن يسمع . فشمّر "مخول للحاق به ، فكانت مباراة مضحكة أحرز البيك فيها قصب السبق وصعد الى حافلة التراموي .

وأبى مخول الهزيمة وقد كره المواعيد والتهرب ، فصاح : يا سيدنا ، يا بيبك ! والبيك يشق طريقه في الحافلة غير حافل .

وتعلق مخول بمتكا التراموي تعلقاً غير محكم ، وكانت محاولة فاشلة . دار دولاب القدر دورته فإذا بمخول يترك إحدى رجله تحت الدواليب .

(١) شمر : مرّة مسرعاً أو مختلاً .



عاد بو خطار الى بيته أشعث^(١) أغبر، فعلق بندقيته «السكيكة»^(٢)،
ووضع الطبنجة^(٣) في «الطاقة» الى جانبها، وجعل ما في عبئه، وجيوبه،

(١) أشعث : شعر أشعث : مفبر متلبّد .

(٢) السكيكة : وقد في الحائط عند الباب يعلق به حوائج القادم إلى البيت .

(٣) الطبنجة : نوع من السلاح على شكل البارودة ولكنه دونها .

وطيات زناره ، على رفّ مصنوع من الحواري ، ثم تربع في مقعده عن
يمين الموقدة . وجاءت امرأته برسيطا بالابريق والطست فشرع يغسل
رأسه ويحكى .

كان يتوقف عن العمل لي طرح عليها الأسئلة . وكثيراً ما يفعل ذلك
والصابون يرغي على وجهه . فإذا لذع عينيه أطبقها وفتحها وحكى .
وطال حديثه فصبت برسيطا الماء بلا وعي ، فانتفض وسبّ الدين .
وسرعان ما أدرك أنه ارتكب خطيئة مميتة ، فطفق يستغفر ربه ، وينشف
وجهه ويحكى . كان يتمشط ويسال . يسال ولا ينتظر جواباً ، حتى
إذا جاء دور قتل الشاربين وإقعادهما على طراز دياب ابن غانم كان
صمت عميق .

وبعد دقائق معدودة التفت الاسرة حول طاولتها المستديرة
(الطبلية) حيث ياترون بقتل الطعام . على فخذ كل منهم رغيف كالملاءة
المدنّرة . شوكاتهم أيديهم ، وملاعقهم من خبزهم . كان بو خطار لا ياذن
بالكلام على الطعام ، فمن يسال يجب ، وإلا فلينشغل بصحنه لتبقى
الأيدي في وقت واحد حول قصعة التين أو الدبس ، مشاع الاسرة ..

وبعد حمده تعالى على ما أعطى من الخبز ، ينثر بو خطار عليهم
نصحه وإرشاده . يصلح أخطاء النهار للزوجة أولاً ، وللمعجاي "ثانياً" .
وأخيراً يعود الى أركان حربه ، الى ولديه خطار وشلهوب ، فيرسم لهما

(١) المعجى : الولد الذي فقد أمه وتربى بلبن غيرها .

خطط المهنة ، مندداً بما ارتكبا من من هفوات في بحر النهار ، فيقول
لخطار :

« جئته من خلف وكان يجب أن تجيء من قدام . قلت له اشلح
وانتظرت ، وكان الأوفق أن تبغته ، تضربه ، او تصيح به على الأقل
صيحة تهتز لها مفاصله . »

« وأنت يا شلهوب ، لو وقفت على المفرق ، كما فهمتك ، ما هرب
ذاك اللعين . مؤكد ان المال كان معه . لا بأس . راحت . خيرها بغيرها .
انتبه ثاني مرة . »

« اليوم ما توقفنا يا ام خطار ، السيدة غضبانة علينا ... »

فابتسمت ام خطار ابتسامة مقهورة . ثم مرّ بو خطار بشؤون
اخرى مرّ الكرام ، وتأوّه وقال : اركعوا حتى نصلي .

وانتصب كأنه عمود ذهب ثلثه . ورأى ان ركوع أحد بنيه غير
وافٍ بالمطلوب ، فزجره^(١) ، وقامت الصلاة . الأب وولي عهده جوقة ،
والأم ولفيف الاسرة جوقة ثانية . وبعد طلبه السيدة^(٢) زاد بو خطار
على « الفرض »^(٣) بضع مرات الابانا والسلام ، صلاًها بحرارة ، راجياً من
العذراء التوفيق في الغد .

(١) زجره : منعه ونهاه .

(٢) طلبه السيدة : صلاة خاصة تقدم للعذراء مريم .

(٣) الفرض : الفرض من الصلاة ما يقدم يومياً من صلاة .

وزحف تواء الى فراشه فاستلقى على قفاه ، ثم قال وهو يلتحف :
حضري الزوادة يا برسيطا . لا تنسي انها لنهار الجمعة ، اسلقي بطاطا .
وبعد هنيهة رفع رأسه عن الحدة وقال لها : الشروال مخزوق ، دبريه .
والكبران^(١) مفتوق . ثم همهم : ان وقعت عليه عيني لأخطفن روحه .
وبعد أن قبع تحت لحافه عاد فكشف عن صلعتة المجددة وقال لابنه :
سن السكاكين ونظف القرايينة ، حمص البارود لئلا يصيبنا ما
أصابنا اليوم .

فاشارت ام خطار بيدها تستفهم ، فاستمهلها ابنها حتى غفي أبوه ،
فقال لها : وقعنا اليوم على اثنين ، واحد قشطناه ، والثاني هرب . الثاني
شب أخو اخته^(٢) .

ثم أخرج خاتماً فضياً مكتوباً عليه « يزول » ، فامتعضت برسيطا إذ
رأته وقالت : هذا هدية لمحبووبته ، حرام عليكم .

فاوما خطار نحو أبيه وقال : قولي له ، لا تقولي لي أنا . إن قلت
له مرة : حرام ، يحن جنونه ويقول : ولد نذل ، دائماً تقول : هذا كذا ،
وهذا كذا ، قشطهم والعن جد جدم .

وبعد قليل هدأ البيت إلا من شخرات بو خطار الطالعة النازلة .
وكان يتكلم بلا وعي ، فيتهدد هذا ، ويأمر ذاك بالتسليم ، ثم يصيح بولده :
نبشه يا خطار .

(١) الكبران : ثوب إلى الوسط يلبس فوق الصدرية .

(٢) أخو اخته : كناية عن أنه شديد البأس والقوة .

وأفاق كعادته عند الفجر الكاذب^(١) فصلب^(٢) مرات، ثم قعد يصلي
للعذراء في فراشه . وتطول النجوى أحياناً ، فيعتذر بو خطار اليها عن
تقصيره نحوها ، ثم ينذر لها ربع ما توفقه الى سلبه ، كان يقدم لكنيستها
ثرياً او شمعداً او بخوراً او شمعاً ، وإن كان التوفيق عظيماً يعدها
بجرس شغل بيت نفاع^(٣) .

وبعد صلاة ساعة تقريباً يكونون في طريقهم الى مربضهم ، ووراءهم
ابنه الصغير حاملاً جراب^(٤) الزاد .

أما بو خطار فلا يترك مسبحته ، يظل يصلي ، وان حسب انه سها
أو غلط بحجة أعادها . يريد حساب الصلاة مقوماً ، خالياً من السهو
والغلط ، وإلا فكيف يوفقه مقسم الأرزاق ؟...

كان يصلي ويفكر بمن يسوقهم اليه القدر ، فدق جرس القداس ،
فصلب يده على وجهه ، واعتذر الى ربه عن تركه القداس ووعدته أن
يشترك فيه بالعقل والروح .

وبلغ مكنه مع الشمس ، فدق جرس « التبشير »^(٥) ، فحسر^(٦)

(١) الفجر الكاذب : بعد نصف الليل يظهر كوكب مضيء لوقت قصير

فيظن البعض انه الفجر ، ثم لا يلبث أن يختفي فيعود الظلام .

(٢) صلب : أشتر إشارة الصليب على وجهه .

(٣) نفاع : عائلة لبنانية من بلدة بيت شباب اشتهرت بصنع الأجراس .

(٤) الجراب : كيس من الجلد يضع فيه زاده ويتمنطق به - أي يشده الى خصره .

(٥) التبشير : صلاة الظهر وهي كناية عن بشارة جبريل للعذراء مريم .

(٦) حسر : كشف .

طربوشه المغربي عن جبهته بعض الشيء ، وركع على البلاطة « يبشر »
هو وولده . ثم ربضوا كل في مكانه ينتظرون الرزق الحلال الزلال ...
وقلب بو خطار يده على أن العذراء راضية عنه ، وستوفقه ...

وسمع قادماً يغني فأشار إلى ولديه فاستعدا . ظل القادم مطمئناً حتى
رأى رجلاً في يده مسبحة يصلي فارتاع وفشل . تعجب من نفسه كيف
يخاف من رجل يصلي . ولكنه أظهر الجلد وحيًا باحترام عظيم . فقطب
بو خطار حاجبيه كالرفراف وحدجه " بعين حمراء ناتئة الجنور .

مشى الرجل وعينه على أنف مثل مطفأة الشمع . فأوما إليه بو خطار
بالمسبحة أن قف . ولكنه تغافل ومشى . فصاح به بو خطار : قف ،
لا تجربني . اتركني اكمل صلاتي .

فادرك الرجل أنه وقع بين يدي بو خطار ، فقال في قلبه : مؤكد
هذا هو .

واستمر بو خطار يصلي والرجل منتظر ، وأخيراً دنا منه مشيراً
بأصابعه : هات ما معك .

— ما معي شيء ، يا بو خطار .

— ما معك شيء يا بو خطار ، هذا حكي . ثم من قال لك اني
بو خطار ؟

— شكلك يا عمي .

— الله يعمي قلبك . طيب ، هات ما معك .

(١) حدج : حدق .

- معي عشر مجيديات تدينتها حتى اشترى طحيناً للأولاد .

- الله يجبرك ، هاتها .

- بحياة العضرا^(١) عفا عني .

فهزّ بو خطار رأسه وأشار بيده ان هات .

وبعد أخذ ورد وتوسل وبكاء ، قاسمه بو خطار المال إكراماً للعدراء
مريم . وانصرف الرجل يدمدم^(٢) راضياً بنصف المصيبة .

أما بو خطار فصلّب بالمجيديات^(٣) ، ثم زجها في عبه وهو يقول
مستزقاً : استفتاح مبارك من ابن حلال !

وحدّق الى السماء يناجي حبيته العذراء مريم وقال : لعيون عيونك
ما ظلمناه ، عوضي علينا .

وسمع حس ناس يسوقون دواب ، وهم في حديث صاخب عن
الأسعار ، عن إقبال المواسم ، وعن ... وعن ... فهمس : جاءت
الرزقة ، جمهور .

فهباً خطار بارودته ، وأخذ شلهوب يعرض الطبر^(٤) ويسدده كان
الضحية أمامه .

(١) العضرا : العذراء مريم .

(٢) دمددم : تكلم بكلام غير مفهوم .

(٣) المجيديات : نوع من العملة التركية .

(٤) الطبر : الفأس من السلاح .

كانوا ثلاثة يسوقون دوابهم ، فصرخ بو خطار صرخة كبرها النهر
وضخمها : شباب ، اشلحوا ترجحوا .

وكان بين الثلاثة شاب معتد بنفسه، فأجاب بفظاظة وسباً أمهم...
فاطلق عليه خطار بندقيته تهويلاً ، فأجاب هو بالمثل . أما القول الفصل
فكان لطبنجة بو خطار ، فخر^(١) الفتى صريعاً لليدين والجران^(٢) ، وسلم
رفيقاه ، فسلبوهم كل ما معهم حتى الثياب والزاد .

وقعد بو خطار يحسب ما أصاب في ذلك النهار السعيد ، فكان ثلاثاً
وخمسين ذهباً ، وبضعة عشر ريالاً ، وكيساً (ضبوة كبيرة) من البشالك
والزهراويات والمتاليك والنحاسات^(٣) ، فتأفف بو خطار شاكياً ثقلها .
ونظر الى الأسلاب فإذا هي طبر نحاسي منقش، وخنجر، وساطور،
وبارودة « مجهرية » ، فقبّل الأرض شاكراً ربه على النعمة وصاح بولديه:
بوسوا الأرض يا ناكرين الجميل. ثم قال ضاحكاً: مال وعدة. هذا توفيق.
وأخذ يداعب العذراء ، وعينه على الغنيمة : كثر الله خيرك يا ستي ،
الله يطول عمرك . اليوم فرجت بو خطار ، لك مني جرس يرن له
الحادي في الوادي . يا ولاد ، هاتوا الزوادة . افتحوا جراب الجماعة .

(١) الجران : من البعير مقدم العنق وقد جاء في شعر تأبط شرأ :

فخر^(١) صريعاً لليدين وللجران .

(٢) البشالك والزهرراويات والمتاليك والنحاسات : نوع من العملة التركية

الزهيدة الثمن .

وتربعوا ثلاثهم على بلاطة في نصف النهر ، وأكلوا بقابلية غربية
بعد تلك المعركة الموفقة. فأخذ الصغير شقفة من قالب جبن كان في جراب
المسلوبين ، فضربه بوخطار كفاً على وجهه وقال :
- اعتبر يا وحش ، تتزفر " " يوم الجمعة ! لولا قلة دينهم ما وقعوا
بين أيدينا .

(١) الزفر : الانقطاع عن المأكولات اللاحمة يومي الاربعاء والجمعة من كل
اسبوع .



إذا كنت سمعت بالجنائن المعلقة وتريد أن تراها فهلم إلى لبنان .
ففي نحور شماليخ الجبال قرى معلقة حقاً ، تبص حين تضربها الشمس
كأنها عقود المرجان ، ويتلألأ زجاجها في الفضاء كأنه بحيرة الفضة
البيضاء سائلة ...

أنوار تموج وتمور^(١) فتخالها في صراع ونطاح . بيوت منشورة هنا
وهناك تحفٌ بها جنائن غناء تحدث الزنديق بنعمة ربه ، وكرم الأرض
وسخائها . وحسبه شهادة الطيور الآمنة ، المسبحة في كل آن من منحها
تلك الوكنات المطمئنة .

وإذا عرفت طبيعة الأرض أكبرت عزم الفلاح اللبناني ، فقد فتت
معوله تلك الصخور فاستحالت تراباً .

وإذا رأيت القيامة تقوم بين أبطال قصتنا اليوم على شبر أرض فلا
تتعجب ، فالأرض في لبنان عزيزة وخصوصاً في الجبال . ليس في لبنان
قرى يملكها واحد من الناس ، فالأرض تكاد تكون موزعة بين اللبنانيين
بالقسطناس والميزان ، إذا استثنينا بعض الديورة .

التراب عزيز في هذا الجبل ، فهو قشرة يكاد يبلغ قعرها المحراث .
فإذا رأيت أبا فارس ، الذي نروي لك حكايته يبذل هذه الجهود الجبارة ،
فلا تقل ما أتعس القروي اللبناني ! انه يفتش عن حفنة تراب . لا ، يا
سيدي ، انه وإياك بألف خير ، فجنيته أبو فارس تدرّ له آلاف الليرات
من نقد اليوم . وإليك حكاية هذا الاقتصادي العنيف :

السماء تطش^(٢) والفعلة يزجرون ويتبخثرون في الخندق . لا تسمع
إلا بب بب بب بب ، معاول تثرثب لتتقض ، سواعد مقتولة قتل
شزر^(٣) ، وأعضاء منتفخة تكاد تخرج من الجلد ، وألحاظ تنظر بغيظ

(١) تمور : تتحرك كثيراً وبسرعة . (٢) الطش : المطر الخفيف .

(٣) الشزر : الشدة والصعوبة . وغزل شزر أي على غير استواء .

مخلوط بتهديد الى عين الشمس الملتفة بغلالة من الغيم .
كانوا يعملون صاخبين تحت نقط المطر ، وكانت لسان حالهم يقول
للشمس : تخي ، وللغيوم : امطري ما شئت ، فلا بد من إتمام نهارنا
وقبض الاجرة كاملة . لو جرى هذا الخندق كالنهر ما خرجنا منه قبل
الغياب . علينا ان نتقب من الفجر الى النجر^(١) ، فلنتقب . ليس الانسان
طيناً فينوب .

وهكذا ظلوا يعملون تحت رذاذ المطر . ولو تركوا معاولهم وكفوا
عن عملهم ربع ساعة للحقهم الحسم والخط من اجرة يومهم . كلها ربع
مجيدي ، فما يبقى إذا امتد اليها قلم ابو فارس البارع في الجمع والطرح ؟
له عليهم عادة يعرفونها : اذا كفوا عن العمل قبل المغرب بنصف ساعة
شطب قلمه ربع النهار ليكون الحساب مقوّمًا لا عوج فيه .
رأى ابو فارس شجرات جواره غضة ترشح الماوية من فروعها
وجذوعها ، فأدرك انها تسابق شجراته العزيزة على السباد الذي يكده في
أرضه كل سنة ، فهو لا يستحي أن يلمّه عن الطريق ، وإذا عابه أحد هزّ
رأسه وقال مبرراً عمله : لو كان الحرامي يفهم ما سرق غيز الزبل .
رأى ابو فارس ان يحفر خندقاً على الحدّ ينتفع به من جهات :
أولها تقطيع جذور أشجار جاره واستئصالها . وثانيها بناء حائط يصون

(١) النجر : التسكير ، ومن الفجر الى النجر : (مثل) كانوا فيما مضى
يقفلون الباب عند المساء بوضع وتد من الوراء كي لا يفتح من الخارج ،
والمثل يعني التأخير بالعمل .

به أرضه لأن جاره لا يراعي شجرات ابي فارس عند الفلاحة ، فكثيراً ما يكسر غصونها حين يحرق أرضه ، ناهيك بأنه لا يكف^(١) فدانها ، فينتش رأس غصن من هنا وورقة من هنالك ... وثالثها حفظ التراب فلا تذهب حبة من عنده الى أرض جاره ، فقد كادت أرضه أن تحفى لأنها منحدره غير مستوية .

قطع الفعلة جذوراً واهية فور الشروع في العمل ، فتهلل ابو فارس كأنه ملك البصرة ... ولما تعمقوا في النقب رأوا مشهداً لم يكن في الحساب : كانوا يحسبون ان الاشجار تعرف التخوم والحدود ، فإذا بظاهر الأرض مقسوم ، أما قلبها فمشاع ، تسرح فيه الجذور وليس من يقول لها قفي عندك ، هذا حدك . انها لا تخضع لنواميس الناس وعرفهم . رأوا الجذور رائحة جاثية ، متشابكة متعاتقة في قلب الأرض كأنها تقول في نفسها : إن سطح الأرض للناس فليقتلوا عليه ، أما قلبها فلنا ، نحن الجذور ، نعيش فيه بسلام واطمئنان حتى يفرقنا هادم اللذات ... قال كبير الفعلة : اندهوا^(٢) ابو فارس .

فطار اليهم إذ سمع اسمه . خاف أن تذهب دقيقة ضياعاً . ولعجلته عثر ، ولكنه ما بالى بسقطته ، فهرول وهو يمسح ما علق بذيل شرواله من تراب وزبل ... ثم أدرك أنه رمى الزبل في أرض جاره فانحنى يلمه ورماه في أرضه . كان أمرهم بقطع الجذور المناسبة من عند جاره ، فلما

(١) كم : وضع ما يشبه الكامة لمنع ثيرانه قضم أغصان الشجر .

(٢) اندهوا : نادوا .

رأى جذور أشجاره تسعى في أرض جاره وراء رزقها بهت واحتار .
ولكنه اختار أهون الشرين فصاح بالفعلة : سلمت أيديكم يا شباب ،
استريحوا ، الله يعطيكم الف عافية ، لفوا سيكارة .

هذي أول مرة يسمعون فيها كلمة سلمت أيديكم، فهو لا يرضيه فاعل
مهما جدَّ واجتهد ، وشعاره مع الفعلة : من ياخذ مالي، آخذ روحه .
قعد الفعلة باسمين . وفتح أبو فارس كيسه ولف سيكارة . انها
لا تُلف ، وقت الشغل ، إلا بفرمان يصدره صاحب الورشة ، وكثيراً
ما يتقاعس أبو فارس عن اصداره متناسياً ساعة الراحة ... فشكروا
للجذور التي اعترضت عملهم فاستصدرت الفرمان " ...

تمددوا على التراب كأنهم على فراش ناعم، فالمطر العابر لم يبطل الأرض،
وأخذوا يتنادون . أما أبو فارس فكان يفكر بماذا يعمل . لقد نبش
الأساس فهل يطمه ؟ وأي فائدة جنى ؟ ثم ما نفع حبة تراب يحرق
عليها ويتكلف ما يتكلف ما دامت الجذور لا تقسم الأرض كالناس ؟
وجرته فكرته الى ناحية مجهولة فاضطرب ، ولكنه أخفى اضطرابه .
مرت في خاطره نزوات فلسفية لم يستطع التعبير عنها ... وتذكر إذ
ذاك جاريه بو طنوس وبو خليل اللذين اختلفا على شبر أرض فاستخف
عقلها .

وفي تلك الدقيقة الخطيرة من تاريخ حياته التفت الى فوق فرأى على
عرض الطريق شيخين قاحلين يابسين . كان هذان الشيخان واقفين

(١) الفرمان : عهد السلطان للولاة .

ينظران هازئين بعمل أبو فارس الشحيح . ساءهما أن يعييهما الفصل في قضية « الحمد » المستعصية بين بو طنوس وبو خليل ، فشقت الضيعة حزبين .

قال أحد الشيخين : الشر شرارة . كان الخلاف على شبر أرض فصار غرضية وحزبية . انشقوا وشقوا الجوار معهم . فقال الشيخ الآخر : لا تشغل بالك . تجيء ساعة تنحل القضية فيها من تلقاء نفسها .

وسكتا ليهيئا ما يقولان ، فصاح ابو فارس : بو يوسف ، أهلا وسهلا، جئت بوقتك. عمي بطرس تفضل معه . انزلوا . منظر غريب. وتأملوا ما أقل عقلنا نحن البشر .

فاجاب بو يوسف : خير ان شاء الله .

ومشى مشية المقيّد يتبعه بطرس . يهدجان وتغرق أرجلها بالتراب المبعوث . وما أشرفا على الخندق حتى قال ابو فارس : بحياتكم ، تأملوا ، هذا « شلش » عريشة جاري، تأملوا ما أبعده يا بشر ! وهذا شلش لوزتي رائح صوبه بالسلامة . فماذا نفعلني عملي ؟

فتناظر الشيخان وارتجفت ذقناهما ، ومرّ في رأسيهما فكر واحد ، فأطرقا ، والفلة يمزحون حولهم ويضحكون كأنهم لم يعملوا نهارهم كله أشق الأعمال ، ولا يعنيه ما يعمل الشيخان وبو فارس . كل ما يعنيه أن يطول الحديث لتطول الاستراحة . ففتحوا أكياسهم ولفوا سيكارة ثانية . فمر بو فارس وقال : والله العظيم احترت في أمري . مدّوني برأيكم .

فقال بو يوسف : رأيي ان الانسان قليل العقل . الشجر أدرك من
البشر . بو طنوس وبو خليل ركبهم الدين وباعوا ما فوقهم وما تحتهم
من أجل اختلافهم على الحد ، على شبر أرض . انشقوا وشقوا الضيعة
والجيرة والبلاد . حرّوا الدنيا كلها ، أشعرت ألسنتنا من الترجي ، وكل
واحد منهم يريد أن يأكل خصمه . ومحاكم هذا الزمان ، والحمد لله ، تطول
الحبل . باب الشريعة واسع ، كلما انسد باب يفتح « الابوكاتية » " عدة
أبواب . بو طنوس ، امشِ معي . وانت يا فارس رافقنا .

فتردد أبو فارس لأن الفعلة قاعدون . خاف أن يخسر شيئاً من عرق
جبينهم ، فأبدى حركات لولبية أسفرت عن تحويل الفعلة الى عمل آخر ،
ولحق بالشيخين .

وبعد هنيهة رجعوا ثلاثتهم ومعهم بو طنوس وبو خليل . وقفوا
جميعاً خاشعين ينظرون الى الجذور وقفة موسى بجانب الطور .
صمتوا كأنهم يتلقون درساً في علم الاجتماع من تلك الجذور الخرساء ...
وطال السكوت فقال بو يوسف : الشجر أكمل عقلاً منا نحن البشر ،
فمن يعتبر ؟

فصاح بو طنوس : فهمنا ، فهمنا يا عمي ، تصافينا .
وقال بو خليل : نعم ، نعم ، وان لم يبق على خيرنا طحين .

(١) الابوكاتية : الحمامون .



« اسبوع الآلام »^(١) ماتم حقاً، تحدُّ فيه الكنيسة ولا تتبرَّج إلا مساء
« سبت النور »^(٢) ابتهاجاً بقيامة « العريس » منتصراً . فإذا ساء القروي
« الجمعة الحزينة » فقد صدق .

الضيعة خاشعة صامته ، والحزن يملأ كل بيت ، لا يحيتون بنهارك
سعيد ، ولا يصبحون ولا يمسون بالخير . سلامهم : يتمجد اسم الرب

(١) اسبوع الآلام : الاسبوع الذي يسبق عيد الفصح .

(٢) سبت النور : السبت السابق لعيد الفصح .

يسوع . وردّه : السلام لستنا مريم العذرا . والكنيسة كخلية النحل ،
ناس تجيء وناس تروح . الجدران تتشهد ، والحنية^(١) تتاوه ، والقبة
تلول مهدودة الحيل . الصلوات خمس كل يوم . وعن الصوم لا تسال :
لا يفطر إلا الزنديق ، ولا يأكل اللحم والبيض واللبن إلا القليل الدين...
في ذلك الزمان ... جاء الخوري تيموثاوس الهيكل قبل الغروب ،
ودقّ الجرس حزناً . ثم أخرج من عبه مسبحة الوردية^(٢) ليصلي للراكب
على المشارق والمغارب . أخذ يذرع ساحة الكنيسة بجلال ووقار كأنما
يمشي على البيض . يتشهد أحياناً ، وينظر الى مسبحته ليرى أي مسافة
قطع . ان صلاة مساء الخميس طويلة والناس أبطأوا . غريب شكل هذا
الخوري ! لو عرفه داروين لما احتاج الى برهان آخر : حاجباه قاعدان
تحت جبين نافر كأنه رفراف مطفف فوق تقرتين في صخر منقوش ،
يمتد بينها أنف أفطس مشلوق ، وتحت هذا الينبوع شاربان كقرني
الكبش ، تتدلى تحتها لحية طويلة لو لم تكن سوداء كجناح الغراب
لحسبتها مكنسة .

سبحان الخالق ما أكرمه ! أعطاه بشاعة بغير حساب . وكأنه شاء
أن يجعله آية فابتلاه بالجدرى الذي قلل هيئته كثيراً . وبلوته الكبيرة انه
أخيف ، فأحدى عينيه خروبية ، والثانية زرقاء يحسبها الرائي خرزة

(١) الحنية : القسم الواقع وراء المذبح نحو الشرق ، يوضع فيه كرسي
الامقف .

(٢) مسبحة الوردية : سبحة طويلة للصلاة مؤلفة من خمسة عشر بيتاً .

عين . لهذا غلب لقب « بليق » على اسمه بطرس ، قبل ان مسح بالزيت المقدس كاهناً لله . ثم زاد سمته في بشاعته ، فهو بعد كهنوت الخبز مربع ثخين أسود لماع .

كان الخوري مرحاً في شبابه ، يفر فر فلا يستقر بمكان ، لا شغل له إلا النط بالضيعة ، فما تسمع إلا راح بليق جا بليق . الولد عجزة أبيه ^(١) ، ولد صيفي . مات أبوه والأم لا تربي ، فركب رأسه . ما نجت بنت في الضيعة من مداعبة او سهرة عندها . وكثيراً ما كان يدق عدة أبواب في الليلة الواحدة . وحيث يحل يمتلىء البيت هرجاً وضحكاً . وإذا خرج نبه او نهق ، فترد عليه كلاب الضيعة وجحاشها .

كاد يتزوج طاييتا بنت ضاهر حنا ، ولكنه أطاع أمه وخصى نفسه بعد موت خوري الضيعة ، فدرس اللاهوت ^(٢) والسريانية ، وبعد سنتين صار كاهناً جليلاً .

الميت وحيد أبيه ، واللييلة قراء تغري الناس بالخروج ، فاقبلوا على الكنيسة جميعاً حتى العُجُز ليحضرُوا تمثيل مأساة الفادي . لباس الجميع السواد كأنما الضيعة استحالَت ديراً . والكثيرون لا يصلحون من هندامهم إماتة ^(٣) لنفوسهم . وبعض الشيوخ الاتقياء يلبسون الجيب مقلوبة كان الفقيد ابن عمهم لحاً . الجميع يصلُّون حين يواجهون الكنيسة . بعضهم يقبل خد الباب ، وآخرون زاوية الهيكل ، ومن يختصر يستلم الحائط

(١) عجزة أبيه : آخر ولد أبيه .

(٢) اللاهوت : علم موضوعه الله . (٣) إماتة : قهراً .

وَيَصْلُبُ . التحية للخوري أولاً ، ثم للجماعة . فيجيب حضرته بتحريك
لحيته . يلتفون حلقات وحديثهم كحفيف الحصاد . طنافسهم العشب ،
وكراسيهم الحجارة .

وجاءت الأنسة طاييتا ، وقد زرفت^(١) شعرها كعادتها ، فأكبر
بعضهم وقاحتها وخصوصاً زكريا ، وعذرها غيره لأن البنت بارت^(٢)
بعد « بليق » ، فهي الآن تتصيد عريساً ولا يهمها أمات المسيح أم عاش .
كانت طاييتا غير فصيحة ، ولكنها ذات حركات أبلغ من الكلام في
التحريك والاستمالة . سمراء مقبولة الصورة .

باست خد الباب بشفتيها المثلثتين بوسعة بليغة ، ومست الأب
الجليل فأجاب بحنوة رأس خفيفة ، وبلا شعور ارتفع صوته في صلاته
فقال : اعطنا خبزنا كفاف يومنا . فضحك الشدياق^(٣) زكريا وزمرته
الملتفة حوله عند جذع السنديانة ، فتنبّه أبونا تيموثاوس وتنهّد يسأل
الله السر ...

لم يكن غير الصبيان يقبلون يديه الطاهرتين فيمنحهم البركة
الإلهية ، فيستقبلونها مكشوفى الرؤوس . ويزودهم بابتسامة لا تتضح إلا
على جبينه لأن فمه النقي مخبأ وراء غابة كثيفة ... وما عليه إن ابتسم
لهؤلاء وهو يصلي ، فالسيد المسيح قال : دعوا الصبيان يأتون إليّ .

(١) زرفت الشعر : جعلته حلقات صغيرة .

(٢) بارت : كسدت ، أي لم تتزوج بل بقيت في بيت أبيها .

(٣) الشدياق : أدنى من الكاهن درجة واحدة (يونانية) .

اما مشايخ الضيعة فكانوا يهزون رؤوسهم متعجبين كيف راح بليق
وجاء غيره .

وقالت عجوز للقاعدة حدها : الله ، الله ، كيف كنتِ يا أم قبلان
وكيف صرتِ ! سمع ابنها منها فصار خوري الرعية . فأتت تلك : وعمر
بيتها ، واستراحت من هب^(١) الفرن والتنور . كانت تأكل من مغزها
وكارتها^(٢) فصارت أميرة .

أما الخوري جرجس الذي أمسى عاجزاً مخرشماً^(٣) فكان جالساً بين
أولاده يسمع حديث المراتين . يحرك شفتيه ولحيته الحائلة^(٤) ولا يقول
شيئاً . يتذكر عزه القديم يوم كانت الرعية لراعٍ واحد فيتمتم . وأخيراً
زم^(٥) بأنفه فجأة وقال بحدة وهزء : تف^٥ للأيام التي وصلنا إليها ، متى
كانوا يكرسون الرب نفاية الناس مثل أخينا بالله ! ... هذا خوري ؟
هذا تنبل .

وحاول أولاده أن يسكتوه ، فرفع صوته نكاية بهم وصرخ مرتين :
هذا تنبل ، هذا تنبل .

(١) هب^١ : الحرارة الشديدة .

(٢) الكارة : حشية مستديرة تحشى بالقماش تستخدم في عملية إنضاج الخبز
على الصاج .

(٣) مخرشماً : لا يستطيع الجلوس مستقيماً .

(٤) الحائلة : تساقط معظم الشعر منها فبان الجلد .

(٥) زم^٥ : رفع .

أما الشباب عشراء تيموثاوس فتنحوا والتفوا حلقة على الرجمة^(١) تحت البانة^(٢) يتحدثون ويتغامزون ، تارة يقضون الضحكة قضا ، وأحيانا يقطّونها قطعاً . وبدأ الاضطراب على وجه الخوري تيموثاوس فكان يتشد في مشيته صوبهم لعله يسترق شيئاً من حديثهم . الخوري يخاف لسان أحدهم زكريا . وزكريا هذا شاب فات الثلاثين ، طويل القامة نحيلها ، مبيض البشرة مصفرها ، تبتل^(٣) في الخامسة والعشرين ، ولبس الغنباز الأسود المخطط ، وشك الدواة في زناره كشدايقة ذلك العصر ، وأطلق للحيته الشقراء سبيلها ، ولكنه كان يأخذ منها فلا تطول . عبث رفقاؤه بقصيرته أولاً ، ولكنه صبر عليهم فغلبهم .

الشدياق محمود الصفات ، يفض طرفه ان بدت له جارته ، يحافظ على وصايا الله والكنيسة ، لا يتخلف عن قداس ، ولا يفوته زياح . هو وافه الكنيسة (القندلفت)^(٤) وشباس الخوري ليربح الأجر . لم يفطر يوم سبت منذ بلغ ورشد ، ولم ياكل لحماً ولا بيضاً ولا لبناً يومي الاربعاء والجمعة ، وفي الصوم يعاف الزيت أيضاً . سيان عنده أجاز البطريرك ذلك أم لم يحزه فهو بطريرك نفسه . متعبد لمريم العذراء ، ان سقط « ثوب السيدة » من رقبتة لا ينام تلك الليلة نوماً هادئاً . ولولا تهكمه وعبثه بالناس

(١) الرجمة : ركمة من الحجارة .

(٢) البانة : نوع من الشجر .

(٣) تبتل : انقطع عن الدنيا الى الله ، ترك الزواج .

(٤) وافه (القندلفت) : خادم الكنيسة .

ما شكُّ أحد في قداسته . فهذا العبث بذوي العاهات خطيئة كبيرة تُنزل
إلى جهنم . والانسـان يلقى غيَّها فيعاقب نقداً لا صبراً . يخلق الله في
ذريته عيوب من يستهزئ بهم .

كان زكريا يعبث دائماً بصاحبه الخوري تيموثاوس فهو بطل مهـازله .
يناديه ببليق حتى بعد الكهنوت فيجنّ الخوري ، ولكنه يخاف الوقوع
في لسانه فيسكت على مضض . وزكريا لا يرحمه أبداً . يعرف انه خراط
يدعي البطولة ويموت فزعاً إن وزوزت الدبابة ، فيفتري عليه الأخبار
والمغامرات العنيفة .

تجمع الناس وقامت صلاة الخوري . وقصّ السنكسار (١) حكاية
المحاكمة والجلد والصلب ، فتعالت تأوهات العجائز وتنهـدات الشيوخ كان
الضرب يقع على جلودهم . تلى الریش قریان (فصول من ارميا واشعيا ،
الخ ...) . وأخيراً خصّ الخوري تيموثاوس الشدياق زكريا بتلاوة
« البركيس » (فصل من أعمال الرسل) ، فقرأ ببراعة فصلاً أعدّه منذ
العصر وهو خبر تلك « التلميذة » التي ماتت في يافا ، ودعي مار بطرس
من لدّة (اللد) خصيصاً ليقيمها من الموت ، فما بلغ زكريا هذه العبارة :
« وصلى بطرس وصرخ : يا طاييتا قومي ، ففتحت عينيها » ، حتى
صاحت طاييتا من بين النساء : ليتك ما تفتح عينيك . يقصف عمره ما
أثقل دمه . هذا شدياق ؟ هذا قندلفت ؟ هذا شيطان !

فضحك الجميع حتى الخوري العتيق . أما زكريا ، وتلك عادته ،

(١) السنكسار : كتاب سيرة القديسين .

فما خفَّ وقاره ولا نقص ، بل مضى في فصله حتى النهاية كأنما لم يكن شيء مما كان .

وتلا الخوري تيموثاوس بضعة أناجيل بصوت مرتجف لأن الصدمة لم تكن هيئنة . وختمت الصلاة وارفَضَ الناس حزنانين . وصباح يوم الجمعة تنافسوا في جمع الأزهار أشكالا وألوانا ، وجاؤوا يطرحونها على قدمي الصليب المنصوب في « الباب الملوكي » . وقرب الظهر جنزوا وطافوا بالميت ثلاث مرات في صحن الهيكل ، ثم قبَّلوه واحداً واحداً مودعين . ودفنه الخوري والشمامسة خلف المذبح ليقوم في اليوم الثالث كما هو مكتوب .

وعادوا عشاء وتألَّبوا حول خوريهم ، فقعد المحترم على حجر عالٍ ، يحيط به زكريا ورهطه . ومشى الحديث ، فصلاة الجمعة خفيفة . شرع الشدياق زكريا يهزُّ من عطف المحترم ، ويحكُّ له على الوجع ، فاستعرض ذكريات شباب بليق قبل أن تقطته أمه بثياب الدرجة المقدسة . فذكر أحدهم دقَّ الجرس ، فقال زكريا : أبونا تيموثاوس دقَّ جرس مار نهرا خمسين نزلة^(١) .

فقال الخوري : وانت الصادق ، يا شدياق ، مشة وعشرين نزلة يدي^٢ التنتين ، وفوق العشرين بخنصري . فاستكبرها أحدهم ، وقال : اف ! فصاح به زكريا : اسكت يا هوه ، أنا أخبر منك ، قدامي أنا قطع جنزير جرس دير قصحيا بكبسة واحدة .

(١) نزلة : مرة .

ولو خبّرتك عن جرس مار ساسين حافل كنت تجنّ . لعب بالسبعين اقة
لعباً . وخرزة بير كنيستنا هذه لو كان لها فم تشهد .
ثم التفت الى الخوري وقال له : بحياة قدسك ، يا معلمي ، تخبرهم .
فتنفس الخوري وقال : نسيت ، ذكرني يا شدياق .
فقال زكريا : قصة المارد .
- قصة المارد ؟ مارد حبّ ان يتعدى علينا ، مزعت رقبتة .
- كّل ، لا تستح .
- راح راسه عشرين شقفة .
فقال زكريا : أجرك كبير . استراح الناس من شره .
فتهامس الناس قائلين : إذا أخبار المارد صحيحة .
فسمع زكريا فاخذ يتهزأ بهم : الخوري يخبرنا ونقول : صحيح ،
صحيح !
ثم التفت زكريا الى جماعته بهيئته الجدية المضحكة ولم تتكلم إلا عيناه ،
فاطرقوا جميعاً عاضين على شفاههم ، ثم حوّل وجهه صوب الخوري
وقال : ما لك ! أخبارك الليلة قطف^(١) . لا تغير عادتك .
فتاق الناس الى سماع أخبار خوريهم ، وظنوا أنه يأكل بشراً . أما
الخوري جرجس فاخذ ينفخ ويتأفف ويحاول أن يقول كلمته ، فيمنعه
ابنه ، فيدمدم^(٢) ، ويسكت .

(١) قطف : قصيرة جداً .

(٢) دمدّم : تكلم بكلام غير مفهوم .

وانتظر زكريا شيئاً من الخوري فلم يكن ، فقال : اسمعوا آخر خبر ، هذا أعظم بكثير من الأخبار التي سمعناها . فقال الخوري : اي هو . فاجاب زكريا : المعتّر^(١) الذي لاقاك لما كنت راجعاً من عند ... من عيد مار نهرا .

فضحك الخوري وقال : الشدياق لا ينسى . بطيخته في النهر . وبعد ما شبعته قتلاً ، كبست على صدره كبسة واحدة فبقّ الدم . فقال أحدهم : قالوا شلّحك .

— شلّحني ؟ مسكين ! طرمحتني^(٢) نفسي ونويت على قتله ، ولكن قلت : اتركه يا صبي ، لا ترمِ ضيعتك ببلبلة ، كانت الحادثة في خراج^(٣) الضيعة .

فبدرت من الخوري الشيخ كلمة ثخينة تداركها ابنه برفع صوته فطمرها ... ولم ينقطع سياق الحديث .

وانجرّ السمر البريء الى تلاميذ المسيح ، فتعجب الناس كيف جنبوا وتركوا المخلص بين أيدي اليهود . لم يذكروا خبز العشاء السري^(٤) وخمره ، فما سهروا معه ساعة واحدة . تركوه يبكي وحده في البستان^(٥) .

(١) المعتّر : الغليظ الكثير اللحم ، وعند العامة : الشرير ، أيضاً الفقير .

(٢) طرمح : طمع في الأمر .

(٣) خراج : الحد الفاصل بين قريتين .

(٤) العشاء السري : آخر عشاء للسيد المسيح مع تلاميذه قبيل صلبه .

(٥) بكى السيد المسيح في بستان الزيتون حيث صلى وعرق دماً عشيّة صلبه .

وبطرس النبي ابتهر وادعى الرجولية أنكره ثلاث مرات قبل صباح الديك .

واحتدم جداهم ، فامست لهم ضوضاء كأنهم على الجلجلة ساعة الصلب . فقال زكريا بسذاجة ماكرة : يا حسرتي على الرز ، ضاعت ملاعقه ^(١) . لو كان ربنا في أيام معلنا الخوري تيموتاوس كان عرف اليهود قيمتهم . فأحس بها الخوري قليلا ، ولكنه بلعها ، وقال بجدة : سماع يا شدياق ، هذي إرادة ربنا يسوع المسيح له المجد . وهو لو حب كان أمحي أثر اليهود . سمعت قول الإنجيل أمس ، كلمته : انا هو ، قلبتهم على ظهورهم . وأعجب الخوري ببلاغته هو ، فتحرّك أيما تحرّك ، فبصّت لحيته المرعزية ^(٢) تحت ضوء القمر ، فضحكت زمرة زكريا ، فحار الخوري في ضحك بلا سبب ، ولكنه لم يقف ، بل التفت الى القوم التفاتة منطقي أدلى ببرهان ذي حدين ، فرجحت الرؤوس إعجاباً ، وانقلبت شفاه عديدة استكباراً . ورأى الخوري طاييتا شاخصة تأكله بعينيه ، فتذكر أياماً لم يكن جسده فيها هيكल الروح القدس ، ولاذ « بالنعمة » فأخزى الشيطان . واشرباً وتفرعن .

أما زكريا فاخترى يديه وقال : الحق مع بلي ... هه ، مع الخوري تيموتاوس . والله العظيم لو كان حضر المعركة كان تتف لحيه قيافا ^(٣) ،

(١) يا حسرتي على الرز ضاعت ملاعقه : مثل يضرب للتنكر .

(٢) المرعزي : اللين من الصوف .

(٣) قيافا : رئيس المحكمة التي حكمت على المسيح بالصلب .

ودعس رقبة يوحانان .

فهز الخوري رأسه وقال : هذا نصيبنا ، ما أحلى ما يقدر الله .
وطاب الحديث للخوري فانبسط زكريا وقال : لكن خوف الرسل
يبن يا معلمي . هذا مارينا حبيب المسيح كان أول الهاربين . ثم لاحظ
كم مرة فزعوا بعد القيامة . تؤكد لك انهم كانوا يفزعون من خيالهم .
مساكين !

فمطمط^(١) الخوري وقال : لا يخلو الأمر ، عندهم شيء من هذا .
ولو كانوا كما يجب ما قال عنهم مار بولس : واختار ضعفاء العالم ليخزي^(٢)
الأقوياء .

فصاح زكريا بلهفة : هذا الصحيح يا معلمي .
وسمع الخوري جرجس هذا الكلام فتهيا واستعد ، فهدأه ابنه . أما
الناس فكانوا يصغون الى الاثنين معجبين بفصاحة خوريهم وبراعة
شدياقهم .

وسال أحدهم عن سبب ظهور المسيح للنساء أولاً ، ثم للتلاميذ .
فاجاب الخبيث زكريا : حتى يشيع الخبر حالا ... النسوان لسانهم طويل .
فتمتت طايتا كلمة فهمتها جاراتها وضحكن ، ولم ينتبه لها زكريا
لأنه كان يعد رمية جديدة ، فقال : معلمي ، يا ترى لو ظهر لك المسيح
تفرع منه مثل التلاميذ ؟

(١) مطمط : توانى في كلامه .

(٢) خزي : ذل وهان .

فابتسم الخوري كاهازىء وقال : ما قولتك انت ؟
فقال زكريا : قولتي انا ؟ يا جبل ما يهزك ريح .
فاجاب الخوري : هذه نعمة بعيدة عني ، أنا عبد خاطي .
ثم تنهد تنهيدة عظيمة وقام الى الصلاة وهو يقول : يا ليت ،
يا ليت !

ودخل الكنيسة يواكبه زكريا ويقول على مسمع من الناس : من
يعلم ؟ من يدري ؟ عجائب الله كثيرة .
أما الخوري العتيق فتحلحل ونهض وهو يقول : ايه ! صرنا ملعبة .
فغمز ابنه طرف جبته فصرخ : اتركني ، ملعبة وأكثر . لولا العيب
والحيا كنت احش لحيته . خوري بهلول .

وبعد ظهر السبت قلعت الكنيسة ثيابها السود ، وترينت ابتهاجاً
بقيامه الذي وهب الحياة لمن في القبور ، فصلّوا صلاة خفيفة زحزحت
الكابوس عن صدرهم ، وعادوا الى بيوتهم فرحين بعد ترتيلهم : المسيح
حقاً قام .

أما الخوري جرجس فظل في الكنيسة يصلي منتظراً قداس نصف
الليل . وكان بعض شيوخ وعجائز يأتون لزيارة القبر . وما انتصف
الليل حتى أقبل الخوري تيموثاوس وقرع الجرس قرعاً ذكرهم بشباب
« بليق » الأغر . فخفف الشعب الى الكنيسة ، وانقسم الشماسة جوفتين
يخدمون القداس .

وفي مثل هذه الساعة التي تدحرج فيها الحجر عن القبر ليقوم السيد،

أقبل الخوري تيموثاوس على باب الحنية الأيسر يبخر ويرتل بالسريانية ،
معظماً من غلب الموت بالموت ، ويسأله الرحمة لجميع المؤمنين . فطلع اليه
من خلف المذبح - حيث القبر - شبحٌ عليه ملحفة بيضاء . فتراجع
الخوري مذعوراً . وتقدم الشبح ووقف بالباب ، فصرخ الأولاد والنساء ،
ووهل الرجال ، واستبق الجميع الباب . وأفاق الخوري جرجس من
سهوته على الضوضاء ونهض يستنبر ، فرأى أمامه الشدياق زكريا ، فقال
له : ايش صار يا شدياق ؟ أين راحوا ؟

فأجابه زكريا : هربوا ، ظهر لهم المسيح .

فتعجب الخوري وقال : وأين الخوري تيموثاوس ؟

فقال زكريا : راح معهم .

فضرب الخوري يديه على فخذه وقال : يه ، يه ، يه ، يه ، يه ،
يا هتيكتنا ^(١) ، فزعوا من حمل الله !

ثم تفكر قليلاً وقال لزكريا بأشمزاز : عيب يا شدياق ، عيب . انت
رجل طيب . الله غضب على الضيعة ورسموه خوري . غلطة وقعت ،
العصمة لله وحده .

فمغمغ ^(٢) زكريا كلمات . وهدج ^(٣) الخوري جرجس ليعيد الناس ،
فسمع زوجته - الخورية - تقول : لو كان لنا حظ ما كان ظهر المسيح

(١) هتيكتنا : فضيحتنا .

(٢) مغمغ : تكلم بكلمات غير مفهومة .

(٣) هدج : مشى مشية الشيخ .

الخورينا . فصاح بها الخوري: صدّقت يا معتوهة^(١) ؟ روعي صلي ،
روعي . هذا وجه يظهر له المسيح ؟
وما خطا خطوات حتى عاد الخوري تيموتاوس والرعية مستحيين .
فقال له الخوري جرجس بكل هدوء : كمّل قداسك ، خلصنا .
أما زكريا فظل واقفاً عن يمين مذبح البخور كالملك ، تقول عيناه
لصاحبه الخوري تيموتاوس أشياء كثيرة ...

(١) المعتوه : المدهوش من غير مس جنون .



ابو العقبان

بينما كان طنوس يقص على واحد من «الزمرة»^(١) أخبار عبثه بجريس في سهرة أمس الأول ، اذا بزوجته لوديا تتمرمر ، وتقول : حرام عليكم ، اتركوا هذا المسكين ، كفاه عذاب . خف على «عواقبك»^(٢) يا طنوس . ربنا قادر ان يبتلينا بولد أقرع وقواق (جللاج) مثله وأكثر منه .

(١) الزمرة : الجماعة ، الفوج .

(٢) العقب : الخلف ومن يحمي بعده .

فصاح طنوس : اضحكي في عبك يا حرمه ، اذا حصلنا على هذه
النعمة . الضيعة محتاجة ، دائماً ، الى واحد على شكله .
- يه ، يه ، يه ، ما اقل دينك ، انت هرطوقي ^(١) .
فاستل طنوس يده التي استحالت دبوساً ^(٢) ، وكشّر وهجم . فردته
ضحكة زوجته لودياً من نصف الطريق . وهكنا كان يسلم جلدها من
الرص واللبد .

ليس لطنوس سمات تميزه من أهل قريته ، فأكثر القرويين من غط
واحد ، إلا أنه كان مهذاراً يتحدث كأنه يثمل ، يحشو كلامه بـ « فهمت »
و « سمعت » و « لحظت » مشفوعة بنكعة أو لكمة لتفهم غصبا عن
رقبتك ... أحصوا عليه هذه الكلمات الثلاث في سهرة واحدة ، فوردت
في كلامه أكثر من مثني مرة .

ولعل سيرة طنوس مع عجله « عيوق » عودته مثلها مع الناس .
فعصاه كانت تنهض أبداً وترتمي على ظهر ذاك الثور لسبب ولغير سبب .
فصار عيوق مثلاً يضرب في القرية . إن ضرب أب ولده ضرباً موجعاً
صاحت أمه : ليتها تنكسر من الكوع ، أهو عيوق ؟ وإذا اشتد الضرب
بين اثنين قالوا : ضرب عيوقي .

وأدركت عيوق السن فجاء قصّاب ليشتريه ، فخمن ما عليه من
لحم تخميناً لم يعجب طنوس ، فلكه قائلاً : قو قلبك ، فهمت ؟ ثم نكعه
ليقول له : لحظت ؟ لا يغرك صغره ، هذا ملبود .

(١) هرطوقي : كافر . (٢) جمع أصابع يده على شكل مكور .

وغابت الشمس فتعشى طنوس وتمشى . حان وقت السهرة وهو لا يئنا له عيش إن لم يسهر حيث يكون جريس الأقرع . فطاف حول بيوت القرية ، حتى إذا حزر أين هو ، دخل ، ومسى ، وقعد . نظر الى جريس فرآه مغتماً . ظن انه يتصنع في الجسد ليتأبى عليه ويكف عنه شره ، فسأه خصيصاً . فردَّ جريس المساء من رأس شفتيه . فغمز طنوس الحاضرين صاراً أصابعه إشارة الاستعداد للمعركة .

كان جريس يوشوش صديقه سر كيس بلجلجته المعهودة : عا عا عا عصيت ، عا عا عا على الأطباء . ما قدر واحد منهم عا عا على إنبات شعرة في مخي^(١) .

وكان جريس متهاكاً على الحديث ، يعاني ما تعانيه الحبلى ليخرج كل كلمة من كلماته ، بينما كان طنوس يتهزأ به ، يفتح فمه ويفلقه مثله ، مضحكاً الناس .

— ايش العمل يا بشر ؟ عجزت والله . كلما جاء « مغربي » يأخذ مني المبلغ المرقوم .

فاجابه سر كيس : سلّم أمرك لربك .

فقال جريس متوجعاً : لربي سلمته من زمان . لم تبق كنيسة من كنائس الله إلا نذرت لها . أمس زرت « الحرضيني »^(٢) وأخذت عن قبره سل تراب .

فالتفت إليّ سر كيس التفاتة استغراب ولم يفه بكلمة . فقال جريس :

(١) مخ : رأس .

(٢) الحرضيني : اسم لقديس .

والله العظيم، قلت لك سألتني عن الحالة. هيه ، هيه ، كان في قربوس رأسي
شعرة طارت .

فقال سر كيس : لا تقطع الأمل يا صاحبي .

فضحك جريس ضحكة هي بالبكاء أشبه ، وقال :

— عشرين سنة قضيناها طالبين رحمة الله، احزر ماذا كانت النتيجة؟

— انت أخبر ، قل .

— مصيبة أكبر .

وانحنى على أذنه يصب فيها سر الفاجعة .

فالتفت سر كيس كالمتعجب ، فقال جريس : والله ، لعنة الله على
الكذاب ، كنت بفرد همّ فصرت بهمّين .

قال جريس هذا وطفق يتأمل وجه صاحبه سر كيس ليرى أثر كلامه
فيه ، فرآه يطمّ شفّتيه ، يصرّهما كأنه يتأهب لضحكة . فقال جريس :
كل هذا هيّن يا شيخ ، ولكن من يخلصنا من طنوس إذا درى .

ثم أطرقا صامتين حتى انتهيا الى قول أحدهم : هاتوا الورق .

فصاح صاحب البيت : مساند وطراريح ، ضوئي القنديل الكبير
يا مرين . وأشار بأصبعين ، ففهمت مريم وأشعلت القنديل نمر و ٢ .

كان من عادة طنوس أن يلعب ضد جريس . أما تلك الليلة فقال :
رفيقي جريس . فنسي جريس مصيبتة : العليا والسفلى ، المكشوفة
والمستورة ، فانبسط وجهه وقعد . ودار الورق دوراته ، فاحتدم اللعب
والجدال حتى كاد يعلق الشر . تكافأ الخصمان فمكنا قعدتهما لربح الدقّ

(الشوط) الأخير . وأشار كل فريق الى ورقه . وانتظر جريس إشارة رفيقه طنوس ، ولكن طنوس لا يشير . تساقط الورق من الأيدي وجريس حيران لا يدري ما يلقي ولا ما يبقى . فصاح بطنوس : أشش أشش . ولكن طنوس لم يخرج عن صمته ، ففأفا جريس وتمم ، فقال طنوس متبارداً : لا بد من التأشير يا شريك .

— معلوم .

فأبدى جريس علامة أص الديناري وقال : أقرع . (أي وحيد من نوعه) .

فانتفض جريس كمن لدغته عقرب وقال : كا كا كيت وكيت من ... ولما رأى طنوس متاهباً للصرع أتم قائلاً : من دين لعب الورق . وانصرف غضبان .

وأصبح المسكين فإذا حمله الجديد قد ثقل عليه . كان يشكو خفة فوق ، فصار يشكو ثقلاً تحت . فتقّ ولد كبيراً ... ثم أخذ ذلك الهم يتضاعف يوماً فيوماً حتى كاد يبوح الشر والبالسر ، ففصل غنباراً ستره به ، فخلق موضوعاً جديداً لعبقريّة طنوس . أطلق طنوس على جريس لقب الشدياق ، وصار غنباراه حديث الضيعة ، وخصوصاً على التنور حيث تترج القهوة بالرقّ^(١) .

تقولوا عليه ما شاؤوا ، إلا صاحبه سر كيس فكان يمز رأسه ويتمثل :

(١) الرق : رققه : قلل من غلاظته ، وهنا عملية تحويل المعجن الى رغيف .

الذي دري دري ، والذي ما دري قال كفّ عدس^(١) . أما طنوس ذاك
المخرج الرائع فكلف من نظم له هذه « الردة »^(٢) :

يا مشرّح يا بو الغنّياز للملو ديالو وقصّو
اخبر خبزك عند الخبّاز لو خبزو وأكل نصو

وردها الصبيان ترديداً ضيق الضيقة على جريس ، فمشى الى بيروت
مشية توجع القلب ، مشية البغلة المشدود خناقها لثلاث تنمس^(٣) . وبلغ
اسكلة^(٤) جليل بعد ألف جهد ، فإذا بعربة تقف وصوت يصيح : اطلع
يا جريس .

عرف جريس صوت صاحبه طنوس فاستعاذ بالله ، ولكنه طلع وقعد
حده ، وهو يقول في قلبه : سفرة مشؤومة .

وقبل أن يبلغوا مخفر جسر بيروت حذّرهم السائق من التبغ والسلاح .
كانوا في ذلك الزمان يصادرون التبغ الكوراني . وتسهيلاً للتفتيش
كان « الوردان »^(٥) يزج « شيشاً » في الحمولة حتى إذا شك في عدل^(٦)
ما أمر بتفتيقه . وهكذا فعل حين أوقف عربة طنوس وجريس . أمر

(١) كف عدس : مثل يضرب للدلالة على الكثرة المبهمة .

(٢) الردة : بيت في الشعر العامي .

(٣) تنمس : تتعثر .

(٤) اسكلة : منطقة في التقسيم الإداري .

(٥) الوردان : الرجل الذي يبعث عن التبغ المهرب من قبل شركة التبغ .

(٦) العدل : كيس كبير من الجنفيس .

الركاب بالنزول منها و « شَيْش » كيس خيش فيها ، ثم فضّ البقج^(١)
كلها . وأخيراً تحول إلى المسافرين الستة فمدّ يده إلى أعماق جيوبهم .
وجاء دور جريس فظنّ أن تحت غبازه كيساً ، فاقبل عليه ليجسه ،
فامتنع عليه جريس وصرخ : فت فت فت ...
ثم هرب من وجهه يقهقر في مشيته ، والخفير لاحق به يسدد نحوه
الشيش وهو يقول : معك تنن ، نحن نعرف كل هذه الحيل .
فصرخ جريس : لا لا لا لا ... فت فت فت .
فصاح الوردان : ضربة تفت رقبتك ... وهجم عليه يريد أن يزج
الشيش في موضع الظن ، فانطوى جريس أمامه ، وباح أخيراً بالحرف
الثالث ، فاحمرّ وجه « الوردان » وأعاد شيشه إلى مخلاته .
أما طنوس فنكع^(٢) جريس عند أذنه قائلاً له : هاها ، فهمت ؟
عرفنا سبب لبسك الغباز يا مضروب . لحظت ؟ استعداد لردة تسرّ
خاطرك .

(١) البقجة : مجموعة أمتعة ضمن قطعة من القماش .

(٢) نكع : لكز برفقه أو بكوعه .



أحست أم جبرائيل بيهـر^(١) لما فرغت من تنقية الطحنة ، فقعدت كالخفـاش^(٢) تدلك عينيها . وبعد سكوت قصير جداً رفعت خصلة شعر شقراء هاجمة على خدها الأيمن وقالت : كذاب الذي قال القمح البلدي لي

(١) البهر : انحراف واضطراب بالبصر بعد جهد .

(٢) الخفـاش : الوطواط .

ولولدي . القمح البلدي ثلثه زوان وشيلم^(١) ، مها غربلنا ومها غسلنا
لا ينظف .

وشعرت بدوار^(٢) لما استوت ، شعرت كأن رجلها يابسة فجلست
قائلة : تقبر الأرامل ! حياتنا كلها طحن وخبز ، وطبخ ونفخ ، وغسيل
وترقيع . ما لنا ساعة نشاهد فيها وجه ربنا . عيشة من قلة الموت . اسمي
ام جبرائيل ، وجبرائيل ابن غيري . وانطوت تمتحن خدر^(٣) رجلها ،
تقرصها فلا تحس انها منها ، وتمدها فلا تشعر انها لها . ولما عادت الدعاء
الى مجاريها قامت لحاجاتها . جلّت زجاجة قنديل الكاز ، وزيتت الفانوس
الخاص بعلف الفدان ، وأقبلت على العشاء تعدّه ، فالطبخة ناضجة لا
ينقصها غير القلية والتوابل .

ان أبا جبرائيل يخوّر^(٤) . وإذا أبطأ عليه الأكل ملا البيت مسبات^(٥) .
والبيت حد الطريق . وأم جبرائيل فتية ، كبيرة النفس ، يعزّ عليها أن
يتحكم بها أرمل . وعندها للسر بشر عميقة تقبر فيها ما يحدث من مشاكل
بين المرأة وزوجها . وكثيراً ما تحتل الضرب وتسكت طلباً للسترة ،
وكسراً للشرّ .

(١) الزوان والشيلم : نوعان من الحبوب بين القمح (شبيهان به) .

(٢) دوار : دوران يأخذ بالرأس وهو المعروف بالدوخة .

(٣) خدر : تشنج يصيب العضو فلا يستطيع الحركة .

(٤) يخوّر : يرهقه الجوع .

(٥) مسبات : شتائم .

أما لحدود ، أبو جبرائيل ، فبارود مزيبق^(١) يلتبس سبباً لينفجر .
ويعلم الناس أنه ناري الطبع فيستهاووه . لا يجد أمامه من يبرز عند هذه
المكرهة^(٢) ويسكت إلا زوجته ، فجعلها هدف^(٣) «مراجله»^(٤) . يدخل
البيت لابساً وجه النمر ، فتحاول أن تكسر شراسته بابتسامة ناعمة ،
فيزداد عتواً^(٥) ولا يرد المساء ، وإذا استوضحته عن أمر فجوابه نبرات
عنيفة ، أو سكوت مؤلم .

وضع النير والجراب في مكانها وأخذ الفانوس فرأى فتيلته ، التي
سبب^(٦) لأجلها أمس ، مروة ناعمة نظيفة كأنها خصلة حرير تلمح النار
لفحاً . لم يجد مجال القول ذا سعة ليقول . فأخذ الفانوس بيد ، والسل بيد ،
ومضى الى القبو يفتش عن سبب آخر . رأى الدجاجات دخلت التبان^(٧)
وذرت التبن ، فطفق يعر ويهر^(٨) . لا يستطيع أن يلوم زوجته لأنه هو
الذي ترك باب القبو مفتوحاً ، ففكر فاهتدى ... أليس على المرأة أن
تكون متنبهة دائماً ؟ فاشغال الرجل كثيرة . وعلى هذا البناء هاج بحره .
ورأى جبرائيل أن «خالته» لا تستحق هذا الشتم والسب فتنتطح ، ولكن
والده ألقمه مما تعود أن يطعمه إياه عند دخوله شخصاً ثالثاً ، فسكت .
وبعد دقائق معدودات ذهبت غيمة شباط فعاد لحدود كاحسن ما

(١) بارود مزيبق : نوع من البارود السريع الانفجار .

(٢) المكرهة : الشيء الغير مستحب .

(٣) المراجله : الطلب بعنف وتجبر . (٤) عتواً : تجبراً .

(٥) التبان : مستودع علف البقر . (٦) عر وهر : صاح بصوت عال .

يكون الرجال ، رقيق الجانب ، دمث الأخلاق ، يخاطب فروسينا بيا ام
جبرائيل ، ويا بنت عمي . ثم انتهى العشاء على خير .
وامتلا البيت ناساً ، فأبو جبرائيل ذاهب الى البندر^(١) ليتقمش لابنه
العريس ، فأسعار دكان الصليب غالية ، والمثل يقول : رح الى البندر
وتغندر . عرس جبرائيل بعد يومين ، والطحنة الكبيرة التي نقتها ام
جبرائيل بمعونة جاراتها هي لتلك المعركة الطاحنة التي سيكون لها ما بعدها .
وشرع الساهرون يكلفون أبا جبرائيل قضاء حوائجهم من المدينة
وهو يتقبل طلباتهم ببشاشة ولطف . يقول لهذا : « تكرم » ، ولذاك :
« يسملله » ، ولتلك : « من عيني » . وكلف بشراء بابوج للشبينة^(٢) ،
فأجاب بقوة العادة : « على راسي » . فابتسم الكهول ، وقهقه الشباب ،
فانتفض ، ولكنه لم يقل كلمة احتراماً لبيته .

وجرى حديث التموين ، فعيد السيدة (١٥ آب) ميزان الأسعار
عندهم ، والمثل يقول : لا يرخص في الشتاء غير الماء . التموين واجب ،
وهم قادرون ، فموسم الحرير كان مقبلاً ، والعنب طيب ، والتبغ جيد ،
والزيتون ممتاز . لا يبقى غير الحبة ، ولا يسد هذا العجز بأرخص الأسعار
غير البترون . فكلفوا أم جبرائيل درس حالة السوق . وتذمروا من
كثرة الزناير ، فقال أحدهم : سنة حشرات ، الحيات بحر . وانساق
الحديث فطال . حديث حيات ... ثم انتقلوا الى حديث الجن فقال

(١) البندر : مقر التجار من المدن ، تعرض فيه السلع للبيع والشراء .

(٢) الاشبينة : من تقوم بخدمة العروس وقت الاكليل .

واحد : يا بو جبرائيل ، إياك ان تنسى ، توقَ جن شير بنشور ، فوَعَة^(١) جن في هذه الأيام ما لها دين .

فهزَّ لحدود برأسه وقال : عمك عم يا ملحم ، أنا أبو جبرائيل .
فضحك فتي وقال سرّاً : تشرفنا . ثم غمز رفيقه كأنه يقول : سري .
فأسفرت تلك الغمزة عن مؤامرة مرتجلة ، كان لها شان جليل في
تاريخ القرية .

لم يسمع أبو جبرائيل وأتمَّ حديثه قائلاً : لا تخافوا عليّ ، معي الخوري ،
بركة صليبه تحرسني .

فقال آخر : انتبه لئلا ينشلوا الطحنة . مرة قعدت الجنيّة لرجل في
عرض الدرب ، وأخذت تنوح وتبكي طالبة منه أن يركبها على دابته من
النهر الى الضهر . فأعجبه جمالها ، فحطَّ طحنته وأركبها . أعطته ليرة
فرح بها . ولكنه لم يجد الطحنة لما رجع ، وافتقد الليرة فإذا هي شقفة فخار .
وقال ثانٍ : وظهرت الجنّ لبوانطون بشكل حطب ، فحطَّب
وعاد . وكان يتعجب من خفة حملته ، فلما حطها قدام الباب دقَّ جرس
الظهر فصلَّب ، فاخفى الحطب كله إلا عودين من الزيتون .
فقال شيخ : الزيتون مبارك .

فصرخت ام جبرائيل : اسم الصليب وذكر الصلبان .
وقال واحد : ملاعين الجنّ ، سبحان خالقهم ، أعطاهم خاصة ما
أعطانا إياها . قال عمي بو جبرائيل معه الخوري ، كأنه نسي قصة الخوري

(١) فوَعَة الشباب : أوله ، وهنا الظهور بكثرة .

متى لما دعوه ليكلل لهم العريس . صلب الخوري فانطفأت الأنوار
واختفت الجماهير ، فمات من الفزع ، وبقي لسانه مربوطاً شهرين .

كان أبو جبرائيل يسمع ويعتبر وينظر الى عضلاته الغليظة... نوى
في تلك الساعة أن يرجع قبل المغيب . وتسليح قبل الرحلة بكتاب
مار قبريانوس ، وبصليب ورثه عن جده . ولكن الدواب قصرت في
العقبات الكثيرة فوصلت آخر السهرة وتبعها أصحاب الحوائج فكوا
المحولة ونزلوها ، وانتظروا أبا جبرائيل فما جاء .

راهم أمره ، فقالت إحدى النساء : سمعت حس مشي خلف الدواب ،
فأين اختفى ، وكيف وصلت وحدها ؟

فأجاب مستشار الضيعة : جن . قلت له لا تتأخر فما سمع كلمتي .
فولدت أم جبرائيل . فقال فتى : نخوة يا شباب ، يا الله ، امشوا الى
مغارة شير بنور . وبعد دقائق بلغوها فوجدوا أبا جبرائيل منبطحاً
ببابها ، يرن ويئن . وأفاق بعد اسعاف عنيف فخبّر أن شاين لون وجهها
أحمر ، وشعرها أصفر ، وعيونها مشقوقة بالطول ، عزموا عليه ،
وحولوه بالقوة الى المغارة ليحضر وليمة العرس ، وصلب قبل أن يمد
يده الى الطعام فاختفى كل شيء .

فابتسم الشبان وقالوا : صحيح ، ونحن سمعنا أغنيات ما سمعنا مثلها .
 واجتمع مجلس القرية صباح الأحد بعد القداس فقرروا جميعاً أن
استفحال أمر الجن ناتج عن أن القرية عندما انكسر جرسها بدلتها بأكبر
منه ، فلم يدخل القبة حتى هدموا الأقواس التي يقوم عليها الصليب ،

فظلت القبة بلا صليب ... وقرّ الرأي على أن يرفعوا صليباً عالياً يشرف على قرارات أوديتهم .

ومضت سنوات لم يحسوا فيها أثر الجن ، حتى كان أبو جبرائيل يوماً في قطعة أرض له عند النهر فيها مغارة تأخذ منها النساء حجر «الملحقاق» ليعملن المعاجن والقذور . رأى امرأة منبوشة الشعر فتأكد أنها جنيّة ، فترصدها حتى دخلت المغارة ، ثم أقبل يرشق وجهه بإشارات الصليب ويدهدي^(١) الصخور برشاقة على بابها .

وصاحت المرأة صيحات رجّ لها النهر : دخيلك . أنا مرثا يا لحود . أنا مرثا يا أبو جبرائيل .

ولكن أبا جبرائيل ظل يردم بخفة ويقول : لا مرثا ولا لحود . غشي غيري . ما انقطع جنسكم بعد يا محروقة الدين ؟

وابتعد الصوت لكثرة ما أهال لحود على باب المغارة من حجارة وتراب ، فاستهوى وتنهد ... وإذا بجرس الضيعة يدق ، فتسمع وقال ، بعدما أبدى إشارات الرضى بهزّ جمع يده اليسرى : هذا جرس يقطع أثر الجنّ كلهم .

(١) يدهدي : يدحرج .



ابن عزرائيل

جاءت ام ابراهيم بعين مكسورة تستكتب معلم ذمتها ^(١) (الخوري) رسالة الى ولدها المهاجر ، فاستأجلها . ولما أشعرته أن البريد على سفر امتشق قلمه من انبوبة دواته ، ثم لاقها ^(٢) وطفق يكتب .

وتلا على ام ابراهيم ديباجة الكتاب الناعمة فترطبت أهدايتها . وراح الخوري يتعصر كحبل ي تتمخض . وبعد ألف جهد نزلت على سن قلمه الكلمة الماثورة : من أخذ من ملة غير ملته مات بعة غير عله . وأحس

(١) معلم ذمتها : الخوري الذي يقوم بحلها من خطاياها ويسمع اعترافها .
(٢) لاقها : أصلح مدادها .

طعم هذا الالهام الرفيع فاهترت لحيته، وانفتح فمه الأدرد^(١) عن ثنية^(٢)
ما زالت غارزة باللثة^(٣) كأنها سنّ ثوم .

قعدت منه أم إبراهيم مقعد الكلب تتحرك جوارحه كلما تحركت يد
صاحبه . تحاول بزفرائها المديدة حثّ الخوري ، وأخيراً هتفت به بلا
شعور : ايش كتبت يا معلمي ؟ البوسطجي معجل .

فاستمهلها بالخمس اللطاف، وعينه على القرطاس ، حتى إذا انهل عليه
الوحي تلقاه بلهفة وكتب : سمنجون بنت خالك مثل قلب الصباح ،
قامتها رمح رديني^(٤) ، وعيونها لوزية ، وخدودها مثل التفاح الشامي .
صورة بورق يا ولدنا ، والمثل يقول : أهلك ولا تهلك .

وزفر الخوري زفرة استهولتها أم إبراهيم، وقرأ ما خربش . فقرعت
صدرها داعية بطول عمره ، وانكبت على يده الطاهرة تقبلها بحرارة .
سحرتها فصاحة الرسالة فضمنت عود ولدها غبّ اطلاعه عليها . ولكنها
استقصرتها ، فاستزادته ، فكتب : طلاب سمنجون مثل النمل ، الناس
تقصدها من بني وبني... وأنا أصبحها وأمسيها . احضر حالا حالا ،
المرأة حاجة الدهر ، والانسان لا يجدها كل ساعة ، يكفيك ما جمعت ،
ولمن تجمع إذا مت بلا عقب ؟

— يا أم براهيم ، عجلي ، البسطجي رائج .

(١) الأدرد : الفاقد أسنانه . (٢) الثنية : أسنان مقدم الفم .

(٣) اللثة : ما حول الأسنان من لحم وفيه مغارزها .

(٤) رديني : نسبة الى ردينة وهي امرأة كانت تقوم الرماح .

وغلّف الخوري الرسالة ، فصرخت ام ابراهيم : لا ، يا معلمي ، لا .
ونتشتها من يده وأخذت تحرق أطرافها بسيكارة الخوري .
وبعد ما ابتعدت بها خطوات تذكرت انها لم تقبل يده شاكرة ،
فانفلت صوبه . ثم أدركت حرج الموقف ، فاعتذرت من بعيد وهرولت .
وبعد أشهر خفّ أخوه ابراهيم وبنو عمه الى ميناء بيروت ليستقبلوه .
وزحف من بقي في الضيعة من أحياء الى دكان على مفرق الطرق ، يحسبه
الرائي منطرة ^(١) ، لا حانوتاً يتبضع منه القرويون ويتقمشون . أما
الدفع فموعه كتلك الساعة التي لا يعلمها أحد إلا الآب ... وبعد انتظار
ساعات في تلك البرية أطل الموكب تتقدمه المحولة : اعدال نقل ^(٢) وحوائج ،
وصناديق أميركية تتلألأ تحت أشعة عين الشمس . فارتفعت الأصوات
بالتأهيل والترحيب . ثم تناوبوا التقبيل حتى شكا ابراهيم خدراً في رقبتة
وطلب الهدنة ... ثم استؤنفت المعركة ، وأخذوا يعرفونه بمن درجوا
وشبّوا في غيابـه ، فيقبلهم ويربّتهم ^(٣) ترييتاً أميركياً ، يضحك له
البعض ، وينشده الآخرون . وساروا به أخيراً ، فريق يهزج ، وفريق
يغربل وينخل . وكلهم يقولون : يا بارك الله ، هامة جمل ! وكانت امه
تنتظره في ساحة الكنيسة حيث يمر ، فازارته القديس ، ووفت نذرها .
وفي البيت كثرت السؤالات عن الغائبين فكان الجواب : الجميع بخير .

(١) منطرة : غرفة لجالوس حارس الكروم .

(٢) النقل : ما يتنقل به على الشراب من فستق ولوز وبذر .

(٣) ربت : ضرب برفق على الكتف .

وفتحت أم إبراهيم كفها فأطعمت وسقت بسخاء . وسهر إبراهيم إلى ما بعد نصف الليل ، فأصبح شاكياً قلق فراشه وييوسته ، مع أن الوالدة نفسته أيّ نفس ، ولكن التخت خشبي وبلا رفّاس ، فبيت إبراهيم من المحافظين ما زال كما فارقه .

وجاء الجيران مع الصبح ، فقعد يحدثهم بابتسامة اكتسائية . رأوه شاباً كبير الظل ، أخذ التعب شيئاً من نضرتة أمس ، أما اليوم فهو عظيم جداً : شاربان قاعدان كأنه الزناتي خليفة . سأله عن « توفيقه » فشكر ربه برطانة^(١) المهاجر الحديث العود . وبعد أيام قاطع على ألوف من الحجارة ، كما يفعل المهاجر « الموفق » ، فتحدثت الضيعة بذلك أياماً ، ودبت الحياة في مقالعها المهجورة .

أما سمنجون ، وهي بيت القصيد ، فشعرت بهبوط درجة الحرارة منذ رأته وحدثته . كانت تتوقع تجاوزها الحد فإذا الأمر بالضد . فقالت في نفسها : لم يتغير فيه شيء . هو هو . ولكن هناك شيئاً صعباً فهمه . هذا إبراهيم غير هناك ، وإن كان إياه . أما كيف فما أعرف ... منذ خمسة عشر عاماً و « برهون » ملء قلبي واذني ، فما لي إذ جاء لا أرى تلك اللهفة ؟ ما لذكريات الصبا غافية لا تفيق ، وقربي منه لا يرغبني فيه ؟ عجيب ! لما كنا وليدات كنت أحبه أكثر .

ووزع إبراهيم هداياه على الاخصاء من مواس ، وساعات ، وأقلام حبر ، وخواتم ذهب اميركي ، وغير ذلك . وحمل إلى سمنجون الساعة

(١) رطانة : كلام نطقه غير مفهوم .

الشمينة مع سلسلتها الطويلة من الذهب الخالص ، والخواتم ، والأساور ،
فترطب قلبها وتتدى . ولكنها تذكرت دملجاً^(١) زجاجياً أهدها إليها في
الصغر ، قبل الهجرة ، فرأت أن تلك الزجاجاة الزرقاء كانت أحب إلى
قلبها من هذا الذهب والاملاس ، فما سر ذلك ؟

وأدرك إبراهيم أنه لم يظفر منها بتهافت العشاق رغم الهدايا النفيسة ،
والبيت العظيم الذي بلغ الاعتبار ، فاخذ يتفاح ويتظرف ، وإذا بالأمر
بالعكس ، فهو غائباً عن العين أقرب إلى القلب . تتأمله سمنجون فتقول
في نفسها : « رجولة تامة . غنى وافر . جاه^(٢) يمتد بسرعة الغيم . هذا
مطران الأبرشية شرف للسلام عليه ، وتهنئته بالرجوع . ومدير الناحية
يجيء بعد يومين . و « البروش »^(٣) الذي أهداني إياه في السهرة الأخيرة
يسوى مائة ذهب ، فما أريد بعد ؟ ليس هناك رجل آخر أحبه لأقول قلبي
مشغول ، فما هو السبب يا ترى ؟

« يتحدث إبراهيم عن شأنه في المهجر أحاديث تحب وترغب . وكلما
أمعن في أحاديثه جدّ قلبي في الهرب ، فما العلة يا ترى ؟ قصتي عجيبة ،
والله ! »

وأتى المدير ليهنئ بالعود الأحمد ، فبالغ السنيور إبراهيم في إجلاله
وتكريمته . أعدّ له غذاء ملوكياً قلماً أعدّ مثله في البلاد . ودارت الانتخاب

(١) الدملج : حلي يلبس في المعصم .

(٢) الجاه : القدر والشرف وعلو المنزلة .

(٣) البروش : حلي يلبس على الصدر .

على المائدة ، فأتى صاحب العزة على كد إبراهيم وجدّه ، ورفع اسم
الجلالة عالياً بما أنشأ من روابط متينة مع رجال الدولة في « الريو » .
وأخيراً رفع المدير كأسه شارباً نخب المهاجرين جميعاً بشخص زعيمهم
برهون ، وتمنى عودتهم جميعاً غانمين مثل إبراهيم أفندي .

فهزّ شيوخ القرية رؤوسهم إعجاباً عند كل جملة ، خصوصاً حين قال
عزّته : « إبراهيم أفندي » .

أما سمنجون فكانت حاضرة كالغائبة . واستؤنف الأكل والشرب .
ونثرت النكات والأحماض^(١) التي هي مسرح القرية وحياتها . فانتشى
إبراهيم وأفاض في سرد ما عنده من نوادر وفكاهات محفوظة ، وأكثرها
تدور حول المرأة ، وختمها بهذه الحكاية فقال :

« تزوج عزرائيل امرأة مترجلة كانت تتحكم فيه فرزقه الله ولداً
اختارت له أمه الطب مهنة وأجبرت زوجها عزرائيل على أن لا يقبض
روح مريض يعالجه ابنها ، فاطاع حتى يستريح من شرها . وبعد حين
كره عزرائيل الحياة مع زوجته المتأمرة ، فهجر البيت ، ولكنه ظل
يلتقي بابنه عند المرضى .

« ومرضت الملكة مرضاً عضالاً عجزت عن مداواته حكماء الدولة ،
فدعوا لها ابن عزرائيل ، فتركها له أبوه حسب الاتفاق .

« وعاشت الملكة طويلاً ، فوبخ الرب عزرائيل ، فصمم على قبض

(١) الأحماض : كلام التسلية المرحّة .

روحها . ودعوا ابنه فجاء ، ولكن عزرائيل ما ترحل هذه المرة . ولما
عجز الابن عن إخراجہ أخذ يفكر ، فما وجد حيلة أنفع من أن يتهدده
ويخوفه بأمه ، فصاح به : أبي ، أمي ورائي . اهرب .
« ولما سمع عزرائيل ذكرها طاح كالمجنون . وصحت الملكة ،
أضحكت الحكاية الناس إلا سمنجون ، وفي الغد ردت عليها رداً
قاسياً ، فأعادت الى ابراهيم هداياه .



قَصْر هَيْكَلٍ عَنِ الْعِلْمِ صَبِيحاً فَشَبَّ هَبَّالاً^(١) وَاکْتَهَلَ دَجَّالاً^(٢) .
عَصَاهُ بَنَتْ عَمَ الْخَلِّ، وَحَبَّاتُ سَبْحَتِهِ كَمَحٍ^(٣) الْبَيْضِ كَثَافَةً وَلَوْنًا. يُلَوِّحُ
بِأَحْدَاهُمَا لِمَنْ يَنَاقِضُهُ عَلَى الرَّصِيفِ الْآخِرِ . فِي عُرْوَتِهِ نَسِيلَةٌ^(٤) صَفْرَاءُ
يَزْعَمُ أَنَّهَا شَارَةٌ وَسَامٌ رَفِيعٌ اسْتَحَقَّ فِي الْجَبْهَةِ الْغَرِيبَةِ الَّتِي شَهِدَ مَعَارَكَهَا

(١) هَبَّالاً : كَذَاباً مَحْتَالاً . (٢) دَجَّالاً : يَظْهَرُ خِلَافَ مَا يَبْطُنُ .

(٣) مَح : صَفَارُ الْبَيْضِ .

(٤) النَسِيلُ : مَا يَسْقُطُ مِنَ الصُّوفِ عِنْدَ النُّسْلِ وَهَذَا قِطْعَةٌ مِنَ الْقِمَاشِ
صَغِيرَةٌ جَدًّا .

متطوعاً ، وكان يدهده^(١) الجماجم في الخنادق كروؤوس البطيخ .
هيكلمفري^(٢) الشفة العليا خلقةً ، ويزعم لك انه جرح بطولة
جرحاً كان قتله لولا لطف الله ، وصلاة أمه ، ودعاك .

رأسه برأق مدور كقالب جبن فلنكي ، يجتمع فيه التقيضان : في
القمة بقية وبر كصوف السنابير ، وفي المنحنى شعر مثل شوك القندول .
يصح في تلك الكرة ما قاله برنارد شو في لحيته الكثة وصلعته الجرداء :
كثرة انتاج ، وسوء توزيع ...

يلاقيك هيكلمبتسماً ، ويسالك على الفور : كيف حال من فارقت؟
وإذا قلت له : تعرفني ؟ من أنا؟ حك صدغه ، وعض جحفلته^(٣) بأسنان
كحب الفول المسوس . ثم أطرق إطراقة الافعوان ومغمغ : اسمك ،
اسمك ... على رأس لساني ، حتى إذا ذكرته خاصرك وتمشى وهو
يقول : اوف .

ثم يقف محاولاً تقديم سيكارة لعلك تسبقه الى تلك المكreme ... وان
غفلت أو تغافلت تقصّي جيوبه ، ثم قال : هات سيكارة ، نسيت علبتي
عند فلان . ويسمي لك إما وزيراً وإما مديراً .

ومن مواهبه النادرة أنه يرود الأرض في دقائق معدودات، فإن رأى
قلة خيرك انصرف الى غيرك .

مسرح هذا البطل ساحات دور الحكومة، وأروقتها. فهو «أبو فتح»

(١) يدهده : يدحرج . (٢) مفري : مشقوق .

(٣) جحفلته : شفته .

جديد، يتصيد في الحرام وعلى عيني وعينك يا تاجر. هناك - في السراي -
يعرض خدماته على الوارد والصادر، وخصوصاً على من لا ظهر له . ولولا
همته القعساء - كما يقول - مات حق الفقير .

صنارته ، في تصيد العوام ، تحية المأمورين القادمين الى الدواوين ،
فإن ظفر بكلمة من أحدهم فاز بطعم كثير الخير والبركة .

إذا وفد قوم على السراي زج بنفسه بينهم ليقول بعد الخروج
للمغفلين : هذا وفد من القرية الفلانية . كان ميعادهم أمس ، وجاؤوا
اليوم . عرفناهم بمعالي الوزير . مساكين ، راحوا شاكرين حامدين .

ويغادر هيكل السراي مع المأمورين كانه واحد منهم . يمكن لطرائده
عند باب أحد مقاهي ساحة البرج كمون العنكبوت للذباب ، حتى إذا
استحوذ على جليس هاها بصبيان القهوة وصفق لهم ، ثم يتلطف ويقول :
اطلب ، فنجان قهوة ، قدح بيرة ، كأس عرق ، قنينة كازوز ، تحب
وسكي ؟ أبداً غير ممكن ، لا بد من شيء .

وإذا امتنعت أنت طلب هو ، فتشرب على صحته ، وله الغنم وعليك
الغرم ، فأساليبه في التغافل عن الدفع غريبة عجيبة . ان خاف ان تنزل
به الكارثة ابتدر وابتكر . فكل ماراً على الرصيف ، شرط أن يكون من
ذوي الجشت الضخام ، هو عنده إما موظف كبير ، أو زعيم خطير . ينهض
له هيكل إجلالاً واحتراماً . فإن رد التحية قال لك : هذا فلان ييك ،
صديقي جداً . وإذا أوماً ذاك المار برأسه أو يده أو همك هيكل انه دعاه
وله معه كلام .

— انتظرنى ، أنا راجع حالا .

وهكذا يرهنك عند صبيان المقهى كما رهن الغراب الديك فى الاسطورة المشهورة .

وتلتقيان بعد حين فيعتذر ويدعوك الى فندق شهير فيطعمك ويسقيك . فإذا رأى منك الجد ، حرن^(١) فى منتصف الطريق ، وصك^(٢) وجهه صكة مشؤومة ، وصرخ صرخة ترتعد لها : على موعده ، الله يخزي الشيطان ، كيف نسيت ! فلان — ويختار من الاسماء الرائجة أوقعها فى نفسك — يكون قاعداً على نار .

ثم ينفخ كالثور ويقول : اوف ، ما أثقل البشر ، خنقوني يا عمي . صدقني إذا قلت لك : لا أرتاح دقيقة . من بيت وزير الى بيت مدير ، ومن عند رئيس الى محافظ . من دائرة الى دائرة ، ومن محكمة الى محكمة . وفوق التعب تدفع من كيسك . كلت^(٣) عيني يا انسان .

ثم يتنهد ويجاوب عنك : المسألة بسيطة ، من لا يحس مع الناس لا يكون من الناس ، انما مصيبتك فيهم انك اذا قصرت عن مسألة قامت قيامتهم . أنا رب العز حتى اعمل كل شي ؟

وتغتر بهذا الكلام فتكشف له عن وجهك وتفضح نفسك عنده ، فيقبل عليك ببطنه المندلق^(٤) ، وقوائمه القصار ويقول : يا مرحبا بك .

(١) حرن : لزم ولم يفارق ، توقف .

(٢) صك : ضرب ضرباً شديداً ، لطم . (٣) كل : تعب وأعبا .

(٤) اندلق : خرج من مكانه وهنا اشارة الى كبر بطنه المتدلي الى أسفل .

قضيتك عند سعادته ، أي عند القاعد على نار . الآن هو في بيته . رخص لي . أين ألاقيك الصبح ؟ في القهوة ؟ انتظرنى هناك .

وهكذا يد لك السفرة على الطريق ، فيربح المعركة الثانية ، وفي الغد يربح الثالثة .

يصبحك بقصة ملفقة : سعادة البيك - القاعد على نار - طلع إلى صوفر . ولكن التعب ما ضاع : سهر هيكل في بيت رفيع العماد ، كثير الرماد ، وصاحبه طويل النجاد ... هناك ، لحسن حظك ، التقى سيدة تقدم وتؤخر ، ينام البيك على يدها ، تزود منها بطاقة توصية تحرق العشب . ثم يريك ظرفاً مخربش العنوان باسم جناب البيك ، ويسألك كراء سيارة . وبعد أن تتدهور فلوسك في هوته يودعك : فلا تؤاخذنا يا شيخ . ويلتفت بعد ابتعاد خطوات ملوحاً بسبحته قائلاً بابتسام : ادع لنا بالتوفيق .

وإذا اعرض عن هيكل ذو حاجة أو استخف به ، بثّ حوله وسطاءه وسامسرتة فقالوا له : هيكل رجل داهية ، عفريت . الدنيا وسائط ، لا توكل أحداً . ثم يعددون له ما حلّ من مشاكل كبار عدا الصغار ، أصحابها إما موتى ، وأما غائبون ، أو مجهولون .

أما هيكل ، وهو من المغامرين في الثرثرة ، فعنده لكل مقال مقام . يلجأ هنا إلى ما قلّ ودل ، فيتطلع تطلع النسر ، ثم ينحني صوبك ليهمس في أذنك : الكبير منهم بيدي مثل الخاتم في الخنصر . وإذا بانث في وجهك دهشة قال لك باستهتار : نعم ، نعم . كبر وصغر يا سيدي .

ويتعزم عليك هيكل مشيحاً بوجهه عنك . فيقرصك الوسيط قرصة
لاذعة ليقول لك : صدق يا سيدي . ويروي لك واحدة من خوارق
الاستاذ هيكل ويختتمها بقوله : الشكران في الوجه مذمة . ثم يغمزك
صاراً أصابعه ، مرجئاً الحديث لثلا يجرح تواضع الأستاذ بلا علم ...

الناس مغارس ، وكذلك هم هؤلاء الدجالون الهبالون ، إذا مات منهم
سيد قام سيد . قلما يخلو منهم بلد . أما هيكل فهو رجل الساعة . له في كل
عرس قرص . ينشر في الصحف كلاماً يتملق به اولي الامر كما تتملق
هرتك بحك جلدتها ، فيمسي مقرباً منهم ولا حاجب عليه ولا بواب .

قد ينقع الحرّ الكريم عند أبوابهم ساعات ويأتي هيكل فيجره بطوقه ،
وان احتشم فبطرف ردائه كأنه يدعوهُ إلى مأواه . حتى اذا توسط به
الديوان قدمه الى صاحب الكرسي على انه بيضة البلد وزعيم المنطقة ...
وبهذا ينفتح فم محفظتك ، ولو كان مصاباً بالكزاز^(١) ، لمن وقاك مهانة
الابتذال وذل الوقوف على الأبواب .

وصدق هيكل نفسه فغرته عينه بجميع البشر . واتجه حديثه اتجاهاً
جديداً لما كبر ، فصار يقول : أمس كنا مع فلان في « البار الفلاني » ،
وأول من أمس كنا في « السرك » الفلاني . خسر أكثر من ألف ليرة ،
شرب حتى تلف . ثم يدق على صدره مؤكداً : أنا وصلته الى بيته . منذ
عشرين سنة لا نتفارق ، مثل اللحم على الظفر .

(١) الكزاز : مرض تقبض ويباس ، وأيضاً البخل .

وذكروا له، في إحدى السهرات، شاباً ولي الرئاسة قبل إبان الرئاسة،
وسأله : منو ^(١) مفتاحه ؟

فضرب هيكل صدره البهم وقال على الفور : اعرفه مثلما أعرفكم .
كان المرحوم أبوه يعزني - الله يعزكم ا كان - الله يرحمه ، ويرحم موتاكم
جميعاً ا - يقول لي : دبّر الصبي يا هيكل ، أنا متكل عليك . أمس رافقته
الى الجبل لزيارة شخص عظيم ورجعنا موقنين . مستقبلة عظيم . هكذا
تنبأت لوالده . يا ليت والده عاش ليراه على الكرسي ، ولكنه ، في كل
حال ، مات مجبور الحاطر .

فقال صاحب الدار : لهذا الشاب - ودلّ على أحد الساهرين - دعوى
في محكته . يدفع ثلاثمئة ليرة ان ربحها .

فانبسط هيكل وكاد يخرج من ثيابه وقال : خذوها من لحية
عمكم هيكل .

وضربوا له موعداً فأتاهم ، وقال وهو يقعد : على العشا قلت له :
يا صبي ، دعوى فلان تهمني . احزروا ماذا قال ؟ وحياة عيونكم قال :
خذها من عينيّ التنتين يا عمي هيكل . ما ذكرت له المبلغ حتى اعرف ان
كان يذكر الفضل . مسكين ، والله ما نسي . ولكني أخيراً أخبرته .

وبعد أخذ وردّ قبض هيكل المبلغ وودّع . فما بلغ البساب حتى
استوقفه الشاب ، صاحب الدعوى وقال له : تؤكد ، يا خواجه هيكل ،
انك تعرف القاضي ؟

(١) منو : من هو .

فهز هيكل برأسه وقال : يا سبحان ربك ، نحن نغني في الطاحون ؟
قلت لك تعيشت أمس عنده .

وكان صمت غير طويل تحدثت في أثنائه عيون القوم ، فأدرك
هيكل أن الفخ انطبق ، ولكنه تماسك وقال : ان كنتم لا تصدقوني
فهذا مالكم .

وبينا كان القاضي يسترد المال أراق على جوانب شرف هيكل
الرفيع شيئاً غير الدم ... فاستخذى هيكل وخرج وهو يمسح
وجهه بكمه .



بعد معارك طاحنة وطويلة الأمد ، قطع ابراهيم الشوط الأول من
البكالوريا ، ثم قصر في عقبة ^(١) الفلسفة فقعده حسيراً ملوماً . وصبا الى
الجامعات فما فتح له الجزء الأول من البكالوريا أبواب معاهد الحقوق .
فقلع ثوب « جنسيته » وجاءها متنكراً بهوية غريبة ، فقبل على الرحب
والسعة .

(١) عقبة : منتصف الطريق الصاعد .

ورسب عدة سنوات فيشس وطلق الحقوق ثلاثاً. التفت بينا وشمالاً
فلم يجد خيراً من « الباب الواسع » فوجه ، وأخذ يمدُّ الصحف بالأخبار
المحلية ، فأحسَّ الناس بوجوده . ثم تخطى الى معالجة سياسة البلد ،
وشؤونه الداخلية ، فانفتحت له أبواب ضواطير السياسة ، فأمسى وإياهم
يمرحون في صعيد واحد ...

وتذكر ، بعد حين ، انه عرض على معلمه ، حين كانوا يتعلمون
العروض ، ما قرزم من شعر ، فقال له : انك ستكون قوَّالاً^(١) . فهاجم
أحد الرؤساء بقصيدة وقعت منه موقع استحسان لأنه طعن بها على السلف
وقدس الخلف . وأعاد الكرة في مناسبة أخرى فحك للممدوح حكاً
أرضاه فقرَّبه وأدناه . فهام صاحبنا في أودية الشعر ، ثم طمع الى القمم
مستعيناً بالصحف فجعلته الشاعر الكبير ، فمات من الفرح .

ورأى أنه يحسن « الريبورتاج » فأخذ يمتحن ما يجريه قلمه من الأنهار
في صحارى الصحف ، قرأى فيه عناصر القص ، فشاء أن يكون قصصياً
كبيراً ، كما صار شاعراً كبيراً بياعه وذراعه ومعونه صحف كان يغمرها
بأخباره الملفقة .

انكبَّ على قراءة بلزالك واستندال ودوستويفسكي ، فما رأى عندهم
معجزاً . رأى انه مثلهم ، وأنه يستطيع ما استطاعوا ، فتمخض ووضع
قصة عجيبة . لفَّ المولود الجديد باقطة برَّاقة ، وطاف بتحفته على دور
النشر ، فوعده بباطالعتها ورد الجواب . وبعد اسبوع أعيدت اليه مع

(١) القوال : منشد الشعر العامي .

الشكر ، فغضب وسب دين بلاد ليس فيها من يتنوق الأدب السامي ،
وأخذ يعلن في الصحف التي يرأسها عن قصته العجيبة ، ويعد العالم العربي
بظهورها قريباً . ومما كتبه في أحد الاعلانات :

« فريدة - قصة جديدة ... مؤلفها الشاعر الأكبر ... فتح جديد
في لغة الضاد .

« فيها اشتباكات ديماس ، ووصف زولا : وتحليل دوستويفسكي ،
وعوالم بلزاك ، وشخص شكسبير ، وخيال شاتوبريان . هي القصة التي
يحل بها الأدب العربي محله العالمي ، فليبشر أبناء الضاد فقد صار لهم أديب
مكوني »^(١) .

وبعد هذا الانذار كرّ على دور النشر ، فظلت هادئة الأعصاب ولم
تندحر أمامه ، فرأى أن يعمل بقول المثل : ما حكّ جلدك مثل ظفرك .
فعزم ، بعناد ، على أن يكون مؤلفاً وناشراً ، فدفع قصته الى كاتب شهير ،
فقدمه الى القراء ، وتعاونوا تعاوناً وثيقاً على غزو العقول ، فصدرت
المقدمة مرقومة بالحروف الأبجدية ، عشرون صفحة علّم فيها الكاتب
الشهير الناس كتابة القصة واتخذ لها نموذجاً قصة « فريدة » ذات الحوادث
العجيبة ، والتصوير الغريب ، والتحليل النفساني الذي لم يدرك استندال
بعضه ، ولا دوستويفسكي أقله .

وظهرت القصة الفريدة فاستقبلتها الصحف المعلومة بالتهليل
والتكبير ، وعظمت صاحبها أيما تعظيم . أما الأدباء الحق فصمتوا . ونعم

(١) مسكوني : عالمي .

إبراهيم بشهرة صحفية واسعة ، ولم يكتف بمبا استجداه من ثناء الأعلام
الجوفاء ، وبما كتبه هو عن نفسه بلسان الآخرين ، فطمع باستدراج النقاد
الكبار ...

وبلغ به حب الشهرة حد الوسواس^(١) ، فإذا جالسته أخذ يستدرجك
إلى التنويه به والثناء عليه . وكلما فتحت فاك لتقول كلمة تبتدىء بالفاء
والراء ينتفض ظاناً أنك ستقول شيئاً عن فريدة ... حتى إذا أياسته من
هذا جال في ميدان البحث الأدبي ، وتفوق على ابن الأثير في مدح نفسه ،
ورأى أنه أغزر ألواناً من جبران .

ونام ذات ليلة حزينا . ضامه ركود الثناء وهو ممن يحبون أن
يذكروا كل يوم ، فقال في قلبه : الشهرة أقصى أمانى الرجال وخصوصاً
الأدباء .

وبعد أن استرخى في فراشه رفس اللحاف وقعد يحسب ما ربحه من
سوق الدعاية ، فعزم على انفاق ما جمع في أشرف السبل . وبعد محاولات
هدأت أعصابه ، فنام ، وملء قلبه أمل لا حد له ولا طرف .
وبكر في الغد للاصطباح عند أحد أصدقائه ، وسأله أن يؤدي له
خدمة لا تكلفه شيئاً . وعرض عليه الفكرة . وبعد أسابيع كان احتفال
في أكبر فنادق الثغر . « علفة »^(٢) لها ما بعدها أقيمت على شرف القصصي
العظيم .

(١) الوسواس : مرض يحدث من كثرة الكدر فيضعف الذهن .

(٢) علفة : وجبة طعام .

قام الشعراء والخطباء بما وجب . وتقدم أناس معدودون لهذه المهمة وسألوا المؤلف أن يوقع على نسخ من قصة « فريدة » ، ففعل ذلك بتواضع . وفي الغد ظهرت كلمة في جريدة رصينة هذا نصها :

« حقاً إن الأدب مهزلة في هذا البلد . إذا أقيمت حفلة على شرف مؤلف « فريدة » ، فماذا نترك لمؤلف تغريبة بني هلال ؟ يا ضيعة الخبر تسود به صفحات لا تبيض وجه البلاد ! كان قد هان علينا الأمر لو لم يمثلوا هذا الدور المضحك المبكي . ولو درى المؤلف المغفل أنها مهزلة لاختار طريقاً أمثل من الطريق الذي سلك . ان سكون ريع النقد عندنا جراً زعانف^(١) الأدباء على التأليف . ولولا التدجيل الذي يؤدي الى التضليل لظل صاحب « فريدة » في حقله ، ولم يقتحم الغابات العذراء التي لا يرتادها غير النوابغ ... فما دامت الأقلام تحابي وتكتب ما يوحى به اليها فلا ينتظر أن يكون لنا أدب صحيح . »

وفي غرفته التي رتبها ونظمها على طراز فني ، قعد صاحبنا تحت المصباح الكهربائي المحجّب بمظلة بنفسجية يطالع « رسالة الغفران » . وجاءه أحد أعوانه بالصحيفة فقرأ ما كتبه بحيرة ودهشة وقال في نفسه : يا للعجب ، ان قصتي لمامة ، الفصل الأول من عند موباسان ، والثاني أخذ عن فلوير ، والتحليل لدوستوفسكي ، والغرائب عن ادغار بووديناس ، والتعابير أكثرها عن فصحاء العرب ، فكيف لا تكون قصة « فريدة »

(١) زعانف : جماعة وأيضاً القصر .

فريدة ؟ الحق مع المتني والشعراء الذين قلنوه فيما بعد: انه الحسد، فاكتر
النقاد حساد ... فليفطسوا .

ثم بدا في وجهه غضب حليم ، فضرب مكتبه بجمع يده وقال : أنا
خالد ، وكتابي خالد . غداً تقدرني الحكومة فترين عنقي بقلادة المجد ،
او تبصم صدري فيشع عليه نجم الافتخار . وقد ألفت منذ اليوم لجنة
تعنى بتكريمي وتلتمس ذلك .

وجرّه الحزن العميق الى وادي الكرى ، فرأى انه في العالم الثاني ،
العالم الذي لم يره ، ولكنه قرأ وصفاً له . رأى نفسه في كوخ حقير ، ليس
فيه غير حصير مقطع ، وقربه كوز معشوشب ، وليس حول ذلك الكوخ
غير قندول ، وعجرم ، وعليق^(١) ، فلم يعجبه ذاك المصير .
والتفت فرأى من بعيد رجلاً ينظر اليه ويبتسم ، فقال له : من أنت ؟
فاجابه :

— ما عرفتني ؟ أنا الصاحب بن عباد . لقد مت بموت دعاي ، ومات
معي من دعوت له كذباً وزوراً ، وعاش بعدي وبعده الشاعر العظيم .
كان يجب أن تعتبر بي ، فكل ظل يزول إلا الأدب الصحيح . فسيحانه ،
انه الحي الباقي .

(١) قندول ، عجرم ، عليق : نباتات شائكة .



ما ملئت عاصفة الانتخاب أذيالها حتى انتقض^(١) القرويون من جبالهم
الصلعاء على العاصمة ، يلوّحون بعصيتهم ونبايتهم^(٢) ، وعلى رؤوسهم
لبّادات^(٣) كقوالب السكر ، معصين عليها بكوفيات مختلفة الألوان .
السكاكين المزرعانية والخناجر الجزينية مشكوكة في زنايرهم العريضة .

(١) النبوت : العصي الطويلة ذات الرأس المكور .

(٢) لبادة : لباس الرأس وهي من الصوف عادة .

وفي يد كل فتى معتدّ بنفسه طبر^(١) ودبوس^(٢) . وفي كل هنية تنطلق
غدارة^(٣) فتوقظ القمم الغافية حول الطريق .

لم يبق في القرى إلا الحزب المقهور ، تاكل قلبه الحيبة ، وينتفض
كلما قرع الجرس ، أو غنّي بيت « عتابا » أو « ميجانا » بحسب كل بادرة
في القرية نكاية وتحرشاً به .

مرّت الوفود عجالى على ساحة البرج يعرب هزجها عن الفرحة
الكبيرة بفوز « النائب » الكريم ، وان كان أكثرهم لم يروا خلقتة ...
يتقدم كل ضيعة زعيمها الذي زرع الدنيا آمالاً وأمانى ، حين دعا للنائب
ماجوراً أو موعوداً ... فريق أكبر هم عزل المختار المستبدّ ، وفريق
يرى كل النصر في فضّ البلدية وتعيين الرئيس والأعضاء من أفرادهم .
وجماعة يحلمون بشق الطريق ، فضيعتهم من لبنان عند الجابي ، وليست
منه ساعة اقتسام الميزانية ... هي حبيبة قلب النائب حتى مساء يوم
الاقتراع ، ويغيب عنها وجهه الكريم ووجه سماسرته مع غياب شمس ذلك
النهار . وجماعة ينتظرون المياه ، فقد أسقمتهم مياه الآبار الموبوءة .
وجميعهم موعودون « بمدارس » يتعلم بها أولادهم الهمل^(٤) .

أما قيدومهم^(٥) فتوظيف « ابنه » يشغل باله ... « فالمحروس » حامل

(١) الطبر : الفأس من السلاح .

(٢) الدبوس : قضيب من الحديد له رأس مكور .

(٣) غدارة : مسدس بدائي كان يحشى بالبارود والبندق حشواً .

(٤) الهمل : المتروكون بلا رعاية .

(٥) القيدوم : السائر في طليعة القوم .

السرتفيكا ، والسرتفيكا اللبنانية تحوّل حاملها حق فتح مدرسة ...
ووجيه القرية تعب وضحي ، ولولا مساعيه المشكورة لم تقم للحزب
قائمة . أما كان الفرق سبعين صوتاً بين المجلي والمصلي ؟ إذا فاصوات
ضيعتنا هي التي أمالت الكفة . ومن قال غير هذا نفقاً في عينه حصرمة ...
لو ضوأوا أصابعهم العشر قدامنا ظلوا مقصرين . هكذا كانت يقول
في قلبه

كل هذه المآرب تكوّمت حول بيت «النائب» الذي ملأ الدنيا وعوداً
لو تحقق واحد منها لباهى لبنان سويسرة . ضاقت ساحة البيت على الوفود
التي تنصب فيها ، فتصادموا بالرؤوس والمناكب ليفوزوا بطلعته البهية .
وحيت المجاحشة بين الوجهاء على الدنو من جنابه ، وهزّ يده بحرارة على
عيون الناس ، فالعظيم من وقف حده .

كان استقباله لهم مرضياً ، وان قلّ عرضُ ابتسامته بعض الشيء ،
وهزلت هشاشته وبشاشته عن ذي قبل . لقد غاض كثير من ذلك اللطف
العرمرم الذي بدا منه حين زار الضيعة . كان ينحني فيها احتراماً
للمكاري^(١) والمعاز^(٢) ، وقد خلع كتف الخوري حين انكبّ على يده
يقبلها إظهاراً لتقواه . واليوم يستقبل برخاوة يد حتى أبو طنوس الذي
فتح بيته ، وسيب^(٣) معجنه للمصوتين مدة « المعركة » .

لم يدرك العوام ذلك فظلوا يحدون ويتهددون خصمهم . كانت أغاني

(١) المكاري : الذي ينقل الأمتعة على ظهر الحيوانات لقاء أجر .

(٢) المعاز : الذي يسوس الماعز . (٣) سيب : ترك بدون حراسة .

القول^(١) "تملاً آذان النائب فيفرح بالثقة الكبرى ، والشعبية القوية التي لم ترَ بيروت مثلها. ويلتفت الى زميله قائلاً وهو يمز برأسه: قلوب طيبة يا هو ، ما سلاه^(٢) ! فيضحك النائب الآخر ويقول : وجماعتي أطيب ! كان وجه النائب يعبس حين يذكره «الهازجون»^(٣) بوعوده الغزيرة . ولما جاء دوره خطب فيهم وأجاد الشكر ، وقال انه لا يرضى على أنصاره بشيء حتى روحه . فصفقوا تصفيقاً حاداً ، وأطلقوا آخر ما معهم من خرطوش ، وعادوا الى ضيعتهم يبتهرون^(٤) ويتهددون . فنبض نائبهم قوي ، كما كان قبل الانتخاب ، وان انكمشت ابتسامته واصفرت قليلاً ...

وانتظروا مهندسي الري والطرق ، وترقبوا الصحف ليقرأوا مراسيم العزل والتوظيف وفتح المدارس . تناكروا شؤون حقوقهم التي تصلح جنائن ، والطريق المزقة التي تنقل ثمارهم العتيدة^(٥) الى أسواق المدن . واستعرت^(٦) نيران المنافسة بينهم على من ستكون جنيته أحسن ، وأخيراً تركوا الحكم للأيام ... وكان حكمها قاسياً ...

أما «صاحبهم» فكان مشغولاً بنفسه ، يعللها بمنصب أسمى ، ويستغل تلك المظاهرة. فهاب المضطلعون بالحكم «شعبيته» وأصاب السهم العللى^(٧) .

(١) القول : منشد الزجل . (٢) ما سلاه : ما شاء الله .

(٣) الهازجون : منشدوا الأفراح .

(٤) يبتهرون : يفتخرون بالادعاءات الكاذبة .

(٥) العتيد : المنتظر . (٦) استعرت : اتقد ، انتشر .

(٧) العللى : سابع سهام الميسر .

وانتظر جماعته حتى ملأوا. عملوا حساب فضلهم عليه فوجدوا انهم
لو لم يؤيدوه لكان اليوم يبيع مما يملك ليفي ديونه . إذا فلهم عنده دين
مستحق ، وما عذره ، وهو رجل الساعة ؟ وإذا كان اليوم لا يعمل فمتى ؟
وخرجوا من الكنيسة يوم أحد قال فيه الانجيل : اطلبوا تجدوا ،
اقرعوا يفتح لكم . فقال عقيدهم : نخوة^(١) يا شباب ، اذا كان سيدنا يسوع
المسيح ، وهو أبو الرحمة ، لا يعطي بلا طلب ، ولا يفتح لأحد بدون دق
باب ، فكيف الحكومة ؟

وبعد التشاور وجهوا اليه ثلاثة انتخبوهم بعد جدال عنيف، فاستكان
على مضض من ظنوا ان القرعة تصيبهم .
ومكث الوفد اسبوعاً في العاصمة حتى قابل الزعيم ثلاث دقائق ،
وعاد من عنده مثقلاً بالوعود . وبعد أشهر ظهرت الميزانية وليس فيها
شيء . لا طريق ، ولا ماء ، ولا مدرسة ، ولا موظف ، ولا ولا ...
فغضبوا غضبة مضرية ، ولكنهم بلعوها خوف الشماتة ... وكان صاحبهم
يعلو ويسمو وآمالهم تكبر وتنمو ، ولا شيء يتحقق . شعاره معهم قول
المثل العامي : اسقيك بالوعد يا كمن^(٢) .

وأخيراً عولوا على اقتحام المدينة جميعاً ، مهنئين ومطالبين «نائبهم»
الجالس سعيداً على كرسي الحكم . واذا لم ينجحوا اتخذوا خطة أخرى ،
وتعلموا درساً جديداً من الحوادث .

كان عهدهم بيت «النائب» صغيراً ، وهو في شارع كذا ، فإذا به

(١) نخوة : مروءة .

(٢) كمن : نبات بذره من الأفارويه مثل يضرب لعدم الوفاء .

صار قصراً، وحوله عرصات فسيحة ظهروا قليلين فيها، فتهيّبوا الموقف.
على البوابة جندي يخفر المدخل، فدخلوا الباحة بعد الاستئذان، وحاولوا
الارتقاء في السلم الرخامي ذي الساعدين المعقوفين فمنعهم . والتمسوا
مقابلة « صاحبهم » ف قيل لهم: مشغول بشؤون الدولة، خارجية وداخلية!
استقبلهم بالتيابة عنه أحد رجاله ، فاصروا على مقابله هو لأن لهم
قَبْلَه مطالب وليسوا بالمتطفلين عليه .

فأجابهم : اكتبوها ... فهز أحد الأهالي رأسه وقال: كأنك لا تعرف
قول المثل عن الخبر والورق ؟

وصاح الجمهور : أين صارت الطريق ؟ ... ففات الرجل مثل الخبر
والورق ، فضحك وقال لهم : معاليه مهم بها .

– والماء ؟

– أيضاً .

– والمدرسة ؟

– أيضاً وأيضاً .

– والبلدية والمختار والناطور ؟

– كله يصير .

– هذا كلام سمعناه مرات . قل له يطل علينا على الأقل . لنا حديث معه .

– هذا غير ممكن الآن ، في رأسه ألف مشكلة . دَوَّخه شغله الكثير .

فقال جسورهم : ونحن تركنا شغلنا وقابلناه لما زارنا ، وتقاتلنا

لأجله . يتخبّأ كأنه لا يعرفنا ؟

فقلب الكاتب شفّيته ، وهزّ كنفه... وانفتحت البوابة بعنف ،
فدخل وسفق^(١) الباب خلفه. فعلا الصراخ والصياح ، ولوّحوا بالنبايت
والدبايس والعصي ، فهرع الخفير الى التلفون يطلب قوة تردّ الرجال
المهمرة عيونهم عن بيت الزعيم . ولكن شيئاً من هذا لم يقع .

وقع حادث غريب جداً . تحقق حلم سلم يعقوب الذي امتد بين السماء
والارض فصعدت عليه الملائكة ونزلت . هذا سلم قصر الزعيم يقف في
الجماعة خطيباً . استحال ساعده يدين رهبتين أشار بهما الى الحشد
فخرجوا جميعاً ، وأصفوا اليه بأفواه نصف مفتوحة ، فقال لهم :

« يا اخواني ، تريدون دخول القصر العظيم ، هيهات ، هيهات . في
الدنيا سلام مختلفة : سلام حجرية ، سلام خشبية ، سلام من لحم ودم ،
وأنتم واحد منها .

« أما سمعتم قول ذلك الفيلسوف : كانوا سلماً لي فصعدت عليهم .
ولذلك اضطررت الى دوسهم لإتمام سيري . أما هم فحسبوا أنني أستخدمهم
للعود والاستراحة عندهم .

« مساكين أنتم يا جماعة ! أنا أحمل الناس على ذراعي ليدخلوا القصر
الشاهق ، فأكافأ منهم بمسح أرجلهم بجبتي . يستندون على أصابعي لئلا
يسقطوا ، وإذا دخلوا قعدوا يتنادمون ويسمرون ، وأظل خارجاً ،
أقاسي حرّ الصيف وبرد الشتاء ، وإذا منّوا عليّ فبقليل من الماء ،
ومكنسة عتيقة لينهبوا أقذارهم عن سواعدي وصلعتي^(٢) .

(١) سفق : ردّ ، لطم بعنف . (٢) الصلعة : الرأس المتساقط شعره .

« أنا سلم . أما أنتم فسلام ومطايا يحملون الذين يصعدون على ظهوركم ورؤوسكم وأعناقكم . أقسم لكم بالله أنني ما دخلت القصر ، وكثيراً ما ينسفونني ويهدمونني إذا تعرضوا للخطر ... نحن في الهوى سوا يا اخواني ... » .

وتعجب الخفراء من صمت الجمهور العميق وتحديقهم الى القصر ، فقالوا لهم : لا تنتظروا ، فالزعيم خرج من الباب الخلفي . روحوا في سبيلكم .

وتعجب الجمهور من بلاهة الخفراء فقالوا لهم : ما سمعتم وعظة سلم القصر ؟

فصاح بهم عقيد الخفراء : مجانين أنتم يا بشر ، السلام تتكلم ؟
فاجابوا : نعم ، نعم ! وأبلغ وعظة سمعناها وعظتها .
فضحك العقيد وقال لهم : مساكين أنتم ! من لم يكن لنفسه واعظاً
كلت عنه جميع المواعظ . امضوا بسلام . وانتظروا الدورة الآتية ...
ولكن المجاذيب لا تتعلم ...



ملّ العقّال حياة القرية الصاخبة بعد ما تعودوه من العيش الهنيء
المهدىء . رجعوا الى أنفسهم، فادركوا أن في تقسمهم أحزاباً سلب راحة
وضياع مال. عرفوا انهم آلات مسخرة يديرها فلان وفلان طمعاً بوجاهة
محلية رخيصة . فحاولوا إصلاح الحال ، ولكنهم لم يقدرُوا على توجيه
بنيتهم ، لأن كلا منهم يتعصب لرجل تعصباً أعمى . اذا اجتمعوا في عرس

تشاجروا ، وان ضمهم ماتم حولوه ساحة عراقك ، وإذا جاء عيد ، وما أكثر أعيادهم ، تسيل دماؤهم على حبل الجرس ، وتنوب العصي والشتائم عن تساييح العيد وتهاليله . وهكذا أصبحت تلك المواسم ماتم للآمها . ورثى وجوه^(١) القرى المجاورة لمنقلب جارتهم المضحك المبكي ، فتوافدوا اليها لإصلاح ما أفسدته الحزبية البلهاء ، ورتق ما فتقه الشيطان ولكتهم خابوا . فكل زعيم من هؤلاء الزعانف يدعي البراءة ويتنصل من التبعة ملقياً المسؤولية على كتفي خصمه . وإذا دعاهم المصلحون الى اجتماع طمعاً باستحيائهم إذا وقعت العين على العين ، لاذوا بمحاذير كاذبة ، ومضوا في غوايتهم يشدد بعضهم بعضاً ، أو يقهروا خصومهم ويمحقوهم .

وهكذا صارت القرية الآمنة وكر شغب وعش نكايات : كبس بيوت واستغاثات ، نبايت ودبايس تنطق بتمجيد رؤوس فارغة . فلم يُرَ بعد هذا من يتجول وحيداً . يسرون في الأزقة والدروب ثنى وجماعات ، معتمدين على خناجرهم وسكاكينهم . وقد تطلق مفرقة فيعلو صراخ من يحب الاتهام زوراً ويهتاناً ، وترفع الشكوى حتى أزعجت برقياتهم مركز المتصرفية .

وبلغت أخبار القرية مسامع السيد المغبوط^(٢) فوجه اليها أحد أعضاء ديوانه ، فعاد كما جاء . زعم لصاحب الغبطة أن القلوب قاسية متحجرة لا يسمعون كلام الله ، فالسعي عبث ، والتعب ضائع مع أناس همج^(٣) أو

(١) وجوه : أعيان زعماء القوم . (٢) السيد المغبوط : البطريرك .

(٣) الهمج : الرعاع من الناس ، الحمقى .

كالهمج . فرأى غبطته أنت يرميهم بالمرسل البطريركي الخوري يوسف اللاذقاني لعله يلقي في تلك القلوب الصخرية بذور المحبة . وأمره أن يعمل لهم « رياضة » روحية ، لا تنقضي حتى يتوبوا ويعودوا الى الله . فقد تعود هذا الأب الحسن السيرة أن يتغلب على الشيطان الرجيم ويطرده من كل قرية عشب فيها .

الخوري يوسف طويل جداً ، كأنه القناة المثقفة ، أصفر كالزعفران ، لحيته كالتي رآها ابن الرومي في وجه حبيب قلبه البحري ، أنفه معقوف كمنقاد النسر ، أهوج^(١) ، ناري الطبع يهب كالبنزين اذا امتد^(٢) اليه أقل قبس^(٣) ، يحب حتى الهوس حل^(٤) المشاكل . وكلما تعقدت ازداد فيها رغبة . وثق الناس بفضائله المسيحية حتى غالوا فيها ، فنسبوا اليه المعجزات وخصوصاً بعد غيابه سنوات في المهجر .

وبلغ الضيعة خبر مقدمه ، فاهتزت قلوب العجائز لهذه البشرية ، وحمدن الله الذي سيكحل عيونهن برؤية اللاذقاني قبل الوفاة ، والتاس بركاته ودعاه .

أما البنيات فطرن فرحاً بتشريفه ، وهو من عرف لدى الخاص والعام بالحملة على الشبان الذين يؤجلون الزواج . فإذا دخل قرية واعظاً يعنيه قبل كل شيء أن يعرف « اللفايات » ، أي تردد الشباب على هذه وتلك ، فيستاصلها إما بزواج مقدس يباركه هو قبل تحوله عن القرية ، أو بقطع كل علاقة بين هذي وهذا ، ففي شرعه أن كثرة التردد تفسد

(١) أهوج : سريع الغضب والانفعال . (٢) قبس : شعة من النار .

النيات السليمة وتفطر ما نوى الشباب على عقده .

وإذا برى بعلاقة جنسية غير نقية شهرها^(١) من على المذبح . وإذا نصح المتحابين وما ارتدعا لجأ الى « الحرم » ، وصاحب الغبطة لا يرد لمرسله طلباً . وبالجملة هو عدو العشاق الأكبر . جبار في الكنيسة ، لا يحايي ولا يصانع ، شعاره في أعماله الرسولية الآية القائلة : هوذا الفأس ملقاة على أصول الأشجار ، فكل شجرة لا تثمر ثماراً صالحة تقطع وتلقى في النار . ألقى مقدمه الرعب في قلوب الرعية وخصوصاً الزعماء . خافوا على عنادهم من الاندحار فاثتمروا على الثبات في وجهه .

قال أحدهم وهو كبيرهم : اعقلوا يا جماعة ، أنتم لا تعرفون اللاذقاني ، هذا خوري لا يلعب . توقوه^(٢) ، قلت لكم . فبكلمة واحدة منه يخرب بيوتكم إلى أبد الأبد . البطرك يسمع له ويصدق ، والحكومة تلي البطرك . وقد فهمت انه جاءنا واعظاً ، ويصير قاضياً إذا خالفناه ، ويرمينا بحجره . توقوه يا جماعة .

فتناظر الشبان ثم قالوا : يفرجها الله . أهلاً وسهلاً باللاذقاني . وسألوا ام طنوس ، جدة الوجيه الذي ينتصرون له ، عن اللاذقاني ، لانه نزل في بيتهم يوم كان زوجها وكيل وقف الضيعة . فاخذت تخبر أخباراً عن عجائبه أشبه بحكايات ألف ليلة وليلة . منها انها امتحنته ليلة ، فوضعت له شمعة حدّ مخدته ولم تترك له علبة كبريت . وهذا الخوري يستحيل أن يكلم امرأة ليلاً . فتحسس فلم يجد علبة النار ، فنفخ نفخة

(١) شهر : فضح . (٢) توقوه : داروه .

غضبان لحرمانه صلاة الليل ، فاشتعلت الشمعة وركع يصلي فرضه .
وروت عجوز أخرى : انه كان يخبز « البرشان »^(١) للقداس ، ففرت
دجاجة بعثرت ما أعدّه الخوري قرباناً وحطمته ، فزجرها داعياً عليها :
ليتك في بوز^(٢) « الواي » ! ففرت الدجاجة فتلقاها ابن آوى غنيمة باردة
ببركة اللاذقاني ودعاه الصالح ...

وظلت الضيعة هائجة مائجة منتظرة المرسل ، والمرسل لا يأتي ، الى
أن ظهر يوماً بغته . دخل الكنيسة صباح الأحد ، والناس في القداس ،
فعرفه من الخبر من لم يعرف وجهه ، وساد الهيكل سكون عميق . مشى
في صحن الهيكل بوقار ، فخلت سرورة تمشي . واستقر على « الخورس »^(٣)
خاشعاً مصلياً . وقبل نهاية القداس مشى الى المذبح وقرأ على الناس مرسوم
صاحب الغبطة ، ودعاهم جميعاً الى حضور الوعظ : مرتين للرجال والنساء
معاً ، صباحاً ومساءً ، ومرة للنساء وحدهن عند العصر ، وتسهيلاً لأشغال
الضيعة ، وعد بانتهاء وعظة الصباح مع شروق الشمس ، والابتداء بعظة
المساء بعد الغروب . فالحضور واجب ولا سيما ان القرية خلت من المحبة
المسيحية ، فلا بد من إعادة السلام اليها طوعاً أو جبراً .

فهزّ المعتدون بانفسهم رؤوسهم ، وقال فتى جاهل : نبض المحترم
قوي . فأسكته القاعدون حده .

(١) البرشان : خبز يكرس للقداس . (٢) بوز : قم .

(٣) الخورس : مقام خدمة الدين من البيعة .

ومشى الوعظ بحسب البرنامج الذي تعود وعظ الرياضات^(١)
اتباعه: محبة القريب ، السعادة الأبدية، جهنم، الدينونة ، عواقب الانسان
الأربع . فكانت ترتج الكنيسة وترتعد الفرائص^(٢) ، عندما كان اللاذقاني
ينتفض على المذبح صارخاً : تذكر عواقبك يا انسان .

• كان اللاذقاني يؤخر المواعظ الراحبة إلى آخر الرياضة ، ويقلل
الأنوار في الهيكل عند القائها ، فيمتلئ الشعب رهبة إذ يرى على المذبح
شبحاً رهيباً كأنه مارد ألف ليلة وليلة .

ورأى أن مواعظه لم تؤت الثمر المطلوب فأخذه العجب ، ورمم
بأرهب عظاته . العظات معدة ، وهو يعرفها واحدة واحدة ، فيختار
منها ما يطابق مقتضى الحال . كان إذا ألقى أصغر قنابله ترتفع الآهات
وتعلو الزفرات ويتصاعد النحيب من زوايا الكنيسة ، فما بال الضيعة
قاسية قلوبها ؟ إذا فليلق قذيفة من العيار الثقيل .

والتفت فرأى دموعاً تترقرق على وجنتي المعاز الهرم مخايل ساسين،
ونظره عالق دائماً بوجه الخوري لا يتحول عنه أبداً . أفرح المشهد قلب
اللاذقاني ، وظن أن كلامه وحركاته أثرت بالمعاز فراح يبالغ فيها .

والتفت مشى وثلاث ورباع فرأى الدموع تطرد فوق خد المعاز
فحدثته نفسه باستغلاها ، فحوّل وجهه صوب الموعوظين وصاح : قال

(١) الرياضات : الوعظ الديني .

(٢) الفريضة : اللعنة بين الجنب والكتف ترتعد عند الفرع أي فرع فزعاً
شديداً .

السيد في انجيله الطاهر حين وعظ على الجبل : طوبى للنقية قلوبهم فإنهم
يعاينون الله . عجيب غريب . لا يؤثر كلامي إلا في المعاز . أما الوجوه
والأعيان فقلوبهم متصلبة . نعم ، نعم ، ان حناجرهم قبور مفتحة ، وسم
الافاعي تحت شفاههم ، كما قال النبي داود .

وسكت هنيهة ، ثم تتحنح وقال : ان دموع العم ميخائيل ترد غضبه
الله عنكم أيها الأشرار . فدمعة توبة صادقة تحمد نار جهنم ، ولكن يا ميخائيل ،
بالله قل لي ما يبكيك ؟ أنا متأكد انك تقي القلب وستعين الله .
فتنهد ميخائيل وأجاب بعد ما ألح عليه الخوري مرات : يا حبيب قلبي
انت ، يا معلمي خوري يوسف ! عندما تلوح بيدك وتشرب (تشرب)
أتذكر فحلنا " " برؤوس " الذي أكله الذئب عام أول .

(١) الفعل : ذكر المعزى .



في ليلة شباطية كأنها العروس في ثوب الاكليل، قالت ام طنوس
لرجلها على إيقاع موسيقى أسنانها : أين نحن من المرفع^(١) ؟ الكباش رزح.

(١) المرفع : اسبوع يسبق للصوم .

إليته ، يا باريك الله ، صارت أكبر من الجاروش^(١) .
 - اعلفيه . كلما زاد الخير نفع . لا تقولي إلا جال المرفع . بعد جمعة
 ونصف يا أم طنوس .
 فرقص الأولاد تحت اللحاف وسنّوا أضراسهم لمركة المرفع .
 اشتاقوا إلى اللحم ، فقد ودّعوه في تشرين . ذبحوا كبشهم الأبرش يوم
 عيد مار جرجس ، فأكلوا ما أكلوا ، وملأوا البراني^(٢) شعماً ولحماً .
 تلك وقود أيام كانون ولياليه متى خرّت المزاريب^(٣) . اللحم يدفع
 العظام ، أما النار فتدفع الشيا . هكذا خبرهم السلف الصالح .
 هذا بعض سمّر^(٤) الليل . أما حديث النهار على أبواب المرفع فكان :
 كم رطلا تجرد^(٥) مرفعية مخول ؟ ومعمل ثني^(٦) يوسف ؟ وجدي حنا
 لحمه رخص مثل الندي . وكبش ايليا لحمه عاس . وقرقور حنينة يا كل
 ولا يجتر ، مسموم لا يسمن . وخروف أم طنوس يفوت العشرين رطلا .
 وقبل المرفع بأيام يعاير بعضهم بعضاً ويتخاطرون ، والموعد الأحد
 في الثاني والعشرين من شباط . وإذ ذاك تُعرف القرعاء من أم قرون^(٧) .

-
- (١) الجاروش قطعتين حجريّتين يطحن البرغل ما بينهما .
 (٢) البرنية : اثناء من خزف تستعمل لحفظ اللحم .
 (٣) خرّت المزاريب : خر : سال ، والمزارب مصرف مياه السطح ، وهذا
 يعني ابتداء الشتاء . (٤) سمّر : حديث تسلية .
 (٥) جرّد : فصل اللحم عن العظم .
 (٦) الثني : ما بلغ من العمر العامين .
 (٧) تعرف القرعاء من أم قرون : مثل ، أي تنجلي الأمور .

وجاء أحد المرفع فتحلّقوا في ساحة الكنيسة يتنافسون بمرفعاتهم .
أحاديث حامية أشبه بالنقار واللغظ منها بالذاكرة . الخوري يروح
ويجيء ، تاليا صلاة الصبح الطويلة في كتاب الفرض ، يكاد ينشق صدره
من أحاديثهم . أما جاؤوا لسمعوا كلام الله ، ويذكروا «موتاهم» بصلواتهم
هذه جمعة الموتى ، فما بال هؤلاء المجانين لا يلهجون إلا باللحم والخمر ؟
نسوا تعاليم الكنيسة التي تأمرهم بالصلاة في هذه الجمعة . صح فينا المثل :
عند البطون ضاعت العقول .

وأطبق كتابه ليقول لهم هذه الكلمة ، ولكنه خشي أن يجاوبه إفرام
الشقي فيقع الشر بينه وبين أولاده ، فأرجا ذلك ليقوله في الكنيسة .
ودخلوا الهيكل وكلهم يلهجون بالمرفع وأفراحه المنتظرة . وأقام
الخوري صلاة الموتى الجهورية يعاونه الشماسة ^(١) . وفي ختامها سأل
الشعب أن يصلي لأجل راحة أنفس الموتى الراقدين بالرب ، وشرع يتلو
قداسه .

لم يكن الاصفاء كالعادة ، فتمرمر الخوري على المذبح . لم تقع عينه ،
وهو يبخر الشعب ، إلا على رجل واحد متخضع يصلي بحرارة . ثارة
يسجد مقبلا الأرض ، وطورا يرفع نظره الى صورة قدّيس الضيعة ،
ويقرع صدره بانسحاق قلب . كان الخوري يتعزّي إذ يرى هذا الفقير
يصلي بحرارة فيقول في نفسه : أنا أعظم من ربنا ؟ أما قال للوط : لا
أهلك المدينة من أجل العشرة ؟ غنطوس وعيلته فوق العشرة .

(١) الشماس : دون القسيس ومعناها الخادم (سريانية) .

وهجمت عليه بفتة فكرة ثانية ، فقال : غنطوس يصلح بحرارة لأن
ليس عنده مرفعية . الآن فهمت كلام الإنجيل : طوبى للمساكين، إن لهم
ملكوت السماوات .

وشعر بتشتت أفكاره فجمعها ومضى في قدّاسه . وبعد أن تلا
الإنجيل قام في رعيته وأعطى ، فقال :
« يا اخوتي المباركين !

« جعلت الكنيسة المقدسة هذه الجمعة تذكّاراً للموتى . وما معنى
تذكّار الموتى وكيف نذكرهم؟ بالبكاء والنحيب! لا . هذا ممنوع، والدليل
قول بولس الرسول : ان الذين يموتون بالرب لا ينبغي أن تحزنوا عليهم .
إذا ، فبمّ تتذكرهم يا اخوتي؟ تتذكرهم بصلواتنا ، تتذكرهم بتضرعاتنا،
بصدقاتنا واحساننا الى المحتاجين منا . »

فتشهد هنا غنطوس عن غير قصد وبلا شعور ، وجار بالصلاة هاتفاً:
اعطنا خبزنا كفاف يومنا .

ومضى الخوري يقول : « ما وجدتم فاهين هكذا . ما سمعت في
الجمعة الماضية الاحديث مرفعات : هذه الذبيحة تعمل كذا ، وهاتيك
تعمل أكثر من هذي ، ونبئذ فلان أطيب من نبئذ فلان ، وخاوية فلان
باردة، وخاوية فلان مثل النار... حديث لحم وخمر كان ضيعتنا المشهورة
بالتقوى والعبادة استحالت خسارة .

« لا تكونوا مثل الذين قال عنهم بولس الرسول : آلهتهم بطونهم .
البطن مخزن التجارب فلا تحشوه باللحم والخمر .

« تذكروا موتاكم ، يا اخوتي ، في هذه الجمعة . كانت جمعة الاموات
فصارت جمعة الخوات ^(١) . جمعة الاعراس ، والسكر . جمعة الرقص
والدبك . والشر والتقاتل .

« منكم ناس اذا قلنا لهم لا تشربوا الخمر ، قالوا مار بولس جوز لنا
ذلك لما قال : قليل من الخمر يفرح قلب الانسان . وخذ قليلا من الخمر
لإصلاح معدتك . صار المجانين لاهوتين . مار بولس قال : قليل من الخمر ،
ولكن أنت ، يا ابني ، تشرب خابية ولا تروى . مار بولس قال : خذ
قليلا من الخمر لإصلاح معدتك . أما معدنا نحن اذا أصلحناها فكل طحين
الشام لا يكفيننا .

« وأنكى شيء هو قولكم خميس السكارى . متى كان للسكارى خميس؟
« كلوا ، يا اخوتي ، وسرّوا ، وافرحوا ، ولكن لا تنسوا الاحسان
والصدقة . تذكروا وأنتم تأكلون ، من ليس عنده أكل .

« اشركوه في ذبايحكم . اشركوه بالخيرات التي أنعم الله بها عليكم .
وكان غنطوس لا ينفك يصلي بحرارة كأنه لا يفهم ما يقال ولا يعنيه
منه شيء . وكانت عين الخوري عليه دائما ، فقال :

« فكروا بالقرب وأنتم ترقصون وتدبكون ، وتغنون وتزمرن .
حافظوا على عادات أجدادكم الطيبة في هذا الاسبوع . لا تعملوا كما يعمل
غيرنا من جهال القرى . إذا لم يكن في الضيعة عرس عملوا عرساً كاذباً .

(١) الخوات : الجنون .

فتغامز بعض الشباب بالأيدي والعيون كأنهم اهتدوا الى فرح جديد
لم يخطر ببالهم .

وقال الخوري : يا اخوتي ، من عادات جدودنا أن يزوروا الضيعة
من أولها إلى آخرها. وبهذه الزيارة يغسلون القلوب، ويتصافى المتخاصمون
بهذه الطريقة . أنا مستعد أن أمشي معكم يوم « قطع الزفر »^(١) .
فاجابه أحد المتورعين^(٢) : اقبلها رأساً براس . اشكر ربك ، يا محترم ،
إذا بقيت الحال على ما هي .

وختم الخوري عظته بالكلمة الماثورة : كما ترفعون بخير تصومون
وتعيدون بخير .

واستحالت الضيعة ، كل جمعة المرفع ، مطبخاً : دعوات وولائم تقام
هنا وهناك ، أهازيج وأغانٍ ، ميجانا وعتابا ومعنى ، وأبو الزلف
وموليّا . والقرّادي ، شيخ الزجل في هذا الموسم ، يقولونه مدحاً وجفاء .
رقص وزمر ودبك . دقّ كبة وقلي أقراص . وقتار^(٣) اللحم المشوي
ينبعث من كل بيت ... جنّت الضيعة على مرأى خوريها وسمعه ، وهو
يسأل الله أن يمضي الاسبوع بسلام .

وخاب أمل الشباب بالعرس المنشود ، فعملوا عرساً كاذباً أنفقوا
عليه بسخاء . فأدرك الخوري أنها غلطته إذ ذكرهم لما وعظهم بما كانوا
ناسين . ولكن الخوري ظلّ راضياً لأن جو الوثام لم يتعكر .

(١) قطع الزفر : الانقطاع عن المأكولات اللاحمة .

(٢) الورع : التقوى . (٣) قنار : رائحة .

ومشى الخوري وخوريته ليلة السبت الى بيت غنطوس يحملان
أقراص الكبة وطنجرة هريسة^(١) . وما بلغا الباب حتى سمع الخوري
غنطوس يقول لعيلته : صلوا مرتين « أبانا » ومرتين « السلام » لأجل
عمكم المنقطعة أخباره في أميركا .

وعند انتهاء صلاة تلك العيلة البائسة دخل الخوري وزوجته بالطعام ،
فكان عشاء سري حقاً .

وصباح اثنين الصوم لم يحضر القداس وحفلة « الرماد »^(٢) غير طنوس
وعيلته ، وبضعة عجائز وشيوخ . فتذمر الخوري ، ولكنه « قبلها راساً
براس » كما قال له أحدهم .

وقعد المصلون تحت سنداينة الكنيسة يتذكرون حوادث المرفع في
أثناء انتظارهم ساعي البريد . ثم انضم اليهم كثيرون من ذوي المهاجرين ،
وكل يترقب النجدة من وراء البحر . فأنكشف ذاك النهار الميمون عن
أعظم حدث في تاريخ القرية المتواضعة : رسالة من قنصل أميركا يسأل فيها
عن غنطوس الياس المحفوظ له في صندوق حكومة الولايات المتحدة مبلغ
مئة وسبعين ألف دولار تركة له من أخيه .

ففرز الخوري أصابعه في لحيته الأشبة^(٣) وصاح : هذا مرفع يا غنطوس !
فاهتر غنطوس لهذه البشارة ومات موقتاً .

(١) هريسة : طعام يعمل من الحب المدقوق واللحم .

(٢) حفلة الرماد : احتفال كنسي ببدء الصوم الكبير .

(٣) الأشبة : الكثة ، المتشابكة .



لحيته عامرة شمطاء ^(١) ، فائرة ^(٢) على وجنتيه كالعجين التاخ ^(٣) على
 حفافي المعجن . تكاثرت فانشقت حزبين ، وعلى رأس كل حزب شارب
 حائم على المورد : كلاهما متدليان كالصفصاف ، يوقظهما « المحترم » ^(٤) كلما
 جدّ في الكلام ، فيرفعان رأسيهما هنيئة ، ثم يعودان الى التهويم ^(٥) شيئاً
 فشيئاً . على رأسه « قاووق » ^(٦) ناصل ^(٧) البصاغ ، تجهل ، أول وهلة ،
 أين تنتهي حدوده في صحراء جبهته البراقة . قاووق كفلكة ^(٨) المغزل
 فوق قامة طالت واستدقت فضاع « أبونا » في جيبته .

-
- (١) شمطاء : خالطها بياض . (٢) فار : ارتفع وتدلى .
 (٣) التاخ : ظهرت حموضته فارتحى . (٤) المحترم : لقب لرجال الدين .
 (٥) هوم : هز رأسه من التعاس وهنا تدلى .
 (٦) قاووق : غطاء الرأس للكاهن الماروني .
 (٧) نصل : تغير لونه وبهت . (٨) فلكة : هنة في أعلاه مستديرة .

يشدّ خصره شداً عنيفاً بزئار كان في فوعة^(١) صباه قرمزي اللون،
فتخال خصره الزنبوري مفروضاً فرضاً . أما عينا الخوري فقادحتان
قلما ثبت لهما أحد من أبناء رعيته . ومن يدم النظر اليه يغضّ طرفه ،
غصباً عنه ، ويهتز كمن مسته الكهرباء .

ومن هذا « المركّب » النحيل ينبعث صوت جهوري عريض يوبّخ
ويؤنب بلا مبالاة ولا خوف . صوت كاهن مؤمن بسلطانه الرسولي فلا
يألى ولا يحايي . يعلم ويعمل ناشداً الكمال المسيحي لنفسه ولرعيته .
انشأ « أخوية »^(٢) استمد روح نظامها من « أعمال الرسل » ، محاولاً
أحياء الاشتراكية المسيحية الأولى بين أبناء رعيته ، فحقق كثيراً مما ابتغى
واشتهى . وعمّت أخويته القرية ، فكان له في كل عيد ثورة على الجيوب
المنيعة ، يتوقع خيرها الجزيل كل رقيق الحال .

وجاء موعد صلاة الأخوية - قرب ظهر الأحد - فدقّ الخوري
الجرس أول مرة ، وطفق يصلي متمشياً تحت تلك الشميسة النساعة ،
شميسة مواتية يندر وجودها في كانون ، فاستبشر الخوري وعدّها نعمة .
وعند الدقّة الثالثة أطبق « شحيمة »^(٣) ودخل الكنيسة . ثم عاد
وهو يقلب صفحات كتاب كرشوني^(٤) لماعة مبقّعة تزلق عنها الأصبع
لكثرة ما تداولتها الأيدي ونقطت بالشمع . أكل الدهر حبر ذلك الكتاب

(١) فوعة الشباب : أوله . (٢) أخوية : جمعية دينية .

(٣) الشحيمة : كتاب صلوات فرض الخوري الماروني .

(٤) الكرشوني : يطلق على الكلام العربي المكتوب بالحرف السرياني .

الخطّي كما قرّض الخبر الكثير الزاج بعض صفحاته فبدت كأنها مخرّمة .
ولما وقع الخوري على الفصل الموافق لخطّة في رأسه طوى زاوية الورقة
وأطبق الكتاب ، ومشى الى الجرت الموضوع حدّ زاوية الكنيسة ، ثم
استوى فيه فصار كأنه فوق منبر .

واستدارت حلقة أبناء الأخوية في تلك الشميسة ، هؤلاء على حجارة ،
واولئك على جذع السنديانة الدهرية ، وبعض الصغار في جوف الجذع
يتوششون ، فزارهم الخوري فخرسوا .

أما النساء فقعدن ناحية ، على صفّة في ظل جدار الكنيسة المنخورة
حجارتها العتيقة ، تتوسطهن الخورية والشيخة .

شخصت أبصارهم جميعاً الى الخوري منتظرين ما يقرأ ، ثم ما يشرح
ويفسر ويعلق من حواشي . كانت تعجبهم تعليقاته على هامش الموضوع
أكثر من الكلام المكتوب المعاد . فالخوري ، على جفاء شكله ، خفيف
الروح ، مرح ، غير زمّيت^(١) ، طيّب القلب ، اذا راودته النكتة في
أقدس الساعات لا يصدّها .

أخذ يتجمع في ذلك الجرن ويتكوّم حتى اذا ما تمكن فيه شقّ كتابه ،
وهو يتمم : أول من أمس كان عيد الميلاد ، وبعد أيام يجيء عيد الحتّانة
أيام راكضة . ثم التفت الى القندلفت^(٢) وقال : دقّ دقة البداية يا سمعان .
فقرع سمعان الجرس خمس ضربات وجلس . فتنحّج الخوري وسأل

(١) زمّيت : لا يتساهل بأمور الدين .

(٢) القندلفت : عريبها الوافه ، وهو خادم الكنيسة .

دون أن يلتفت : كَيْلُ الجمهور ؟

فنظر سمعان الى الجدول وقال : باق فلان وفلانة .

فسعل الخوري وقال مغتاضاً : فلانة معنورة أم طفل . ولكن
الشيخ بطرس ما هو عذره ؟

فقال أحدهم : رأس السنة ، حساب كميالات وتحصيلات .

فقال الخوري : المثل يقول : ساعة لك وساعة لربك . واتبعها بكلمة
وهزة رأس أعجبت أبناء الأخوية فضحكوا . وشرع يقرأ فصلاً موضوعه :
أحب قريبك كنفسك .

ووافقت نهاية الفصل قدوم جناب شيخ الضيعة ، فاطبق الخوري
كتابه والتفت اليه قائلاً : خلصت من سماع كلام آبائنا القديسين ، فسماع
يا شيخ ، كلام هذا الخاطي . ربنا وصاننا ، يا اخوتي ، بمحبة قريبنا
كنفسنا . سمعتم قصص الذين عملوا الخير وكيف كان جزاؤهم فوق .
وسمعتم كذلك حكايات القادرين على الاحسان وما فكّوا ريق فقير ،
وكيف استقبلتهم اخوتهم الشياطين تحت . المكاي طالعة نازلة ، خذ
وهات . على أيديهم ، على أرجلهم على رقابهم ، على صدورهم ، على بطونهم
وظهورهم . ما تركوا من جلودهم مغرز إبرة بلا كي .

وأخيراً ذوّبوا الفضة التي كنزها الغني الشحيح والذهب الذي
خزنه ، وكل قرش أخذه وأعطاه هناك القليل الخير ، وصبّوها كلها
دفعة واحدة في بطنه . ولوسيفورس^(١) قاعد قبالة يتلذذ بالمنظر الشهوي .

(١) لوسيفورس : الملاك الساقط رئيس الشياطين .

هذا الذي أصاب من حبّ ماله . وترك قريبه يشقى لأنه جوعان ،
عريان ، بلا مأوى . الشيطان ذكي منحوس – وجرّ واو منحوس جرّاً
طويلاً – يخترع القصص الملائم والمؤلم المنكي .

وفيا كان الخوري يعظ بجملة صالحة مكارم من خلف الكنيسة : معنا
بطاطا . بطاطا ممتازة . بطاطة بقعكفراه .

فامتعض الخوري وعدّل شاريه وصاح : تعال يا ييّا . اقعد اسمع
كلام الله ونفق حولتك .

ثم التفت صوب الخورية – زوجته – وقال : عشرة أرطال تكفيننا
يا خورية ؟ فابتدت قوله بجنوة رأس ، وابتسمت مع الضاحكين .

وقرفص "المكاري بين الموعوظين . ومضى الخوري في الارشاد :
يا أولادي . لا ، يا أولاد مريم ، ما معنى كلمة أخويّة ؟
فاجاب أكثر من واحد : معناتها اخوة .

فقال الخوري : إذا كنتم اخوة فاقسموا قسمة حق ، كما يقول المثل .
لا ، يا اخوتي ، أنا لا أطلب قسمة حق ، بل ربع ربع الحق . يعني :
أعطوني من الجمل أذنه . نعم يا أحبائي ، عندنا عمل خيري كله أجر ،
وصيت حسن . الأجر مؤجل ، والشرف معجل . فتنبهوا وانتظروا .
ومضى الخوري في حديثه يمثّ ويمثّ ، فقال واحد : تفضل ،
يا معلمي ، احك .

فايقظ الخوري شاريه النائمين ، وقال : أخوكم منصور حنا بلا

(١) قرفص : جلس على ركبتيه .

بيت . عارٌ على ضيعة مثل ضيعتنا أنت ينهدّ فيها بيت ، منذ سنتين ،
ولا تعمّره .

فتعالت الأصوات : قائمة . - لائحة - امسكوا قائمة .
فقال الخوري : شيخ بطرس ، تفضّل .
فتلكأ الشيخ . فقال القندلفت : هذي قائمة ، قولوا .
فزجره الخوري بنظرة حادة : وإذ لم يلحظ صاح به : اعطِ الشيخ
الورقة .

فقال أحدهم : قيّدوا ، شغل عشرة أيام .
وقال ثان : خمسة .
وقال ثالث : سبعة .
وقال مكار : شغل ثلاثة أيام على الدابة . وقال آخر : ريال مجيدي .
وقال غيره : نصف مجيدي .
وكثر المتبرعون بأرباع المجيديات والبشالك والزهراويات (١) .
ثم طغى التبرع فرقصت لحية الخوري الدبكة .
وانتظر الخوري دفعة الشيخ ، ولكن الشيخ ظل هادئ الأعصاب ،
فقال الخوري : والشيخ بطرس ؟
فأما جناب الشيخ وقال : ار ... ار ... ريالين .
فصرخ الخوري : والو ! ابن عمك منصور يدور على أبواب الناس ؟
افتح كيسك ، افتحه . الله يفتح بوجهك باب السماء ... الياس دفع نصف

(١) المجيديات والبشالك والزهراويات : من العملة التركية .

مجيدى وما عنده عشا ليلة، ومتى مشته العضة بالرفيف ويدفع بشلكين،
وأنت الشيخ بطرس، يدخل لك كل طلعة شمس مبالغ... تدفع ريالين؟
هني ما أنزلها الله بكتاب.

ولم ينفع الكلام، وحرن الشيخ. ظلّ عند قوله لا يتحزح. نتش
الخوري القائمة وعدّها بنظرة مستعجلة وهزّ برأسه وقال: تأخرنا،
قوموا نصل.

وبينما هم خارجون من الكنيسة إذا بعجوز تدفع اليه بيد مرتعشة
صرّة تقود قائلة: احسبها يا معلمي. فحسبها الخوري، فأربت على ثلاثة
ريالات، فألقاها في الكيس وبارك ام جرجس.

وكانت السهرة تلك الليلة عند المحترم. وفيما هم يسمرون فرحانين
بما عملوا، جاء أحدهم وكان قد غاب عن الأخوية بإذن، فقال: عرفت
أنكم تبرعتم اليوم لأخينا منصور لتعمّروا بيته. لا تستاجروا معلماً. أنا
أبني البيت من أول حجر إلى آخر حجر.

فتناظر الحاضرون متهللين، وقبّله الخوري في جبهته قبله رنانة،
والتفت نحو الجمهور متحدّثاً إليهم بكل جوارحه ما عدا لسانه.

وانتصف الليل وما شعروا. وفيما هم يتسلون بأكل الزبيب والتين
اليابس والجوز واللوز إذا بصراخ حادّ: دخيلك، يا معلمي، عجل
يا خوري يوسف. بطرس حصل له عارض.

ألقت زوجة الشيخ بطرس كلمتها من الباب وعادت أدراجها وهي

تطبّطب^(١) : هذا كله من تغضّب الخوري... الله يقصف عمر البخيل...
ساعة عمر مثل الأوادم تسوى الدنيا وما فيها. رجل دينه ومعبوده المال.
وسار الخوري مشمراً ، فسبقها الى البيت . رأى الشيخ بطرس
قاعداً في فراشه يدعم رأسه بيديه التنتين . فتقدم منه جاساً نبضه ،
وقال : بسيطة يا شيخ !

فاجاب الشيخ : قصة حلم بشع . هذي وحلة وعظة النهار...
فضحك الخوري وقال : مليح : فإذا زرت جهنم ورجعت . الحمد لله
على السلامة .

فتضاحك الشيخ وأخرج من عبّه مفتاحاً أصفر معلقاً بتكة
المصر^(٢) ، وزحف نحو الصندوق .

كان في نيته أن يدفع خمس ذهبات ، فلما رأى أنه لا يزال حقاً على الأرض
جعلها ثلاثاً . ولما واجه صندوقه اكتمل وعيه فاسقط المبلغ الى اثنتين .
وأدار المفتاح في القفل فطنّ ناقوسه تلك الطنّة المحبوبة . فطرب
الشيخ ولم تطاوعه يده على تسريح أكثر من واحدة من ذلك الجيش
العرمرم . وبعد تردد طويل سقطت الليرة الذهبية في كفّ الخوري .
فحدّج^(٣) الشيخ بعينيه السوداوين ، ووقف هنيهة وقفة المتردد .
وأخيراً أدخل يده في جيبه وهو يقول لمن معه : الشعرة من ظهر الخنزير
بركة . امشوا ...

(١) طبّطب : تكلم بكلام غير مفهوم .

(٢) تكة : رباط ، والمصرّ كيس النقود . (٣) حدّج : حدق .



ماتم قروي

ولد شلهوب وعاش في قرية تصبّحها الشمس وتمسيها، فانتفع بالنور السابق واللاحق . وكثيراً ما كان يدقّق في حساب عمره ، فيجد أنه عاش عمرين بالنسبة الى جاره متى الذي لا يفلح إلا إذا حمي النهار ، ويفكّ فدانه " قرب العصر . كان يتهلّل لهذه النتيجة فيشيع بشرّ صارم في قسّات وجهه المتنافرة ، ويرضى عن نفسه كل الرضا ، فيثني عليها بصوت عالٍ : مثلك تكون الرجال يا شلهوب !

النوم عند شلهوب ابن عم الموت ، ولهذا قلّله ليطوّل عمره ، فكان

(١) فدانه : ثيران الفلاحة .

يقضي السهرة إما بجوك القصب سلالاً وقوصرات ، أو بخصف^(١) النعال ،
أو بقتل حبال من الجلد قتل شزر^(٢) فتصير أطول عمراً .
ما مرّ قط بمسار أو قطعة حديد أكلها الصدا ، أو طربوش عتيق ،
إلا التقطها ليقايض^(٣) بما لا ينتفع به مباشرة ، فيكون للأولاد قضامي
وحلاوة بلاش . أما ما أثره التي يتباهى بها ويعتدّ فمنها أنه تاهل في
السادسة عشرة ، وأصاب أرضاً مغلالاً ، فكان له اثنا عشر ولداً وأربع
بنات . كان يقلّب فيهم رأسه الصغير المدور وعينيه اللوزيتين ، ثم يزّم
بأنف كمنقار البطة ويقول : الله يدبر . ومتى تجمعوا حواليه داعب
هذا ، وزجر تلك ، ويده لا تنفك عن عمله .

وشاخ شلهوب فقسم ما يملك بين بنيه ، وراح ينتقل في تلك الأبراج
الاثني عشر ، وهو لا يملك من دنياه التي أنماها غير أربعين ذهباً آخرها
لتكون تكاليف رحلته الى الآخرة .

أما زوجته فقد استراحت وأراحت . ما كانت ترضى . لم تطب لها
الحياة مع شلهوب لبخله وتقتيره^(٤) . وكان في قلب شلهوب منها حسرة ،
فصارت بموتها حسرتين . عذبت قلبه بتدلّ لها قبل الزواج ، وكلفته جهازاً
ينسى حليب امه ولا ينساه ، كما كان يقول . وإذا حسب ما بذّر في حياته
جعل ثمن فسطان العرس الخملي ونفقة العرس في رأس القائمة .

(١) خصف النعل : أطبق عليها مثلها وخرزها .

(٢) قتل شزر : قتل شديداً . (٣) قايض : بادل .

(٤) قنّر على عياله : ضيق في النفقة .

كان يحسب هذا المبلغ وفائده المركبة طوال خمسة وخمسين عاماً ،
فيصفق كفاً على كف تحسراً على ثروة ضخمة أفلتت من يده ، ويقول
بصوت عال : راحت ! فيخال بنوه أنه متحسر على المرحومة والدتهم ،
فتغرغر عيونهم بالدمع . ثم يتوغل شلهوب في دنيا ذكرياته فيتخيل مآتمها
الحافل وما كلفه من ذهبات فتزعزع أركانه . ثلاثة آلاف قرش ! ليتني
ما سمعت من الناس وعملت بعقلي . كنت وفرت نصف المبلغ على الأقل .
وتلمس « كمره »^(١) الذي كان لا يحله لا ليلاً ولا نهاراً فاطمان . لم
يكن يأسف على فراق دنياه كأسفه على هذه الذهبات التي سيتفرق شملها
يوم دفنه ، والفراق مرّ ، فيقول : قلة عقل ، خوري واحد كثير عليّ .
مسكين ابني داود ! ركبته العيلة . أمس كانت حرمة طائفة بالحارة
تفتش عن اقة خبز . سمعتها تقول لأم جرجس : جمعة عمي عندنا ، وما
في معجننا رغيف . فانسلخ قلبي .

وكبرت مروءة شلهوب عند هذه الذكرى ، فمدّ يده الى عبّه ليعطي
كنته مجيداً ثمن عجنة ، ولكنه استظهر^(٢) على التجربة بارادته الحديدية ،
فلمّ تلك اليد وبزق على الشيطان . ان المبذرين اخوان الشياطين .
وعجت البقرة فصاح بكنته^(٣) : عشّي البقرة يا عمي ، هذي حيوان
لا يحكي ولا يبكي .

ثم عاد الى تفكيره . أدرك أنه يضيع الوقت بالتفكير ، فعذر نفسه

(١) الكمر : زئار أجوف يوضع فيه النقد .

(٢) استظهر : علا ، غلب . (٣) الكنة : زوجة الابن .

لأن العتمة تعوقه. ولو أنه ضوءاً السراج كانت الخسارة أجسم ، فما عمله
لا يوازي ثمن الزيت ، فهو إذاً قد وفر .
ونام تلك الليلة بعد صراع هواجس^(١) عنيف ، فرأى أحلاماً غريبة :
موتى يخالطهم كأنه وإياهم في شبابه . ورأى امرأته ، أيضاً ، جاءت
تطالبه بأشياء أشياء . وحسر^(٢) اللحاف عن رأسه فرأى النور ينسل من
شقوق الباب ، فنفض من فوره ، وخرج يتمشى على المصطبة مزيجاً كابوس
أحلام الليل عن صدره ، ولكنه غرق في أحلام اليقظة فقال : يظهر أن
الله راضٍ عني . انتظرت عزرائيل مرات وما جاء . ثم استضحك وقال :
الله يبعده .

وطفق يتأمل الضيعة واطارها الجميل ، فرأى منظراً عجباً . ولكنه
لم يحس به كهذه المرة . كل ما في الحقل جميل ثائر : جنت الزهور ،
وتطاولت الأعشاب ، واشترأبت شفاه البراعم ، والسنونو تهبط وترتفع
كأنها ترقص في الجو ، فأعجبه المنظر . وتذكر الموت فقال عفوا : الله يبعده .
ومرّ واحد من لداته فعزم عليه فعرج ، وقعدا يتذكران أيام
الشباب ويتحدثان عن الدنيا الزائلة . وذكر له شلهوب أنه أبصر في
منامه زوجته . وتذاكرا في تأويل ذلك الحلم ، فأجمعا الرأي على أن زوجة
شلهوب محتاجة الى معونة روحية . فنوى شلهوب على إعطاء خوري
الضيعة حسنة قداس .

(١) هواجس : أصوات خفية تسمعها ولا تفهمها .

(٢) حسر : كشف .

وأيقظ ابنه الصغير ، فأخرج المعزى من المراح^(١) . وبعد أن
استعرض شلهوب ذلك الجيش ، شيع^(٢) الشيخ ، وهو كراز^(٣) عزيز
على قلبه - بنظرات أبوية وابتسامات مملوءة إعجاباً ، ثم أخذ سبخته
وتمشى يصلي فرضه .

وفي مساء هذا اليوم الجميل نفضت شلهوب البرداء^(٤) فاصطكت
أسنانه . قاوم ما استطاع ، ولكنه لم يثبت فنام .

وطالت نومته وكثر عوآده ، فهو على حرصه وتهالكه على الدنيا كان
يغالي في عيادة المرضى ابتغاء للأجر . كانت مروته عظيمة ، جواد سخى
بكل ما لا يمس كيسه ، ولكل شيء عنده حساب مقوم .

وساءت حال شلهوب فاستعدت الضيعة ليومه . وليس الماتم في القرية
بالأمر الهين . فعلى كل بيت واجبات كإطعام المؤاجرين ، وتقديم المرطبات ،
والسيكرات ، والقهوة حتى الكحول والنقل والأركيلة .

وبان الموت في شلهوب فقعد الخوري حدّ رأسه لا يفارقه خوفاً عليه
من عدو البشر . والناس شطران ، شطر يروح وشرط يجيء . والغادي
يسأل الرائح : أين صار ؟ أما المحترم فكان يجيب الجميع بضجر : الأمر
بيد الله ... ما بقي إلا القليل .

وقف دولاب العمل في القرية ، فجميعهم ينتظرون الساعة ، وعقرب
الساعة بطيء جداً .

(١) مراح : زريبة الماشية . (٢) الكراز : تيس يسير في طليعة القطيع .

(٣) البرداء : الحمى مع البرد .

وكانت الحشرة تتقطع فيخالون أنه مات ، حتى إذا امتدت يدُ الى الكر ردتْها يد شلهوب وعاد يغرغر^(١) .

وبلغ أنسباء شلهوب في القرى النائية أنه نوى الرحيل ، فتهافتوا على القرية فملاوها . واستحالت البيوت مطابخ ، فاستهلك المواد ما هبأوه ليوم الدفن . فهرع صاحب الدكان الى البندر يتحوّج . وطال نزاع شلهوب فراح الناس يعلّونه على عاداتهم ، فقال واحد : في رقبتك ذخيرة عود الصليب ، فأجابه الآخر : من أين له الذخيرة ؟ فتشه الخوري فما وجد غير ثوب السيدة .

فقال آخر : اذا واقد نير .

وبينا كان عوَّاده^(٢) الغرباء يتغدون في أحد البيوت قرع الجرس حزناً ، فتنفس الجميع الصعداء وهرولوا الى بيت الفقيد . أما سمعات ، مجهز موتى القرية ، فكان أرشق من النسيم . حلق ذقن الفقيد ، ثم انتزع « الكر » وشرع يلبس شلهوب بذلته الدهرية : شروال جوخ ، وصدريه نخل ، وزنار حرير مخطط ، وكبَّران . وبعدما أصلح هندامه أنامه نوماً مريحاً ، فبرز في أحسن سمت ، فاكتسى وجهه سياء الطوباويين^(٣) .

وانعقد على الأثر مؤتمر المناعي^(٤) ، فشق كبير الضيعة الحديث قائلاً : كلنا غلة الموت ، شقي المرحوم وتعب ، ولكنه جمع . مات ، والحمد لله ،

(١) غرغر : صات صوتاً معه بحج عند الموت . (٢) عوَّاد : زوار .

(٣) الطوباويون : القديسون المنعمون بالسعادة الأبدية .

(٤) المناعي : النعوة ، الخبر بالوفاة .

مجبور الخاطر بالمال والرجال .
وبعد هذه الخطبة البليغة التفت الى بطرس ابن شلهوب البكر يساله
عن كبر الماتم وصغره .
فاجابه : الثوب الذي تفصله نحن نلبسه .
فصاحت أخت الفقيد وهي عجوز درداء^(١) : أملاكه نصف الضيعة
وتقول : كبير وصغير .
فصاحت ابنته : لا تستخفوا فينا . انعوا البلادين^(٢) .
وانقطع الكلام ، فاستل الشيخ سبحته من جيبه وطفق يعدُّ القرى
التي اعتادوا أن ينعوا فيها الوجهاء . فزاد عددها على الخمسين وتجاوز عدد
كهنتها المئة .
ومشت الأقلام على الأوراق ، فتقدم كهل من الشيخ وقال بصوت
منخفض : انطون حرد^(٣) لأنكم ما نعيم قرية زوجته .
فقال الشيخ : سيدنا البابا فقط معصوم من الغلط . انطون ، لا تواخذنا
يا عمي .
وتبادلا ابتسامة رضا زاد بها عدد الكهنة خمسة .
وقال مترعم : ما افكرتم بسيدنا .
فصاح الجميع : محفل كبير بلا مطران ؟
فقال الخوري : المال لا يكفي الخوارنة . ما مع المرحوم غير أربعين ليرة .

(١) درداء : التي تساقطت أسنانها .

(٢) انعوا البلادين : أي بلاد جبيل والبترون . (٣) حرد : غضب .

فاصفرَّت وجوه أبناء شلهوب ، فقال واحد من الناس : اجعلوا
« المعلوم » ^(١) نصف مجيدي .

فقال الشيخ : لا ، يا جماعة ، لا تمسخوها . المال موجود .
ومال على بطرس يوشوشه . فقضي الأمر واقترض بطرس
خمسین ذهباً .

وحمل الشباب نعي شلهوب الى البلاد ساحلاً وجرداً . لم ينسوا
النادين والنادبات .

وانصرف بعضهم الى إعداد غداء المحفل الكبير، فذبجوا خمسة رؤوس
من معزى المرحوم وفي مقدمتها « الشيخ » الذي كان يحبه جداً .
وأفاق شلهوب من غفوته الطويلة ، فقالت له حفيدته الصغيرة :
ذبجوا « الشيخ » يا جدي .

فاجاب شلهوب : الله يقطع رقبة من ذبحه . ونظر الى ثيابه وقال :
من قال لكم حتى تلبسوني بذلتي ؟
فقالت البنية : قالوا انك مت .

— من قال ؟ لا ، ما مت بعد . وأين الكمر ؟

وعلقت عيناه بوجه ابنه بطرس . إلا أن بطرس لم يكن يدرك شيئاً
في تلك الساعة . كان مشغول البال بمن نعى ، وبما استدان ، وبما ذبح من
من القطيع . ولكن شلهوب كان عند حسن ظن ابنه هذه المرة ، فمات
بعد هنيهة وانفرجت الأزمة الشلهوبية .

(١) المعلوم : ما هو متفق عليه كبديل لشيء .



كانت لوسيا خصة البطن ، فما دار القمر تسع دورات حتى أهلك الصبي فملا الفرح البيت وتعداه الى القرية . فزوجها اسطفان محبوب من كبار القرية وصغارها . عرف بالفتوة والمرح ، فكنّوه ^(١) قبل الزواج بـ مروة . شاب تام الخلق ، وإن لم يكن آية في الجمال . شجاع ، غيور ، كريم النفس ، لا يتخلف عن فرح ، ولا يقصر في ترح ^(٢) . قيدوم الشباب في الحوادث السوداء والبيضاء . وهو أول من يحدو للعريس ، وأول من

(١) كنّوه : لقبوه . (٢) ترح : حزن .

يندب الميت . حاضر القلب واليد واللسان . لا عيب فيه غير حَوْلٍ^(١)
في إحدى عينيه ، فصَحَّ فيه قول المثل : يا حينو لولا عينو .
سَلَفَ جميع الناس فهبوا جميعاً يهنئونهُ بابنه البكر ، فامتلاً بيته
سَكراً ورزاً وصابوناً وفراريج . وكانت اسطفان مزهواً بهذه النعمة
يقعد شاربيه بين دقيقة وأخرى ، ويقدم النقل والقمح المغلي لكل زائر
وزائرة ، ويمشو جيوب الصغار لوزاً وزبيباً . يكاد الفرح يقطر من
عينيه ، ولكنه يحاول الا يعرض احداها فينظر بالوراب .
وكانت الأم الراقدة في زاوية ذلك البيت الطويل المتواضع تهش
وتبش^(٢) ، رادة التهنئات والتحيات بأحسن منها ، مع أنها كانت ممغوسة^(٣)
ولكن سرورها بشمرة احشائها المبكرة غطى على وجمعها .
وبعد أشهر مرض الطفل فعالجته القابلة بالبابونج والحقن ، فانكسرت
شوكة الحمى ، ولكنه ظل كزهرة لا تيبس ولا تينع . اتسعت حدقاته
وقشط اللحم عن وجنتيه ، فامست ذقنه حادة بعد استدارتها الفاتنة . كان
الطفل يذوب وأمه تنوب معه ، فتضعع الوالد . أم تبكي وولد تئن ،
والد يقعد كثيراً حزينا قدام باب بيته يشكو الى الله همه .
ورأت ام الياس ، طبيبة أطفال الضيعة ، وهي عجوز ربّت خمسة
عشر ولداً ، إن الكي ضروري فكووه أولاً في القمة . وإذ لم ينجح طبها
هناك انحدرت الى لحف الذقن ، ثم هبطت الى البطن فكوته ثلاثاً فوق

(١) حول : انحراف العين عن مركزها الأصلي .

(٢) المفص : ألم بالمعدة .

السرة^(١) ، ففارق بعد أيام .

وبعد عام رزق اسطفان ولداً آخر كان حظه كاخيه ، ثم ثالثاً ورابعاً
فلحقا بأخويهما حتى مات صبره وكاد يكفر بربه . لا يدري كيف يعزي
زوجته التي يحبها فيطفر الى الحقل . أما الزوجة المسكينة فإين تهرب ؟
كانت تبكي كلما وقعت عينها على السرير وتقول في نفسها : الذنب
ذنب من ياربي ؟ من المذنب منا ؟ انت كبت أنا أو زوجي فما خطيئة
أطفال أبرياء حتى لا يعيش منهم واحد ؟ دخيلك يا مار جرجس ، والو
صني واحد فقط حتى تقدر ان تعيش . مسكين ابن عمي ! ما تغير أبداً .
ما رأيت منه إلا كل خير .

ثم أقبل الخامس فأشارت احدى العجائز أن يسموه باسم أحد
الوحوش ليردوا عنه « القرينة »^(٢) التي خنقت اخوته جميعاً . فقالت
الام انها علقت في رقابهم جميعاً « كتاب مار قبريانوس » وطوق قصحيا .
والله العظيم ما تركت واحداً بلا كتاب ولا طوق . عن مذبح كل قديس
أخذت بركة . يا قلة الحظ .

فقالت العجوز : اعلمي مثلما قلت لك ، سميته غمراً أو أسداً أو فهداً
فلا تقربه « المطرودة »^(٣) أبداً . نسوان كثير أصابهم مثلما أصابك
وخلصتهم بهذي الواسطة .

(١) السرة : التجويف الصغير في وسط البطن وهو ما تقطعه القابلة بعد

الولادة . (٢) القرينة : روح شريرة .

(٣) المطرودة : تسمية للقرينة .

ثم كان مؤتمر خماسي من الجدين والأيوين والعجوز ، فاختاروا اسم
فهد للمحروس الخامس ، وتهللت الام وعاشت زمناً بهذا الأمل الجديد .
وجاء يوم العباد^(١) فحملت الولدَ عرّابته^(٢) ، ومشى والده وعرّابه
خلفها الى الهيكل حيث كان الكاهن والشمامسة وبعض الأقارب ينتظرون .
وشرع الكاهن في رتبة^(٣) العباد . ولما بلغ قوله : أنا أعمدك يا ... سأل
العرّاب عن الاسم المختار ، فتعالت أصوات من الشعب : فهد ، فهد ،
يا أبونا .

فرقت لحية الخوري غضباً وقال : فهد ؟ ايش هو هذا الاسم ؟
الوحوش في غنى عن العباد . أنا لأعمد الضباع والفهود . هاتوا اسم
قديس . فهد ، ما شاء الله !

— نرجوك يا محترم .

— لا لا لا ، مستحيل يا أولادي ، مستحيل . لا تجربوني .

وكان الجد من العارفين بهذه الأصول فصاح بهم : لا تغلطوا .
الخوري ، الخوري معه حق . سمّ يا معلمي الاسم الذي تريده .
فتماسك الخوري وضبط نفسه وقال : أنا أعمدك يا ساسين باسم الآب
والابن والروح القدس .

فهمس الشيخ في اذن جاره : هذا اسم قديس ابن عم فهد . ثم قال

(١) العباد : التنصير وهو سر من الأسرار المسيحية .

(٢) العراب : كفيل المعمد .

(٣) الرتبة : مجموعة صلوات وقراءات وأناشيد كنسية .

للخوري : عال يا معلمي ، عال ، كان الله قاعد على لسانك . أصبت
عصفورين بحجر واحد .

وجاء دور الغداء فأكلوا في البيت طعاماً شهيماً أعدته أم فهد، وتناقت
فيه ما شاءت ، وخرج الكاهن داعياً للولد بالسلامة ، وللبيت بالبركة ...
وفي ليل ذلك النهار استيقظت لوسيا على صراخ ولدها ، فأخذت
تصلب فوق سريره . ثم جاءت بكتاب مار قريانوس فعلقته فوق رأسه
في عمود السرير الأفقي ، فنام حتى الصباح .

ومرّت أيام وأسابيع لم يشك فيها الطفل ألماً ولم يوجعه شيء . ثم
حبا ودبّ وتجاوز عمر اخوته ، وامه ما تزال مضطربة . خافت ألا يكون
اسم فهد كافياً لصد « القرينة » ، فقالت في نفسها : لماذا لا نلتجئ الى مار
ساسين سميه في العباد ؟ مار ساسين قديس نشيط ، تفرّع به الأمهات
الأولاد متى تشيطنوا .

وظل هذا الفكر يروح وييجيء حتى قلقت في إحدى ليالي كانون
وقلق زوجها معها فقالت له : ناوية أن أنذره لمار ساسين ، فما رأيك ؟
الأحسن أن نمسك الحبل على الطرفين .

— الرأي رأيك ، اعلمي مثلما يلهمك ربك .

وفي الغد فصلت لوسيا لفهدا ثوب راهب ، ونذرتة للقديس ساسين
وأرخت شعره على أن تقصه في تمام السنة الرابعة يوم عيد القديس ساسين
وفي مقامه ، وتزن ثقل الشعر ذهباً .

وبعد سنتين وبضعة أشهر كانت أم فهد وزوجها في الطريق الى

حافل ، ومعها خروف يقوده زوجها ، وخرج من القمح المدقوق على
ظهر الدابة التي تركبها الأم والصبي . وما أطلوا على « حافل » حتى رأوا
الرؤوس توج في ساحة كنيسة القديس ساسين كسنايل الحصاد . موسم
يقصده المؤمنون من أماكن بعيدة . وفود وفود معها نذور وقرابين ،
شمع وبخور ، زيت وتقود .

وبعد أن زاروا الكنيسة واستراحوا ذبحوا الكبش ، وأوقدت النار
تحت الهريسة التي نذرتها أم فهد فطورا للمعيدين .

تلك كانت أول مرة شهدت فيها لوسيا عظمة عيد مار ساسين . انها
لم تحضر إلا عيد قريتها ، وعيد قريتها ليس من فحول الأعياد ، لأن
القدماء لم يحسنوا اختيار قديس من أصحاب العجائب الكثيرة ، والمعجزات
الكبيرة . قديسهم وسط ، ولذلك كان عيده بين بين .

وقفت أم فهد كالمشدوكة تسمع وترى : رقص ودبكة ، أغاني عتابا
وميجانا ، شباب تسامى للعلى وكهول . فتحت سوق عكاظ بين القوالة .
واحتدم القول حتى أدى أخيراً الى « الجفاء »^(١) الذي يسميه الشعر
الرسمي هجاء . ولولا العقلاء علق الشر .

هوذا ضيعة كبيرة جاءت جرد العصا^(٢) ، فحسب العقال للعاقبة
حساباً . كانت أم فهد مكروبة ولا تدري لماذا . أما أبوه فكان يمشي
كالراقص ، يحيي هذا ، ويصافح هناك . يعرف الكثيرين من الزائرين ،

(١) الجفاء : الهجاء .

(٢) جرد العصا : أي الجميع بلا استثناء .

فهنأوه بالسلامة . ودعاهم الى أكل الهريسة ^(١) على سلامة المحروس ،
فوعده خيراً .

وكان الصبي يسأل أمه أسئلة ساذجة فتجيبه وهي كالساهية . ترتاع
كلما اشتد الصخب ، وتأهب للرجوع ، ثم تتذكر انها ناذرة ، وغداً موعد
قص شعر الصبي ووضع النذر على المذبح .

وتلاحي ^(٢) شباب قريتين فحجز العقال بينهم وصالحوهم ، فعادوا الى
بجالتهم يشربون ويأكلون ويسمرون . وانقضت الليلة على سلامة وعافية .
وفي الغد كانت ام فهد في الهيكل راکعة قدام المذبح ، فجزّ الكاهن
شعر فهد ، ووزنت الأم ثقله ذهباً ، وقعدت بين النساء تصلي صلاة الشكر
متضرعة الى مار ساسين حارس ولدها . أما أبوه فكان بين الرجال ،
يحدث هذا ، ويتندر على ذاك ، وزوجته تصرف على أسنانها متالة من
استهتاره . تنظر اليه نظرة تبكيت كأنها تقول له كلما وقعت عينها على
عينه : سماع كلام الله يا رجل ، احترم صاحب المقام الذي حفظ لك
ابنك . بيد انها كانت تتعزى إذ ترى أكثر المصلين مثله .

وما انتهى القداس حتى كانت ام فهد وبعض المؤاجرات يكسرن
الهريسة ، بينا كان الشباب متحلقين حول حبل جرس مار ساسين .
الجرس شهير يقصده الشباب الأشداء ، وينتظرون عيده ليظهروا مواهبهم
العضلية . فكان الحبل ينتقل من يد الى يد .

(١) الهريسة : نوع من الطعام يصنع من القمح المدقوق واللحم .

(٢) تلاحي : تلاحن ، تشاتم ، تلاوم ، تشابك .

وكان هناك شاب ذو شاربين معقوفين كذنب العقرب ، وأنف أقنى
كانه منقاد نسر، عيناه كالجمر لكثرة ما وَقَدَ من الكحول. فاحمرت أعين
الشباب حسداً ، واحتكوا به ، وكان الخبط واللطم واللکم . وماجت
الجماهير في تلك الساحة حتى خلتهم قطعة واحدة تتحرك .
واستيقظت أم فهد من همكتها بالهريسة على صراخ الجماهير ، وسباب
الشباب ، فما رأت فهداً حولها ، فصرخت : ابني ! ابني ؟
وزجت نفسها بين الجماهير تصرخ صراخاً يفتت الأكاد ويسمعه
حتى صاحب المقام... ففعل صراخها في الجماهير ما لم تفعله همة المصلحين.
فهمدت الضوضاء ، وانجلت المعركة عن عدة جرحى ، وبعج بطن فهد ،
فأُكلت الهريسة عن نفسه ...

كسلاية غنيمة !



النار في الموقد تبربر وتغني ، وابريق القهوة يدندن ، حتى إذا دبّ
الخادم بالحطب هزج الابريق وبقبق . وهلال منبطح في الزاوية ملتف
بعباءته . يجرّد ساقه ورجليه اظهاراً لجورييه المخططتين وبابوجه المزركش
يغصب نفسه على القراءة ناظراً من وراء نظارتين ذهبيتين . غرّته الابهة
فركبها فوق أنفه الأفطس . كان يتزّنر بجبل القد^(١) أو الشعر ، ويكوي

(١) القد : الجلد .

خلف والده حاملاً الجراب فلا يبلغ الحقل إلا بعد ألف جهد . حتى إذا
مشى القلم المجهول في لوح القدر ، تبدلت صورة هذا البيت .
فرَّ أبو هلال من وجه العدالة إذ جرح أحد بني عمه جرحاً مميتاً ،
فإذا الثروة في انتظاره بالريو دي جانيرو . ربح الجائزة الأولى في «البيش»^(١)
فأصبح بين ليلة وضحاها من أصحاب بيوت المال ، طويل التجارة ،
عريض الجاه . وقد مشى قدماً ، فامسى سيداً خطيراً توقَّره الجالية ،
وسُمعت كلمته لدى أصحاب المقامات من رجالات البرازيل .
وأخذت السفاتج^(٢) ترد على ابنه هلال حتى ازدحمت ببابه ، فشجر
ونخر . شاور والده في بناء بيت رفيع العماد تحسباً من النظر إليه أبناء
عمومته فأجابته :

ولدنا العزيز هلال .

أحسب حساب غدرات الزمان . السترة تكفيننا . ما سمعت قول
المثل : على قد بساطك مدَّ رجلك ؟ لا تكبر فشختك يا ابني .

والدكم : مرهج .

وطوى رسالته هذه على حوالة بالفي ليرة انكليزية . فخطا هلال
خطوة واسعة أدت إلى خطوات أوسع . وكثرت أقاويل الجيران ،
هذا يقول : توفيق غريب عجيب . المال مكبوب على الطرقات حتى

(١) البيش : اليانصيب .

(٢) السفنجة : هي أن تعطى مالا لرجل فيعطيك ثمهداً يمكنك من استرداد
ذلك المال من عميل له في مكان آخر .

يجمعه مرهج ؟ والله العظيم قصة عمنا مرهج قصة غريبة . وإذا بزوجته
ترد قائلة : الدنيا سعاد وبخوت .

ومثل هذا الكلام كان يتداول في زوايا بيوت « غرشين » وعلى
مصاطبها كلما اجتمع اثنان . أما عند بيت مرهج فتسمع : هاتوا الطين .
قدموا حجارة . أصوات تتعالى على الحيطان ، ووجوه الجيران تتقلص
وتتعدد وتصفّر وتخضر ، وألسن تقول : كان هلال في شروال خام
مصبوغ ، وصديرة ديا ، وكانت الأرض لا تطيق ثقافته ، فكيف به وقد
لبس الجوخ ؟ من ينجينا من شره متى كمل القصر ؟

وما صفق قريميد بيت هلال حتى لاحت للقرية أشباح النفوذ الرهيب
وتحققت ظنونهم . طمح هلال الى مشيخة الضيعة وراح يسعى لها . سخط
نفسه عن مئتي ليرة انكليزية ان صيّر مديراً الناحية شيخاً .

ودرى حزب الشيخ بما يطبخ هلال فتهياؤوا للكارثة . كيف تفلت
المشيخة منهم ؟ هذا لا يكون . فاعدوا للأمر المال والرجال ، فغلا سعر
السوقة وتدللوا حيناً ، وخفض لهم الأنصار جناح النل ، وظلوا يداورونهم
حتى اشتروا أصواتهم آخذين عليهم العهود والمواثيق . ثم حاموا حول
صاحب الرفعة مدير الناحية فرضي بالتي هي أحسن ...

لم يكن عزل شيخ في عهد المتصرفية بالأمر الهين ، ففكر المدير بحل
مريح مربح . فبقى الشيخ في منصبه الرفيع ، وعمل من هلال بيكاً .
كان موسم التبرع للاسطول العثماني ، فتبرع هلال بخمسين ليرة عثمانية
إعانة للاسطول الشاهاني المظفر . ونامت المئة والخمسين الباقية عند المدير

نومة أهل الكهف . ففتح البيك هلال بيته على مصراعيه . سفرة ممدودة
للرائح والجلاني . أكل وشرب قهوة واركيلة وسكاير اكسترا عند البيك .
سهرات نارة تكون صامته تقضى بلعب الورق ، وحيناً باجتماع القوالين
يغنون للبيك الطازج ، داعين لأفندينا بطول العمر ... وهلال ينفق عن
سعة . والحوالة في ظهر الحوالة .

هوذا رجال البيك ينصرفون من « الدار » قرب منتصف الليل ،
ممسين^(١) جنابه واحداً واحداً ، وهو يرد كل مساء بأحسن منه ، وخصوصاً
لمن يودعون جنابه بالبكوية . ويكشر بوجه من يغلط ويقول : خواجا
هلال . والويل لمن يقول : هلال ، فقط .

صار بيكاً بشطحة قلم ، وهو يحفظ بطاقة مدير الناحية ، في قلب
قطعة من الأطلس الزاهي ، مديجة بخيوط استعيرت ألوانها من قوس
قزح ، وقد حف بها اطار يشع كعين الشمس ، عرضها في صدر القاعة
ليقرأ كل زائر :

الى سعادة قائم مقام كسروان المحترم .

إن صاحب الدولة مظفر باشا متصرفنا المعظم يشكر اريحية هلال
بك مرهج لتبرعه بخمسين ذهباً عثمانياً ، اعانة لأسطول الدولة العليا ،
ايدها الله ، فبلغوا الموما اليه شكر أفندينا ، ودمتم محترمين .

مدير القلم التركي

ن . ر

(١) ممسين : ملقين تحية المساء .

وما خرج آخر واحد من السَّمار حتى صاح هلال بك : فريدة ،
هاتي ورقة عن الكنسول . عتم ، توقي .

النار لا تزال تثرثر ، وابريق القهوة ببربر ، فارتفع الغطاء واندلعت
القهوة على الوجاق ، فهرولت فريدة ، فصاح البيك : على مهلك . كبّ
القهوة خير . ربما جاءنا مكتوب من الوالد . ضاقت يا فريدة .

فصاحت فريدة : وكيف لا تضيق فيك ؟ لو أعطوك مال القارون
تبذرقه بيومين . اخبزوا ، اطبخوا ، حمّصوا البن ، هاتوا السكر ، أين
الدخان يا فريدة ؟ كل مال البرازيل لا يشبعك .

— قلت لك ألف مرة هذا لا يعينك . لا تنقبي^(١) . اعلمي أركيلة .

— أركيلة ! راح الليل يا معلمي .

— نعم أركيلة . هاتي الورقة .

ونتشها بغضب ، فما صارت في يده حتى خربش عليها :

سيدي الوالد . ولكنه ضرب عليها وكتب : يا يبي ، وهو يقول :

بلا سيدي بلا بطيخ أصفر . ثم بدأ كتابه كالاعتاد : بعد تقبيل أيديكم .

ولكنه عاد فخربشها وقال : أنا هناك حتى أقبل يده ؟ ما قبلتها حتى

أقول له ذلك . بحياتك يا ربي الهمني كيف أكتب حتى تصل البوليصه

مثل البرق . انفضحننا ، كبّرنا « الفشخة »^(٢) فانفسحننا . مؤكد ان

أولاد الحرام كتبوا له عن كل شيء . ما تركوا كبيرة ولا صغيرة حتى

(١) نق : صوّت كالضفدعة وهنا لا تتملي .

(٢) الفشخة : الخطوة .

خبروه عنها . وخصوصاً ابن عمي بولس الحسود الكلب . رأى نفسه صغيرة ، لا أحد يسأل عنه . مؤكداً هو الكاتب لوالدي . تركته رنجبه وقالت لأم سليم : بيك مثل هلال أفضل بكثير من فلاح مثل بولس . كان الوالد يبعث الألف خلف الألف . ومنذ سنتين ما بعث بارة . معناتها أنه هناك أرذال يبخون . ركبنا الدين . وإذا تأخر الوالد انفضحنا . كل هذا هين عند حجز حوائج البيت ، أو الحبس .

ووقفت فريدة تتأمل اضطراب البيك ، وتنظر إذا كانت الأركيلة تدخن . فلم ينتبه هلال إلى موقفها منه . ولما أدرك أنها سمعت بعض نجواه قال لها : روجي نامي يا بنت . اتركيني وحدي . وانكبي على الورقة بحدة يكتب :

بعد السلام والكلام ، أخبرك حصلنا بجاهك وكذك على عز ما حصل عليه أحد في بلادنا . ولكنه يتدهور إذا لم تعجل بإرسال الدرام . عجل ، وإلا راحت البكوية طعام القرد . عجل . أنا على نار . انقطاع تحاريرك قطع ظهري . ابعث ألف ليرة بالتلكراف حالا حالا حالا .
ولذلك : هلال .

ثم أخذ المكتوب وأحرق بجمرة اركيلته زواياه الأربع . ووضعها في مغلف كان أحد التلامذة نسخ له عليه عنوان أبيه ، وثام على أمل أن يسلمه في غد إلى ساعي البريد .

ثم وملء رأسه الهواجس ، فقضى ليلته تلك بين الغافي والواعي . ثم

ولكنه لشدة اضطرابه خال انه لم يلم ، ففضى ليلته لا ينتهي له حلم حتى يبدأ آخر . وأفاق مع الصبح فإذا به لا يتذكر إلا واحداً :

رأى أن بشره فارت كالقدر ، ولكن لون الماء غير صاف . ثم طغى الماء فكاد يطم البيت فاستنجد وصرخ . فإذا بساعي البريد يدق الباب ، فقعده في فراشه يفرك عينيه وهو يقول : الله يعطينا خيرك .

فاجاب الساعي بعد السلام والاكرام : كله خير يا جناب البيك ، المدير يتغدى عندك يوم الاربعاء .

فوجم هلال . وسترأ لضعفه أجاب بنبرة : أهلا وسهلا .

أما فريدة ، وكانت تهتئء القهوة للبيك ، فصاحت : العمى ، ما لهم شغل غير الأكل والشرب ؟ اطبخي وانفخي يا فريدة .

وقال البيك : ومن أميركا ؟

فمطأ الساعي شفتيه ، وهزأ جفنيه وساد السكوت .

وبعد أيام رؤي كهل نحيل ، أصفر اللون ، مرتخي الشاربين ، في يده حقيبة أكل الزمان شيئا من زواياها الأربع ، يقطع طريق الضيعة بضعف وتوان ، ولا يسأل عن أحد . يقف متأملا كل شيء .

استغرب الأهالي زيه فأطلوا من الأبواب يرون الى أين يقصد ، وأي بيت يدخل . ولم يتزروا في بيوتهم إلا حين دخل بيت هلال بك ، فقعدهوا يرحمون . هذا يقول : غايته كذا ، وذاك : هذا مرسل .

ودخلت واحدة من اولئك النساء المترجلات على المجتمعين وقالت :
يا جماعة ، ان صدق ظني ، هذا أبو هلال .
فصاح بها زوجها : مجنونة أنت ؟ أبو هلال يهز البلاد متى جاء . الله
يرد عنا . يد البك قصيرة ولا يهدأ .
فدقت المرأة يداً بيد وصاحت بعناد : هذا هو . من يشارط منكم ؟
وكان هو ، ما عليه غير ثياب عتيقة ، وفي يده حقيبة رثة فاضية :
أغناه البيش ، وأفقرته البورصة .



قال الراوي :

كان عهدي به مدّ النهار كالذي صرعه عنتره في حومة الموت ، فإذا
بذاك الشحم قد ذاب ، وأمسى قليلا ظله ... كان ذا قفا كالطبل ، فإذا
به لا يرج ولا يمور . كان يلبس الألبكا صيفاً ؟ والصوف المارينوس شتاء
فكنت إذا ما رأيته منتصباً تخاله عدلاً قنطارياً من الشعر يستوعب مؤونة
البيت من القمح. لقد دقّ جناب «البك» واسترق ، فماج في ثوبه الرحراح

حتى يحسبه الرائي انه مستعار وليس لجنابه أصلاً .

كدت أنكره حين بادرنى بالتحية، ولكن نبرة خاصة في صوته لا تزال
ترن في اذني منذ سنين ذكرتني به . أما الوجه الذي يحمله اليوم فلم أستطع
فك مشاكله ولا حل رموزه الهيروغليفية إلا على ضوء صوته . كانت ذا
عينين تقاومان المخرز، فإذا بهما ذابلتان تشتكيان حتى ضوء النهار الغائم .
وكان ذا وجه مرح طروب فإذا به كوجه طفل يتهاى للبكاء . تكرر ش
وجهه ، واتسع فمه كمغارة الضبع . وشاء أن يحذف بضع صفحات من
سجل عمره فاحفى شاريه فتبشع ، وبان العيب الفاضح في عنوان كتابه .
أدهشني منه أن يستولي على المبادرة في التحية بعد أن كان لا يردّها .
كنت في الأمس أسبج الطريق بقدي المشوق ، ووجهي الصبوح ،
استعد على ابتسامه تقيد الأوابد ، ولكن البك ، في عز سلطانه ، كان يفر
من المازق كالغزال الشارد ، لا يرعوي لروعة حسن ولا لسحر جمال ...
فأقعد آسفاً على لحظة محيية أفلتت مني ... فليس رد تحية وبشة قليلة من
موظف كبير بالأمر الهين ، وازداد عجبي حين قال لي : تفضل ، أين
تستريح ؟ ثم جرّني معه جرّاً الى أول قهوة . وانزوينّا .

قعد سيدنا البك ولكنها قعدة قلقة مقلقة ، فكان سعادته على شوك .
نفيخ وفحيح ، تنهد وتاقف . اتطلع فأرى شعرات جفنيه « البشريين »
واقفة على سلاحها . استعداد وتاهب في مناطق الوجه كلها . يريد جنابه
أن أفتح أنا الحديث ، فأخذ يلقي شباك نظراته ويغمرني بالتفافات
معناها : تكلم ، فتجاهلت غزاته ومضاته .

انتقل مولانا الى ابيه ، ونعم ، ولكني ظلت معتصماً بالصمت والتجاهل. فاضطر الى اللقاء الدرر وقال لي: من أين جاءك هذا السكوت؟ أعرف ان لسانك يلحس أذنك .

فاجبته : علمنا الجدود أن السكوت من ذهب .

فنفع نفخة تدرّي بيدراً ، وهكذا انفتح الجراب . فقال : يرحمهم الله ، كانوا خيراً منا وأحسن .

فاجبته : لا خير ولا أحسن ، ولكن الحنين الى الماضي من طبع البشر . التمدن على قدم وساق . والمدارس ملء الأرض . والأمل بحياة جديدة ينعش القلوب . شباب طمّاح ...

وما سمع كلمة « شباب » حتى ارتق وجهه واخضر ، وكنت أسمع صريف أسنانه ، ثم فتح فمه متثابراً . وبينما هو يربت بأصابعه الجرداء باب المغارة ، قال بمحجماً : لا تذكر الماضي ما لم تترجم عليه .

قلت: ولماذا ؟ ابدأ بضيعتك، أليس جيرانك اليوم أحسن منهم أمس؟ ف ضرب رخام الطاولة بنريج أركيلته ، فاشترأبت نحونا الأعناق . ولكنه لم يبال وصرخ: كيت وكيت من جيراني . ما بقي في الدنيا جيران مثل الناس . جيراني ؟ ليتك تقبر كل جار مثل جيراني . جيراني كانوا أول من عيّد يوم عزلي ، ولولا الحياء « نورّت » بيوتهم .

قلت : اذاً جيران أوادم ، فنحن بألف خير يا مولانا ، ما دام في الدنيا حياء .

فهر جمجمته هزات ، فقلت: وأصحابك الجدد أليسوا أرقى وأكيس

من الذين آخيتهم في ماضيك ال... في الماضي العتيق ؟

فامتعض أولاً ، ثم زالت الامتعاضة حين أصلحت تعبيرى وقال :
أصحابى ! وأين هم أصحابى ؟ كلهم ذئاب كاسرة . فسدوا مثلاً فسد
الزمان الذي نحن فيه .
قلت : والجماعة ؟

فتنهد وقال : أية جماعة ؟ حزبنا ؟ صار حزبنا بلا رأس . لا تذكر
شيئاً من هذا . كل واحد يشدّ صوب صدره . الناس مع الواقف . انهم
لا يذكرون شيئاً من تضحياتى . لا المال ولا الجهاد ولا ولا... كاني لم أعمل
شيئاً يستحق الذكر .

قلت : الرب يعوّض . عندك أولاد . المستقبل لهم .

فتنفّض كديك الحبش ، وانفتحت حدقتاه ، وطفرت منها عينان
حمراوان خلتهما بيضتيّ عيد ، وقال : كل البلا من أولادى . لا يرجى
منهم خير . خاب الأمل . يضحكون منى . يمزأون بماضى والدم .
لا يذكرون يوم كانت الناس على أبوابهم مثل النمل . نسوا كل ذلك .
أولاد مناحيس . شرب عرق ، ولعب قمار ، ورقص الى آخر الليل . هذا
شغل اولادى . طيروا ما جمعت .

ولما عجزت عن سماع كلمة ثناء منه ، نهجت نهجاً آخر وقلت : وكيف
ترى الطبيعة ؛ هل تغيرت مثل الناس ؟
فقال : أية طبيعة ؟

فاشرتُ يديّ التنتين وقلت : الطبيعة... كم يوجد طبيعة في لساننا ؟

فهز رأسه وقال : تريد الطبيعة المعروفة ؟ فهمت . اي نعم ، كل شيء فسد ، لم يبق شيء كما كان . الهواء فسد ، والأرض فسدت ... أين موسم الحرير اليوم ؟ أين الغلال في وقتنا الحاضر من الغلال الماضية ؟ خيرات كانت دافقة . كان رطل القمح بقرشين يا شيخ . لا أمراض ولا وباء . صحة مثل الحديد . انظر اليوم ، الأكل بالقراريط . الدنيا مقلوبة رأساً على عقب ... ألا ترى بعينيك ؟

قلت : أرى ما تراه أنت ، فما سبب كل هذا ؟
فاجاب : السبب... السبب... السبب. وظل يمضغ السبب ويعلكه.
فقلت : الاستقلال طبعاً .

فالتفت ليري إذا كنت جاداً ، ولكنني لم أدعه في حيرته . فقلت :
تذكر جلستك هنا منذ سنوات ، كنت تحاضر عن محاسن هذا الزمان .
كنت ترى كل شيء مليحاً ، وتغضب لهمسة انتقاد .

فتمكن من كرسيه وحدق إلي بغضب وقال : ماذا تعني ؟
قلت : أعني كل هذه المساويء فينا ، ونحن نتهم بها الزمان ...
مسكين الزمان ! ما زال الزمان كما كان ، وما زال أهله خيراً مما كانوا .
فقال : لا أوافق على هذا .

فقلت : توافق أو لا توافق ، هذه حقيقة وعليك أن تعرفها . فلو
ظلت المياه في مجاريها لكنت ترى الدنيا بألف خير . ان النبي ساءت حاله
هو أنت ، فخلت أن كل ما حولك قد ساء . فلو عدت الى حضن ابراهيم
لما قلت : ان الناس في جحيم . فهذا النسيم الذي تصوره لنا أحاديثك ريحاً

سموماً يستحيل في الحال برداً وسلاماً ، وتقول للناعمين كما تنعق أنت الآن : في فمكم التراب ، سدوا بوزكم ، كل ما في البلاد يكذبكم .

فأطرق صاحبي وأخذ يفتش في جعبته عن آخر سهم . ولما وجدها فارغة تحامل على نفسه وقام . وكأنه أبى أن يخرج من المعركة مغلوباً ، فقال ، وكان المطر قد انحبس :

— ما رأيك في هذا الطقس ؟ هل مرّ مثله على البلاد ؟

قلت : هذا كله من الاستقلال .

قال : يعني ...

قلت : وما معنى قولك يعني ؟

قال : والأمراض التي لم نكن نسمع بها ؟

قلت : وهذي أيضاً وصّى عليها الاستقلال .

فكظم البيك . ودري أن الحديث استحال استهزاء ، فشاء أن يغير المجرى . فقلت : دعني أكمل . وأين جارك الذي مات أمس ، وبيت عمك الذي احترق منذ جمعة ، والجسر الذي سقط البارحة ، والقطار الذي حاد عن الخط أمس الأول ، وحمارة جاركم التي ضربها « الملعون » فماتت مأسوفاً على شبابها الغض ؟ كل هذه البلايا والمصائب سببها الاستقلال ؟ أليس كذلك ؟

فنهض البك عن كرسيه ، والامتعاض ملء وجهه المتجعد . ترك طربوشه على الطاولة عربون العودة ، وبقيت وحدي أفكر في هؤلاء

الناس الذين يقيسون الدنيا بمقياس غضبهم ورضاهم . وفيما أنا أتبحر بقول
الشاعر :

ان نصف الناس أعداء لمن ولّني الأحكام ، هذا ان عدل
تذكرت المثل السائر : فلان يحكي أكثر من قاضٍ معزول .
لم يخرجني من منطقة تفكيري إلا صوت صبي من باعة الصحف
ينادي : معنا جريدة الوطن . تعيينات جديدة . ثم أقبل عليّ وبسط
العدد أمامي قائلاً : اقرأ اسمك فيها لعلك تعطيني البشارة ، ان شاء الله .
فعبست وقلت للفتى : ومن قال لك أنتي طالب وظيفة ؟
فقال الولد : ما لك غضبان ؟ اهتمتك بسرقة حتى غضبت كل هذا
الغضب ؟

فضحكت وقلت : طيب ، خلّ لي العدد .
وبعدما قبض ثمنه شاء أن يدلني على اسمي طمعاً بالبشارة . وما كان
أشد دهشتي حين قرأت :
« عين الأستاذ فؤاد ابراهيم قاضياً في محكمة بداية المجلد فنهته .
وبهذه المناسبة نرى لزماً علينا أن نتوه بخدمات والده الجليل بطرس بك
ابراهيم ، فقد قضى الشطر الأكبر من حياته في القضاء ، وكان مثال النزاهة .
إننا نتمنى أن يصح في نجله الكريم الأستاذ فؤاد قول فيلسوف الشعراء :
« وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عودُه أبوه »
فقلت في نفسي : صدقة غريبة ! وقعت أنتظر عودة بطرس بك
وأخيراً جاء يهدج ويلهث .

فقلت له : أطلت الغيبة يا بك ، وقد حدث في غيابك ما حدث .
فقال : وماذا صار ؟
فقلت : تقرأ او اقرأ لك ؟
فقال : نسيت نظارتي في البيت ، تفضل اقرأ . وماذا في هذه الايام
غير أخبار المصايب والبلايا والضربات السخنة ؟
فلما تلوت على مسامعه خبر تعيين ابنه قاضياً ، قلت : أهذا خبر
سيئ يا مولانا ؟ كنت أحب أن أسمع رأيك الجديد في زماننا وأهله ،
ولكن الأفضل ارجأؤه الى البيت عندما تقوم بواجب التهنئة .
فنهض وهو يقول : أهلاً وسهلاً . تنتظرك الليلة .
فقلت : نعم لنسمع الاسطوانة الجديدة ...
فما زاد جوابه على ضحكة صارخة دلتني على أنه شمل « الزمان »
برضاه ...



من رأى الحوري يتمشى مستعجلاً ظناً أنه يقيس سطح قبوه^(١) ...
 زكى غيظه وحنقه لون سمرته فصار باذنجانياً . يتحدث ويشير كأنه
 يمشي شخصاً . يسيّره شعوره الداخلي ، فتارة يبطىء وطوراً يسرع .
 ومن رآه تحت أذيال تلك العتمة الرمادية الهابطة على الضيعة رويداً رويداً
 خال ان أحد عمالقة التوراة قد نشر .

وقبل أن يلف الليل القرية بشملته السوداء مرّ بطرس على الطريق

(١) القبو : البناء المعقود بعضه الى بعض .

الملازق^(١) بيت الخوري ، فطار عقل الكاهن حين وقع نظره عليه، فبصق من حيث لا يشعر ، وعلت هممته ، وحث مطيته كأنه رائح الى دفن ويخاف أن تفوته الصلاة وما يليها ... ثم انفجر يقول : دكان بطرس خرب الضيعة . كنا بألف خير قبل هذا الدكان . عود الناس على الشرب ولعب الورق ، فهجروا الحقول . الكروم وبساتين الزيتون والتين أكلها الشوك والعليق . الأرض كلها بور ، قندول وبلان . كانت الضيعة تبيع من كل الأصناف ، فصرنا لا زرع ولا ضرع .

حنا طنوس كان يطبخ قنطار تين ويبيع قنطارين وأكثر ، واليوم انتهى اولاده قشرة التين . ومن أين يأتي التين ؟ الأرض ان أطعمتها تطعمك ، وإذا دينتها توفيك القرش عشرين . ولكن النبي كان يدينها راح ، وترك اولاده غارقين في دكان بطرس ، لا شغل ولا عمل . شغلهم القمار وشرب بيرة وعرق .

وأخذ يفتش عن أسماء المشروبات الحديثة فما دار على لسانه اسم واحد من أسماءها ، فانتفض وأشار بيده إشارة غضب وقال : مشروبات غريبة ما لها دين ولا مذهب . ما عاد يعجبهم النبيذ والعرق . ولكن الشرب هين عند القمار ... يا عرضا نجينا ! تدرجوا من لعب المنقلة والداما والطاولة الى لعب الورق ، ومن لعب الورق الى القمار . متى كان الانسان يبيع الطنجرة ؟ جرجس بن حنا طنوس باع الطنجرة حتى يقامر . يا خراب الضيعة !

(١) الملازق : الملتصق .

ضيعتك تخرب قدام عينك ، يا خوري يوسف ، وأنت واقف قبالتها
مثل الخيال ! لا لا لا لا . وبّخ وأنب ولا يهينتك أحد كما قال بولس
الرسول .

يعلم الله أننا ما قصرنا، ولكن على من تقرأ زبورك يا داود ؟ ناس مثل
الحيطان . إذا لم نسكّر دكان بطرس راحت الضيعة ، وعلى الشرف
والطهارة ألف سلام .

بنات ونسوان ، شباب ورجال في دكان بطرس الملعون ، يقابلهم
بضحكته الشيطانية . يتدحرج بينهم مثل البرميل . كرشه قاعد قدّامه
كانه في الشهر التاسع . لعنة الله على هاتيك السحنة الملعونة ! المنافق يعمل
حاله مثل المهرّج ويضحك على ذقون الناس . والناس حمير لا ينقصهم إلا
الذنب . كان أفقر واحد بالضيعة فصارت الليرات معه مثل التراب .
تعجبك ضحكته عندما يزوي هاتيك العين الحولاء ؟ ... الشيطان بذاته .
وكانت زوجة الخوري تنصّت ولكنها لا تسمع إلا كلمات متقاطعة،
ما فهمت منها إلا ما دلها على أنه يتكلم عن بطرس ودكانه . وبطرس عزيز
على الجميع ، ودكانه ملتقى الخلّان ... يحول عينه الحولاء صوب الجيوب،
وليفعل الناس في دكانه ما شاؤوا ، فهو غير قيّم على الأخلاق . لا يعنيه
إلا أن يبيع ويقبض .

وتقدمت زوجة الخوري منه وقالت : نسيت حالك يا خوري . نحن
في كانون . الطقس بارد .

فكزّ المحترم وقال : ما عليك . الطقس بارد . وأنا حامي .

فقلت في نفسي : الله يطفيك . ثم قالت له بلطف : اقعد ، تدفا
واحك ، من يعارضك ؟

ودخل الخوري . وقبل أن يقعد انتفض رافعاً رأسه ويديه نحو
السماء ، فلاحته أصابعه كالمدرى^(١) ، وانتفشت لحيته كالبلانة وصاح :
غضب الله ، من فوق ، ينزل عليك يا بطرس ، خربت الضيعة . سألني
الوعاظ عن دكان بطرس فأنكرت الحناء وأثرها محافظة على سمعة الضيعة .
أما الآن فغير ممكن أن أسكت .

— اسمع مني ، يا خوري ، ما لك وما لهم . كلهم من حزب بطرس .
يديّن هذا ، ويقرض هذاك . ولولا نفوذه ما عيّنوه أمس مختاراً ، وما
سألوا عن أحد . هذا شر ، ما لك وما له .

— اسكتي ، يا خورية ، لا تشوري . هذا شغلي ، هذا واجب كهنوتي
ديني . من يحمل عني خطيئتي يوم الدين ؟ أنت يا حرمة ؟ وأنت كم مرة
قلت لك : لا تدخل دكان بطرس ، لا تشتري شيئاً من عنده . كوني مثلاً
صالحاً ، لا توصلي موسى بطرس الى لحيتي ، سمعتي ؟

— ايش بك الليلة يا خوري ؟ نحن يجب أن نكون لعموم الضيعة .
— هذا مطلوب من الخوري لا من الخورية . الخوري يكون للعموم .
فهمتي ؟ الآن أقدم عريضة لسيدنا البطريرك التمس فيها « الحرم » لبطرس
ومن يدخل دكانه . القهار ممنوع دينياً .

— ليس هذا من رأيي يا خوري . اسمع مني . لا تتعب نفسك

(١) المدرى : آلة على شكل أصابع اليد تستعمل لفصل التبن عن القمح .

وتقلق الضيعة .

— من سالك عن رأيك حتى تقولي لي ليس هذا من رأيي ؟ كان يقع في « الصينية » أيام الأحاد لا اقل من مئة قرش، فصارت لا تجمع إلا عشرة قروش . كانت « صينية » عيد الميلاد تجمع خمسمائة قرش ، البارحة ما جمعت إلا أربعين . أكل البيضة وقشرتها ابن الحرام . القرش الذي كان كان يحطه الولد في الصينية صار يشتري به علكة من دكان بطرس . أنا ساكت ، ولكن كيف أسكت عن القمار ؟ من يسرق فسطان أمه ويبيعه ؟ ابن رشدان باع فسطان أمه الحمل في البترون ولعب بحقه . يا خزيتنا ويا هتيكتنا^(١) .

قومي هاتِ الدوا .

فترددت الخورية وأخذت تتفرس في وجه الخوري ، فصاح بها : ما عرفتيني بعد ، أنا خوري يوسف .

— ايش بك الليلة ؟

— قومي قلت لك .

وقدمت له الدواة وليفة الورق الطويل العريض ، فنشر واحدة منها وانكب يكتب لصاحب الغبطة .

وتحلمحت الخورية ، فصاح الخوري : إلى أين ؟ إلى الدكان ان شاء الله . فقالت الخورية : حس عياط . فقال الخوري : وماذا نسمع بعد اليوم غير العياط ؟ القلة تورت النقار يا خورية . قولي لي : ما لك وما لهم .

(١) الخزية : العار ، والهتيكة الضيعة .

حرق أنيابه فأسمع صريف القمو بالمسد^(١) ، وأخذ يقرأ ما يكتب :
فيا سيدنا الكلي الطوبى ، ان هذا الدكان جهنم أرضية ، فإذا لم ترشقوا
صاحبه بالحرم الكبير^(٢) راحت الفضيلة وطار الدين . نصير مثل البهائم ،
لا بل البهائم خير منا . البهيمة لا تقامر على غذاها وعشاها . أما أولاد
ضيعتنا فصاروا يقامرون على كل شيء ، ولا يستبعد أن يسرقوا أواني
الكنيسة الفضية والذهبية ليقامروا .

وكانت الخورية تسمع وتتمرمر . وخبرت أخاها القادم من الدكان
عما نوى عليه زوجها ، فقال لها : اتركيه يعمل مثلما يريد . الحالة لا تطاق
يا اختي ، سمعت العياط طبعاً . سكر خليل وجرمانوس وكان ختام
السكره ضربة سكين .

فصاحت الخورية : ضربة سكين !

فقال أخوها : نعم ، نعم . وقريباً يلعب الرصاص . اتركي الخوري .

فقالت الخورية : وماذا عمل بطرس ؟

فأجاب أخوها : بطرس مشغول باله . خبرته امرأته أن ابن غاريوس
أخذ ثلاثة رجال يعرفهم من الدكان وغداً هم في بيته ، فقامت قيامته عليه
لأنه خسر بضعة قروش .

(١) القمو بالمسد : القمو : محور البكرة ، والمسد : الحبل ، أي صوت الحبل

لدى مروره حول محور البكرة .

(٢) الحرم : قرار يصدره مرجع ديني كبير يمنع من يرمى به من ممارسة

حقوقه الدينية .

فرقست لحية الخوري غضباً ، وأخذ يشد على مغلف العريضة
البطريكية ، وهو يلصقه ، كأنه يشد على رقبة بطرس الغليظة ، ويقول :
هذا النوري يريد أن يحو صيت الضيعة وكرمها . يريد أن يحرم الضيافة
ابن الكلب حتى يربح قرشين ثلاثة . ومتى رحنا الى القرى والضياع من
يطعمنا إذا عرفوا اننا نبيع الغرباء الخبز والبيض والزيتون ؟ الله يقصف
عمره ما أرداه .

ثم التفت بالخورية وقال متهزئاً : قولي لي بعد : لا تطلب « الحرم » .
هذا لا يكف شره عن الضيعة غير « الحرم » . عندما ينقطع الناس عن
المعاطاة معه وتقف حركة دلاله يتربى .

فقالت الخورية : ومن يسأل عن « الحرم » اليوم ؟ الذين كان يخوفهم
« الحرم » ما بقي منهم أحد .

فمدَّ الخوري يده الى حذائه القريب منه . فحنت الخورية رأسها
لتنقي الضربة ، ولكن المحترم لم يفعل توقيراً لأخيها . فقال الأخ للخورية :
لا تقولي مثل هذا الكلام يا اختي . نسيت انك انت خورية ؟

فصاح الخوري : تغيرت اختك يا سلوم . دائماً تعارض وأنا صابر .
وبيناهم في هذا الحديث جاء أحد الآباء يشكو ولده الذي يسرق كل
ما تصل يده اليه ، ويقايز عليه في الدكان إذا لم يكن معه دراهم .

فصاح الخوري : هه ، قولوا لي بعد لا تحرمه .
وما سمع الشيخ كلمة « الحرم » حتى وقع على يدي الخوري يقبلها ،
ثم أخذ يبحث عن رجله المتحصنة تحت ذيل جيبته ليقبلها أيضاً . فنبح

الكلب وهجم ، فزجره الخوري ، فعاد الى مقعده ، ولم تنقطع موسيقى
هريره .

وقال الخوري للرجل : قل لهذه المجنونة بنت عمك أن الحرم هو
لعنة الله . ومن تحمل عليه مصيره الخراب والهلاك اذا لم يصلح سيرته الفاسدة .
وبينا هم يتحدثون عن ويلات الدكان علا الصياح ، وهرع بعضهم الى
بيت الخوري يسألونه الاسراع للحجز بين العائلتين الملتحمتين بسبب
ضربة السكين .

فقال الخوري لفتى من ذوي قرباه كان عنده : ألبس ثيابك ، واغدُ
عليّ لتأخذ مكتوباً الى بكر كي .

قال هذا وهو يشدّ حذاءه ، ثم توجه الى حيث المتشاجرون . وبعد
ما حسم الخلاف قال لبطرس ، وهو عائد الى بيته : ما قلت لك يا بطرس
لا تسقِ أحداً في دكانك ؟ ما قلت لك لعب القمار يخرب الضيعة ؟

ولما جاء الأحد كان الحرم في عب الخوري ، فتلاه على مسامع رعيته
بعد قراءة الانجيل . فهدر الشباب ، وهمم الشيوخ ، وأراد بطرس أن
يحتج ، فأسكته عتل^(١) من جماعة الخوري . فانسحب من القداس وقعد
قدّام دكانه يبتهر^(٢) . فقال له أحد العقلاء : لا تهدّ ولا تقدّ ، « الحرم »
على القمار والسكر يا بطرس ، فلا تقع ولا توقع الناس .

وهدأت الرّجل أياماً ، وانكف الكثيرون عن ارتياد الدكان حتى

(١) العتل : الجافي الغليظ ، الشديد من كل شيء .

(٢) ابتهر : افتخر ، أيضاً الادعاء الكاذب .

أفاق الناس ليلاً على صياح بطرس واستغاثته : احترق الدكان !
وكثر القيل والقال . قال فريق : هذا الحرم . وقال آخرون : الحرم
لا يحرق البيوت ، ولكنه يضرّ بالشخص . أما الخوري فاحتار في حل
هذه المشكلة ، وهو يعرف قصصاً كثيرة عن مفاعيل الحرم . اما أن يحرق
دكاناً وكل ما فيه من بضاعة فهذا كثير .

وبعد كد ذهن واجتهاد عنيفين وصل أخيراً الى هذا الحل الوسط :
إن لم يكن هذا الحادث من مفاعيل الحرم فهو دون شك من تأثيره . فالله
لا يترك دينه . انه ينجده من وقت الى آخر ليعتبر البشر .

ونام مطمئناً الى هذا الظفر . وقبل أن يغطي رأسه بلحافه قال
للخورية : كيف رأيت « الحرم » يا خورية ؟

فقلت : يحرق بيوت الناس ... وبصوت لا يُسمع : ويروي غليل
الخوري ...

وظل الخوري والناس مشغولين بتعليل هذه الأعجوبة . حتى كان
بعد ظهر السبت ، فقرع الخوري الجرس ، وأقبلت الرعيّة على الاعتراف ،
وفي طليعتهم حنيّنة زوجة بطرس صاحب الدكان .

وبعد أخذ وردّ اعترفت حنيّنة للخوري بأنها هي التي أشعلت النار
في الدكان . فعجب الخوري وصاح : أوه ! أنت حرقت دكانك يا بنتي ؟
هني من يعملها غير المجانين .

فاجابت حنيّنة : أحسن من أن يحترق قلبي وقلبك ... حلّني
يا بونا .



حنا ديب من بيت حطّ عليه الدهر . ولد في عليّة تسامي الكنيسة
وتنظر اليها شزراً . أكل جده ديب حصرم الوجاهة فخرس والده . باع
توته وزيتونه وكرمه وتينه حتى العلية ، ولم يترك لابنه حنا غصناً يقع
عليه الطير . فشبّ حنا واكتهل في قبو جائم على كتف « الوطا » ، تلك
البطحاء الواسعة اللابسة من ورق الزيتون ثوباً لا يبلى . إذا سرّحت فيها

نظرك من قدام قبو حنا تخالها مظللات جيش مرابط في ذلك الغور .
ترتفع بينها شجرات عفص وسنديان وبطم ركبها العريش فبدت كأنها
عذارى دوار في ملاء مذبل . على حفا في هذا المنخفض المنبسط تنوء
الأشجار المثمرة بأعبائها . وفي وسطه طريق عام يربط ثغور لبنان :
صيدا وبيروت وجونية وجبيل ، بقصباته المشهورة : دوما وبشري
واهدن . كان ذلك يوم كان لبنان منيعاً لم تهتك حرمة الوعرة طريق
الدوايب، فقلما خلا ليل من قفل مكارين تلتطف أجراس بغاله وجلجلها
وحشة الدرب .

كثيراً ما كان يسمع الناس عياط المكارين : يا حنا ، ما عندك ماء
نسقيناً ؟ وكان حنا يهتر للسقيا ، على قلة الماء في القرية وبعد البشر عن
قبوه . فكان لا يسمي إلا وجرتته ملانة استعداداً للطواريء ، وهو ابن
بيت أطعم بسخاء ، فكيف لا يسقي ؟ والماء لا يكلفه إلا قليلاً من التعب .
فعند كل غروب شمس كان يرى منتصباً كالبرج فوق أرجاء بئر الدرب
أو بئر الدكان يملأ جرتته « البغالية »^(١) . ثم يحملها بيده اليمنى دون أن
تنطوي قامته الشائخة . وإذا التقى أحداً ، وهو على حاله تلك ، ينبسط
وجهه تجملاً ولكنه لا يتسم ولا يضحك .

ان رؤية بيت دب فيه ثم هجره ابن خمس كانت تؤله جداً . وكيف
يتعامى^(٢) ذلك، والآبار كلها حول الكنيسة أو قريها، وهو محتاج الى الماء؟

(١) الجرة : وعاء من خزف (الفغار) والبغالية منه أكبر حجماً .

(٢) يتعامى : يتجنب ، يتوقى .

لا بد اذا من النظر الى عليّة بيت الكريدي. وتذكر أيام عزه في الطفولة. ومع أن حنّا مسته العضة بالرغيف^(١) ، كان يتجمل ويرى الناس أنه بالف خير شعبان مكفي مثلهم ، بل كان يفوقهم بأنفة يدل عليها شم طبيعي في هيكله المتناسب بدانة وطولا . كان في خده صعر^(٢) لا يستقيم ، وكبرياء موروثة . اذا دخل بيتاً ، ولم تبسط له طرّاحة أو مسند على الأقل ، يظل واقفاً ، ثم يلوذ بعذر وينصرف . عرف الناس هذه الخصلة فيه ، فإذا رغبوا في مسامرتة ، أو كانوا في حاجة الى « شريك » في لعب الورق ، مدّوا له الطرّاحة والمسند ، فيقعد بطل لعبة « الداكا » وتختم السهرة باكل الجوز والتين اليابس والزبيب .

كان لحنّا شاربان معتدلان ، لونها خروبي كجلدة وجهه ، يركزها حين يؤاتيه « الورق » . وإذا خانه الحظّ حكّ نقرة في ذقنه . ومتى غلب يصعد الدم الى وجهه فيسودّ . ثم لا يلبث أن ينقلب الى وكره . فيستقبله كلبه غبار محيياً بذنبه ، مقبلاً بملء شذقيه ، حتى اذا سمع حس انسان أو حيوان وقف على حائط المصيطرة قدّام باب القبو وطفق ينبع ، ولا يزال يهرّ حتى يبتعد الحس أو ينقطع ، فيعود ليقعد حد صاحبه الذي يرت له ظهره مثنياً على نخوته .

كان حنّا يحدث كلبه كأنه بشر ، وكثيراً ما كان الكلب أنوف عفيف ، فيه كثير من أخلاق صاحبه ، لا يطوف على الأبواب كرعاع

(١) مسته العضة بالرغيف : للدلالة على الفقر .

(٢) صعر خده : أماله عن النظر الى الناس تهاوناً وكبراً .

الكلاب. رباه حنا على عزة النفس والأنفة ، فهو لا يتبذل ويلحق بصاحبه في الضيعة . وان كان لا يتركه في البرية ، بل يظل مع ابن خاله الحمار يتداعبان . واذا غاب حنا وحماره ، ينظر غبار القبو ولا يبرحه .

وكان خلاف على الناطور ، فانشقت الضيعة حزبين : حزب يؤيد الناطور السابق ، وحزب لا يريده . فسعى محبو السلامة في فض الخلاف ، فلم يقعوا على شخص يرضى عنه الجميع . فقال الخوري: حنا ، يا أولادي. هذا رجل طيب أمين ، بيته على كتف « الوطا » ولا يملك عريشة ولا زيتونة ، وما قال أحد أنه قطف عنقود عنب ، أو حبة زيتون . ضيعتنا تحتاج الى ناطور أمين ، صاحب ذمة مثل حنا .

وفوتح حنا بذلك فأجاب : الدهر يجور على السلاطين . الحاجة لا تصير ابن ديب الكريدي كلب الضيعة . لا لا لا .

قال حنا هذا ورفع يده بآباء . فوقف كلبه على سلاحه . وازداد حنا حدة ، فهرّ الكلب ، فاضطر حنا أن يبتسم له حتى يسكت .

وبعد مساع عنيفة قبل حنا عصا النظارة وأظهر عبقرية عجيبة . كانت بخلاف النواطير صامتا ، فلا يعرف أحد أين يكون . ان خراج القرية ذو التواءات ، والوطا مشتبك الأشجار ، ولكن صمت حنا ذلل هذه الصعاب كلها وهابه الذين يعبثون بالأرض . أما كلبه غبار ، رفيقه الدائم ، فكان يلزم الصمت حين يأمره حنا بذلك . وكثيرا ما كان يستنبيه فيرسله وراء خروف ضال أو عنزة شاردة ، فيسوقها أمامه ويجيء بها اليه . فيأخذ حنا الضريبة المفروضة له على كل رأس .

وظل حنا في وظيفته هذه عشر سنوات لم يلطخ اسمه بشهادة زور أو سوء أمانة . وفي أيام المواسم حين كان يخشى غزو الثار ، كان لا ينام إلا غراراً . يربط كل ليلة في مخرم فيصون الكروم والاجاص والسفرجل . ولا يستريح باله حتى يتم قطاف الزيتون . وفي ذلك الحين يتبرع له الفلاح الوسط برطلين ثلاثة حلوان^(١) سهره وتعبه . أما الملاك الكبير فلا يعطيه أقل من خمسة . وبعضهم كان يعطيه عشرة .

وفي أحد أيام الشتاء انتصب حنا كالمارد على شرف^(٢) من صخور الكروم ليشمل بنظره خراج مملكته . قلب رأسه صوب كسارة العين ، والفتاح ، والبياضة^(٣) ، فما رأى بهيمة في غير موضعها . فتناول لسطوته التي أمست تغنيه عن اللف والدوران والوقوف بالمرصاد . نعم ، ليس كانون كشر أيلول حين تكون المؤونة على العود ، فاليد في الصيف ممدودة ، ولكن متى كانت الحال هكذا : لا معازة ولا بقارة ، ولا قطع أحراج ؟ أعجبت حنا نفسه كثيراً ، وشكر ربه على هذه النعمة ، ورفع يديه ابتهالاً وحمداً ، فإذا بالصخر يزحل من تحته ، وظلا منحدرين معاً حتى استقرا على شفير النهر .

وكان في الجبل المناوح^(٤) معاز يرعى قطيعه فصاح : راح طعام القرد . الله يسهل ... الله يسهل . استراحت المعازة والبقارة . ولكن

(١) حلوان : جزاء لقاء عمل . (٢) شرف : المكان العالي .

(٣) كسارة العين ، الفتاح ، البياضة : أسماء أمكنة .

(٤) المناوح : المقابل .

حنا نهض وأخذ ينفض ذيل شرواله ، ويمسح يديه المفلوقتين^(١) . ثم طلع في الجبل يفتش عن عصاه وطربوشه المغربي . كان طربوشه عالقا في رأس شجرة زعرور فتسلقها وأخذه . أما عصا الرعاة فلم يجدها . فعاد الى البيت على أمل أن يعود فيفتش عنها في غد .

وما بلغ الرامية ، وهي ساحة عمومية تحت بيته ، حتى خفَّ كلبه غبار الى استقباله ، يصبص بذنبه ، ويرتمي على صاحبه كأنه فرح بنجاته . ونام حنا تلك الليلة ، ولكن أفكاره لم تنم . طفق يحاسب نفسه وقال : خطية من برقتي ؟ والله العظيم ما اتهمت أحدا زورا ، ما حكمت على أحد بتخريب إلا بعد ما رأيته بهذه العين التي يأكلها الدود . فما هو ذنبي إذا حتى وقعت هذه الواقعة ؟

وبعد أخذ وردّ طويلين استخلص من الحادث الجلل أن الله راض عنه ، والبرهان نجاته ، فلو سقط طير سقطته ما سلم . وكان آخر سهم رماه في فضاء التخمين قوله : لو كنت مت كانوا قالوا : مستاهل ، رجل ظالم . أنا ما ظلمت ، ولكنني وقفت الناس عند حدم . نشكر الله . وأيقن البقارة أن حنا لن يغدو الى النظارة كعادته ، فسرحت أنعامهم في الأرض المحمية^(٢) . فإذا به يفاجئهم ويدحرهم الى الأرض البور^(٣) .

(١) المفلوقتين : المشقوقتين .

(٢) الأرض المحمية : أرض الأشجار المثمرة التي يمنع البهائم من دخولها للرعي .

(٣) الأرض البور : أرض الأشجار الحرجية التي تدخلها البهائم للرعي .

وجاء أول السنة المارتيّة التي كانت تؤرّخ بها الدولة العثمانية، فاتفقت كلمة الضيعة على تجديد ولاية حنا ، فظلت عصا النطارة في يده ، وفتش الناس عن مشكلة اخرى تغني حزيتهم .

وفي صباح يوم من أيام الربيع ، استيقظت الضيعة على دقات حزن فلهعوا . ولما علموا أن الميت هو حنا خفّ الجزع . وقع في حفرة قدام بابه لا يزيد علوها على قامة^(١) فانتشل منها ميتاً . وكان الحزن عليه خفيفاً لأنه خاتمة أسرته ، فكاد أن يكون مأتمه صامتاً لولا بناته . أما زوجته فكانت تبكي على مهل . لم يمش أمام جثمانه غير كاهن واحد هو خوري الضيعة ، وكان ترتيله نيتاً لأن لا مسعف له . فحنا كما عرفناه لا يملك مالا فينعى الى قرى عديدة .

مشت القرية كلها في جنازته شاعرة أن رجلاً من الطيبين مات . لم يتفجعوا عليه ولم يبكوه ، ولكنهم قدروا أمانته بصمتهم .

وكان كلبه غبار في عداد المشيعين . يمشي من عمن التابوت كئيباً حزيناً . أثر منظر هذا الكلب الوفي في المؤجرين فكانوا ينظرون اليه باعتبار وتقدير حتى قال أحد ظرفائهم :

— هذا الكلب أحق بالتعزية من زوجة حنا ...

أما الصغار فكانوا يداعبونه ، ولكنه يحدّ ، فيتركونه وشانه . وعاد الناس عند الظهر نافضين أيديهم من تراب الفقيد ، ما عدا

(١) قامة : طول الانسان .

الكلب فإنه نام على التراب المهال على باب القبر . كان يشق عينيه إذا ناداه
من مرّ باسمه ، ثم يغرق في كآبته العميقة .
وعند الصباح رأى الناس التراب منبوشاً ، والكلب قد لفظ أنفاسه
في ما حفر . فجرّوه من المنطقة المكرّسة . وظلّوا عاماً يتحدثون عن
وفاء غبار ويخلقون لموته أسباباً وعللاً .
أما القول الفصل فكان حين فتح باب قبر حنا ، بعد سنة ونصف ،
بوجه ضيف جديد . رأوا أشلاء حنا مبعثرة خارج تابوته ، فعلموا أن
« غبار » مات حزناً وجزعاً على صاحبه إذ لم يستطع إنقاذه .



عرفته يومَ كنتُ في أسكلة جليل . واني لأضحك من نفسي كلما
تذكرتُ كيف تهيّبت صمته وسمته يوم اجتمعت به . عرفته ، أول مرة ،
في سهرة أحد أبناء عمومته ، فرأيتُ عجبا : صدرا عريضا نافرا كالترس ،

ورأساً كالبطيخة كأنه وُدِعَ موقتاً بين كتفيه الناشزتين^(١) ، تندلقُ
تحت ذقنه غدةٌ تخفي رقبته الصغيرة . عينان تبصّان فوق أنفٍ صغير
بالتقياس الى ذلك الوجه المفرطح^(٢) .

راعي صمته فحسبت له حساباً ، وأخذت ألم أطراف حديثي وأزن
كلماتي . أحكي وعيني معلقة بوجهه . أنتظر كلمة من فيه لأعرف زيادته
أو نقصه كما علمني العم زهير . ولكن ابراهيم لا يتكلم .

وانصرفنا وصاحبنا ما فرط بشيء من وقاره . فقلت لرفيقي في
طريقنا الى البيت : حقاً ، الصمتُ زينٌ .

فقال : تعني صمت الشيخ ابراهيم ؟ هذا رجل مجنون عاقل .
قلت : مجنون عاقل ؟ ! هذا فوق علمي ، فسر ، حفظ الله عقلي
وعقلك .

فاجاب : تقول الناس انه مجنون ، ويقول هو : الناس مجانين ، لا
يفهمون عنه . يتحدث غالباً كالمجانين ، وأحياناً كالعقال ...

فقلت لرفيقي : شوّقتني الى حديثه . فقال : ان نطق أبو الهول
تسمع من القصص والأحاديث ما يموتك شهراً .

ونمت تلك الليلة وخيال ابراهيم يطوف حول سريري . وما أصبحت
حتى كنت عنده ، فوجدته منهمكاً في حساباته ، منكباً على دفتر طويل
مرقم ، كتب في صفحته الأولى :

(١) الناشز : ما كان ناتئاً مرتفعاً عن مكانه .

(٢) المفرطح : المنبسط ، المريض .

عند السلطان عبد الحميد مليون ونصف ليرة .

عند الامبراطور غليوم خمسة ملايين .

عند المسيو لوبه مليونان .

عند قيصر روسيا سبعة ملايين .

عند والي بيروت ٣٠٠ ألف ليرة .

وهناك أرقام غير هذه ، لا تعد ولا تحصى ، لم يسعها دفتر ابراهيم ، فاستعان بحيطان بيته . كان كلما سمع باسم ملك أو عظيم نزل اسمه في سجله وحيطانه .

حدثني ابراهيم عن علاقته المالية مع بيت روتشلد حديث واثق جاد . قال : انها بلغت المئة من الملايين . الجماعة أمناء ، ولكن حلاوة المعاملة أخذ وعطاء .

فقلت له : دين أهل بلدك . الغريب يتعبك .

فتنفس كالقنفذ وحملق . فالتفت لأرى أين أنا من الباب ، ولكن ضحكة بلهاء أطلت على أثر ذاك الهيجان أمنتني ، ولا سيما حين قال : أنا مجنون !؟ من يدين مجاني ؟ أنا أدين مئة ليرة ومائتين ؟ أنا لا ألعب بهذه المبالغ الصغيرة . البارحة سلمت البنك العثماني عشرين مليوناً . كنت أدين مبالغ صغيرة ، ولكنني صرفت الكتاب واسترحت من بلادهم . نوم للظهر ، طق حنك في المكاتب ، شرب قهوة وتدخين . خربوا بيت الشيخ ابراهيم . الله يخرب عمرهم .

ورأى من شبّاكه المثل على الطريق غنماً يسوق قطعاً صوب

بيروت ، فنهض وقال : استأذن . هذا القطيع لي . لي جمعة منتظر . لا بد من مرافقته الى نهر ابراهيم ...
فقلت : أرافقك اذا أمرت .

فضحك وقال : هذا كلام من يعرف قيمة البشر . تفضل . أهلاً وسهلاً . نشكر الله ، حظينا بواحد عاقل . أهل بلدنا كلهم مجانين ، يضحكون عليّ لأنني أرافق غنمي الى قرب النهر . بحياتك قل لي من يسبب زرقه ؟

وبعد أن قطعنا ميلاً قلت له : رعيانك أمناء ، والشمس على الغياب ، فما قولك في رجعتنا ؟

فقال : لا بأس . عدت الغنم ثلاثمائة رأس . أنا في التجارة اسلم تسليم أعمى .

وبعد أن زود الرعاة بنصائحه الثمينة وودّعهم ، قال لي : معك سيكارة ؟ قلت : نعم . لا تواخذني يا شيخ ، ظننت أنك لا تدخن .

فقال : ظنك في محله ، ولكن أحياناً يضيق صدري . أنا مهموم : أنت مهموم ! الملوك والسلاطين مديونة لك ويضيق صدرك ؟ ايش خليت للفقراء والمساكين يا شيخ ابراهيم ؟

فهمهم وغغم ، فقلت له : لا بد لك من حرمة . تزوج تنفرج همومك .

فقهقه ، وألقى على كتفي يداً كالمهدة ، فسمّرني على قارعة الطريق ، وقال : طفت الدنيا وما لقيت واحدة ملائمة . انت تعرف بنات البلد .

عاشرتنا أربع خمس سنين . اسمع اعدّ لك ، وكذبني اذا قدرت .
أسمى قامتها طويلة ، طلعة مثل البدر ، تلمينة الراهبات ، تفهم من
الإشارة ، ولكن يا حينها لولا عينها ! شرسة ، كلامها نبر مثل رشق
الحجارة .

ومَيّ بنت أصل ، جمال ومال . أنا صاحب ملايين ، ومها زاد الخير
نفع . ولكنها متكبرة تحتقر البشر . نظرت بعينك كيف سلمتُ بتواضع
على الرعيان وسألتهم عن أحوالهم . اذا أنا ما حاستهم وجاملتهم
يسرقوني ... وواحدة مثلها لا تطيق الراعي يخش البيت .

وسلمى دينها ومعبودها دفاتر الموض الجديدة ، تسأل مأمور البوسطة
عنها كل يوم . حديثها وشغلها البيزيك والباصرة . وأنا مشغول مع
المديونين وكلهم ملوك وسلاطين .

وجوزفين حلوة جداً ، ولكنها تقامر . بطيّر التركة إذا استولت
عليها بعدي .

— العمر الطويل يا شيخ براهيم .

— وعمرك يطول . تدكّ يرا ووسكي حتى تنتفخ . فما رأيك بيت
صاحب ملايين مثلي يصير قهوة للرائح والجاني ؟

وحلق بي وقال : ربما قلت لي خذُ سنيه . آه من سنيه ! كنتُ
فكرتُ فيها ، ولكن نفرتُ منها بعد ما سمعتها تسبّ اخوتها ، وتلعن
أمها ، وتظل معبسة بوجه أهل بيتها ، مع انها تبسم لعابر الطريق .
لا شك انها تعاملني كاهلها متى رفعنا الكلفة .

ومرثا كسلانة لا تفيق إلا قرب الظهر ، ثم تمضي النهار بين غسل وجه ، وضفر شعر ، ونتف حواجب . الشغل عندها عيب . إذا عملت فنجان قهوة تدمرت وقالت : تقبر القهوة ما أثقل دمها ! بحياتك خبرني أين تصير الملايين إذا تزوجت واحدة مثلها؟ أكثر المديونين عدوهم الدفع . ومن يقيم دعوى على سلطان وامبراطور ، قل لي !

— لماذا دينتكم ؟

— دينتكم يا سيدي ، علقنا . سماع أكف لك . وبهية زرتها فقعدنا على كرسي نخل عليه شبر غبار . بيتها منبوش مثل شعرها ، شعر جنينة ! ثياب موسخة ، فما يصير بحال الشيخ براهين إذا أخذناها ؟ انظر ترتيب ثيابي ونظافتي ... كيف ... هكذا يكون صاحب الملايين .

وهيلانة لسانها مثل المبرد . شغلها الحكي في قفا الناس . رفيقاتها عدواتها ، حمارة متفلسفة . قالت : ابراهيم من يأخذه ؟ نسيت المجنونة أن ابراهيم تلميذ عينطورة . يحكي الفرنساوي مثل البلبل . نس يا موسيو ؟ بارول دونور جاتيه له برمييه دان ما كلاس . جميلة هيلين لو ما تكون مدعية متعجرفة .

وسعدى وقحة ، متفرنجة ، لا تتطق إلا بالسب واللعنات . تصرف فوق طاقة أهلها . تضرب الخادمة كما تضرب الحيوان . هني من يقاربها يا شيخ ؟

قلت : لا أحد .

فقال : اذا ، الحق معي .

قلت : معلوم ، مؤكد . اما ...

فانتفض وقال : بلا أمّا ، وبلا مما . سماع ما كفيّت بعد : وليلى
جاهلة ومن يقنمها أنها جاهلة؟ كل دخل اخوتها لا يكفيها ثمن بودة وحمرة .
وجيلة لا تعرف شيئاً من أمور البيت ، غريبة عن اورشليم ، تستعين
ببنات الجيران على تفصيل قميص ، وترقيع صديرية . وإذا كانت لا تحسن
تدير نفسها فكيف تدير بيت صاحب ملايين ؟

وأخيراً تنهد تنهيدة بكرة وقال : ما بقي إلا المحروسة ، عرفت
طبعاً . آه ! هذي كانت موافقة جداً ، ولكنها تكبرت علينا . عرفت
أني أحبها من كل قلبي فتدلت . قالوا لي انها جنّت . مسكينة ! تمر أغلب
الأحيان على الطريق فينسلخ لها قلبي . صارت تهرب من الناس . ما
صدقت حتى رأيت بعيني .

والتفت فرآها ، فقال لي : أنظر ، هذي هي . تأمل كيف مالت عن
الدرب . حقيقة ان الانسان متى فقد عقله صار كلاً شياً .

فقلت : والديون ، يا ابراهيم ، متى تحصلها ؟

فقال : أمس طالبت السلطان عبد الحميد مطالبة مرّة . خوفوني من
حالته المالية . يفرجها الله يا شيخ . ملايين كثيرة .

وكان في الاسكلة مجنونة اسمها حلا يشتدّ جنونها على الهلة^(١) ،
فقال لي ابراهيم : سماع صريخها ، هذي حلا . مسكينة ! جننها واحد

(١) الهلة : أي كلما هل القمر .

اسمه مرقص . يا حلا ، سدي بوزك ، خمنتِ أنك وحدك مجنونه ؟
وهم بالعود إلى حديث النساء فإذا بأربعين خمسين رأساً من البقر
تساق صوب بيروت ، فقال : هني البقر لي .

ووقف يحدث أصحابها ، ويوصيهم بالصبر على البيع ليحصلوا على
أحسن الأسعار : توقوا أولاد الحرام . خذوا ، خذوا ، هني توصية لوالي
بيروت خليل بك . كتبت له أن يعطيكم عشرة آلاف ليرة . قيّدوها على
الحساب .

ونظرت لأرى كيف يكون كتاب التوصية عنده ، فإذا به لم
يعطهم شيئاً .

— اشتروا البضاعة اللازمة لحمص وحماة . برجوعكم نحاسبكم ،
ونكرمكم ...

والتفت اليّ وقال : في الحركة بركة .

وارتعد ابراهيم فجأة فروّعني . اهتز عضواً عضواً كن ركبتك الحمى
النافضة . وكان يصحب تلك الرجفة اهتزازات كاللوسيقى الموقعة ،
ولدها اصطكاك أسنانه وهممته . فتركته وفررت خائفاً مذعوراً . وما
ابتعدت عنه قليلاً حتى انقطع ذلك الايقاع . فالتفت فرأيت مهرولاً
ليلحق بأبقاره .



على باب الله !

رؤوس شهوركم وأعيادكم كرهتها نفسي ،
وإن أكثرتم من الصلاة فلا أسمع لكم .
لشميا

رأيتهم ليلة عيد الميلاد .

ثالث غريب الزي والوجه واللسان : أب صديق يحبو الى الحمسين ،
وأم فتية لا ترفع بصرها حياء وخفراً ، وصبي فيه من الحسن كل معنى
طريف .

تخير البؤس في وجوههم ثلاثتهم ، وفاحت رائحة الفقر من أردانهم .
يمشون كمن لا عهد له بهذه الأرض ، فكانهم رجال الكهف قد بعثوا .
أبصرتهم عند خمسة أبواب ، وقواروا عني في ثلاثة ، ثم ما عدت
رأيتهم .

نظرت هذه العائلة عند بوابة دير يعدّ رهبانه فطور الميلاد، فاللحوم
تعذب على النار ، ورائحة قنارها تفتح لهي المكثوظين^(١) . أما عن
الخمر المعتقة فلا تسل ، فاصغرهن سناً تذكر حكم الأمير بشير ، تتلألاً
في الأبريق البلورية وقد اشتعل رأسها شيباً . والديوك تنقف أعناقها
انتقاماً من « جدّها » ديك بطرس الجاهد . والفواكه تنقى وتصفف .

هناك بباب ذاك الدير سمعت هذه العائلة البائسة تطلب خبزاً باسم
من قال : وكنت جوعاناً فاطعمتوني . ثم رأيتها تصرف خاص^(٢) البطون .
اشتبه الصبي ليمونة فمدّ إليها يده فانتزعت منه وفركت أذنه ...

وعند باب دير آخر سمعت الام تطلب من الراهبة قيصاً عتيقاً لولدها
المقرور ، ولزوجها الحافي حذاء مرقعاً ، ولها فسطاناً كيف كان ، فردّت
الراهبة في وجهها الباب ، ولولا لطف الله لهرس^(٣) أصابع الصبي .

وعلى باب قصر سيدة مترفة لمحت الام تعرض ولدها خادماً باللقمة ،
ثم لا تستجاب طلبتها . وتؤتى تلك السيدة يجرو كلب فتشبعه ضمّاً وشماً

(١) المكثوظ : الممتلئ من الطعام .

(٢) خاص : ضامر البطن من الجوع .

(٣) هرس : دقه دقاً عنيفاً .

وتقبيلًا، ولا تستحي . تطعمه أشكالًا وألوانًا من الطعام والحلواء، و«ابن
الانسان» يبابها يأكل بعينه ما لا يشتهي ابن الكلب ، ثم لا يُجاد عليه به .
وعن باب «قيصر» شاهدت صاحب اذنه يطردها ويدفعها الى
الشرطي . ليتهم سجنوها فاستراحت !

ورأيتها أمام بيت «قيافا» تضحك بملء فيها، كأن ما فيه من أصباغ
والوان وتماثيل أنساها بؤسها . ثم خشن الصبي الوديع وجذب ذيل أمه
صارخًا : أماه ! لا نريد قوتًا من هنا فخبزهم مرَّ .
وفي نصف الليل مرَّت «العائلة» أمام باب الكنيسة ، وبعد تردد
دخلتها ...

ها هي بين المعبدتين تحدّق الى المغارة مستغربة ... ولما خطر رئيس
الكنهنة بطيلسانه وتاجه وصولجانه، دهش الصبي وترعزع . وتعالى الغناء :
المجد لله في العلا وعلى الأرض السلام . فقطب وعبس كأنما عاودته ذكرى
قديمة . ولما خشخت الفلوس : وتعالى صراخها على «الصينية» الفضية،
هتف الصبي : بيتي بيت الصلاة يدعى ... وهجم على الطبق ، فضربه
الشرطي وطرده ، لأن السوط لم يكن معه فيعرفوه به ، كما عرفناه عند
كسر الخبز .

وبعد القداس صادفتها تطوف في المدينة . طلبت مأوى وقوتًا
فأعياها . واستجارت برواق^(١) الهيكل من الليل المطير^(٢) فقلّعوها .

(١) الرواق : سقف في مقدم البيت أو مكساء مرسل على مقدم البيت من
أعلاه الى الأرض . (٢) المطير : المنتشر .

فتاهت في المدينة . وما انفكت سائرة حتى تجاوزتها نافضة غبارها عن أرجلها .

انتهت الى قرية ما دخلها الملوك فافسدوها . كان فقراء الضيعة ساهرين ، على عاداتهم ، يهجمون بملكوت الله ، يتذكرون حكاية الميلاد في الماضي السحيق ، فرحبوا بالعائلة البائسة ورثوا لحالها . أدخلوها بيتاً قزماً ، وأضرموا النار حتى تلاقت سماء البيت واللهب . ثم مدّوا لضيوفهم سفرة من « حواضر »^(١) البيت القروي .

أثر منظر الصبي بإحدى النساء فاهتزت للكرم وهرولت الى بيتها . ثم رجعت ومعها بيضة ، هي البيضة الوحيدة في القرية ، خبأتها أم يوسف لمثل هذه الساعة العصيبة .

وعظمت غبطة القرويين بضيوفهم الثلاثة : أما رجحوا أجراً ليلة العيد ؟ أما أطعموا فقيراً وقبلوه باسم يسوع ؟ وتعالى الدعاء لأم يوسف من جميع قراني^(٢) البيت . قد بيّضت وجه الضيعة ، فمن عنده بيض في كانون غير أم يوسف الدهرية ؟ وعمل الخيال عمله فرأت الضيعة في ضيوفها رمز « العائلة المقدسة » فاقسموها بينهم . أنامت أم يوسف الصبي مع أولادها ، ونامت المرأة عند امرأة أخرى ، ونام الأب في بيت ثالث .

(١) حواضر البيت : ما يخزن في البيت من المأكولات دون الاستعانة من خارجه .

(٢) قراني : زوايا .

ونما ايمانهم بما رأوا فصار يقيناً ، فأشرع شيخ صديق يخبر القرية بما رأى ، فتحامل الكاهن المعجوز على نفسه وجاء . لشدة ما دهش الناس إذ لم يروا أحداً ، إلا ورقة تحت المائدة حيث كان الصبي نائماً ، وقد كتب عليها : جاء الى خاصته وخاصته لم تقبله ...

فلما قرأها الخوري سمعان صك وجهه وقال : ما كان أسعد سمعان الشيخ ! وما أتعسك يا خوري سمعان ! وأجهش ، ثم شرع يبكي كالطفل . وطار الخبر الى المدينة مع الصبح . كتب الخوري سمعان الى رئيسه الروحي بما وقع في قريته ، فاستهزأ وغضب . دعا اليه أحد خوارثته وأمره أن يكذب الخبر في قداس الساعة العاشرة ، فامثل الكاهن وقال للشعب بعد تلاوة الانجيل :
أيها الأبناء الأعزاء .

بلغت مسامع راعينا الصالح الكلي الاحترام تلك الاشاعة المضحكة التي جاءتنا اليوم ، صباح هذا العيد المبارك ، من قرية بطباب ، فالصبي الوقح الذي تجاسر ومد يده الى « الصينية » في قداس نصف الليل ستؤدبه حكومتنا الجليلة ، أيدها الله ، متى قبضت عليه . هي جادة خلفه ، ولكتني ، على قصر معرفتي ، أرجح بلؤكد أن غضب ربنا حل عليه فانشتت الأرض وبلعته مع أبيه وامه .

يا اخوتي المباركين ، ان سيدنا يسوع المسيح ، له المجد ، لا يظهر بهذا الشكل الزري^(١) ، بل يأتي ببهاء ومجد عظيمين ليدن الأحياء والأموات .

(١) الزري : الذم ، المهتر الذي لا يعد شيئاً .

هكذا قالت الرسل .

نحن منتظرون ، أيها الاخوة الاحباء ، أن نلقى ربنا في السحب ،
كما يقول مار بولس الرسول . فلا تخافوا من هذه الأخبار والأراجيف^(١)
ولا تصدقوها .

ان ربنا قال لنا من فيه القدوس : أنا معكم الى منتهى الأجيال .
أما « جدنا » الخوري سمعان النبي روج هذا الخبر وصدقه من كل
عقله ، فهو ، كما تعرفون ، صار « اختيار » ، الله يساعده ويساعدنا عليه
وعلى أخباره ...

فضحك فريق ، وتنهد آخر .
ومضى الخوري يتم قداسه . ثم لم الصينية كالعادة ، ولم يحدث شيء ...

(١) الأراجيف : الأخبار المختلفة الكاذبة السيئة .

القهرمست

الرقم الأول	الرقم الأول	الرقم الأول
كتب المؤلف	٥	استسقاء
كلمة الناشر	٧	مار عبدا والمطران
بابا فويل	١١	حقاً قام ولكن بلا صيام
الأرملة مارينا	٢٨	عين كفاح
ركبوه العجل	٤٦	عيد الصليب من عين كفاح
وعظة أبونا اسطفان	٥٦	مجلس القرية يلوم الحكومة
طبيب امرأته	٦٨	رسالة الى الدباس
البهائم تفكر في مصيرها	٨١	وداع الرئيس حبيب باشا
قصصي واخباري		بناسبة الدستور والاستقلال
مدارس الأمس ومدارس اليوم	٩٣	عن المونوبول والفلاء
كيف تعلمنا	١٠١	رسالة شقت طريقاً وبنت جسراً
اولى معارك الأدبية	١٠٨	جيناً للضيعة جيناً
سنتان في مدرسة الحكمة	١١٦	حكاية الماء
مباحية	١٣١	روداج
		مذكرات شباط

٤٦٢	مغرور		القسم الثاني
٤٧٠	قاطع طريق		
٤٧٩	من مشاكل القرية	٢٤٥	دايم دايم
٤٨٦	المسيح حقاً قام	٢٦١	معلم
٥٠١	أبو القنبار	٢٧٠	جبور بك
٥٠٨	حديث خرافة	٢٨٨	معار الضيعة
٥١٥	ابن عزرائيل	٢٩٨	الناس
٥٢٢	ميكل	٣٠٧	جان أفندي
٥٣٠	ابراهيم القصصي	٣١٦	ام لطوف
٥٣٦	السلام	٣٢٤	وجه غريب
٥٤٤	حزبية بلهاء	٣٣١	موعظة القيامة
٥٥١	مرفع	٣٤٧	لص جواد
٥٥٨	مرشد الاخوية	٣٥٢	ام نخول
٥٦٥	مأتم قروي	٣٧٢	صلاة نائب
٥٧٤	حظ ونصيب	٣٨١	وعظة وديك
٥٨٢	السلامة غنيمة	٣٨٩	وجه مقيت
٥٩٠	حردان	٣٩٨	مهاجرة
٥٩٨	دكان الضيعة	٤١٧	نفخ نفخ
٦٠٧	الناطور		القسم الثالث
٦١٥	الجنون فنون	٤٣٣	حجارة الضيعة
٦٢٣	على باب الله	٤٤١	لا يا بونا
		٤٥٣	ميلاد

